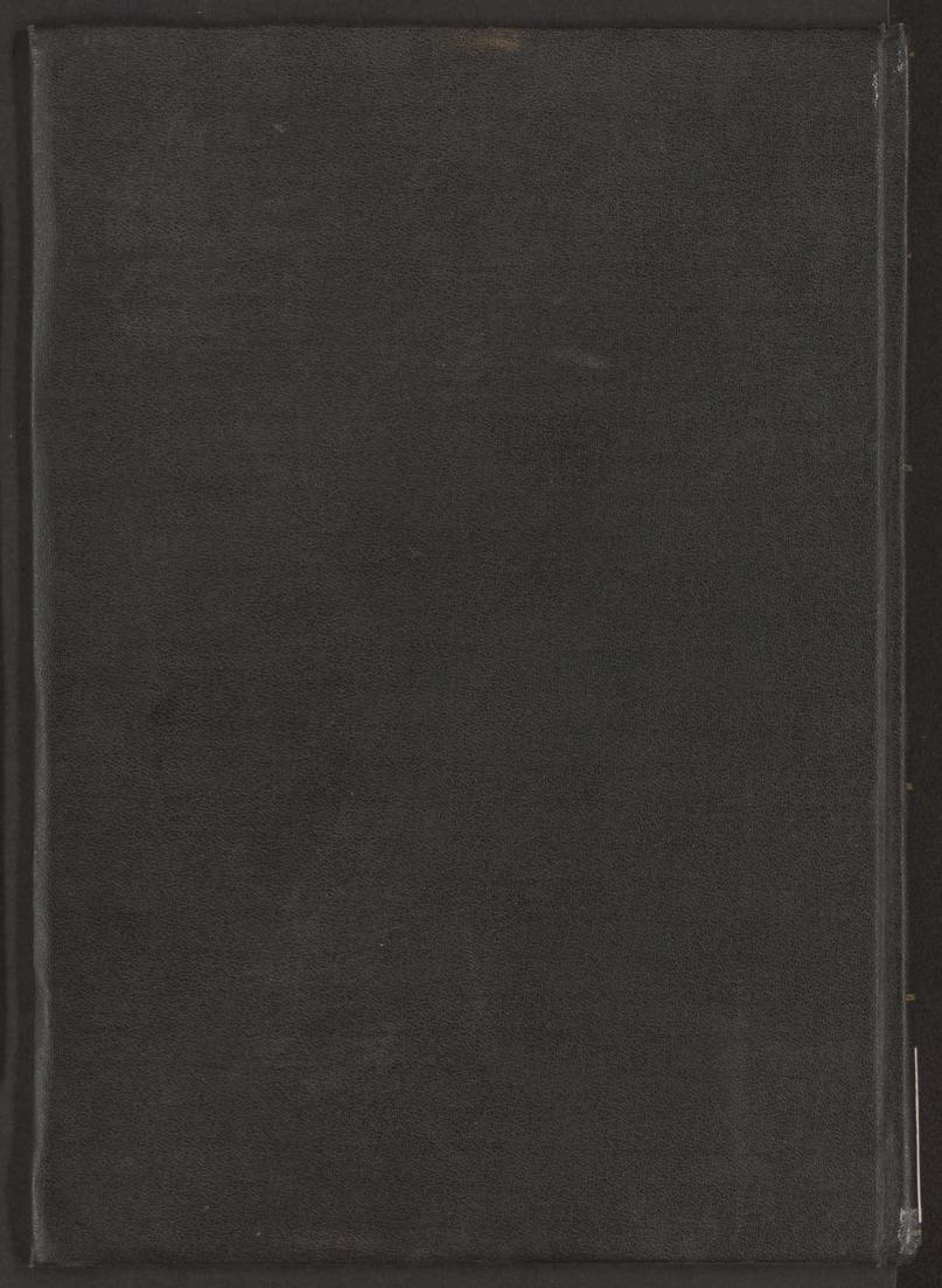
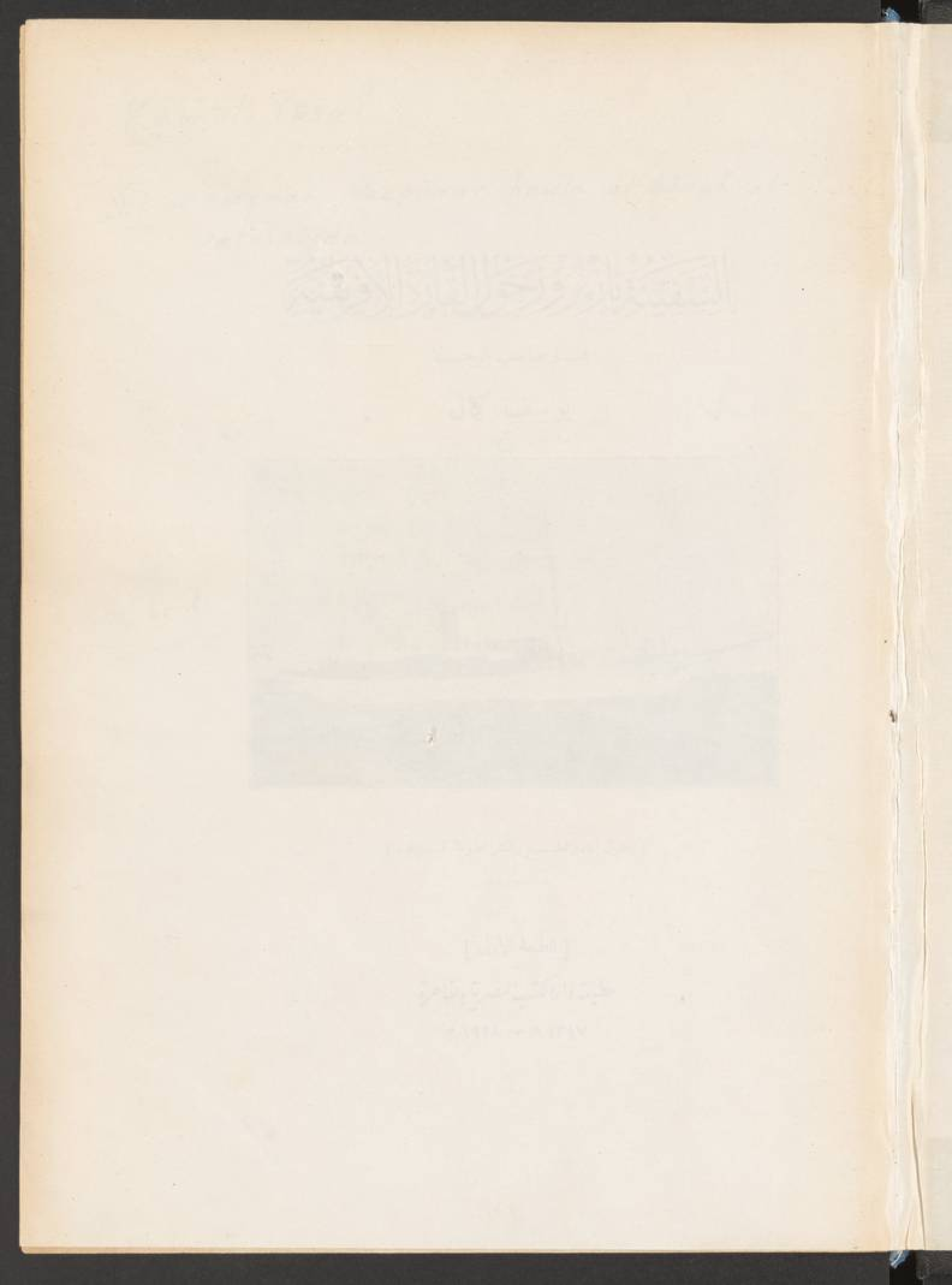
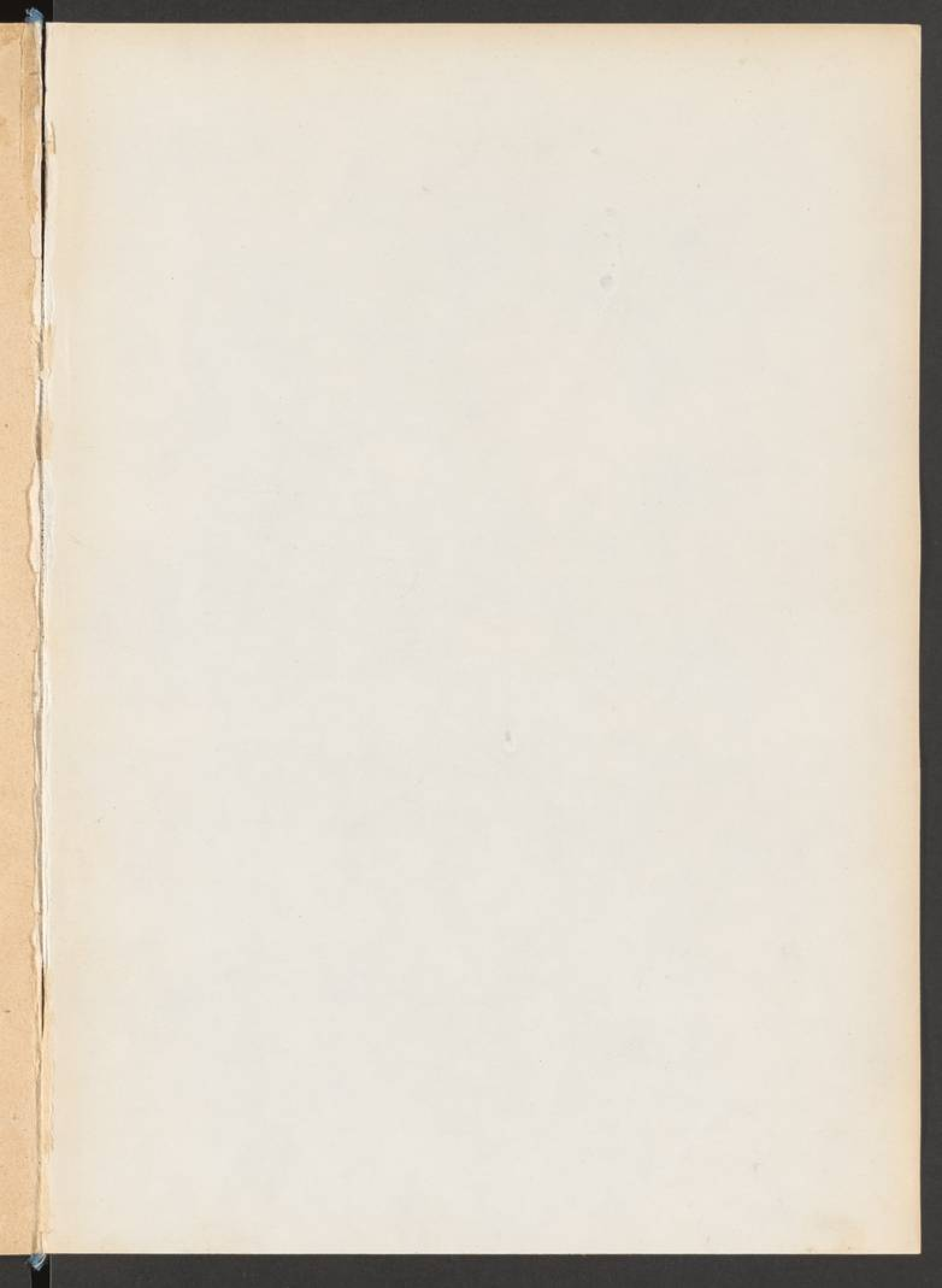






بالسفينة نازپرور حول القارة الأفريقية

بقلم صاحب الرحلة

يوسف كمال

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨ م

٥

إهداء الكتاب

لذكرى والدتي

أماه!

ما أسميتُ سفينتي باسمك مؤمِّلا بها ما لقيته منك من العطف والحنان بل لتذكرني حين تتلاطم بها الأمواج وتُحدِق بها الأخطار بحنان قلبك عليَّ يوم كان المهد سفينتي وربّانها يدك. وليس في وسعي اليوم إلا طلب الرحمة لك من ربك،

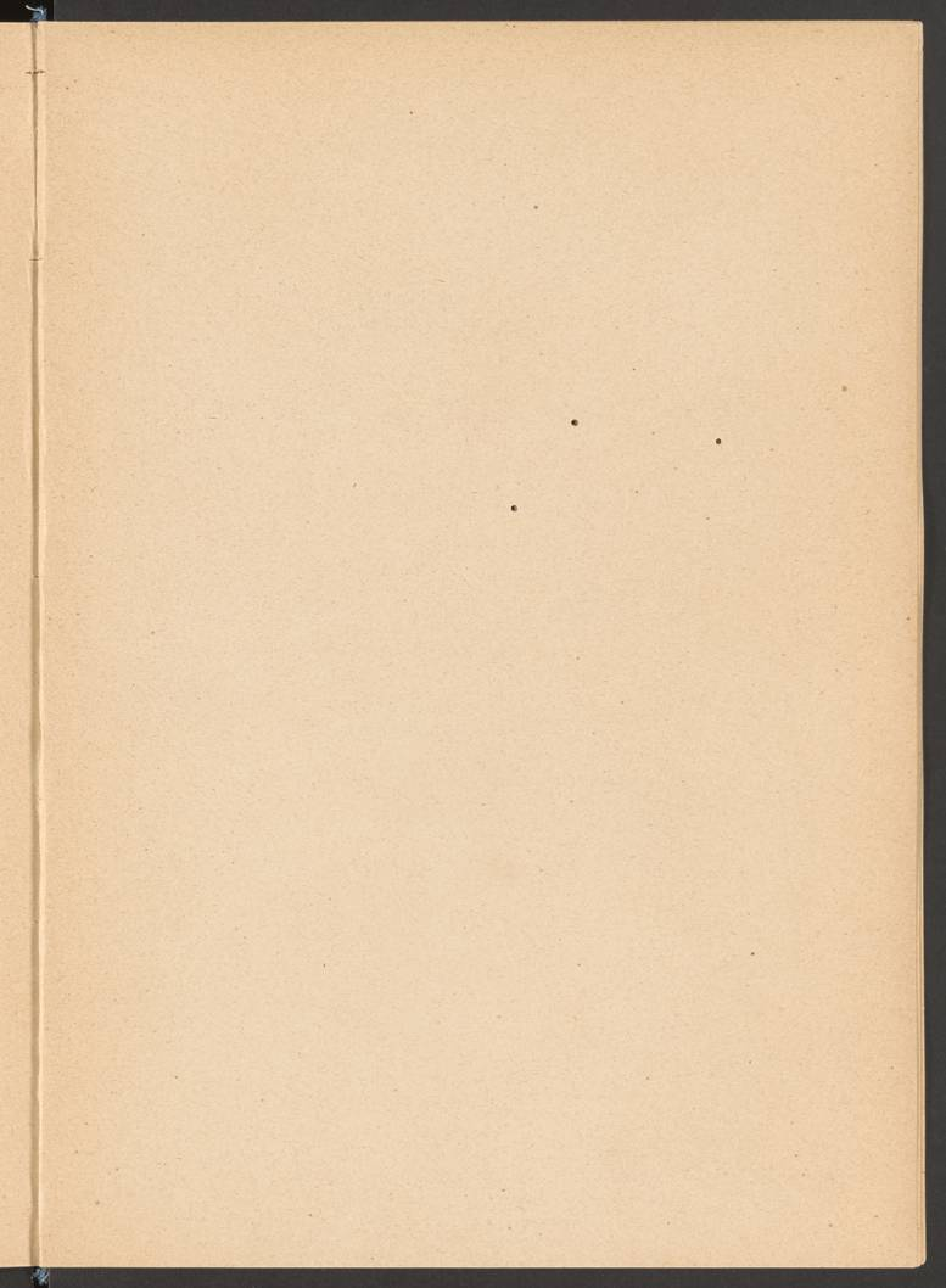
يوسف كمال

الجزء الأول

بلاد الصُّومال ومستعمرة كِينْيا البريطانية

ملاحظـــة

كلما استدعت الضرورة التحقق من أسماء الأماكن والبقاع سواء أكان فى العهد القـديم أم الحديث راجع المجموعة الكمالية فى جغرافيـة مصر والقارة الإفريقيـة لصاحب هذه الرحلة .



فهـــرس الكتاب

الجزء الأول

الرحلة الى إفريقية الشرقية

سنة ١٣٤٣ هجرية (سنة ١٩٢٤ – ١٩٢٥ ميلادية)

زايلت المطرية "من ضاحيــة القاهرة" فى السـيارة بعد ظهر ١٨ ديسـمبر سنة ١٩٢٤ قاصدا الى ثغر السويس عن طريق الصحراء القديم . وكانت سفينتى "نازپرور" قد سبقتنى اليه ورست فى مياهه، فما وصلتُ اليـه حتى نزلت فيها وقضيت بها ليلة التاسع عشر من ذلك الشهر .

وما بزغت شمس ذلك اليوم حتى وصـل رفقائى، وهم : صاحب المجد النبيل عباس حليم وكل من طبيبي الخاص فى هذه الرحلة الدكتور رايلى وعلى شريف بك. وما انقضت الساعة الأولى من النهار حتى وصـلوا الى ظهر السفينة فقضينا الليـلة التالية فيها نقطع حبل الوقت فى أحاديث تتعلق برحلتنا .

ولما كنّا بخليج السويس فنقدّم للقارئ كلمة عن ذلك الخليج وعن ثغر السويس، معتمدين فى سردها على المذكرة الجمّة الفوائد التى دوّنها يراعة البحاثة المسيو غاستون جوندى (Gaston Gondet)، وعلى المحاضرة الطليّة التى ألقاها بالجمعية الجغرافيـة المصرية عام ١٩١٩ فى بيان أحوال ثغر السويس قديما وحديثا، وعلى أبحاث بعض المحققين الذين ستعرض أسماؤهم فى سياق الحديث .

قال المسيو غاستون جوندى فى الباب الأول من مذكرته تحت عنوان "العصر القديم" :

يرجع تأسيس مدينة السويس الى القرن الخامس عشر من الميلاد . وقد أسست لتحلّ فى ذلك الوقت محل ثغرى هيروبوليس وأرسينوة القديمين اللذين طمرتهما رمال برزخ السويس ، ولتقوم مقام ثغر القَلْزَم القديم الذى اندثرت معالمه وعفَّتْ آثاره من صحيفة الوجود . وتواريخ هذه الثغور الأربعة ، السويس وهيروبوليس وأرسينوة والقلزم ، تسترعى السمع بما تثيره من الذكرى ، ولكنها ليست فى الواقع سوى تاريخ واحد نقتصر منه فى هذا المقام على أهم الحوادث المستخرجة من البُحوث التى قام بها العلماء والمحققون فى تاريخ الوجه البحرى و برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء وجغرافيتها . فانه غير خافٍ أن خليج السويس لم يتشكل بشكله الحاضر إلا بعد أن مر بأطوار كثيرة متعاقبة لم نقف من سلسلة تعاقبها إلا على ما وقع منها منذ أوائل العصور التاريخية .

ففى العصور الفرعونية كان الخليج داخلا فى الأرض اليابسة الى مسافات بعيدة جدا تقف عند نقطة متساوية البعد تقريبا عن البحر المتوسط والبحر الأحمر ، أى عند نقطة واقعة شمالى بحيرة التمساح وحوالى جهتى أبى بلح والسبع الآبار . ثم أخذت الرمال ، التى كانت تدفعها الأمواج المائجة من البحر الأحمر بقوة الرياح الجنوبية ، تملأ ماكان من جهات البرزخ ذا منعطفات ضيقة أو مرتفعة وتردمها ردما . فكان الطرف الأعلى من الخليج ، وقد تكوّن بتراكم تلك الرمال وصار أرضا يابسة ، يهبط نحو الجنوب على مر الزمان وتعاقب الأيام . ومازال كذلك فى هبوطه وتقدمه نحو الجنوب حتى تألفت من جرائه مرتفعات من الأرض كان أولها العتبة أو المرتفع المعروف الآن باسم عتبة الجسر (Atabet el Gisr) شمالى بحيرة التمساح ،

ثم المرتفع المعروف باسم سرابيوم (Serapeum) بين بحيرة التمساح والبحيرة المرّة الكبيرة، ثم المرتفع المعروف باسم الشلوف (Shalûf) بين البحيرة المرّة الصغرى وخليج السويس . وبقيت بين هذه المرتفعات مضايق لم تلبث ان انسدّت وانطمرت بما كانت رياح الصحراء تَسْفيه عليها من الرمال الكثيرة الناعمة ؛ فلم يبق من معالم الخليج القديم سوى البحيرة المرّة و بحيرة التمساح . تلك فى مجموعها هى الأطوار التى تقلَّبَ الخليج فيها ، فبعد أن كان مستطيلا حَسَرَ عنه البحر فصار الآن أقصر منه قبلا .

ولقد لخص البحاثة ريمون ولّ ، بأسلوب جزل وطريقة دقيقة، تاريخ هذه الأطوار فى مذكرة له أسماها (شبه جزيرة سيناء) نقتبس منها ما يأتى : «لم تكن السويس فى كل العصور الثغر الذى ينتهى عنده خليج السويس ، لأن البحر كان فى العصور السابقة داخلا كثيرا فى الأراضى المنخفضة من البرزخ . والذى عليه عامة جغرافيى العصر القديم من أغاثرشيد وأرتيميدور اللذين كانا من علماء القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد أخذ عنهما كل من ديودورس الصقلّى واسترابون، الى پليناس وبطليموس من علماء القرن الثانى بعده، أن الخليج كان اسمه الخليج الهيروپوليتى نسبة الى مدينة هيروپوليس التى كانت على أيام الفراعنة قائمة فى النهاية القصوى من الخليج ، ولا تزال آثارها الدائرة مشهودة ببطن الصحراء فى وادى طوميلات . وكان على بعدين متساويين من البحر الأحمر الحالى والبحر المتوسط . ومما لا شك فيه أن هذا الثغر القديم كان عامرا فى أيام الدولة الطيبية ؛ وكان الوصول اليه من داخلية القطر ميسورا بواسطة ترعة تؤدّى اليه . وقد توافرت بها فى ذلك العهد وسائط الاتصال بين مياه النيل فى الدلتا وبين البحر الأحمر من طريق وادى طوميلات (Wady Tumilat) .

أما تاريخ شق هذه الترعة فقد انسدل عليه ستار من ظلمات الروايات الخيالية وأساطير الأولين . ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها هى أنه قد أعيد حفرها أو رممت مرارا كثيرة احتفاظا بصلاحيتها للملاحة ولا سيما فى عهد كل من نيخاؤوس فرعون مصر وداريوس ملك العجم اللذين أقيمت لتخليد ذكراهما آثار جليلة ومبان كثيرة على الضفة الغربية للخليج فيما يلى موقع البحيرات المرة الحالية وفى أماكن قريبة من السويس، ونُقِشَتْ بالكتابات الهيروغليفية والمسمارية (Cunéiformes) . وجاء فى التاريخ ذكر الأشغال التى قام بطليموس فيلادلفوس بها بعد التى أنجزها داريوس ملك العجم . ومن الحقائق المؤكدة أن بطليموس صرف عنايته الى نواحى البحر الأحمر اذ استعاض عن ثغر هيروپوليس الذى كانت طمرتهُ الرمال بثغر جديد أطلق عليه اسم أرسينوة بعد أن خططه فى بقعة تبعد عن مكان الثغر المطمور الداثر بعشرين كيلومترا فى الاتجاه الجنوبى الشرقى منه ، وكانت لا تزال مغمورة بمياه البحر ، ثم مدّ اليها قناة المياه العذبة بقدر هذه المسافة بعد أن جدّدها أو أصلح من شأنها .

أما لينان دى بلفون، وهو من الثقات فى الأشغال العامة التى أنجزت بالقطر المصرى قديما وحديثا، فقد وصف بقعة هيروپوليس فى الأسطر الآتية (راجع كتابه المعنون — مذكرات فى الأشغال الكبرى العامة المنفعة التى أنجزت بالقطر المصرى منذ أقدم العصور التاريخية الى اليوم — المطبوع بباريس سنة ١٨٧٢) حيث قال: «يؤخذ من أقوال فلاڤيوس يوسيفوس أنه لما حضر يعقوب من أرض كنعان الى مصر التقى بابنه يوسف فى مدينة هيروپوليس، وكان ذلك قبل المسيح بألف وسبعمائة عام وستة أعوام . ومع أن مدينة هيروپوليس لم يرد لها ذكر فى النص العبرى للتوراة لمثل المناسبة التى ساقها فلاڤيوس يوسيفوس فان ذلك لم يمنع ورود ذكرها

فى رواية السبعين[1] التى يؤخذ منها أن تلك المدينة كانت واقعة فى أرض جاسان (Gesehen أو Gessen) . ومما لا يقبل الاحتمال أن يكون هؤلاء السبعون، و إلمامهم التام باللغتين اليونانية والعبرية لم يكن فى وقت ما موضعا للشك أو الخلاف ، قد أخطأوا فى الترجمة ذلك الخطأ الفاحش الذى يعزوه بعض الناس اليهم جورا أو تعسفا . بل الأقرب الى الاحتمال ، على نقيض ما سبق ، هو أنهم راموا إيقاف أهل زمنهم بطريقة جلية على الأصل العبرى بتطبيقه على ما كان موجودا ومشهودا فى زمانهم . ولئن لم تكن مدينة هيرو پوليس فى هذا العهد مثل ما كانت عليه قبلا فالمؤكد أنها كانت لا تزال قائمة المعالم، بدليل أن أطلالها وآثارها ما زالت باقية الى اليوم رغما من القرون العديدة التى مرت عليها .

" والذى يؤخذ من التوراة هو أن يوسف لما سبق الى لقاء أبيه انما كان قد قصد الى أرض جاسان . وعليه تكون أرض جاسان إما فى هذا الطريق الآخذ من بلدة المطرية الحالية القائمة على موقع مدينة أون القديمة أو هليو پوليس إحدى عواصم مصر والمُفْضِى الى أرض كنعان وبئر شَبَا، و إما فى الطريق الذى يبتدئ من مدينة منفيس . و جميع الطرقات المؤدية من أرض كنعان الى مصر كانت تمر فى ذلك الوقت كما تمر فى الوقت الحاضر بضواحى العريش . لأن الطرقات التى كانت تؤدى منها اليها فى أرض بعيدة جنوبا عن هذه الضواحى كانت فى ذلك العهد، كما هى فى عصرنا، تفضى الى وعر من الأرض تعترضها الجبال والأوعار .

"ولقد أقطع فرعون، صاحب الأمر فى مصر على عهد يوسف ، أباه يعقوب واخوته أرض جاسان لتكون لهم مقاما ومستقرا . وملّكهُ يوسف من ناحية أخرى

(١) هم السبعون رسولا الذين تفرقوا فى أنحاء الأرض للدعوة الى المسيحية وهم غير الحواريين وقد قاموا بالدعوة الى هذا الدين بعدهم .

مدينة رعمسيس، وكانت قائمة بأخصب بقعة فى القطر المصرى . واذ قد جاء فى حديث السبعين أن يوسف قد التقى بأبيه فى هيروبوليس ببلاد رعمسيس . وقال فلاڤيوس أيضا ان يعقوب و يوسف قد التقيا فى هذه البقعة بعينها ، فالذى يستنبط حتما من هذه المطابقة هو أن مدينة هيروپوليس التى كانت واقعة فى أرض جاسان هى المعروفة الآن بالوادى وضواحيه .

”وفى الواقع أنه لا تزال توجد حتى اليوم فى الطريق المؤدّى من القاهرة أو منفيس أوهليو پوليس الى غَزَّة، وهو الطريق الذى عِوضًا عن مسايرتِهِ الأراضى المتزرعة يتّجه مباشرة صَوْب الوادى على ضفة القناة القديمة . وليس من الممكن أن تكون تلك الأطلال لغير مدينة هيروپوليس، وتعرف الآن باسم تل المسخوط أبى رهيب أو المسخوطة .

”وليس فى المصنفات القديمة ما يشير الى أن مدينة هيروپوليس بنيت فى نهاية خليج البحر الأحمر أو أريثرة على أن تكون ثغرا تجاريا، وكل ما فى الأمر أن أطلقت لفظة الخليج على هذا المكان . أما هى فمن المحتمل كثيرا أنها كانت على مسافة بعيدة من البحر ذاته .

”وسنرى فيما يلى أن هيروپوليس ورعمسيس انما كانا علمين يطلقان على مكان واحد هو ذلك المكان الذى قصد بانشائه فى الأصل الى أن يكون معسكرا للجند وأنه كان أحسن مكان ينتقى لهذا الغرض“ .

وقال لينان دى بلفون أيضا :

” ان بطليموس فيلادلفوس (مُحِبّ أخيه) هو الذى خطط مدينة أرسينوة وأسماها باسم أخته . وقد أطلق على هذه المدينة كلها أو على حىّ واحد منها اسم كليو پاتربس، كما ذكره استرابون“ .

" وقال بليناس (Pline) : ان ثانى البطالسة وهو بطليموس فيلادلفوس (Philadelphe) الآنف الذكر أنشأ مدينة أرسينوة على مقربة من النهاية القصوى للخليج الذى كان صالحا للملاحة آنئذ ، أى على مقربة من الموضع المعروف الآن باسم سرابيوم " .

"ولما أن عوّل بطليموس على شق الترعة لايصالها الى نهاية الخليج ثم عدل عن هذا المشروع ، كانت مدينة هيرو بوليس فى ذلك الحين بعيدة عن نهاية الخليج ، وكانت عتبة سرابيوم على ما وصفناها به آنفا ، وحوض بحيرة التمساح منعزلا فى الشمال عن البحر وتفصله عنه الأراضى المرتفعة بين أبى بلح أو نفيشة (Nefisha) ، وهى التى ترى بين الشيخ حنيدق وسرابيوم أى العتبة التى ينتهى اليها الخليج . واذًا يكون بطليموس قد شاد مدينة أرسينوة فى البقعة التى كانت السفن تستطيع الوصول اليها ، ومدّ الترعة الى سرابيوم وأرسينوة ثم الى نهاية الخليج التى كانت شديدة القرب منها بعد مرورها بأرسينوة ، كما هو مبين فى المصوّر الجغرافى " .

وذكر رايمون ولّ فى كتابه (شبه جزيرة سينا ص ٨٧ وما يليها) ما يأتى :

ولم يكن مقدّرا لثغر أرسينوة أن يعيش طويلا لانحسار مياه البحر الأحمر انحسارا سريعا عن ضواحيه فى أوائل التاريخ الميلادى . وغير خاف أن قاع الخليج أصبح الآن ، وقد عادت مياه البحر الملح بفضل انشاء قناة السويس البحرية الى غمر بعض الأراضى التى كانت انكشفت عنها ، عبارة عن سلسلة كُثبان رملية كبيرة وصغيرة يتصل بعضها ببعض بمضائق ، وتمتدّ الى وسط البرزخ عند مدخل وادى طوميلات . ومنذ تكوّن قاع الخليج جيولوجيا وجغرافيا سرى على هذه المضائق والكثبان حكم الجفاف السريع بما كان يتراكم عليها من الرمال التى تُسفيها

رياح الصحراء دون انقطاع ، وذلك بالرغم من أن الأرض القارة قد انخفضت بالنسبة لمستوى سطح البحر ، وهو ما يثبته انغمار جسور مصبَّات النيل القديمة المنخفضة عن مستوى الماء فى البحيرات الممتدة بسواحل البحر المتوسط ، كما تدل عليه أيضا آكام الرمل التى تحولت بقوة ذلك التأثير الى جزر فى وسط هذه البحيرات، وانغمار جميع الأطلال السابقة على العصر الرومانى بالمياه . فانطمار البحر الأحمر الذى بدأ فى أزمان سابقة على التاريخ بانطمار فرع النيل الذى كانت تجرى مياهه فى وادى طوميلات وتصب فى بحيرة التمساح ؛ قد ظهر أثره بعد ذلك حينما انطمر قاع البحيرة، فقضى هذا الحادث بترك مدينة هيروپوليس وتشييد ثغر أرسينوة فى نقطة منفرجة من هذا الحوض . ومن ثم يستنبط أن القناتين الطبيعيتين، وهما القناة الممتدة بين السويس والبحيرة المرة والقناة الممتدة بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، لم تكونا انطمرتا بعد فى عهد بطليموس فيلادلفوس . أما أنهما كانتا لا تزالان صالحتين للمرور فيهما حينما عادت الترعة العذبة الى حالتها الأولى فى عهد ترايانوس قيصر أو أدريانوس قيصر، فهو ما لا نستطيع الجزم به ، لأننا لا ندرى مكان المصب الجنوبى لقناة ترايانوس التى اقتصر بطليموس (الجغرافى) على إخبارنا بأنها كانت تمر بهيروپوليس وبابليون (Babylon) (القاهرة) .

والمرجح أن البحيرات لم تنفصل تماما عن البحر الأحمر بعد هذا العهد بزمن طويل ، بما أن ثغر أرسينوة قد اندثرت معالمه وعَفَتْ آثاره من تواريخ البلدان فى خلال العهد الرومانى وحل محله فى الوجود ثغر آخر جعل موضعه جنوبى الآكام الرملية القديمة وبحيث لا يبعد عن مياه البحر إلا بمسافة قصيرة جدا حتى فى العصر الحاضر، ذلك هو ثغر كليسما، أو كما يسمى الآن تل القُلْزُم الواقع شمالى ثغر السويس مباشرة .

ولقد تفقد لينان دى بلفون أطلال كليسما فى سنة ١٨٢٢ فكتب عنها ما يأتى :

"تشاهد فى شمال مدينــة السويس بطرف حافة قاع الميناء وعلى بعد ألف متر من أسوارها القديمة أكمة مرتفعة كان يطلق عليها أحيانا اسم القلعة . وقد تبين لى أن فيما تحتويه من الأطلال جدرانا سميكة و بابا من الحجر مواجها للبحر .

"والواقف على قمة هــذه الأكمة يرى عند حصول المد سورا مستقيما يُخيَّل له أوّل وهلة أنه صخور صلدة، وما هو فى الواقع سوى جسر قناة . وتشاهد فيما بين الأكمة والجزيرة التى تحتوى المقبرة الواقعــة الى الشرق و بأطراف الجزيرة ذاتها أجزاء بنـاء تشبه ذلك السور وبناؤها بالأسمنت ، فهى لذلك فى الدرجة القصوى من الصلابة تجعل الحجارة التى تتكوّن منها كأنها قطعة واحدة .

"والظاهر أن هــذه الأطلال الحجرية جزء من بناية رصيف أو أساس قنطرة أو خزان لحجز المياه .

"وقد أطلق العرب على الأكمة المشار اليها اسم تل الكليسْمَل ، وأسمـاها المتنوّرون من أهل السويس القُلْزَم .

ولقــد بحثت طائفة من العلماء فى موضوع موقع كليسما ففرضـوا له موقعين للتوفيق بين ما نقله المؤلفون . أما الموقع الأوّل فقد جعلوه خطأ فى الوادى المعروف بوادى التِّيـه وهو اسم قبيـلة من العربان تنزل أحيانا بذلك المكان . وانما الوادى المقصود هو المعروف باسم خِرْبَة الهديب الرملية الذى تجتمع فيه مياه السيل عقب هطول الأمطار . فاذا جعلنا كليسما فى هــذا المكان، فانا نكون قد أغفلنا بالمـرة المسافات والاتجاهات التى قررها المؤلفون، وليس فيها ما يدفع بقاع الخليج ولا بمدينة كليسما الى نقطة من الجنوب تبعد بقدر هذه المسافة .

”وعليه فلا يوجد سوى موقع واحد لكليسما هو الموقع المعروف بتل الكليسمل فى السويس“ .

وقال رايمون ولّ (ص ٩٠ من مصنفه الموسوم شبه جزيرة سينا) ما يأتى :

” كان الخليج الغربى من خليجى البحر الأحمر معروفا فى عهد العرب باسم بحر القُلْزُم ، كما كان فى عهد اليونان والرومان مشهورا باسم خليج هيروپوليس . وقد ارتفع شأن ثغر القلزم من القرن الرابع الى القرن السادس وظل فى تقدم وارتقاء أيام الخلفاء الراشدين . وحوالى سنة ٦٤٠ م جدّد عمرو بن العاص فاتح مصر الترعة العذبة القديمة التى كانت ممتدّة بين النيل والبحر الأحمر ، لتسهيل وصول السفن من مصر الى بلاد العرب مشحونة بالغلال ، وأسماها خليج أمير المؤمنين . واستمرت المواصلات بها متصلة أكثر من مائة عام الى أن أغلقها فى سنة ٧٧٥ م الخليفة أبو جعفر المنصور العباسى ليدفع عن مصر عادية عمّه محمد بن عبد الله الثائر عليه فى المدينة . فقضى عليها بفعله هذا القضاء المبرم إذ بقيت مطموسة الرسوم دارسة المعالم حتى بدئ فى القرن التاسع عشر بالأعمال الكبرى التى قصد بها الاتصال بطريق الماء بين النيل والبحر . وما كان ذلك بكافٍ لتعليل خراب كليسما واندثار أثرها ، فقد كان لمينائها أن تظل صالحة لشحن البضائع ونقلها كما تم ذلك للسويس فيما بعد . ولكن ظروفا وأسبابا أخرى كانت تحول دون تحقيق هذه الأمنية ، نذكر منها بخاصة انعدام المياه العذبة لانقطاع ورودها من النيل بانسداد القناة ، بَلْهَ أنه لا يبعد أن يكون لتأسيس مدينة بغداد حوالى سنة ٧٦٠ للميلاد على يد الخلفاء العباسيين أثر فى انحطاط ذلك الثغر واندثاره . فان هؤلاء الخلفاء ، عملوا من غير ملل ولا وناء ، على تحويل الشطر الأكبر من تجارة الهند مع بلاد البحر المتوسط عن طريق القلزم الى طريق خليج فارس والعراق . فكان من نتائج الجهود التى بذلوها فى هذه

السبيل أن ترعة المياه العذبة الممتدة بين النيل والبحر الأحمر بقيت دون أن يهتم أحد باصلاحها والانتفاع بها . غير أن بلدة القلزم أَخْلَقَتْ جِدَّتها وذهبتْ نضرتها اذ كانت لا ماء فيها ولا نبْت ولا بذور ولا ضرْع ولا وقود ولا شجر ولا عروش، ولكنها ظلت مع هذا الحرمان المهلك مطروقة يمر بها الغادى والرائح . وكان الماء يجلب اليها من عين ردية تسمى عين السويس، وتبعد عنها قدر مرحلة. وقد عرف اسم هذه المدينة منذ القرن العاشر من الميلاد، فقد ذكرها ياقوت الحموى من علماء القرن الثالث عشر فى معجمه فقال : إنها حلت محل القلزم كثغر بحرى، غير أن مظهرها لم يكن أقل وحشة من مدينة القلزم . وقال شمس الدين من علماء أوائل القرن الرابع عشر : إن القلزم صارت الى الخراب . وذكر ابن خلدون ، من العلماء الذين جاءوا بعد هذين المصنِّفين ، خليج السويس فكان يسميه تارة بحر القلزم وطورا ببحر السويس دون تفريق أو مفاضلة . (راجع ما قيل عن القلزم فى مصنفات تقى الدين المقريزى) .

"وثغر السويس قائم على موقع لايبعد كثيرا عن موقع القلزم، فكان مما لايحتمل وقوعه أن ينطمر انطمارا تاما ولا أن يستغنى الملاحون عن الاختلاف اليه . وما فتئ الرحّالون فى العصور الوسطى من بدايتها الى نهايتها يذكرونه باعتبار كونه مرفأ صغيرا من مرافئ الصيد ومصنعا لبناء القوارب المعدّة للسفر فى البحر الأحمر . ولكنه لم يلبث أن أهمل شأنه وعدل عنه ،لأن الحجاج ومسافرى الهند واليمن الى القطر المصرى كانوا يقتصرون فى اختراق البحر الأحمر على المسافة الواقعة بين الطور والقصير .

"وقبيل سنة ١٤٩٧ تهدد التجارة فى البحر الأحمر كله خطر جليل لم يلبث أن ظهر ضرره وسوء أثره بسرعة البرق الخاطف فى تجارة مصر مع الشرق والغرب وفى مستقبل حكومة البندقية، حليفة المصريين القديرة بأطراف البحر المتوسط . ذلك الخطر

هو اكتشاف البرتقاليين طريق الهند من ناحية رأس الرجاء الصالح واستخدامهم هذه الطريق فيما يعود عليهم بجليل المزايا وجزيل الفوائد .

"ولنذكر هنا لهذه المناسبة أن برطلمى دياز[1] (Barthélemy Diaz) كان قدوصل سنة ١٤٨٧م، الى رأس الرجاء الصالح، وأن فاسكو دى غاما[2] (Vasco de Gama) بلغ الى مدينة كاليكوت (قاليقوط كما جاء برحلة بن بطوطة) من ثغور الهند عن طريق جنوب افريقيا ، وأنه فيما بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٠٦ توفق كل من كبرال ودى جواو (João) وفاسكودى غاما وألبوكرك[3] (Albuquerque) ولو پوسوارز والميدا[4] (Almeida) وترستان دى كونها (Tristan Da Cunha) ، للقيام بأعمال عادت بما لا يحصى من الفوائد على البرتقاليين، حتى اضطرت جمهورية البندقية، وقد رأت شبح الخراب والدمار ماثلا لناظرها ، الى استفزاز سلطان مصر للعمل ضد البرتقاليين فى بحر الهند .

ولقد تمكن المصريون فى سنة ١٥٠٧ من تعقب ذلك العدو التجارى ، ولكن ظفرهم به ظل فى الواقع محدودا جدا بدليل إقدام البرتقاليين منذ عام ١٥١٣ على توسيع نطاق اجراءاتهم الهجومية فى البحر ، بحيث تناولت دائرة البحر الأحمر . وفى سنة ١٥١٧ بلغت الأزمة التجارية فى مصر أشدها بغارة السلطان سليم الأول عليها وأخذه إياها ودخوله فى القاهرة ظافرا قاهرا . وما عتم العثمانيون، وقد استتب لهم الأمر، أن تولوا بأنفسهم مهمة القتال ضد البرتقاليين الذين اضطروا فى سنة ١٥١٨ الى التراجع عن البحر الأحمر .

(١) بحار برتقالى . (٢) البحار البرتقالى الذى اكتشف الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م وأسس مستعمرة موزمبيق وسفاله وكشين ولى الهند البرتقالية من ١٤٦٩ – ١٥٢٤ (٣) ألفونس ألبوكرك البحار البرتقالى الشهير الذى ضرب كاليكوت وأخذ جوه وملقة وأسس الحكم البرتقالى فى الهند (١٤٥٢ – ١٥١٢) . (٤) والى الهند البرتقالية فى ١٥٠٥

"ولقد كان من النتائج غير المنتظرة لتلك الكارثة الوطنية ولخراب الطور من جراء فعال البرتقاليين أن انتعشت السويس وأخذ نجمها يعلو فى الأفق . فان المصريين ومن بعدهم الأتراك اتخذوها مرفأ لحاجيات دونمتهم فى البحر الأحمر وتحسين أحوال التجارة عن طريق البحر الأحمر واتقاء صعوبة النقل بواسطة القوافل بين الطور ونهاية الخليج على مسافة ٢٠٠ كيلومتر من طريق كله جبال وأوعار . وأصبح القابضون على مفاتح البحر الأحمر كما أصبح المصريون ولا أمل لهم فى شىء سوى اعادة المواصلات بين النيل والبحر الأحمر الى ما كانت عليه قديما . فان أصحاب الأفكار السليمة والآراء القويمة فى حكومة البندقية أجمعوا منذ سنة ١٥٠٤ على ضرورة العمل لانجاز هذا المشروع ودخلت سنة ١٥٢٩ والعثمانيون جانحون الى تحقيقه فى أقرب وقت . ومؤكد أنه لو كانت توافرت للقوم فى ذلك الوسائل الصناعية الكبرى الملائمة له توافرها لمثله فى القرن التاسع عشر لاستطاعوا إنجازه قبل نظيره بثلاثة قرون من الزمان . ذلك لأنهم لم يستطيعوا إخراجه الى حيز الوجود فتابع البرتغاليون أعمالهم بالهند فى سكون ونعيم بال ووسعوا نطاق ثروتهم وابتسم ثغر الحظ لهم وبلغ من الأمر أن اجترأ الوالى البرتغالى جوادى كاسترو (Jean de Castro) فى سنة ١٥٤١ على القيام بحركات بحرية للاستطلاع تجاه ثغر السويس إذ رأى الأسطول العثمانى راسيا فى مياهه فعاد أدراجه دون قتال . وقد مكنته هذه الجولة البحرية الجريئة من تدوين مذكرات غاية فى الفائدة عن شكل خليج السويس وعن السويس ذاتها والطور مقرونة بالرسوم .

ولقد انقضى زمن طويل بعد هذه الحوادث ولم يفقد الأتراك الأمل فى العودة بالسويس الى نشاطها التجارى القديم . ووصف نيترشتر (Neitzshitz) فى سنة ١٦٣٠ جهودهم وأعمالهم لادراك هذه الغاية ولكنه ذكر أن الحركة التجارية فى ثغر السويس كانت فى حكم العدم .

وزار ڤولنى (Volney) ثغر السويس فى سنة ١٧٨٣ فكتب عنه فى رحلته الموسومة (رحلة فى مصر والشام) ما يأتى: "انه أكثر بقاع العالم تجردا من كل شىء فان الناظر من فوق سطوحه اذا أجال نظره فى السهول الرملية الممتدة عن شماليه وغربيه أو فى جبال بلاد العرب الجرداء البيضاء شرقيه ، وفى البحر الأحمر وما يتصل به من جبل المقطم جنوبيه لا يرى شجرة بل ولا نبتة خضراء يقف عندها، بل لا يرى سوى الرمال الصفراء والمياه الآسنة الخضراء . ذاك كل ما يقف عنده بصر المقيم بالسويس وهو ما يقبض الصدر خصوصا اذا اقترن النظر الى تلك المرائى به الى المبانى الدارسة والدور التى سطت عليها يد الخراب . والماء الذى فى الضاحية يُسْتَقَى من عين تسمى النبع واقعة على مسيرة ثلاث ساعات من سواحل بلاد العرب، وهى آسنة الى حد أنها لا يُسِيغُها الأوربى إلا اذا مُزِجَتْ بشراب الروم،وفى الوسع اصطياد مقادير من الأسماك واستخراج أنواع شتى من الأصداف، ولكن اعتاد الأهلون أن لا يصيدوا ولا يستخرجوا إلا القليل منها بطرق وأساليب معينة . فكان لا يقيم بالثغر لهذا السبب بعد رحيل السفن منه سوى الحاكم من طرف المماليك واثنى عشر الى خمسة عشر من أهله وأعوانه . أما القلعة فكانت بناية حقيرة متخربة مجردة من وسائل الدفاع . وما أسماها العرب بهذا الاسم إلا لأنها تحتوى ستة مدافع من البرونز لا تتجاوز زنة مقذوفها أربعة أرطال، ويقوم عليها مدفعيان يونانيان كانا اذا أطلقا منها مقذوفا أدارا وجهيهما الى الخلف . وأما المرفأ فلا يعدو أن يكون رصيفا لا يستطيع أصغر السفن الدنو منه إلا فى أثناء مد البحر. ومع هذا فانه المكان الوحيد الذى تؤخذ منه البضائع المختلفة فى زوارق لإيصالها فى وسط الكثبان الرملية الممتدة فى قاع البحر الى السفن الراسية فى دائرة المرسى الذى يبعد بقدر فرسخ عن المدينة ويفصله عنها ساحل يظل مكشوفا فى وقت جَزْر

الماء . وهو فضلا عما تقدم مجرد من وسائل الحماية والوقاية بحيث يتيسر الهجوم من غير وناء على الثمانى والعشرين السفينة التى أحصيتها وكانت راسية فيه . على أن هذه السفن ما زال يقل عددها لأنها ليس فى قدرتها اذا سافرت إلا اشتطاط السواحل ومسايرتها، والسواحل كثيرة الصخور والشعاب فيغرق منها فى كل سنة بنسبة سفينة فى كل تسع سفن . ومصنع السفن فى السويس لا يقدر على تعويض هذه الخسارة اذ لا يتجاوز ما يبنيه منها فى كل ثلاث سنوات قيّاسة واحدة . ثم أن البحر بمدّه وجزْره يجلب الرمال الى السواحل ولا بد أنه سيسد بها المضيق المؤدّى الى المرسى ويقع للسويس ما وقع لثغرى القلزم وأرسينوة من قبل" .

وقد أبدى الرحالة فردريك لويس نوردن مثل هذه الملاحظات الداعية الى الأسف فقد كتب فى رحلته المسماة (رحلة مصر والنوبة) المطبوعة بباريس فى السنة الرابعة للجمهورية (أى سنة ١٧٩٨) ما يأتى : "كانت السويس حوالى سنة ١٧٤٠ قرية حقيرة لا مدينة لأن الرحالة بيلون أسماها بهذين الاسمين ووصفها بهذين الوصفين من غير تمييز ولا تفريق دون أن يعرفنا تعريفا وافيا بحقيقة اتساعها، ومما لا خلاف فيه أنها منذ ذلك الحين لم يتسع نطاقها اتساعا محسوسا . وهى الآن تتلاشى شيئا فشيئا وتميل شمسها الى المغيب لأنه لا ينقضى يوم دون أن ينطمر جزء من مينائها بما تُسْفِيه الرياح عليه من الرمال التى لا يعنى الأهلون برفعها كلما تراكمت ، لما فطروا عليه من التراخى والكسل . وعلى كل حال فان السويس، وقد اكتنفت بها الأرضون أو بالأحرى الرمال لا بد لها من الاندثار يوما كما اندثرت من قبلها المدن التى حلت هى محلها" .

وللعلامة ج . م . لوپير (J. M. Le Pére) عضو لجنة مصر الذى ناط به نابليون بونابرت مهمة البحث فى مشروع ايصال البحرين بقناة مذكرة ضافية

نستخرج منها فيما يلى بعض ما احتوته من البيانات القيمة عن حالة مدينة السويس وميناثها فى أخريات القرن الثامن عشر . قال :

" ان مدينة السويس التى يصح اعتبارها قائمة على موقع مدينة القلزم القديمة نظرا الى قرب موضعيهما أحدهما من الآخر قربا شديدا مدينة كئيبة المنظر رثة الأحوال . وقد ضاقت مساحتها بأهليها لتوارد الجيوش عليها واحتلالها اياها . ولقد استردها الفرنسيون من الانكليز فى شهر فلوريال من السنة الثامنة للجمهورية أى فى مايو سنة ١٨٠٠ فكان هذا الاسترداد باعثا على اتساع نطاق الخراب والتدمير فيها . ومع هذا فما زال موجد بها جملة من الوكالات ومخزن عام للحبوب تشهد رغما من انحطاط شأنها، بسابق مجدها وعزها وثروتها . وهذه المبانى قلما تضارعها مبانى المدن المصرية الأخرى . وموقع السويس كفيل فى ذاته باعادة ذلك المجد اليها اذا استردت التجارة فيها أهميتها السابقة .

" ومرفأ السويس فسيح اذ يبلغ طول نصف قطره ألفى تؤانة (التؤانة ١,٩٤٩ متر) ويبعد عنها الى الجنوب بنحو أربعة أخماس الفرسخ . ومع شهرته بعدم الاستقرار على حال فانه لم يكن معرّضا إلا لرياح الجنوب الغربى التى تهب فيه نادرا . وقاعه فى القسم الغربى منه يتألف من الصخور والشعاب وفى القسم الشرقى من الرمال . وبه تيارات مائية لا تُجاوز سرعتها فى الدرجة القصوى ثلاث عقد فى الساعة الواحدة كما أن به صخورا ورمالا لا يعلوها فى أثناء الجزر إلا القليل من الماء . واذا كان رجال الملاحة لا يعرفون مواقع هذه الصخور والرمال تمام العلم فان الاقتراب منها يكون متعذرا أو محفوفا بالأخطار . ويبلغ عمق الماء فى مرفأ السويس من ثلاث قامات الى اثنتى عشرة قامة فى حالة جزر البحر . وهذا مما يجعل الرسو فيها مأمونا بالطبع خصوصا وأن الرمل المستقر فى قاعها رفيع تعلوه طبقة

من الطمى والرمل النق . أما فى عرض البحر فان رمل القاع يتكون من رمل يخالطه الحصى ، والرسو فيه ميسور حيث يبلغ العمق ست قامات وهناك نقطة بارزة منخفضة عمق الماء عندها أربع قامات ويتيسر للسفن الصغرى أن ترسو فيها كما أن بالقرب من هذه النقطة وعلى مسافة كيلو مترين من غربها صخور شديدة الخطر .

" والأماكن الخاصة بالبحرية فى السويس يبدو للناظر كأنها فى حالة جيدة وان تكن غير متسعة . أما المخازن والمستودعات فواسعة بقدر الكفاية وتقسيمها مرتب نوعا ومخزن البحرية منها مشيد على نمط الوكالات الخاصة بالتجارة فى القطر وهو عبارة عن بناية فسيحة مربعة فى وسطها صحن كبير يحيط به رواق من نواحيه .

" وفى السويس موضعان صغيران لانشاء السفن أو ترميمها كان العثمانيون يبنون عليهما فى الزمن الماضى سفنا كبيرة الحجم (أى قيَّاسات محمول الواحدة منها من خمسمائة الى ستمائة طن) . ولخلوها من الزرع والضرع لا يجد المرء بها أى صناعة من الصناعات . وليس فى الصحارى المترامية الأطراف حواليها سوى شُجَيْرات وحسك مما يصلح للوقود وطبخ الآجُرّ وحجر الجير . ويوجد أيضا فى أغوار الأرض حيث تجتمع مياه الأمطار حشائش تصلح لأن تكون كلأً للحيوانات .

" وكان لانشاء السفن فى ثغر السويس شأن يذكر فى أوقات مختلفة وخصوصا فى الوقت الذى كان للبنادقة فيه بها و بالاسكندرية أماكن تجارية لم يبق الآن منها إلا القليل . ومما لا شك فيه أن اقامة مصانع لبناية السفن يكون لها شأن عظيم فى ذلك الثغر . ولما كانت المواصلات بطريق الماء بين القاهرة والسويس معدومة بالمرة فما يلزم لصناعة السفن وأدواتها كالأشرعة والهلوب والمدافع وغيرها من الأدوات الثقيلة كان ينقل اليها من القاهرة على متون الجمال .

"وكانت الواردات فى سنة ١٧٩٠ تقدر قيمتها بأكثر من مائة وعشرين مليونا من الفرنكات وكان ما يجبى منها برسم جمرك السويس عظيما اذا نظرنا الى فداحة الرسوم المضروبة على البضائع، تلك الفداحة التى ضاعفها جشع الحكام الى حد وصل رسم البن معه بناء على قول ڤولنى (De Volney) الى ما يعدل الثمن الذى اشترى به . ومع هذا فما زال بالامكان أن تبلغ التجارة بالرغم من انحطاط شأنها الآن شأوا بعيدا فى طريق التقدم والنجاح، اذا كان بالبلاد حكومة أفضل من الحكومة القائمة بالأمر فيها . عندئذ يستطيع ثغر السويس وان ظهر أن الطبيعة تبغى القضاء فى القريب العاجل، أن يصبح المركز الوحيد لأهم المضاربات التجارية . وهاك قول ڤولنى عن فداحة الرسوم الجمركية . قال : وقد بلغ من شره المماليك وخراب ذمتهم انهم لا يكفون عن استنباط الحيل والمعاذير لاثقال كواهل التجار بمضاعفة الرسوم الجمركية . أما الرسوم المضروبة على البن منها فقد بلغت فى وقتنا الى الحد الأقصى من الجسامة . فان فرد البن الذى زنته تتراوح من ٣٧٠ الى ٣٧٥ رطلا ولا يتجاوز ثمنه فى مُخَا خمسة وأربعين بتاكا (البتاك يساوى خمسة جنيهات فرنسية وخمسة صُلْديات) أو ٢٣٦ ترنو (Tournoi) تدفع عنه فى السويس رسوم بحر قدرها ١٤٧ جنيها يضاف اليها ٦٩ جنيها فرضت على قبيل الزيادة فى سنة ١٧٨٣ بحيث اذا ضم الى هذين المبلغين رسم الستة فى المائة الذى يجبى فى جدة عادلت هذه الرسوم مجموع الثمن الذى اشتريت به" .

وليس بعازب علينا فهم طبيعة التجارة وفداحة الرسوم الجمركية فى مصر، ولا سيما السويس فى سنى ١٧٩٥ — ١٧٩٨ ومن هذه الجهة لانرى بأسا من إيراد البيانات الغريبة التى ذكرها م . س جيرار كبير مهندسى القناطر والجسور فى المجلد

الثامن عشر من كتاب « وصف مصر » (١) تحت عنوان (مذكرة عن زراعة مصر وصناعتها وتجارتها) قال :

" يحدّ مدينة السويس من جهة الشرق أطلال أسوار لرصيف كان مبنيا بالطوب . وكانت زوارق الصيادين و زوارق (فلايك) السفن الراسية فى الميناء ترسو عنده . وكان الاتصال بين هذا الرصيف والمرفأ بواسطة ممرّ يسير بموازاة الساحل الى مسافة ٥٠٠ أو ٦٠٠ مترا فى اتجاه نهاية الخليج . ويبقى هذا الممرّ الذى يبلغ عمقه من ست أقدام الى ثمانٍ فى وقت الجزر مغمورا بالماء ولكن مسدودا بالرمل عند فوهته فيختلف هذا العمق من أربع أقدام الى خمس وسبب هذا السدّ التوازن الذى يحدث فى هذه النقطة بين تيار المياه الذى يأتى معه دائما بكمية صغيرة من الرمل عند انحداره من نهاية خليج البحر الأحمر " .

"وهذه المدينة مع مزاياها الجمة للتجارة قد أخذت بالانحطاط والتقهقر منذ أربعين عاما ، فقد كان عدد سكانها ألف نسمة منهم بعض التجار من بنى الاغريق أما الآن فلا يكاد عددهم يبلغ المائتين . أما العهد الذى سمت فيه الى أوج العزة والثروة فيرجع الى زمن تخريب الاسكندرية على يد العرب . وقد نقل مقرّ الحكومة منها وقتئذ الى القاهرة ، فلما أصبحت هذه المدينة مركزا لدائرة الأعمال كافة على اختلافها توثقت العلاقات التجارية بين مصر وبين الهند والعرب بواسطة ثغر السويس ، لأنه كان أقرب الثغور المصرية منها .

"واذا كان هذا الثغر قد بقى حافظا لأهميته منذ أن استكشف طريق رأس الرجاء الصالح فانما السبب الأصلى بل السبب الوحيد لذلك يرجع الى مرور القافلة المصرية

(1) "Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches faites en Egypte pendant l'expédition de l'armée française.

للحجاج بها فى كل عام، إذ كان شطر منها يقصد الى الحجاز فى السفن و يعود منه اليه بعد أداء شعائر الحج .

"وقد أصبحت بضائع الهند ومصر تنقل الآن من إحداهما الى الأخرى بواسطة تلك القافلة عن طريق السويس وجدّة . وأغلب السفائن العربية التى تمخر عباب البحر الأحمر مبنى فى الهند ، وثمن السفينة الواحدة منها يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف قرش ، ويختلف محمولها من خمسة وسبعين طنا الى ثمانين . وفى جدّة مع هذا مكان مخصص لبناء السفن يمدّه الانكليز بما يلزمه من الأدوات والآلات .

"وتسود رياح الجنوب عادة فى البحر الأحمر من أوائل شهر ديسمبر الى منتصف فبراير وكذا فى مدى الشهرين اللذين يليان الاعتدال الربيعى وفى هاتين المدّتين اللتين تسمى الرياح فى أولاهما بالحِرْبَانيَّة (الحرباء)[1] والثانية بالنُّعام (والنُّعَامَى الريح الشمال) ترسل السفن من جدّة و ينبع الى السويس . أما المدّة الباقية من السنة فان الرياح تهب فيها من ناحية الشمال فيصبح من المستطاع تسيير السفن من السويس الى سواحل بلاد العرب على وجه الانتظام .

وحينما تكون الريح موافقة فانّ السفر من جدّة الى السويس يستغرق من خمسة عشر يوما الى ستة عشر يوما . وقد يتجاوز أكثر من هذه المدّة فيستغرق من عشرين يوما الى اثنين وعشرين . أما المسافر اليها من ينبع فتقل مدّة سفره بقدر ثلاثة أيام الى أربعة .

"ولا ينبغى أن نسند طول مدّة السفر المذكورة الى صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر، بل الى جهل النوتية العرب واعتيادهم الرسو طول الليل فى الخلجان التى على

(١) هى الريح الجنوب .

سواحل الخليج . ومن ثم يظهر لك السبب فى مسايرتهم هذه السواحل وملازمتهم على الدوام لها وعدم ابتعادهم عنها .

"ويصل من جدّة الى السويس سنويا خمسون أو ستون سفينة مشحونة بالبن والصمغ العربى والأفاوية والعقاقير والأطياب . أما الأقمشة الحريرية وغيرها من منسوجات الهند فانما يأتى بها الحجاج من مكة فى غالب الأوقات . يضاف الى هذه الأصناف المختلفة نحو مائة من السّنا المكى الذى كان هو والسنا الوّارد من الشام محكَّرًا بأمر من الأمير مراد بك الى السنيور روسيتى (M. C. Rosetti) قنصل البندقية .

"وكان يؤتى من بلاد العرب الى مصر سنويا بنحو عشرين الى ثلاثين عبدا من نوع كان يرغب فيه الناس ويفضلونه على العبيد الذين يردون من أفريقية .

"وقبل الخمس عشرة السنة السابقة على وصول الحملة الفرنسية الى السويس كان يرد سنويا على هذا الثغر من ٢٠٠٠٠ فرد من البن الى ثلاثين ألفا زنة كل فرد منها ثلاثة قناطير وثلث قنطار ، وزنة القنطار الواحد مائة رطل وخمسة أرطال .

"وقبل تلك الحملة بنحو عشرين سنة كان مقدار الوارد من البضائع على يد قافلة الحجاج يتجاوز مقداره كمية الوارد منها على ثغرى السويس والقصير . ولكن انتشار عدد عظيم من القبائل التى تعيث فسادا فى البلاد وتقطع الطريق التى لا مناص لقافلة الحجاج من اتباعها ، ولا سيما فى العهد الأخير، اضطرت هؤلاء الى تفضيل طريق البحر على طريق البر . وعلى كل حال فقيمة ما يحمله الحجاج من بضائع الحجاز سنويا تبلغ الآن من ٢٥٠٠٠٠ قرش اسبانى الى ٣٠٠٠٠٠ قرش وهذه البضائع معفاة من الفرض والرسوم .

وكان للأتراك بالقاهرة فى الزمن السالف من خمسة عشر الى عشرين محلا تجاريا كانوا يتجرون فيها مع الهند فانخفض هذا العدد شيئا فشيئا حتى أصبح لايتجاوز ثلاثة أو أربعة، ولهم مثل هذا العدد من المحال التجارية أو ما يقرب منه فى جدّة .

وقد استأثرت أربع قبائل من العربان بالحق فى نقل البضائع التى كانت ترد بحرا على ثغر السويس الى القاهرة وكانت كل قبيلة تتبع فى سيرها طريقا غير طريق الأخرى .

وهذه القبائل هى عربان الترابين وعربان الحويطات وعرب الطور وعرب العبايدة . أما عربان الترابين فينزلون فى ضاحية مصر العتيقة وقرية البساتين ولهم نجوع ومخيمات عند مضايق وادى التيه . وأما عربان الحويطات فمقرّهم مديرية القليوبية. وأما قبيلة الطور فمقرّها سواحل شبه جزيرة سينا الى رأس محمد وأنحاؤها المحصورة بين القلزم وخليج العقبة .

أما العبايدة فيضربون بخيامهم فى ضواحى المطرية وبركة الحج . وهم الذين يقدّمون الجمال ومن يقومون على شئونها وقيادتها من العربان التابعين لشيوخ بعض القبائل . والجمل الواحد يحمل عادة من خمسة قناطير من البن الى ستة فيما بين السويس والقاهرة وتبلغ أجرته ٩٠ مدنيا .

وكانت إيرادات الجمرك فى مدّة ما من الزمن تقسم مناصفة بين مراد بك وابراهيم بك، فلما وصلت الحملة الفرنسية الى القطر المصرى كان إبراهيم بك هو الذى يستغل الرسوم الجمركية لنفسه . وانما كان يخصم منها برسم صاحب الولاية على مصر من طرف الباب العالى مايعدل مدنيا واحدا عن كل رطل من البن ، ومائة وستة وأربعين مدنيا عن كل فرد منه برسم أمير الحج .

ومما لاجدال فيه أن تجارة الهند عن طريق البحر الأحمر قد جاءت من الفوائد الجزيلة والمزايا الجليلة بما يدرك معه السر فى إقامة مدن كالقصير والسويس فى وسط أراض رملية قاحلة كالأراضى التى خطط فيها هذان الثغران . ولعل هذا هو ما حمل القوم فى أخريات القرن الماضى على بذل الجهود العظيمة لاعادة فتح الطريق الذى كانت تجلب منه البضائع الهندية قبل استكشاف طريق الرجاء الصالح ، رجاء الاستئثار بتلك الفوائد والمزايا .

وغير خاف أن على بك الذى حكم مصر فى المدّة بين سنة ١٧٦٣ وسنة ١٧٧١ قد انتوى الاستقلال بمصر عن الدولة العلية العثمانية ، فنبهه قنصل حكومة البندقية لديه وقتئذ بما يحصل عليه من جزيل الفائدة اذا هو استطاع أن يعمل ما يكفل مرور بضائع الهند وهى فى طريقها الى أوروبا من القطر المصرى ، وشرح له ما فى تحقيق هذا المشروع و إبرازه الى حيز الوجود من زيادة ثروة هذا القطر و بالتالى من استقلاله .

وكان مما لا مفرّ منه لادراك هذا الغرض من الاستيلاء على ثغر البحر الأحمر الأكثر اتصالا من غيره ببلاد الهند وعلى السوق التى تختلف اليها القوافل الحاملة لتجارتها الى الأنحاء المختلفة بطريق البر . وكان على بك عظيم الثقة بذلك القنصل وولائه له فعمل برأيه اذ بادر باحتلال جدّة ومكة على أيدى اثنين من البكوات التابعين له وهما حسن الجداوى ومحمد أبو الذهب . ولكى يستميل الأوروبيين الى الاختلاف الى جدّة والتعامل معها أجاز لهم اتخاذ عميل فيها وخفض رسوم الجمرك المضروبة على البضائع التى ترد اليها بقدر ثلاثة فى المائة من قيمتها .

ولم تكن ظروف الأحوال وقتئذ لتؤذن بتنفيذ هذه المشاريع الجليلة ولكن لم يمنع ذلك من وقوف أهل الهند على ما كان قد انتواه على بك من السعى لتحرير

الملاحة فى البحر الأحمر وتخليصها من القيود التى أثقلتها ، فاجتمعت كلمة فريق من تجارهم على تصدير بضائعهم النافعة فى جهات الشرق الأدنى من ذلك الطريق . وما هى إلا فترة من الزمن حتى وصلت الى ثغر السويس سفن هندية عديدة دفعت عن البضاعات المشحونة فيها رسما جمركيا لم يتجاوز خمسة فى المائة من قيمتها واقتصر على اقتضاء ستة أخرى فى المائة من القيمة عينها عند مايشترى تجار القاهرة تلك البضاعات .

ولما استلم محمد بك أبو الذهب زمام الحكم خلفا لعلى بك اقتفى أثره فى تعضيد تجارة الهند ، فلم يقتصر على الاذن للسفن الانكليزية التى يكثر بها التجار لنقل بضائعهم بتفريغ مشحوناتها فى ثغر السويس بل فرض على تجار القاهرة الذين يشترونها دفع ثمنها فى أجل لا يتعدى ثلاثين يوما من تاريخ تسلمها . وقد كان من نتائج حماية الحكومة المصرية للتجارة الهندية وتعضيدها إياها أن استفزت آخرين من أصحاب السفن الى الاقتداء بأصحاب السفن الانكليزية فى حمل تلك البضاعات الى السويس وجاء الفوز بالغنائم والأرباح الكثيرة، وتنبهت الى هذا الأمر الشركة الانكليزية للشرق الأدنى القائمة فى مختلف أملاك الدولة العثمانية ببيع الأقمشة البنقالية التى غصت بها مخازن شركة الهند، فخشيت أن يكون من وراء فتح الطريق الجديد ما يضر بمصالحها الاقتصادية ومرافقها المالية فسعت لدى الباب العالى سعيها بوساطة سفير انكلترا فى الأستانة فاستصدرت فرمانا شاهانيا يحظر على الأوربيين الملاحة فى البحر الأحمر فيما يلى ثغر جدّة شمالا .

ولقد انقضى زمن طويل جدا قبل صدور هذا الفرمان ظلت التجارة بين الهند ومصر فى خلالها فى نمو ورواج متواصلين . ولما أن صدر أبلغه الباب العالى الى واليها (الباشا) على مصر .

ومن جهة أخرى فقد كان حاكم بنقالة قد حظر على التجار تصدير البضائع الهندية الى القطر المصرى بالسفن الانكليزية . ولكن وصلت الى السويس فى سنة ١٧٧٨ ، بالرغم من هذا الحظر ومن صدور الفرمان السلطانى الآنف الذكر سفن عديدة ذاع على الألسنة بشأن مشحوناتها أن لقنصل فرنسا مصلحة فيها . ونقل غير ذلك انه لضمانة وصول هذه البضاعات الى القاهرة فى أمن وسلام تمكن هذا القنصل من نقلها اليها على جمال أحد كبار البكوات . وكان عربان الطور يدعون أن لهم الحق دون غيرهم فى نقلها فطلبوا بالحاح تكليفهم به عملا بالتقاليد القديمة ، ولكن نداءهم ذهب صرخة فى وادٍ فعدلوا عن هذه الدعوى مكتفين بطلب مبلغ من المال تعويضا لهم عما خسروه من جراء ذلك التصرف فلم يحصلوا على شىء مما راموه وقوبلت طلباتهم بالرفض الصريح وهو ما احتدموا بسببه غيظا وترصدوا للقافلة فى الطريق ، حتى اذا مرت قريبا منهم انقضوا عليها ونهبوها .

وكان مما مهد لهم هذا العدوان أن المسافرين الأجانب الذين رافقوا القافلة كانوا قد اعتمدوا على ما تأكد للمسافرين قبلهم من أمن الطريق فلم يحتاطوا للدفاع عند الحاجة عن أنفسهم .

وقد حدث على أثر ذلك أن وضع والى مصر من طرف الباب العالى يده على السفن التى وصلت الى السويس وضبط ما بقى فيها من البضاعات وانه اشترى بعض الناس بثمن بخس ما نهبه العربان من القافلة . أما السفن التى أرسلت مباشرة من الهند الى ثغر السويس فقد كانت مشحونة لحساب بعض الضباط والملكيين والموظفين فى الشركة الانكليزية .

ومنذ فشلت القوافل التجارية الآنفة الذكر فى إيصال البضاعات الى مأمنها كفّت عن السير نهائيا فى ذلك الطريق . فاتخذ الانكليز من هذا العهد وكيلا

لقنصليتهم فى الاسكندرية ، ولم يكن لهم بالقاهرة سوى وكيل قصرت مهمته على إيصال الرسائل بين أوروبا وبنقالة بطريق البر والعكس بالعكس . وكان ما يجبى من الرسوم على مختلف البضائع المستوردة الى القطر المصرى يدفع طبقا لتعريفات لم يدخل عليها منذ وضعها إلا اليسير من التعديل ، يستثنى منها البن فقط فان الرسوم المضروبة عليه زيدت على توالى السنين حتى بلغت اثنين وعشرين بتاكا عن الفرد الواحد . ولقد بلغ المستورد من هذا الصنف على عهد اسماعيل بك ستة وعشرون ألف فرد بناء على ما أبلغنيه موظف الجمرك فى ثغر السويس .

وقد بلغت الرسوم التى جبيت فى السويس طبقا للبيانات التى وضعها المسيو ايتيف الى ٤٠٩,٣٦٥ بتاكا (أى ٣٦,٨٤٢,٨٧٦ مدنيا) أى ما يقارب مجموع إيراد جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية بينا لم تبلغ نفقات جبايتها ما بلغته فى هذه الجمارك الأربعة . وفى هذا ما يفسر السبب الذى جعل ابراهيم بك الذى كان يشاطر مراد بك الحكم يكتفى بايراد جمرك السويس فقط لنفسه ويترك لزميله إيراد الجمارك الأربعة المشار اليها .

وقد أمعن جيرار النظر فى مستقبل السويس فرأى أنها سوف تصبح مدينة كبيرة بل الثغر الثانى من ثغور مصر متى ما جرالى ربوعها الماء الصالح للشرب . وقد كان من حظ النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن تم فيه الأعمال التى بحثت فيها لجنة مصر وهى إنشاء قناة بين البحرين المتوسط والأحمر وجر المياه العذبة وتوسيع نطاق الرى وإنشاء ثغر على الطراز الحديث بالسويس . ولكن كان محتوما على هذا الثغر أن يظل خمسين عاما أخرى مرفأ صغيرا لصيد الأسماك ورسو السفن وبناية القوارب الصالحة للسفر فى مياه البحر الأحمر على أن السويس قد علا شأنها زمنا قصيرا فى أوائل القرن التاسع عشر من الميلاد فقد طلب الباب العالى من محمد

على باشا فى سنة ١٨٠٨ أن ينفذ لمحاربة الوهابيين جيشا مصريا . وما أشرفت سنة ١٨٠٩ على الختام حتى بدأ باعداد المعدّات للحملة عليهم . قال المسيو موريير:

وكان من أولى المسائل التى عرض للوالى حلها وأكثرها صعوبة وتعقيدا نقل الجيوش الى الجهات التى ستعمل فيها ضدّ العدوّ . فانه لو اتبع طريق البر لقضت الظروف بتضحية النصف من رجاله فى وسط صحارى وقفار اعتادت القوافل المؤهبة بكل ما يلزم من المعدّات لاختراقها أن تخسر مثل ذلك المقدر من رجالها ولو أراد اتباع طريق البحر لما وجد من السفن ما يكفل نقل جيوشه مع مايلزمها من آلات القتال والمؤن والذخائر الى سواحل جزيرة العرب . أما الشريف غالب وهو الرجل الوحيد الذى كان باستطاعته أن يوافى والى مصر بما يحتاج اليه من السفن لنقل رجاله فقد كان أميل الى ناحية الوهابيين لأنهم لم يعتدوا على حقوقه وامتيازاته منه الى ناحية العثمانيين ، فلم يسع محمد على باشا تجاه هذا المأزق إلا أن يعقد النية على إنشاء أسطول له فى البحر الأحمر . وكان بدهيا أن تصبح السويس محورا للأعمال التى ترمى الى تحقيق هذا المشروع فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قصد محمد على باشا الى هذه المدينة ، لا لحمايتها من الطوارئ الممكنة فحسب بل أيضا للبحث فيما يمكن أن يراه متوافرا بها من الوسائل الكفيلة بإنجاح مشروعه .

أما هذه الوسائل فقد كانت فى حكم العدم بالمرة ، وهو ما نحن مضطرون الى الاعتراف به ، فقد كان محتوما استيراد لوازم إنشاء السفن بأجمعها من الخارج ، حتى الأخشاب والأسلاك . ومن ذا الذى لا ييأس ولا يعترى عزيمته الخور والوهن اذا نظر فوجد نفسه إزاء هذه الصعوبات ! ولكن محمدا عليا باشا لم تداخله الريبة قط فى نجاحه فقد اشترى من موانئ تركيا مالزمه من المواد الضرورية ووجه بها مع المكلفين بالعمل فيها الى بولاق فلما أتموا صنع أجزاء السفن ورقموها بالأرقام

الدالة على ترتيب أوضاعها نقلوها على متون الجمال فى قفر بلقع ، على مدى اثنين وثلاثين فرسخا .

”وانه ليتعذر على الذهن ادراك ما يعتور مثل هذا العمل من الصعوبات، فان القطعة الواحدة من قطع السفينة كانت لثقلها لا يمكن نقلها على أقل من أربعة جمال تسير صفًّا واحدا . واستخدم لهذا الغرض أكثر من ثمانية عشر ألف جمل نفق الكثير منها فى الطريق، لما نابها من التعب . وكانت رممها أو رفاتها منثورة على المسالك التى سلكتها من قبل، بين الكثبان الرملية وفى بسيط الفدافد . وكان اذا نفق بعض الجمال استعيض فى الحال منه بغيره حتى يظل ذلك العدد كاملا . وقد كللت هذه الجهود الشاقة فى نهاية الأمر بالنجاح، فان الأجزاء الآنفة الذكر ما كادت تركب فى مواضعها ويضم بعضها الى بعض حتى توافر لمصر فى أقل من عشرة أشهر أسطول فخم مؤلف من ثمانى عشرة سفينة شراعية كبرى بنيت على مثال يؤذن لها بحمل أكبر مقدار ممكن من الجنود والمؤن والذخائر (راجع تاريخ محمد على تأليف پول موريس المطبوع سنة ١٨٥٥) “ .

”وظلت السويس بعد ذلك بنحو عشرين سنة أخرى فى عزلة وكساد وسوء حال . وكانت الخواطر العامة منصرفة آنئذ الى العمل لاختصار الطريق بين انكلترا وبلاد الهند من ناحية رأس الرجاء الصالح . وكان مشروع شق برزخ السويس الذى أجمعت الآراء فى أوروبا على أنه خير وسيلة لاصابة هذا الغرض قد غض عنه الطرف بالنظر الى تعذر تنفيذه . وكدّ فطاحل الرجال أذهانهم للاهتداء الى حل تلك المعضلة بوسائل يكون فى مقدور الصناعة وقتئذ الاستناد اليها فى تنفيذ مشروع يؤدّى الى الغاية المقصودة من شق برزخ السويس مع سهولة إبرازه الى عالم الوجود .

قال شارل رو (فى كتابه برزخ وقنال السويس المطبوع بباريس سنة ١٩٠١ فى مطبعة هاشيت) ما يأتى :

" اقترحت حكومة بمباى فى سنة ١٨٢٣ على الحكومة العثمانية إنشاء خط للملاحة للسفن التجارية بين الهند والسويس فرفضت هذا الاقتراح لما داخلها من الشك ولأنها تظاهرت فى كل زمان بعدم الرضا عن جوب السفن الأوربية للبحر الأحمر. ثم عرض عليها الاقتراح نفسه فى سنة ١٨٢٦ فتلقته بالرفض كما تلقت الأول. وكان فى حامية كلكتا (قاليقوط) عامئذ ضابط يدعى اللفتننت واجهورن كانت تساوره على الدوام فكرة اختصار طريق الهند ولا تكاد تغيب لحظة عن خاطره . ولم يكن المبدأ الذى يقصد الى تأييده ويدعو اليه استخدام السفن التجارية فى البحر الأحمر اقتصادا للوقت الذى كانت السفن الشراعية تقضيه فى اختراقه . كلا ! فقد كان يعلم علم اليقين أن الملاحة فى هذا البحر ميسورة وبخاصة منذ جهر الرحالة الانكليزى بروس (Bruce) فى سنة ١٨٦٩ بأن الفضل فى رواج التجارة مع الهند منذ قديم الزمان يرجع الى هذه السهولة وأن أبسط الوسائل كفيل بتقصير مدة السفر، متى كان السفر عن طريق القطر المصرى وقد أيد مذهبه من ناحية أخرى بما كتبه روك الضابط البحرى فى سنة ١٧٨٢ بناء على خبرته الشخصية من أنه متى علم أن الطريق بين لندرة ومدراس قد قطع فى ثلاثة وستين يوما فمن المدهش أن يغفل انكليزى عن الانتفاع بمثل هذه المزية، وهى فى متناول يده . ثم انه كان بعد هذا وذاك ملما بما قامت به شركة الهند من المساعى وبذلته من الجهود فى البحر الأحمر لاصابة ذلك الغرض على أيدى القومندان مورسبى (Moresby) والقبطان روجرس (Rogers)

" وفى سنة ١٨٢٩ حصل واجهورن (Waghorn) من اللورد إيلنبورو (Ellenborough) أحد مديرى هذه الشركة إذنا يبيح له أن ينقل على نفقته صور

الرسائل المصدّرة عن طريق رأس الرجاء الصالح فكان يخترق بها أرض فرنسا أو إيطاليا ويركب البحر من مرسيليا أو من تريستة أو من جنوة أو ليفورنة قاصدا الى الاسكندرية ومنها كان يقصد الى السويس دون أن يضيع فيها دقيقة . وفى السويس كان يركب أوّل سفينة يرى أنها على أهبة السفر ويتجه فيها صوب بمباى أو كلكتا من بلاد الهند . وقد ظهر من هذا التجارب أنه ما من مرة استطاع البريد الانكليزى المسافر عن طريق رأس الرجاء الصالح أن يسبق البريد نفسه مسافرا الى الشرق الأقصى عن طريق مصر والسويس والبحر الأحمر . ومع أن هذه التجربة كانت جديرة بالرعاية والعناية فإن الحكومة البريطانية أعرضت عنها بجانبها ولم تعرها جانبا من التفاتها بل أذنت بتأليف شركة هى شركة بننسيولار الشرقية (P. & O.) التى كان لا بدّ لها من مزاحمة مشروع الضابط واجهورن فيما لو لقى إقبالا من الحكومة وميلا الى تعضيده وتنفيذه " .

" وحوالى سنة ١٨٣٩ انصرفت الخواطر كثيرا الى ضرورة إنشاء خط منتظم للمواصلات البحرية مع بلاد الهند . وقد ذكرنا فيما سلف أن شركة شرق الهند سيرت بين السويس وبمباى بعض السفن التجارية ولكن هذه السفن لم تكن من النظام والكفاية بما يرضى الجمهور أن يقوم بقضاء احتياجاته وسدّ عوزه . نعم إن مشروعات كثيرة اقترحت بغية الوصول الى نتيجة مرضية ولكن واحدا منها لم ينفذ ولم يخرج الى عالم الوجود إلا على أيدى شركة بننسيولار الشرقية الآنفة الذكر " .

" ولكن ربما كانت العقبة الكبرى فى تنظيم النقل عن طريق مصر وهو النتيجة الحتمية لانشاء الشركة خطوطها الشرقية . أما طريق النقل بالبر بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وهو المعروف بطريق (أوفرلند Overland) فقديم قد طرقه الناس منذ أقدم العهود التاريخية . إلا أن فضل تنظيمه على وجه يتفق وحاجات العصر

الحديث يرجع الى الضابط واجهورن (Waghorn) ولما بدأت الشركة أعمالها كانت التجربة فى بدايتها، ومع أن مسألة نقل البريد والمسافرين عن طريق مصر قد ثبت أنها من الممكنات فان الأهبة لم تتخذ لحلها بصفة جدية بالنظر لأن المعدات لم تكن تجاوزت بعد طورها الأول . أما الذين عرفوا طريق أوفرلند لقطعهم إياه فى السكة الحديد على برزخ السويس فانهم لايدركون بلا ريب شيئا من الصعوبات التى كان المسافر يلقاها قبل انشاء هذه السكة الحديدية ".

ويكفينا لهذه المناسبة الرجوع بذاكرة القارئ الى أن المسافرين الذين كانوا ينزلون من السفن فى الأسكندرية كانوا لا يصلون الى القاهرة إلا بعد سفر أكثر من يوم فى زوارق أو قوارب لاسطح لها. وكانت هذه المراكب تسير فى المحمودية بين الاسكندرية والعطف ثم بين هذه والقاهرة فى فرع رشيد أما الطريق من القاهرة الى السويس فيمتد فى الصحراء على طول تسعين ميلا ، وكان السفر فيه يستغرق ثمانى عشرة ساعة فى مركبات ذات عجلتين تسع الواحدة منها ستة من المسافرين وكان سيرها يتواصل فى مسالك لها لا يميزها مميز عما يكتنفها من الرمال ولا سيما اذا أرخى الليل سداله فكانت بذلك معرضة للانحراف عن قصدها . أما أمتعة المسافرين والبضائع الثمينة والبريد فكانت تنقل على متون الجمال وكذا الفحم اللازم لشركة پننسيولار الشرقية وهو ما تدعو روايته على الأسماع فى عصرنا الى العجب والدهشة.

قال لينان دى بلفون فى مذكرته عن الأعمال ذات المنفعة العامة فى مصر (ص ٤٨١ وما يليها) ما يأتى : "وفى سنة ١٨٤٩ صدر أمر الوالى عباس باشا الى لينان بك برَصْف الطريق بين القاهرة والسويس وهو الطريق الذى كانت تسير فيه مركبات النقل لتمكينها من قطع تلك المسافة بالسرعة والسهولة ودون أن يلحق بالخيل من التعب ما كان يفضى الى موت العدد الكبير منها .

„وكان الرصف بالحجر على عرض ثلاثين مترا ، وكان هـذا الحجر من النوع الأبيض الشديد التماسك ، وسمك الطبقة المتكوّنة منه عشرون سنتيا فى المتوسط . وكانت ترسو هـذه الطبقة على طبقة أخرى من رمل الصحراء الذى يخالطه الطفل على سمك خمسة عشر سنتيا . والى جانبى الطريق الموصوف على هـذا الوصف مجريان عرض كل منهما متران وقد خصصا لتصريف الماء فى حالة هطول الأمطار“ . »

„على أن الطريق بين القاهرة والسويس لم يرصف كله إذ كانت تتخلله أجزاء كثيرة تركت على حالتها الطبيعية لأن سطحها كان من المتانة وقوّة التماسك بما تفضل به على الأجزاء الأخرى المرصوفة لتكوّنها تكوّنا طبيعيا من الرمل والطَّفْل ومن الرمل الذى يحمل فى ثناياه المُغْرَة الحمراء وقطعا صغيرة من المواد الجِبْسية . وكانت تلك الأجزاء للأسباب الآنفة الذكر صلبة متماسكة تجرى عليها المركبات كما لو كانت تجرى على بساط ممدود فوق أرض مُمَهَّدة .

„وقد اقتصر فى إنشاء الطريق على ما وصل منـه الى المحطة الثامنـة أى على نصفه تقريبا حيث يوجد القصر الذى ابتناه المغفور له عباس باشا الذى بموته عطلت أعمال الرصف بالحجر للبـدء بمدّ السكة الحديدية التى كان لزاما أن تحـل محل ذلك الطريق الذى لم تكن منحدراته ولا اتجاهاته تساعد على السرعة فى إنجاز الخط الحديدى وظل الطريق المرصوف على الحالة التى وصف بها فى بادئ الأمر إلا أجزاء منـه سطت عليها يد السيل فاكتسحتها .

„وكان أوّل انشاء السكة الحديدية فى القطر المصرى على عهد المغفور له محمـد على . ولم يكن الغرض المقصود منها سوى العمل لتنفيذ مشروع الخط بين القاهرة

والسويس، وهو المشروع الذى لم ينفذ قط واقتصر منه على قسم صغير استخدم في جلب الأحجار من محاجر طره .

" وفى أيام المغفور له عباس باشا بدئ بمد الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة وبالخط من القاهرة الى السويس رأسا . ومع أن هذا الخط أقصر الخطوط بين المدينتين بالنظر لاتجاهه على استقامة واحدة تقريبا فقد كانت له عيوب جمة منها انعدام المياه فيه، مما قضى بتسيير قطرات خاصة لجلب المياه الى المحطات وتزويدها إياه لحاجة القاطرات، وفى جلبه على هذا الوجه ما استدعى بذل المال الكثير والنفقات الطائلة . وكانت القاطرات البخارية فى سيرها بين الجهتين مضطرة الى الصعود فى المنحدرات وهو ما كان يقتضى استخدام القاطرات القوية ، فضلا عن أنه طول مدة سفرها بين المدينتين لم تكن تقف فى محطة مّا لأن الجهة التى تخترقها قَفْر بَلْقع ليس فيها من الناس ولا من البضائع ما يدعو الى تعيين نقط للوقوف عندها بين مسافة وأخرى .

"ومن البدهى أنه لو كانت ترعة المياه العذبة ممتدّة حتى السويس فى الوقت الذى أنشئت فيه السكة الحديدية التى نحن بصدد الكلام عليها وسط الصحراء ، لما اتجهت الأفكار إلا الى مدها على ضفاف تلك الترعة . لذا بادر صاحب السمو الخديو، وقد أيقن فضل الطريق الثانى على الأول، باستبداله منه " .

وقد كان إنشاء السكة الحديدية بين القاهرة والسويس عن طريق الصحراء فى سنة ١٨٥٧ فاستمر استغلالها أحد عشر عاما أى الى سنة ١٨٦٨ وعند ما أنشئت ترعة المياه العذبة فى سنة ١٨٦٣ انتزعت قضبان ذلك الخط الحديدى فى سنة ١٨٦٩

ومدّت بجوار الترعة وبقى مكانها فى الصحراء من خير الطرقات التى تستطيع المركبات السيارة اقتفاء أثرها فيما بين القاهرة والسويس [1] .

وفى ذلك الحين نفسه قامت شركة المساجيرى مريتيم ، (Messageres Maritimes) وكانت تسمى وقتئذ بشركة المساجرى أمبريال ، بتنظيم خط للمواصلات البحرية بين السويس والشرق الأقصى وأنشأت فى هذا الثغر توكيلا لها ومستودعات لإيداع البضائع ومعامل لترميم السفن وإصلاح آلاتها وأدواتها . وعلى هذا فقد أخذت الحالة القديمة التى أخل بنظامها استكشاف طريق رأس الرجاء الصالح ترجع شيئا فشيئا الى سابق عهدها من حيث الاتصال بين الشرق والغرب عن طريق مصر . غير أنه لم يكن شرع الى ذلك الحين فى أى عمل بحرى يراد به جعل مرفأ السويس ملائما لتردّد السفن عليه، وكل ما فى الأمر أن السفن كانت ترسو فى مرفئها الأمين الهادى . وكان ركابها ينقلون منها الى السويس فى الزوارق الصغيرة على بعد خمسة كيلومترات . ولم تلبس المدينة ثوبا قشيبا من الجدة كان يدعو اليه تبدّل أحوالها إذ كانت طرقاتها قذرة ومنظرها تعافه النفس .

ولكن نطاقها كان يتسع شيئا فشيئا تحت تأثير نهضتها التجارية البحرية . فقد كان عدد سكانها فى سنة ١٨٦٠ لا يتجاوز ٥٠٠٠ نسمة، فلما فتح قنال السويس فى سنة ١٨٦٩ ووصل به ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر علا لها شأن وكادت تصل الى ما لم تحلم به قط من الارتقاء ولم تكن ترجوه من الثروة والسعادة . وليس ذا بالأمر المنكور فانها كانت على وشك أن تصبح مركزا لتفريغ البضائع التى برسم القطر المصرى . ومن ثم كان مما لابد منه النظر فى تزويد السويس بالشىء الكثير من المنشآت والتنظيمات البحرية .

(١) ان طريق الخط الحديدى فى الصحراء هو غير الطريق الذى تمر عليه المركبات الآن .

⁂

الى هنا انتهى كلام المسيو جاستون جوندى الذى حلينا رحلتنا ببياناته القيمة عن ثغر السويس قديما وحديثا . ولنذكر الآن تعليقا عليه أنه أغفل الكلام على هذا الثغر من حيث نشأته الأولى أو لم يذهب فيه الى حكم جازم، فان أمر تعيين مواقع المدن والمراكز القديمة الآنفة الذكر وهى هيروبوليس وأرسينوة وكليوپاتريس وكليسما أى القلزم، وكذا الزعم القائل بأن برزخ السويس كان فى الزمن الغابر أضيق منه الآن وأن مياه البحر الأحمر كانت تصل الى البحيرات الملحة وأن هيروبوليس وأرسينوة كانتا واقعتين فى الشمال على مقربة من هذه البحيرات فمن الأمور المختلف فيها بين المؤرخين والباحثين فى هذا الموضوع على الوجه الذى أورده جاستون جوندى فى مذكرته السابقة . وإنما الذى لا شك فيه ولا مرية هو أن مدينة السويس ليست هى هيروبوليس ولا أفاريس ولا أرسينوة ولا كليوپاتريس . فان الموقع الحالى لها أقرب الى الاثنتين الأخيرتين منه الى الأوليين ، مع ملاحظة ما ذهب اليه العلامة ڤيڤيان دى سان مارتان (Vivian de St. Martin) من أن أرسينوة إنما هى كليوپاتريس .

أما تاريخ مدينة السويس الحالية فانه بالاطلاع على بعض المصنفات العربية والافرنكية لم نهتد الى حجة قاطعة بشأن تاريخ تأسيسها . وكل ما يمكن استنتاجه فى هذا الصدد هو أنها بدأت كأكثر القرى والمدن، فبعد أن كانت مجموعة من الاكواخ لصيادى الأسماك تكوّنت شيئا فشيئا فى الجزء الجنوبى أو على مقربة من هذا الجزء للمدينة التى عرفت باسم القلزم ، وكان ذلك على عهد الخلفاء الفاطميين كما ورد فى الخطط . وكان أوّل من ذكر اسم مدينة السويس مؤلف من العرب أورد اسمه العلامة كاترمير (Quatremère) كما أن أوّل من ذكر اسم مدينة كليسما

هو بطليموس الفلكى (Ptolémée) كما جاء فى مصنفات فقيان دى سان مارتان والقلزم كلمة محرّفة منها . ولما نشأت السويس كانت نشأتها فى بادئ الأمر كقرية ثم اتسع نطاقها فصارت مدينة عرفت بهذا الاسم واندثرت بنموها واتساعها بلدة القلزم ، اذ انضاف موقعها كله أو بعضه الى دائرتها ، لأن امتداد أبنيتها كان الى الجهة الشمالية الغربية حيث موقع القلزم أوكليسما القديمة على الأرجح أكثر منه الى أية جهة عداها .

وجاء فى المقريزى " ويعرف الآن موضعها بالسويس تجاه عجرود " . وذكر الاصطخرى أيضا مدينة القلزم فى كتابه المصنف فى القرن العاشر من الميلاد ولم يشر الى السويس بكلمة . ولكن يظهر أنه بعد أن كانت السويس من ضاحية القلزم انعكست الآية بالتدريج فصارت هذه من ضاحية تلك .

ومن جهة أخرى فان البحث ، من الوجهة الكرتوغرافية ، يثبت أن أحدث الخرط التى ذكرت فيها مدينة القلزم كانت فى القرن ... ... من الميلاد بينا الخرائط الأولى التى ذكرت السويس فيها يرجع تاريخها الى القرن ... ... منه . وهو مايؤخذ منه ولو بصفة غير قطعية ، أن السويس التى وجدت وسميت بهذا الاسم قبل رسم الخرائط الحديثة ولو بزمن يسير ، لم تكن لتستحق أن يشار اليها فيها بخلاف مدينة القلزم فان اسمها لم يهمل إلا فى المدّة الواقعة بين سنتى ... ... وبناء عليه فاذا رجعنا الى نظرية اتساع برزخ السويس على التدريج بايغال الأرض فى البحر من جهة الجنوب وانحسار هذا عنها ، واعتمدنا على نظرية اضطرار دولة البطالسة الى انشاء مدينتهم أو ثغرهم جنوبى مدينة أو ثغر كان قد أنشئ فى عهد سابق على زمنهم على خط من خطوط العرض الشمالية ممتد فى شمال المدينة اليونانية الآنفة الذكر لأيقنا أن انشاء مدينة جديدة كالسويس فى الجهة الجنوبية لنقطة مثل كليسما

أو القلزم أقدم منها عهدا، أقرب الى الظن من انشائها فى شمالها . وهو ما يستنتج منه بالبداهة أن البحر كان ينكشف عن الأرضين وأن العمران كان يتبع أثره فيها.

وللوقوف على الخرائط والتواريخ الباقيــة بدون تعيين فى أوّل هــذه الصحيفة راجع المجلد الثانى من الجزء الثانى من المجموعة الكمالية فى جغرافية مصر والقارة الأفريقية لصاحب الرحلة والمجلد الأوّل والثـانى والثالث من الجزء الثالث من المجموعة الكمالية أيضا .

عــود الى الرحــلة

فى منتصف الساعة السادسة من صبيحة يوم السبت الموافق ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ تحركت الباخرة "نازپرور" من مرساها فى مرفأ السويس آخذة سمتها الى بوغاز باب المندب فبربرة ببلاد الصومال البريطانيــة أو بلاد البرابر الواقعة على طريق رحلتى حول القارة الأفريقية للصيد والقنص فى غاباتها وآجامها . وكان الجو صفوا والبحر هادئا سارت فيــه السفينة بين شطرين من الجبال الشامخات فبلغنا فى الظهــيرة الى نحو منتصف المسافة بين رأس الزعفران ورأس الغريب والتقينا فى طريقنا بجملة من السفن البخارية .

وفى اليوم التالى وصلت باخرتنا الى نقطة تقاطع الدرجة ٢٤ والدقيقة ٢٢ من العرض الشمالى بالدرجة ٣٦ والدقيقة ١٥ من خط الطول الشرقى. وكان الجو لا يزال معتدلا والسماء صافية الأديم إلا فى نقط منها حجبت السحب عن عين الرائى قرص الشمس، فألقت على رقعته من البحر بساطا من ظل ظليل .

وكنا فى خلال ذلك نقطع بعض الوقت فى المطالعة وتحرير هذه الرحلة والبعض الآخر فى استجلاء مجالى الطبيعة فاذا أخذنا من هذه الأشاغيل بالقسط الأوفى وكَلَّتْ عقولنا عمدنا الى الغراموفون . وما أقبل المساء حتى تلبَّدت السماء بالسحب والغيوم ولمعت من خلالها البروق ونزل المطر رذاذا وهاج البحر وأثر هياجه فى أمزجة رفقتى فهبطوا مستقراتهم من السفينة وبقيت أنا فى مكانى وحدى .

وفى يوم الاثنين ٢٢ ديسمبر بكرت الى ظهر البــاخرة وحدى بينما كان الباقون رقودا فى أسِرَّتهم وكذا الخــدم . ولكن النبيل عباس حليم أنس من نفســه القدرة

على المقاومة فكافح ذلك التأثير فغلبه وصارعه فصرعه وبذا استطاع أن يتناول معى طعام الغداء حيث كنا ، والوقت ظهرا والحر شديدا ، داخل الغرف خصوصا . وما أقبلت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى كنا على عرض أريتريا الايطالية . وفى هذه الآونة غادر مرقده كل من الطبيب وعلى بك شريف وهما بحالة خير مما كانا بها .

هذا وكانت جبال الساحل الأفريقى فى أثناء ذلك تمر من يميننا تباعا منطبقة على مرآة الأفق شامخة الى السماء بقممها العالية ومنحدراتها الحجرية الجرداء البعض منها صفراء اللون والبعض الآخر سنجابية . وما كانت عين الرائى ترتاح لشيء بعد هذا المنظر سوى طير يبدو من آن الى آن فى الطبقات العليا من الجو ناشرا جناحيه أو سمكة تطفر من وسط الماء فتنعكس على جسمها الفضى أشعة الشمس منبعثة بلألاء يبهج الأبصار .

واذا كنا نمخر الآن عباب البحر الأحمر فلسنا نجد بأسا من إيراد بعض البيانات عن أحوال هذا البحر وأسباب وصفه بهذا الوصف فنقول : إنه تكثر بشواطئه الجزر الصغيرة والشعاب والمكوّنات المرجانية . والسفن اذا سارت فيه تتوخّى الوسط حيث يعمق الماء ويتسع عرض مجراه العميق ولكن الحرارة فيه تكون شديدة . وتهب الرياح فى البحر الأحمر عادة من الشمال الغربى فى ثمانية أشهر من السنة ومن الشمال الشرقى فى الأربعة الباقية . وربما كان البحر الأحمر من دون البحار هو الذى لا تترافد المياه اليه من بحار أخر بالمرّة تقريبا لا سيما وأن المطر فيه نادر فى حين أن التباخر منه عظيم وهذا هو ما يجعل ماءه شديد الملوحة لغلبة الملح على الماء . واذا كانت الملاحة فى البحر الأحمر مما يستدعى المشقة لشدّة الحرارة فانها من جهة أخرى لا تخلو من المعجب والمغرب بطبيعة الوسط مائه وأرضه وسمائه وحيوانه .

أما سبب وصف البحر الأحمر بهذا اللون فقد اختلف فى تعليله العلماء والمؤرخون فقد ذهب الكثيرون من الجغرافيين الى أنه سمى كذلك بسبب لون مائه. ولكن ذهب غيرهم الى غير هذا المذهب فقال نيبور (Niebuhr)[1] : "إن ماء البحر الأحمر المعروف قديما بمارى روبرا (Mare rubra) ليس بأشد احمرارا من البحار غيره . ولا ريب فى أنه فى بعض الأحوال وعند ما تطفو على وجهه الحشائش البحرية يكسوه انعكاس الضوء عليه لونا أحمر . وقد شهد ذلك الدكتور فونتانى فى سنة ١٨٤٣ على مسافة طولها ٤٧٥ كيلومترا فعلل هذا اللون بالحشائش البحرية .

ثم إن فى البحر أجزاء رملية وصخورا حمراء اللون بذاتها، وقد ينعكس عليها لون السماء اذا كانت متلونة بحمرة الشفق فيبدو لونها هى أيضا ضاربة الى الحمرة . أضف الى ذلك ضوء الجبال والصخور ، فقد يكون هو السبب الذى لأجله سمى البحر الأحمر بحر أريثريا ، وهو الاسم الذى كان الافرنج يطلقونه على ما يحيط بجزيرة العرب من البحار حتى الخليج الفارسى نفسه .

وزعم آخر أن وصف البحر الأحمر بهذا اللون يراد به معنى الحرارة على سبيل الكناية . ولكن سواد المفسرين المحدثين أجمعوا على أن وصف هذا البحر بالأحمر ناشئ عن تسمية سكان سواحله فى الزمن الغابر بالحمر بكلمة (أيدوم) باللغة العبرية وحِمْيَر المشتقة من كلمة أحمر العربية تفيدان هذا المعنى . وكذا كلمة پونت أوفون وهى اسم قبيلة كبيرة من قبائل كنعان بالخليج الفارسى كانت ترسل قوافلها الى سواحل البحر الأحمر وخليج عدن وأفريقية وتؤسس فيها المستعمرات . وقد أطلق المصريون اسم پونت على بلاد العرب والصومال لهذا السبب .

---

(١) سائح ألمانى (١٧٣٣ — ١٨١٥) .

ولما وصل الكنعانيون الى سواحل البحر المتوسط واستقروا فيها أسماهم اليونانيون بالفونيكس أى الفينيقيين وانما وصفهم الرومان بالپونيين (Puni) نسبة الى قرطاجة .

ومن الأسماء التى أطلقها المصريون على البحر الأحمر (كيتى). أما فى التوراة فقد أطلق عليه اسم (يام سوف) أى بحر النهاية، والعرب فى وقتنا الحاضر يطلقون على بعضه أسماء مختلفة فيقولون : بحر السويس و بحر العقبة و بحر الحجاز و بحر ينبع و بحر جدّة أو بحر المقّاق ، أما فى الجهة الجنوبية من البحر الأحمر فقد اشتهر باسم بحر اليمن [1] .

(١) ولقد شهدت احمرار لون البحر الأحمر بمساحات صغيرة أثناء أسفارى به اهـ .

مستعمرة أريثريا (ÉRYTHRÉE, ERITREA) الايطالية

تبتدئ هذه المستعمرة من بعد مائة ميل وعشرة أميال تقريبا جنوبى سواكن. ويحدها شمالا السودان المصرى وغربا هذا السودان والحبشة وجنوبا الحبشة والصومال الفرنسى ومستعمرة جابوتى (Jibuti) وشرقا البحر الأحمر، وهى كائنة بين درجة ١٨ والدقيقة ٢ من العرض الشمالى شمالا ودرجة ١٢ والدقيقة ٤٢ من العرض الجنوبى جنوبا . ومساحتها خمسة وأربعون ألفا وثمانمائة ميل مربع تقريبا. وعدد سكانها ٣٥٠٠٠٠ نفس تقريبا منهم ١١٥٠٠٠ من الحبشان . أما الأوربيون فعددهم من ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠

أوصافها الطبيعية :

تكثر الصخور بشواطئ أريثريا والجزيرات التى اليها ، خصوصا فى جهات مصوع . وتستوى الأرض بنقطتين بحريتين وهما خليج أنسلى وخليج عصب (آصاب Assab) وتمتد سلسلة الجبال الحبشية شمالا الى البحر، وتتخللها فيما وراءها سهول فسيحة قاحلة .

ونهيراتها لا تصل الى البحر، ولكن مياهها تجف فى سهلى العُلَى شمالا والعُوْسَا جنوبا . ويجرى نهر الهواسن فى وسط منطقة العُوْسا متجها الى الشمال الشرقى .

جبالها وسهولها :

ويجنوب بحيرة لباد بركان اسمه أرطالى وفى الشمال الشرقى منه بركان آخر اسمه أفديرا كان الى سنة ١٩٠٧ يندلع منه لسان اللهيب . وعلى الشاطئ بركان دوبى

وكان الى سنة ١٨٦١ مشتعلا ثم خمدت ناره وبجنوب ميناء العدّ (Eid) بركان اسمه أليد فبركان دوبى. والأول بالأملاك الايطالية أما القسم الأعظم من عَفَار فللحبشة.

وبالقرب من خليج أنسلى أراض خصبة كثيرة المياه. وأعظم ارتفاع لجبال أريثريا لا يتجاوز عشرة آلاف قدم تقريبا. وتسمى السهول الكائنة بجوار مصوّع (Massawa) بالحمازن.

وتسمى السهول الشاطئية الشرقية بسَمْهَر وهى رملية ويكثر بها نوع من شجر السنط.

أنهارها :

يخترق أريثريا فرع من عَطْبَرَة يسمى نهر السّتيت (Setit) وهو الحدّ بين الحبشة والسودان ثم نهر القاش (Gash) ويجفّ ماؤه فى الصيف. وبالقرب من أَسْمَرَه فى الحمازن يجرى نهران هما نهر بركة (Khor Barakah) وانسيبا (Anseba) (عينسيبا)، ثم الهواش (Hawash) ويصب عند الفيضان فى المحيط بالقرب من أدوليس (Adulis) الكائنة بخليج عسيبو.

طقس أريثريا :

يختلف طقس هذه البلاد باختلاف الجهات، ففى السواحل تكون الرطوبة الحارة شديدة، وبالأخص فى أشهر يونيو وسبتمبر وأكتوبر، ثم تهبط الحرارة بين شهرى نوفبر وأبريل، وتكثر حمى الملاريا فى الشتاء. والحر شديد جدا فى مصوّع إذ تبلغ درجته بالظل فى أثناء فصل الصيف ١٢٠ درجة من ميزان فارنهيت، أما بالأوديه وفى الجهات العالية قليلا فيكون الطقس أكثر اعتدالا والحرارة أكثر انخفاضا وتكثر الأمطار فى الصيف كما تكثر فى الشتاء بالجهات القريبة من

الشواطئ وتزداد الأمطار هطولا بهذه الأقاليم فى شهر أغسطس وتشتد الحرارة فى شهر مايو . أما الجهات الجبلية العالية فالطقس فيها بارد نوعا ، ويندر بها المطر فى الخريف ، أما الأمطار الغزيرة فيكون هطولها من شهر يونيو الى سبتمبر . ويكون الحر شديدا فى أثناء الجفاف أى من نوفمبر الى أبريل . واذا صعد الانسان الى ٨,٥٠٠ قدم أحس بالجو شديد البرد .

نباتاتها وضواريها :

تختلف نباتات البقاع المنخفضة عن نباتات إفريقيا الحارة . أما بالسهول المرتفعة فتشبه ما ينبت بالجهات المعتدلة الطقس . وينبت الزيتون بالسهول العالية . ويكثر الجميز بتلك الجهات والذرة بالجهات المنخفضة . وكذا البُلْتُق . وتكثر أشجار الدَّوْم فى الجزء الشمالى وبالأخص فى خورَ بَركة .

أما ضواريها فالأسد منها موجود بالجهات المنخفضة وكذا الفهد والفيل وطائفة كبيرة من الحيوانات ذات القرون ، ومن الحيوانات المستأنسة الجمل والبغال والغنم .

سكانها :

أما الأودية والبقاع المنخفضة الكائنة بجوار الجبال فسكانها قبائل رحالة تدين بالإسلام . وأما الشمالية فيسكنها العرب من سلالة حام ، ومنهم بنو عامر ثم قبائل زنجية عديدة . أما العفار والصوماليون فربما كانوا خليطا من الدَّنْكَل والزنوج والعرب إذ تختلف أشكال الصوماليين باختلاف البلاد التى يعيشون بها على الشاطئ الإفريقى الشرقى (راجع قاموس الجغرافيا لفيفان دى سان مارتان (Vivian de St. Martin) ومصنفات اليزيه ركلوس (Elysée Reclus)

وليون متشنيكوف (Metchnikoff) و بوليتشكه (Paulitschke) فانهم يعيشون فى الجهات الجنوبية . وسكان الجبال هم الأحباش وصناعة البلاد الحصر والأنسجة القطنية والمصنوعات من الفضة والحديد والجلد .

مدنها :

أشهر مدنها مَصَوّع ، وكانت مصرية ثم أعطاها الانكليز لايطاليا سنة ١٨٨٥ وعصب أو آصاب (Assab) وهى عاصمة إقليم الدنكل أو أدوليس القديمة ، و بالساحل توجد أَسْمَرَة (Asmara) وهى عاصمة المستعمرة كلها فى الوقت الحاضر . وتعلو على سطح البحر بسبعة آلاف وثمانمائة قدم . وهى مشيدة على النمط الأوربى ثم كِرِن (Keren) بقرب نهر أنسيبا (عينسيبا) وأغوردات (Agordat) على نهر أو خور بَرَكَة ، على طريق كسلا . وهى أهم مدن بلاد بنى عامر وقبيلة الفدين وسبدرات . ثم موغولو بالمارب الجنوبى . وهى مركز قبيلتى الباريا والبازا . أما المدن الكائنة بقرب بلاد الحبشة فسفانيتى وهى عاصمة إقليم أكلقزاى . وجودو فلاسى وأُدى أوجْرى وأُدى كولو وأراسا .

زراعتها وتجارتها :

تكثر الأغنام والأبقار عند القبائل الرُّحَّل . وتنبت أغلب البقول بالأراضى المرتفعة . والأحباش يحسنون الزراعة والرى الصناعى . و يزداد عدد الفلاحين الايطاليين فى الوقت الحاضر بالجهات المرتفعة . و يزرع هنا القطن والدخان والشاى ، و يصنع الشمع الخام . و يوجد الصمغ والعاج واللؤلؤ وان كان دنىء

النوع، ويوجد الذهب بقرب أَسْمَرَه والملح بالبحيرات المالحة الكائنة ببلاد أوسان وببلاد الدنكل[١] .

طرق مواصلاتها :

تتصل مدينتا مصوّع وأسمره معا بسكة حديدية طولها خمسة وستون ميلا . وهناك مشروع بمدّ هذا الخط حتى يبلغ الى مدينة كسلا السودانية . أما طريقة النقل فالبغال غالبا لكثرتها وشيوع استعمالها بتلك البلاد والحبشة . وأشهر الطرق ثلاثة وهى الطريق من مصوّع الى أسمره، ثم الى بلاد الحبشة وفرع آخر من أسمره الى كسلا فالخرطوم . وهو الطريق الذى سلكه الايطاليون لما احتلوا كسلا قبيل فتح السودان وتحف بالطرق أسلاك التلغراف، ثم طريقان من خليج عصب الى جنوب الحبشة وهناك خط تلغرافى بين مصوّع وأديس أبابا .

إدارتها :

أريثريا تابعة لوزارة خارجية إيطاليا فى إدارة شئونها ويحكمها حاكم ملكى وتنقسم الى ست مقاطعات على رأس كل منها حاكم . أما الواقعة منها على حدود الحبشة أوحدود السودان فلها إدارة خاصة وهيئة لاستقصاء الأخبار (قلم مخابرات). والستة الأقسام السابقة الذكر هى : أوّلا أسمره وتدخل فى حدوده حمازن وغيرها من الأقسام الصغيرة ، وكِرِن (Keren) وتدخل فيها الآكام الواقعة شمالى أَسْمَرَه وبلاد البُغُوس ،وإقليم مصوّع الذى يحتوى المنطقة الواقعة بين الجبال العالية والبحر ويندرج فيها قبائل الِحباب (الأصحاب) والدَّنْكَل . ثم عَصَب وتمتد من أدى الى

---

(١) وقد آثرنا كتابة كلمة الدنكل هكذا لأنها برسمها وردت فى بعض المؤلفات العربية فقد قال أحمد ابن ماجد شهاب الدين الملقب بأسد البحر فى أرجوزته ما يأتى :

من بر سعد الدين والدنكل معا * جزر اليمن ثم التهائم أجمعا

رحيتة (Raheita) ثم اكلقزاى وهى البلاد الكائنة فى الجنوب الشرقى من أسمره ثم سيزه وضمنها دكى طفسا وهى البلاد الكائنة فى الجنوب الغربى من أسمره .

وإيراد البلاد لا يزيد كثيرا على مائة وعشرين ألف جنيه . أما مصاريف الادارة فتبلغ ثلاثة أمثال الايراد على الأقل .

نظامها التشريعى :

التشريع الابتدائى موكول به الى رؤساء القبائل أو مشايخ الجهات أو الهيئات المشكلة من الأعيان ، أما التشريع الاستئنافى فالى النائب عن الحكومة أو محاكم الأقاليم وأما النقض والابرام فالى المحكمة العليا . والأوربيون يسرى عليهم القانون الايطالى .

وقانون العقوبات هو القانون الايطالى الا فى بعض الاحوال التى يستمد فيها من عادات الأهلين وتقاليدهم . ويطعن فى الاحكام أمام محكمة النقض والابرام بروما .

وسائل الدفاع :

بهذه البلاد فرق من جيش المستعمرات جنود بعضها من الايطاليين والبعض الآخر من الوطنيين . وهناك قوة من المستحفظين الذين خدموا فى الجيش .

وينص القانون على أن يكون كل رجل تحت تصرف السلطة العسكرية عند الاقتضاء .

وحراس المندوبين أو المستخدمين الموجودين بالنقط الصغيرة ليسوا من السلك النظامى ، وإنما هم تحت قيادة رؤساء القبائل والمشايخ . يضاف الى هذه القوات الحاميات الايطالية بالمراكز الكبرى ثم قوة خفر السواحل .

تاريخ أريـــثريا

يشهد التاريخ بأن الجيوش المصرية فى عهد الفراعنة دخلت أراضى أريثريا . أما فى عهد البطالسة فقد كانت سفنهم تمخر عباب البحر الاحمر وتجلب منها صنوف البضاعة ولا سيما العاج والفيلة . وكان ثغر برينيس (Berenice) أو (أدوليس) تحت حكمهم ثم تنحوا عنه . أما فى عهد الرومان فقد كانت أريثريا جزءا من حكومة مسـتقلة كانت تعرف باسم مملكة الاكسوميين أو الأساميين . وكانت البـلاد فيما بين سواكن و بوغاز باب المنـدب داخلة فى نطاق هـذه المملكة وتتجر مع مصر . وكانت السكة تضرب باسم صاحبها الذى كان يلقب نفســه بلقب ملك الملوك وكانت لغتها الرسميــة اللغة اليونانية . وكانت علاقاتها مع الدولة الرومانية حسـنة فى عهد نيرون أو قبل عهده بقليل .

والأكسوميون من سلالة حام . وقد هاجر الحميريون الى تلك البلاد، ولهـذا السبب يتضح أن اللغـة الجيزية أى الحبشية القـديمة وما تفرع عنهـا من اللغات كاللغة الأمحرية واللغـة التّجْرِية ترجع الى أصل سامىّ (نسبة الى سام)[١] ولكنهـا تغيرت بما طرأ عليها من دخيل اللغة الحامية (نسبة الى حام) المعروفة بأجو[٢] .

وفى الطريق الموصـل من أدوليس التى كانت المرفأ الاصـلى لمدينة أكسوم (Aum) العـاصمة (أكسوميس)[٣] تشاهد أطلال مدن وآثار كتابات حميرية وخاصة

---

(١) اللغات الأصـلية التى يتكلم بها أهل الحبشــة هى الأمحرية والتجرية والجلاوية والصومالية ولكل منها لهجات وألحان كثيرة . (٢) معنى هذه الكلمة (الاحرار) وهى اسم لبعض القبائل أيضا .

(٣) كلمة أكسوم ترجى برسمها الى ذهن القارئ أن أصلها يكسوم، اسم يكسوم بن الأشرم الذى حكم على الحبشة حتى سنة ٢١ من الهجرة النبوية . وهذا يفيد أن تسمية مدينة أكسوم به يرجع الى ماحوالى ظهور الاسلام . والحقيقة غير ذلك فان المدينة موجودة من عهد الرومان أى قبل ظهور الدين الاسلامى ببضعة قرون بدليل تسميتهم اياها أكسوميس فليست كلمة أكسوم العربية . كما انها ليست مشتقة من اسم علم .

بجهة القايتْ كما ترى الست المسلات التى بجهة تكونده ومسلة منقوشة بالحروف الكتابية فى جهة أمْبا سعيد . وفى بقاع أخرى آثار غير التى تقدم ذكرها عليها كتابات من العهد الاكسومى مكتوبة بالحروف اليونانية والحبشية، ونقود قديمة مكتوبة بهاتين اللغتين . ولما دخلت الدولة الحبشية فى دور الرقى وتطورت بطور الحضارة أصبحت أكسوم جزءا منها، غير أنها كانت مستقلة استقلالا ذاتيا كما يشهد بذلك البرتغاليون فيما كتبوه عن هذه البلاد أيام حلولهم بها فى القرن السادس عشر . (انظر المجموعة الكمالية لصاحب الرحلة) .

وبيان ذلك أن ميخائيل وزير الملك سليمان كان قابضا على زمام الحكم فى البلاد الواقعة شمالى المارب (Mareb)، فاغتصب الملك فى أيام حكم الملك أنْزيه جاز والثانى (١٧٢٩ — ١٧٥٣) وبعد أن تلقب بلقب الرأس على إقليم تِجْرَه (Tigre) وعهد زمام الملك فى المارب الشمالى الى رجل من أعداء الأسرة الحاكمة وقتئذ عليها، شب ضرام الخلاف بين الأسرتين ووقعت بينهما معارك خرجت أقاليم السواحل عقبها من قبضة الجيوش . وفى القرن السادس عشر استولى الاتراك على زيلع ومصوّع، ولم تعد هاتان المدينتان من ذلك الوقت الى حكم مملكة الحبشة .

وفى سنة ١٨٦٥ وقعت مصوّع وما جاورها من البلدان فى قبضة المصريين، وكان فى نية الخديو اسماعيل التوصيل بين مصوّع والنيل بسكة حديدية . وقد استولى المصريون على كِرِن (Keren) والبُغُوس (Bogos) فى سنة ١٨٧٢ أى على عهد النجاشى يوحنا . ولكن الجيوش المصرية خذلت فى الحرب سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ فى غُنْدِتْ وجودو . وكان ولد ميخائيل حاكم البغوس يحارب مع النجاشى يوحنا بِغُنْدِت ثم مع المصريين وضد النجاشى بجودو وقضى بعد ذلك سنتين فى معاكسة النجاشى ثم انتهى الأمر به الى تقديم الطاعة اليه فسجنه النجاشى مدّة من الزمن

ولكنه تمكن من الفرار . وكان الملك يوحنا أعطى فى سنة ١٨٧٩ بلاد ولد ميخائيل هذا للرأس ألولا فبق ألولا حاكما على هذه الأقاليم حتى احتل الايطاليون أسمره فى سنة ١٨٨٩

أما الحامية المصرية فقد بقيت بكرن الكائنة بأقليم البغوس حتى سنة ١٨٨٤ ثم انسحبت منها كما انسحبت حاميات غيرها من بلاد السودان عقب الثورة المهدية واحتل الأحباش اقليم البغوس بعد جلاء المصريين عنه .

وفى سنة ١٨٨٥ احتلت حامية ايطالية مدينة مصوّع بموافقة الحكومة البريطانية فرجعت حاميتها المصرية الى مصر . وكان احتلال الايطاليين لثغر مصوّع عنوان نشوب الحرب مع الأحباش إذ به بدأ تأسيس المستعمرة الايطالية المسماة أريثريا .

على أن مصوّع لم تكن أوّل محطة ايطالية بأفريقيا الشرقية فان شركة الملاحة المعروفة باسم روباتينو كانت قد اشترت من السلطان ريحان صاحب رحيطة منطقة عصب فى سنة ١٨٧٠ ، فاعترضت مصر وتركيا وانجلترا على هذا التصرف كما اعترضت عليه أيضا الحكومة الهندية ولكن ايطاليا لم تلتفت الى هذه الاعتراضات ولم تعبأ بها إذ أصدرت حكومتها أمرا ملكيا عاليا بتاريخ سنة ١٨٨٢ باعتبار عصب مستعمرة ايطالية . وفى المدّة من سنة ١٨٨٣ الى ١٨٨٨ عقدت جملة معاهدات بين ايطاليا وسلطان العُوْسا تنازل هذا لايطاليا بمقتضاها عن بلاد الدنكل واعترف بحمايتها عليها وهذه البلاد هى التى يخترقها الطريق الموصل من خليج عصب (Assab) الى اقليم شوا (Shoa) .

وفى سنة ١٨٩٠ صدر أمر ملكى ايطالى آخر باعتبار جميع الأراضى التى دخلت فى حوزة ايطاليا من سواحل البحر الأحمر اقليما واحدا وتسميته بمستعمرة أريثريا وقد اشتق هذا الاسم من كلمتى (أريثروم ماروم) أى البحر الحبشى وهو الاسم الذى

كان يطلقه الرومان على البحر الأحمر وكانت صبغة الحكومة الايطالية فى أول عهد احتلالها لتلك الأصقاع أو ملكيتها إياها عسكرية بحتة .

وفى المدة من سـنة ١٨٩٨ الى ١٩٠٠ أى بعد أن هزم الأحباش الايطاليين فى ميادين القتال أبدل من نظام الحكم العسكرى بنظام الحكم المدنى. وفى سنة ١٩٠٠ عينت الحدود الفاصلة بين الأملاك الايطالية والأملاك الفرنسية وعقدت اتفاقات مع كل من حكومتى الحبشة و بريطانيا العظمى . وفى سنة ١٩٠٢ عقدت شروط بين ايطاليا والحبشة و بريطانيا العظمى ضمت بمقتضاها بلاد كفاما الواقعة على الضفة الشمالية لنهر الستيت الى مستعمرة أريتريا . وفى سنة ١٩٠٨ عقدت معاهدة باعتبار الحدود الفاصلة بين الحبشة وأريتريا فى جهة عفار بعيدة بقدر ستين ميلا من الساحل (Encyclopaedia Britannica المَعْلَمة البريطالية ٩ — ١٠) .

⁂

وفى يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ ديسـمبر تغيرت حالة البحر فجأة وعلت الأمواج كالجبال ، وفيما نحن نجلس على ظهر الباخرة اذا بالمياه قـد طفت على مقدم السفينة حتى بلغ ارتفاعها على سطحه أربعين سنتيا تقريبا فأخفضت سرعة السفينة و بعد أن كان رفاصها يدور ١٢٠ دورة فى الدقيقة أنقصت عدد دوراته الى خمس وسبعين دورة واستمرت الحال كذلك الى المساء حيث هـدأ البحر فزيدت سرعة السفينة فسارت بسرعتها المألوفة . وعند الظهر من يومنا كنا على مسافة ١٨٠ ميلا من جزيرة بريم ، وقـد انحطت على السفينة سمكة مجنحة من نوع الخطاف، ومرت بنا باخرتان كانتا متجهتين شمالا صوب السويس .

وفى الساعة الرابعة من صبيحة ٢٤ ديسمبر مررنا ببوغاز باب المَنْدَب أو المَنْدَم كما أسْمَتْـه العرب لمـا يعترى المسافر من الندم أو الأسف وندب الحظ اذا تعرض

للاخطار الجسام التى تحيق بالمسافرين بحرا فى مرورهم بين الصخور الكثيرة فى هذا المضيق أو ايغالهم اذا خرجوا منه سالمين فى المحيط الهندى .

وفى باب المندب ممران أحدهما يعرف بالممر الضيق وتسميه العرب بالمنهال والثانى بالممر الواسع ويسمونه بالمَيُّون ويتكوّنان بجزيرة بريم (Perim) المعترضة بوسطه . وقد استولى الانكليز على هـذه الجزيرة فى سنة ١٨٥٧ وحصّنوها . وبالقرب منها جزر صغيرة سمتها العرب بالجزائر السبع وهى معروفة عند الانكليز الآن بالأخوات .

وقد حوّل الانكليز صخرة بريم هذه الى قلعة حربية من الطبقة الأولى وجعلوها مستودعا للفحم واعتادت السفن المارّة فى ذلك البوغاز التموّن من هـذا المستودع بما يلزمها من الفحم . وهى تفضله على عدن بالنظر لأن ميناء بريم صالحة للرسو فيها فى كل وقت بخلاف ميناء عدن فان الدخول اليها متعـذر فى وقت جزر البحر، ويكون مستحيلا فى أوان الرياح الموسمية[1] التى تهب من الجنوب الغربى . أما ميناء بريم فمغلقـة وذلك لأن الجزيرة تشبه السرطان البحرى مادًّا يديه مكوّنا بهما فضاء مستديرا بينهما، فهذا الفضاء ينزل من بريم بمنزلة الميناء . وجزيرة بريم قاحلة يبلغ طولها ٥٥٠٠ متر فى ١٨٠٠ عرضا ولا يتجاوز ارتفاعها سبعين مترا . وتقسم بوغاز باب المندب الى قسمين أحدهما من ناحية العرب (المِنْهال) وعرضه ٢٢٥٠ مترا والثانى من ناحية أفريقيا (المَيُّون) وعرضـه ٢٠ كيلومترا ويقيم بحصون جزيرة بريم حامية قوية مؤهبة بالذخائر والأسـلحة والمؤن على الدوام وفيها منارة كبيرة لهداية السفن . وتجاهها من ناحية البر الغربى موقع الشيخ سعيد .

ويروون أن السبب الذى نبّه الانكليز الى احتلال بريم هو أن الحكومة الفرنسية فى سنة ١٨٥٧ رغبت فى الاستيلاء على موقع فى مخرج البحر الأحمر يعدل فى مزاياه

(١) موسم الرياح فى بحر الهند (Monsoon)

الاقتصادية والحربيــة موقع عدن فقررت أن ترفع رايتها على جزيرة بريم . وكانت احدى السفن الحربية الفرنسية راسية فى مياه الأقيانوس الهندى فنيط بها قضاء هذه المهمة الخطيرة فذهب بها قومندانها الى مدخل البحر الأحمر وألقى مراسيه فى عدن وتبادل الزيارة الرسمية مع الحاكم الانكليزى ودعاه هذا الحاكم الى وليمة عشاء، فبعد تعاطى الشمپانيا انحل عقال الألسن واندفع القومندان الفرنسى فى ميدان الكلام فأفضى بنيات سره إذ قال : إن حكومته عولت على رفع علمها على جزيرة وأنه قـد نيطت به هــذه المهمة وما كاد يصل فى صباح اليوم التالى الى بريم حتى وجد أن سفينة انكليزية صغيرة تقدمته اليها و رفعت العلم البريطانى على أعلى قمة من صخورها. وقد أورد هذه الحادثة كثير من المؤلفين ومنهم دنيس دى ريفوار فى كتابه (الفرنسيون فى أبخ — أوبوك —) .

و بمناسبة مرورنا أمام سواحل الصومال الفرنسية آثرنا أن نورد بشأن هذه البلاد بيانات موجزة اتماما للفائدة .

بلاد الصــومال

بلاد الصومال[1] اقتسمتها دول أوروبا والحبشة فيما بينها . وهى واقعة بين درجة أربعين تقريبــا ودرجة ٥١ والدقيقة ٢٧ والثانيــة ٥٢ من الخطوط الطولية لشرق جرينتش (باعتبار أن الصومال الحبشية داخلة بين هذين الحدّين) ويحدّها من الشمال مستعمرة أريتريا الايطاليــة وخليج عدن أو بحر البرابر وشرقا المحيط الهندى وغربا بلاد الحبشة ومستعمرة كينيا البريطانية وجنوبا المحيط الهنــدى ومستعمرة أفريقيا الشرقية البريطانية، وذلك بعد أن تنازلت بريطانيا العظمى لايطاليا عن البلاد المعروفة بأرض الجب (Juba) أو جوبلاند بالافرنجية .

أرضهــا وجبلهــا :

يتكوّن الجزء الأعلى من جبال الصومال من الغَنَس (Gneiss) أو الحجر العالك الشظيف أو الحجر المصفَّح (Schist) وفى الجزء الشمالى رمال حمراء وصخور بركانية . أما الأراضى الواقعة بين الشاطئ و بخاصة الشرقى منها والجبال الداخلة فتربتها كلسية .

وأهم جبالها الممتدّة على السواحل هى جبل جان ليباه[2] وارتفاعه ١٢٩٠ مترا والأنقور ١١٣٠ وجبــل هايس الهرمى ١٨٨٠ مترا وجبــل أرتسيت ١٢٠٠ مترا وبور أى جبل هندارا ١٥٠٠ مترا وأسيما ١٢٠٠ مترا .

---

(١) الذى عليه سواد المؤلفين العرب فى علم تقويم البلدان رسم كلمة الصومال بالصاد دون السين وأول ما وردت هذه الكلمة مكتوبة فى نشيد حبشى نظم فى مدح اسحاق أحد ملوك الحبشة فى القرن الخامس عشر (١٤١٤ - ١٤٢٩) باحدى اللهجات الحبشية المعروفة باسم (غيزار نارنيا) وفى كتاب فتح الحبش لشهاب الدين أحمد بن عبد القادر . ورسمها بالصاد فى اللغة العربية ينفى ما ذهب اليه بورتن (Burton) من أنها مشتقة من كلمة (سمل) اسم رجل أسس قبيلة فى شرق أفريقيا يقال انه سمل عين أخيه أى فقأها .

(٢) معنى جان ليباه باللغة الصومالية هو يد الأسد .

أنهـارهـا :

أهم الأنهار فى الصومال ما وقع منها فى منطقة الأملاك الايطالية، وما يستحق الذكر منهـا هنا ثلاثة : نهـر النُّجَل (Nogal) ومجراه الى الشرق فى القسم الشمالى منها . أما منابعه فعند الحدود الجنوبية الشرقية من الصومال البريطانية ، ويصب فى المحيط الهندى . ثم نهر وابى (Webi) أو ويى شبلى (Shebeli)[1] ومنبعه فى القسم الأوسط من بلاد الحبشـة ويجرى مشرقا حتى ينحدر الى الجنوب فالجنوب الغربى وعنـدئذ يساير مجراه الحد الشرقى للصومال الايطالية ثم يتصل بنهر الجب ويصب فى المحيط الهندى .

ثم نهر الجُبّ (Juba) وهو أعظم أنهـار الصومال وأهمها ومنبعه فى الحبشة، ويجرى الى الجنوب الشرقى ويصب فى المحيط الهنـدى أيضا بين قريتى الجب وكسمايو (Kismayu) . وهو النهر الوحيد الذى تجرى به المياه طول السنة :

وقد تنازل الانكليز للايطاليين أخيرا عن ضفته الشمالية .

طقســها :

أما طقس الصومال فيختلف باختلاف الفصول الأربعة بها ، ففى أشهر يناير وفبراير ومارس وأبريل يكون الحرّ شديدا والجو جافا ، وفى شهرى مايو ويونيو يكون الجوّ رطبا والأمطار طوفانيـة منهمرة ، وفى يوليو وأغسطس وسبتمبر يشـتد الحرّ وتهب العواصف من الجنوب الغربى ، أما فى أكتوبر ونوفمبر فتجف الأمطار ويبلغ

---

(١) معنى وابى شبلى فى اللغة الصومالية نهر الفهد . ويكتفون فى تسميته بلفظة وابى وهذا النهر مع أنه من الأنهر الكبرى الأصلية فى الصومال فقد كانت مياهه لا تستطيع التغلب على لسان من الأرض فاصل بين نهايته والبحر بطول ٢٠ كيلو مترا فوصل بينه وبين نهر الجب وسماه ياقوت (الشبالة) .

ارتفاع ما يسقط منها من أربع بوصات الى ثمـان وتنتشر الملاريا فى فصل الأمطار بجهة وابى شبلى .

نبـاتاتهـا :

أما نبـاتاتها فتختلف باختلاف ارتفاع الأراضى التى تنبت فيها بالنسبة لسطح البحر الملح، و باختلاف طبيعة هذه الأراضى . ففى الجهات المرتفعة تشبه نباتات الحبشـــة . .

أما فى البقاع المنخفضة فالحشائش العالية، وفى السهول ينبت النبات المعروف باسم الخَبَرَة (واسمها العلمى أو مبريلا ميموزا Umbrella mimosa) والسَّنْط (أقاقيا Acacia) والصُّبَّار واللُّبان الذكر (أوالكُنَّك- بزولية كونيفيرا Boswellia conifera) ومن النوعين الأخيرين تستخرج المواد الراتينجية والبلاسم ثم البَلِيل[1] وهوشجيرة شائكة . و بعض النباتات المتسلقة كالعَرْم (Carissa)، ثم الجوداو الوادى . ويمو فى الجبال نوع من شجر الأَرْز (Cedar) يسمى الشَّرْبين أو الأَبْهَل ارتفاعه مائة قدم تقريبا . والجُبُّ وهـذا النوع المثمر يوجد بقرب الأنهار، والحصالُبان (روزمارينوس أو فيسـينالس) والحُمَر أو الحَوْمَر (التمر هنـدى) ينبت على شواطئ الأنهـار وكذا الكِسِّينيا لوازاسيا) والبن والقطن والصمغ والبقول .

حيــواناتهـا :

وفى الصومال من الحيوانات أنواع كثيرة منها الأسد والفيل والكركدن (الخرتيت) الأســود ذو القرنين والفهـد والضبع المرقَّط (المَرْفَعين) والثعلب وابن آوى وعناق الأرض أو التُّفَة والكلب البرى ، وهو كالضبع فى لونه والكلب فى عضله وشكله

(١) البليل أو البليلة (فارسية معربة) أو البليلج نوع من الأهليلج واسمها العلمى Bellerica Terminalia

والزرافة وأبو جراب (نوع من بقر الوحش المعروف بالمها فى شبه جزيرة العرب) والجدير[1] من النوعين الكبير والصغير والزّج أو السّج أو السغ بالصومالى (Bubalis Swaynés Hartebeast; Swaynei) والقطمبور (Water-buck—Cobus ellypsiprimnus) وهو أم حتيت (السودان) أو الختحات أو المحتحت ويسمى الدفّاسة بالحبشية والدل والدّبتاج (Clark's Antelope or ammdorcas clarkei) والغرنوق أو العوهج وهو الغزال الأجيد (Waller's Gazelle, Lithocranius Walleri) والعول أو العيل وهو الأريل (Gazella Soemmering)

والديرو (Spekés Gazelle) والسكاره أو الدّقدق أو بنى اسرائيل (Dik-Dik; Saltiana Madoqua) والفرا أو حمار الوحش[2] والسنجاب أو القرقذون (Squirrel) والخنزير البرى والقرد الميمون (Baboon) والأرنب البرى والنعام والتمساح النهرى ثم الطيور ومنها النّسر والعقاب والحبارى ودجاج الوادى (الحبيش أو الغرغر) والقطا والحجل والأفاعى ومنها الثعبان الأسود والحشرات كالعنكبوت المعروف بالشّبث والعقرب والسحلية أو العظاءة (Lizard) والورل[3] والأرضة[4].

أما الحيوانات الأهلية المستأنسة فمنها الجمل والحمار والبقر والماعز والخيل.

مساحتها:

تبلغ مساحة الصومال ٣٥٦,٠٠٠ ميلا مربعا تقريبا وعدد سكانها مليونا ومائة ألف نفس تقريبا. وتضم الى تلك المساحة بلاد الجب التى تنازلت عنها انكلترا الى ايطاليا فقد عدت بعدئذ جزءا من الصومال الايطالية. ولما كانت هذه البلاد مقسمة بين بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا فلنذكر شيئا عن هذه الأقسام وانما نمهد له ببعض البيان عن أصل الصوماليين فنقول:

(١) الجدير بالصومالى هو التّيتل بلغة السودان وهو المرامرىّ (فى جهات الروصيرص).
(٢) حمار الزرد أو الزيرة (بالحبشية).
(٣) الورل ضرب من الزحافات يسمى (Monitor or Varanus)
(٤) الأرض هو النمل الأبيض (Termites)

أصـــل الصوماليين

الصوماليون سـلالة قبيلة أثيوبية من نسل حام المتشعبة فروعه فى الشرق . ويقال : إن لهم صلة قرابة بأقوام البونت أو البوانيت الذين وقف قدماء المصريين على أحوالهم فى عهد الأسر المصرية الأولى .

غير أنهم ينسبون أنفسهم الى العرب ويدَّعون أنهم سـلالة الشريف اسحق بن أحمد الذى هاجر اليها من حضرموت فى القرن الثالث عشر من الميلاد . ويذهب بعضهم أيضا الى أن أصلهم من حِمْيَر وأنهم سلالة صنهاجة وثمامة المعاصرين لملك حكم تلك البقعة الافريقية فى القرن الرابع بعد المسيح . ومع أن هذين لزعيمين لم يتبين صحة نسبهما الا أن ورود اسميهما يدل على حلول جماعات من العرب بشرق أفريقيا فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد .

واذا أمعنا النظر فى سحنة الصوماليين المعاصرين لنا فانا لا نلبث أن نتبين منها انهم ليسوا من الحاميين الصميميين إذ نرى فى وجوههم ملامح أهل بلاد الجلاوالعفار (Afar) والعرب والأحباش والبوانيت (والبوانيت اسم أطلقه الأستاذ بليك على أمم من زنوج أفريقيا وبخاصة أفريقيا الوسطى) وهم ان اختلفوا فى ألوانهم إذ نرى بينهم الأسـود والأسمر إلا أنهم أقرب شبهـا الى الزنوج منهم الى سواهم . وينقسمون الى رحالة ونزالة يسكنون القرى والأكواخ بالقرب من السواحل، وهمج لا تجمعهم قبائل خاصة بهم، بل هم متفرقون فى طول البلاد وعرضها وصناعتهم معالجة الحديد والاتجار بالجلود، والعمل فى سفن البحار . والصوماليون أهل حرب يقاتلون بعضهم البعض، والذى يقتل منهم رجلا يسوغ له أن يحمل ريش النعام على رأسه .

وأهم قبائلهم ثلاث وهى أولا الهاسية وتنقسم الى فرعين أولهما الطرودية ومنها قبائل مجرتين (Madjertine) وورسنجيلى ودالبوهنتا وغيرها . والثانية قبيلة اسحاق ومنها الجادبورسية وأولاد عيسى وحبروال أو هبرتول وحبرنونى والبابلية والبرنيرية . وكل هؤلاء سلالة هاشمى قرشى أسس بزيلع مملكة قوية ، وكلهم سنيّون تبدو على وجوههم ملامح العرب واضحة ومقرهم الصومال الايطالية .

أما الفرع الثانى فالهاوية ولها فروع عديدة كحبر جليت وحبر قادر ور يردولو وداجى اكرونلى وبدبدان وكونلى وباجمال وأجاس علمى . وهم مسلمون شديدو العصبية وينتمون الى الطريقة الشائعة فى الصومال الأوسط والشرق . أما بلادهم فاغدن والنّجل وويبى شبلى (Webi Shebeli) ومعظم اختلاطهم بقبيلة الجلا .

ثالثا : الرحانوين ومن أفخاذها الأبجال والبراوه والغبرون والتونيه والجادبورسية والقلالة ومقرهم بين و يبى شبلى ونهر الجب وخصوصا بين هذا النهر وتانه وهم الذين اختلطوا بالعنصر الزنجى أكثر من القبائل الصومالية الأخرى .

ومن القبائل الصومالية الرحالة المدغات واليبر واتّمال . وتثبت الابحاث والتحقيقات العلمية أن بلاد الصومال كانت فى العصر الحجرى آهلة بالسكان، وأن الأمم التى عاشت بها كانت أرقى مدنية من سكانها الحاليين كما تؤيده الآثار التى استكشفها العلماء الباحثون . حقا إن هذه الآثار عزيت الى العرب غير أن آثار الأقدام التى وجدت فى الأحجار لم تكن لأقدام قوم أقدم عهدا من أمم الجلا . وهناك قطع حجرية كبرى قد غطتها الحشائش وهى موضوعة على نسق حسن ونظام محكم كما أن هناك جدرانا عديدة متوازية تتكون منها سراديب كالتى تؤدى الى الصهاريج القديمة وكلها مما يؤيد ذلك القول . والمظنون على كل حال أن الفتح

الاسلامى هو الذى عفى على هذه المدنية القديمة وان تكن الديانة المسيحية قد سبقت الاسلام الى تلك الديار عن طريق الحبشة . أما المغائر المنسوبة الى أقوام الجلا فقد نقبت فى عصر تالٍ لذلك الزمن وأحجارها لا تتجاوز فى الحجم رأس الانسان كما لايتعدى علو المغارة من اثنى عشر قدما الى خمسة عشر قدما وقطرها ثمانية يردات تقريبا، ونقول قطرها لأنها مستديرة الشكل فى انخفاض من ناحية المركز .

والصومال من البلدان التى لم يطرقها الفرنجة إلا فى العهد الأخير، فانه لم يعنّ لخواطرهم دخولها إلا عند ما استولى الانجليز على عدن فى سنة ١٨٣٩ وأول من أوغل فى قارتها هو اللفتننت كروتندن سنة ١٨٤٨ ثم اللفتننت ج . ه . اسپيك (Speke) الذى استكشف منبع النيل الأزرق .

وفى سنة ١٨٥٤ وصل بورتن الى هرر (Harar) فى حملة هجم الأهلون عليها بالقرب من بربره، فجرح كل من بورتن واسپيك وقتل ضابط ثالث اسمه استرويان،



مساكن أهل الصومال

وانقطع المستكشفون عن ارتياد البلاد بعد هذا الحادث نحو عشرين عاما .
ولما احتل المصريون بربره فى سنة ١٨٧٥ أرسلت التجريدات العسكرية تباعا الى الداخل ، ومات كثيرون ممن حاولوا اختراق بلاد الحوض (Haud) الجافة .
وسنة ١٨٨٣ خرج الأخوان ف . ل . جيمس و و . د . جيمس وج . ب . أولمرو و ا . لورث فيليب من بربره قاصدين الى ويبى شبلى ثم عادوا منه سالمين .
ورسمت بناء على طلب الحكومة الهندية خريطة للنطقة الواقعة بين ويبى شبلى ووادى النُجَل (Nogal) رسمها الميجر سوين (Swayne) وأخوه فيما بين سنتى ١٨٨٦ ، ١٨٩٢ وقام ج . رڤوال الفرنسى قبل ذلك أى من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨١ بثلاث رحلات فى القسم الشمالى الشرقى وبخاصة فى وادى دارور وأعقب هؤلاء غيرهم على توالى الأيام .

أما اللغة الصومالية فمزيج من بعض ألفاظ اللغة العربية وبعض ألفاظ لغة الجلا ولغة الدنكل وهم يرسمونها بالأحرف العربية .

أما الصومال الفرنسى فيحده من الشمال الحد الجنوبى لأريتريا الايطالية وبلاد الدنكل ، ومن الشرق خليج عدن أو بحر البرابر ، أما الحد الجنوبى فينتهى عند الجزء الشمالى من الصومال الانكليزى وجزء من بلاد الحبش أو إقليم هرر ، وأما الحد الغربى فبلاد الدنكل .

ومساحة الصومال الفرنسى اثنا عشر ألف ميل مربع تقريبا وعدد سكانه مائتا ألف وستة آلاف نفس تقريبا (Encyclopædia Britannica Vol. XXXI.) المعلمة البريطانية .

الصومال الفرنسى

الصومال الفرنسى أراض منبسطة فى انخفاض . وهى قاحلة تقريبا لقلة المياه فيها إلا بالجهات الجنوبية . وأشهر موانئها وأهمها جابوتى (Jibuti) . وهى مركز الحكومة وعدد سكانها عشرون ألف نفس تقريبا ثم أبخ (أوبوك Obok) وتاجوره (Tajura) وسجالو وجياد وأمبابو .

أما السكان فمن العرب والدنكل والحبشان والهنود ، ويربو عدد الأوروبيين على الألفين بقليل . وتجارة البلاد الملح البحرى ، ويزرع بها بعض القطن فى الأنهار الصغيرة عقب جفافها . ومن حاصلاتها درق السلاحف أو الذبل (بفتح الذال المشدّدة وسكون الباء) أو المسك (بفتح الميم والسين) وهو الذى تصنع منه الباغة ثم الأصداف المختلفة من أنواع المحار . وتتصل جابوتى وهرر بخط حديدى .

خلاصـــة تاريخيـــة

عن الصومال الفرنسى واحتلال الأوربيين إياه

فى سنة ١٨٥٧ أى فى عهد نابليون الثالث امبراطور الفرنسيس نيط بالكونت استانسلاس روسل البحرى السفر الى البحر الأحمر فى مهمة فنية فنصح لحكومته فيما رفعه اليها من التقارير بأنه ينبغى لها إنشاء نقطة فرنسية فى ذلك البحر على مقربة من برزخ السويس لتشرف عليه. فبذلت الحكومة سعيها فى هذا السبيل وتحصلت فى آخر الأمر على ثغر زيلع الذى صار فيما بعـد تابعا لايطاليـا وجزءا متمما لمستعمرة اريتريا .

وقبل ذلك بعام واحد أى فى سنة ١٨٥٦ كان المسيو مويخ وكيل قنصلية فرنسا فى زيلع قد اشترى مدينة أمبادو كما اشترى المسيو لامبير قنصلها فى عدن سنة ١٨٦٢ من زعماء قبائل الدنكل مدينة أبخ (Obok) والأراضى المحيطة بها .

وكانت الحكومة الانكليزية قـد أرسخت قدمها بجزيرة بريم فى سـنة ١٨٥٧ فلم يتمكن الفرنسيون من وضع يدهم نهائيا على أبخ السالفة الذكر إلا بعد سنة ١٨٨٣ أى وقت ما فتح البـاب لتقسيم البـلاد التى اعتبرتها الدول الاستعمارية عقب ثورة المهدى منفصلة عن مصر .

ولقد اتسع نطاق الممتلكات الفرنسية بين سنتى ١٨٨٣ ، ١٨٨٧ بمقتضى المعاهدات التى أبرمت مع سلاطين الصومال وزعماء قبائلها وأصبح خليج تاجوره بذلك داخلا فى حوزة تلك الممتلكات . وفى سـنة ١٨٨٨ حددت التخوم الجنوبية بين فرنسا

وانجلترا فالتخوم بينها وبين الحبشة فى سنة ١٨٩٨ فالتخوم الشمالية بينها وايطاليا فى سنة ١٩٠١ ، وصادق النجاشى منليك على ذلك كله . وبعد أن أخلت الحامية المصرية فى سنة ١٨٨٤ قلعة سجالو التى كانت احتلتها فى سنة ١٨٧٥ وصلت اليها بعثة روسية بقيادة أشينوف فاحتلتها بحجة العمل لنشر العقيدة الأرثوذكسية الروسية فى بلاد الحبشة فطلب الفرنسيون منه إخلاء الحصن والانسحاب على الفور فأبى ، فحصره الفرنسيون عندئذ وأصلوا رجاله نارا حامية من مدافعهم وقتلوا البعض منهم واضطروا الآخرين الى الرحيل الى السويس . وفى سنة ١٨٩٦ نقل مركز الادارة الى جابوتى وأنشئت سكة حديدية بين هذه المدينة وهرر. (المعلمة البريطانية (Encyclopaedia Britannica

⁂

هذا وفى ٢٤ ديسمبر وصلنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر الى بَرْبَرَه وبذا أصبحنا فى أراضى الصومال البريطانية وهـذه المدينة على طول عدن تقريبا . وهى مشهورة بسوقها السنوية التى تقام من آخر أكتوبر الى مارس . وترد عليها القوافل من جميع الأصقاع . وفى أبريل تنصرف القوافل عنها والسفن فتبقى خالية أو مهجورة تقريبا وتجارها من الهنود والعرب . وقـد عرفها (نيقولا كونتى) وذكرها فى كتاب رحلته بالشرق . ويقال إن العرب هم الذين أسسوها بعد الاسلام . وبها آثار حجرية قديمة ترجع الى عهـد حكم العرب عليها وأطلال جسر حجرى كان يجلب مياه السيول اليها من المرتفعات . وبربره اسم أطلق أولا على الإقليم المشهور به (وهو الجـزء الشرقى لإفريقيا كما سـترى فى النبـذة التاريخيـة) . ثم انسحب على المدينـة فعرفت به (Sautarem Dictionnaire de Geographie)

الصومال البريطانى

يُحَدّ الجزء البريطانى من الصومال شمالا بخليج عدن وشرقا بالصومال الايطالية وجنوبا بجزء من الحدّ الجنوبى الواقع على درجة ٨ من العرض الشمالى وغربا ببلاد الحبشة ومساحته ٦٨٠٠ ميل مربع تقريبا وعدد سكانه ٣٠٠٠٠٠ نفس تقريبا.

واذا قورنت بلاد الصومال البريطانية بالأقسام الأخرى ما خلا القسم الحبشى تبين أن فيها من الجبال أكثر منها فى غيرها . ويبلغ متوسط ارتفاع الجبال التى على ساحل البحر من ٤٠٠٠ قدم الى ٥٠٠٠ قدم تتخللها مسايل للماء وأودية جافة وسهول مستوية تنتهى بسلسلة جبال جوليس التى يبلغ ارتفاع قمتها تسعة آلاف وخمسمائة قدم تقريبا .

وينبت بها نوع من شجر الأرْز وهو الشَّرْبين (Cedar)، وتسمى الأرض الواقعة بين هاتين السلسلتين بأرض جوبان، وتعرف الأراضى الواقعة جنوبا بالحوض . وهذه البقعة مقسمة بين الانكليز والحبشة وتكثر فيها النباتات الشائكة والحشائش العالية، أما بقية الأراضى فصحراء لا زرع فيها ولا ضرع . وفى الجهة الشرقية منها جبل سنجيلى . وبجوارها أراض خصبة تعرف باسم جدالى والجب، وهما نهران معروفان بهذين الاسمين أحدهما يصب بقرب رأس حافون (Hafun) أوحافونى[1]، والثانى يتجه صوب وادى النَّجَل جنوبا . وهناك يبتدئ الاقليم المعروف بهذا الاسم أو باسم بلاد الدلبيهنتا، وفيه صخور كثيرة من الحجر الأعبل (الصوّان) .

---

(١) انظر أصل هذا الاسم فى الكلام على الصومال الايطالى .

طقسها :

يسقط من الأمطار سنويا فى بربرة ما يبلغ ارتفاعه ثمانى بوصات تقريبا ، وتكثر الأمطار بالجهات الجبلية خاصة ، كما تكثر النباتات العطرية .

حيواناتها المستأنسة :

هى الجمل والحمار والبقر والغنم والماعز والخيل .

مدنها وقراها :

أهم مدنها بربره ويظن أن العرب هم الذين أسسوها (وهى عاصمة البلاد الواقعة تحت الحماية البريطانية) وغربها ميناء البُلْهار (Bulhar) ، وبجوار الحدود الفرنسية ثغر زيلع (Zeila) ثم لاس قورى (Las Gori) وكَرْم[1] وهايس وغيرها من المدن الصغرى على السواحل . أما داخل البلاد فأهم مراكزها حَرْج عيسى (Hargeisa) أو هرر الصغرى ، وهى التى تقصدها القوافل من شوا (Shoa) وأَغْدِن . ثم قرية الشيخ (قطب) القريبة من بربره وبوراو (Burao) وبهوتل (Bohotle) وهى على الطريق بين أغدن وبربره .

صناعتها وتجارتها :

تشتغل النساء باستخراج ألياف الصبار . ومن حاصلات البلاد ريش النعام والصمغ والمواد الراتينجية والعاج والجلود والذهب والأصداف والأسماك والماشية والأغنام .

---

(1) Karam, Kerem

نبـــذة تاريخيـــة

فى القرن السابع بعـد الميلاد أسست جماعة من قبيـلة قريش سلطنة بزيلع ، وكان اسمها القـديم أفاليتس وهى على تقاطع ٢١َ ١١° من العـرض الشمالى و ٢٨ ١/٢َ ٤٣° من الطول الشرقى . وعرفها الافرنج لمـا استكشفوا سواحل افريقيا الشرقية فى القرن الثالث عشر باسم مملكة عَدْل نسبة الى قبيلة العدايل المعروفة الآن باسم قبيلة العفار (Afar) . وفى القرن السادس عشر نقلت العاصمة الى هرر فأغارت قبائل الجلا الحبشان على المملكة ، فآل الأمر بها الى أن تجزأت امارات صغيرة يحكمها رؤساء وأمراء من الصوماليين ، وضمت زيلع الى ولاية اليمن فى عهد الحكم العثمانى عليهـا . وفى أوائل القرن التاسع عشر وقع نظر الانكليز على ساحل الصومال فلمـا كانت سـنة ١٨٢٧ عقدت أول معاهدة بين الانكليز والصوماليين تلتها معاهدات واتفاقات أخرى فى سـنة ١٨٤٠ بين القبطان روبرتس مورسبى وسلطان تاجوره ، ومنع حاكم زيلع بمقتضاها من عقد اتفاقيات مع أية دولة أخرى . وفى الوقت نفسه ابتاع الانكليز جزيرة موشه (Mosha) الواقعة فى مدخل خليج تاجوره (Tagura) ، وكان كل ما دفعه الانكليز ثمنا لها عشرة أعدال (فرود) من الأرز . ثم ابتاعت شركة الهنـد الشرقيـة باب أباد وكذا جزيرة أباد فساد نفوذ تلك الشركة بجهات الصومال منذ ذلك العهد . وفى سنة ١٨٥٤ وقع اعتداء على رجال ريشارد بورتن فى بربره . وفى خلال المدّة بين سـنتى ١٨٧٤و١٨٧٥ احتلت جيوش الخديو اسماعيل موانئ تاجوره وبربره والبلهار (Bulhar) وكذا هرر . وفى سنة ١٨٧٥ استحصل الخديو اسمـاعيل من الدولة العثمانيـة على فرمان بتمليكه ثغـر زيلع فى مقابل زيادة الجزية (الويركو) المفروضة على مصر ١٥٠٠٠ جنيه عثمانى فى السنة .

وفى سـنة ١٨٨٤ أى عقب ثورة المهـدى سحبت الجنود المصرية من هـذه الجهـات ، فاحتلت بريطانيا العظمى زيلـع وبربره والبلهار . وفى سـنى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ و ١٨٨٦ عقـدت انكلترا شروطا للحماية مع رؤساء جملة من القبـائل . وفى سنة ١٨٨٨ عينت الحدود الفاصلة بين الصومال البريطانية والأملاك الفرنسية وعقدت شروط أخرى لتعيين الحدود مع ايطاليا فى سنة ١٨٩٤ وشروطا مع الحبشة لهذا الغرض عينه فى سنة ١٨٩٧

وفى سنة ١٨٩٩ حصـل خلاف مع المُلّا وهو من قبيـلة حبر سليمان بأغدن ، وكان هذا الرجل عظيم المنزلة فى قلوب قبائل الدلبهنتا ، وقد تزوج من إحدى بناتهم وكان اسمه الملا محمد بن عبد الله ، وكان مقامه الدينى رفيعا وله أنصار كثيرون .

وفى تلك السنة بعد أن كانت علاقات الملا بالانكليز وثيقة وحسنة أخذ يتعدّى على القبائل الموالية لهم ، فاحتل بُراو (Burao) وادّعى أنه المهدى . وفى سنة ١٩٠٠ شن الغارة ثانيا على قبائل الجهات الجنوبية والقبائل القاطنة بجوار الحبشة فتقلد الضابط السير سوين (Swayne) قيادة جيش صغير فاسترد براو فى سنة ١٩٠١ وبعد مناوشات عديدة انسحب الملا منهزما الى الصومال الايطالية ، وفى سنة ١٩٠١ عاد فظهر بأعوانه فى جهـات براو فحاربه الانكليز مرة أخرى ، واقتفـوا أثره مطاردة الى الأراضى الايطالية : واعتزموا بعـد أن تكبدوا الخسائر الفادحة فى هـذه المرّة محاربته بعنف وضراوة فتقلد البريجادير جنرالماننج قيادة جيش حشد لهـذا الغرض ، وكان الملا معتصما بموقع جلادى .

وبعد مناوشات بين الفريقين اجتمعت الفرق البريطانيـة فى بهوتل فانتقـل الملا الى اقليم النَّجل فعزز البريطانيون جندهم وجعلوه تحت قيادة الميجر جنرال

أجرتون، فزحف هذا بجيوشه على مواقع خصمه فى اللج باقليم النجل فلم يلبث الملا أن فرّ هو والحاج سعودى مستشاره الى جهات الشمال . ولما أصبح الملا بفراره بعيدا عن نطاق الأملاك البريطانية تركه الانكليز وشأنه، غير أن الايطاليين تدخلوا فى الأمر وأصلحوا بين الطرفين ، وانمـا كان الصلح ظاهريا لا حقيقيا ، لأن الملا بعد أن لزم السكون ثلاث سنوات هب من رقدته . فأخذ فى سنة ١٩٠٩ يناوش القبائل الموالية للانكليز فاعتقد هؤلاء وقتئـذ أن لا فائدة من تنظيم حملة جديدة على ذلك الرجل الذى اشتهر منـذ ذلك الحين بالملا المفتون، وأخليت النقط الداخليـة وانسحبت الجنود البريطانية الى النقط البحرية الواقعة على الساحل .

وفى سنة ١٩٢١ توفى الملا المفتون على أثر مرض اعتراه فانتهت بوفاته المشكلات وزالت الصعوبات . وكانت المستعمرة الصومالية البريطانية من سـنة ١٨٨٤ الى سنة ١٨٩٨ تابعة لحاكم بومباى وعدن فى شؤونها الإدارية ثم نقلت إدارتها الى وزارة الخارجية البريطانية فوزارة المستعمرات . أما السـلطة القضائية فبقيت فى عهدة الحاكم المتولى للأمور فيها (المعلمة البريطانية Encyclopaedia Brittanica) .

وقد قضينا ليلة ٢٥ ديسمبر فى الباخرة وفى صباحه نزلنا الى البر . وكانت الجمال والبغال معدة فالتقيت بحاكم الصومال وهو صاحب السعادة كترماستر وقضيت معه فى بيته ردحا من الزمن ثم قصـدت الى الصحراء ومعى النبيل عباس حليم ، فعنـد مرورى بالجـزء الأهلى دنا منى رجل صومالى هو خادم ضريح من يدعى الشـيخ يوسف وقال لى ان المرحوم الخديو محمـد توفيق باشا هو الذى أمر بتشييد هـذا الضريح وضرب القبة عليه . واستأنفنا السير بعد ذلك حتى خرجنا من البـلد وهى قرية صغيرة فوجدت على مقربة منها غزالا من نوع البلزن (Pelzeln's gazelle) فرميته بالرصاص كرة بعـد كرة حتى أصبته فى الرميـة الخامسة والعشرين فأرديته



غزال بلزن

فعـدنا الى السـير فاصطاد النبيل عبـاس حليم غزالا برصاصة واحدة . ثم رأينا سربا من الغزلان وأخطأت واحدا ثم جلسـنا فتغـذينا تحت ظل شجيرة سـنط من النوع المعروف بالسيَّال ، وهنـا الأراضى مقفرة وليس أمامنا إلا الجبال الصخرية ، وأهم ما فى هـذا المكان من الشجيرات النوع الآنف الذكر . وبعـد قليـل استأنفنا السير فالتقينا بغزلان أصبت واحدا منهـا برصاصتى الثانية ، ثم عدنا الى مكان ملائم لنصب الخيام فنصبت . وقد رأينا حصـنا قديمـا على قمة جبـل علمنا أنه من عهـد الحكم المصرى وأنه من صنع المصريين وعنـد قاعدة الجبل ماء ونخـل فأمضينا الليلة فى هـذه البقعة المعروفة باسم الدبار ، واسم نوع ذلك الغزال باللغة الصومالية ديرو (Dhero) .



مضرب الخيام بجوار الحصن



مضرب الخيام فى الدبار

طول قرن الغزال الأول بالبوصة $\frac{٥}{٨}$ ١٠

« « « الثانى « $\frac{٦}{٨}$ ٩

« « « الذى صاده النبيل عباس حليم بالبوصة $\frac{٥}{٨}$ ١٠

وفى يوم ٢٦ ديسمبر لم تلق المقادير الينا بشىء مّا من الصـيد، فأوغلنا طويلا فى أودية الجبال مسايرين الغـدير المعروف باسم (سجن دولا) وكانت سيارة آتية من بربرة فى طريق معدّ خاصة للسيارات قد سبقتنا الى هذا المكان، فواصلنا السير حتى بلغنا فى المساء الى منزل صـغير به غرفتان والى جواره مطبخ صغير . وهـذا المنزل معد لاستراحة الموظفين فحللنا به ومن ثم لم نصد فى هذا اليوم شيئا .

يوم ٢٧ ديسمبر — نهضنا صباحا قاصدين الى (لاليس) وكان أول سيرنا فى طريق السيارات فشهدنا غزالا رماه النبيل عباس حليم فلم يصبه . وبعد هنيهة رأينا غزالا آخر من نوع الغُرْنُوق فصدته ، ثم تابعنا السير فى طريقنا فالتقينا بغزلان من هذا النوع . وقد رام النبيل صيدها ولكنه لم يوفق لمراده فجلسنا للغـداء . وفى منتصف الساعة الأولى بعـد الظهر بينا كنا نلتمس صيدا رأينا خمسـة غزلان أخر ، فصدت اثنين منها ، وعدنا الى مكان يعـرف باسم جليكر قريب من الجبال الصخرية شرقى قرية الشيخ ، وقد نصبت فيـه الخيام برسمنا ، فأمضينا بها ليلتنا . وقـد رأيت بعض القوافل الصوماليـة فاذا بالنساء يتزيين بزىّ الرجال تقريبا لأن لباسهن جميعا كان عبارة عن رداء (حرام) من البفتة أو الشاش . ووجدت فى طريق أماكن معدّة لشرب الشاى لأهل البلاد ، وهى عبارة عن أكواخ من فروع الشجر يدخلها السابلة لطلب الراحة . والحروف هنا أبيض الجسم أسود الرأس والرقبة صغير

الجسم ضخم الألية، وأليته وان تكن أصغر من ألية الخروف المصرى فهى معلقـة . وعلمت أن جلد هـذا الخروف رفيع جدا يصلح للصنوعات الجلدية الرقيقـة، ولذا كان يصدر بمقادير وافرة الى أمريكا .

	بوصة		بوصة
طول قرن الغرنوق الأول	١٣ ٦/٨	البعد بين طرفى القرنين	٤ ٦/٨
« « « الثانى	١١ ٧/٨	« « « «	٣ ٦/٨
« « « الثالث	١٠ ٦/٧	« « «	٣ ٢/٨



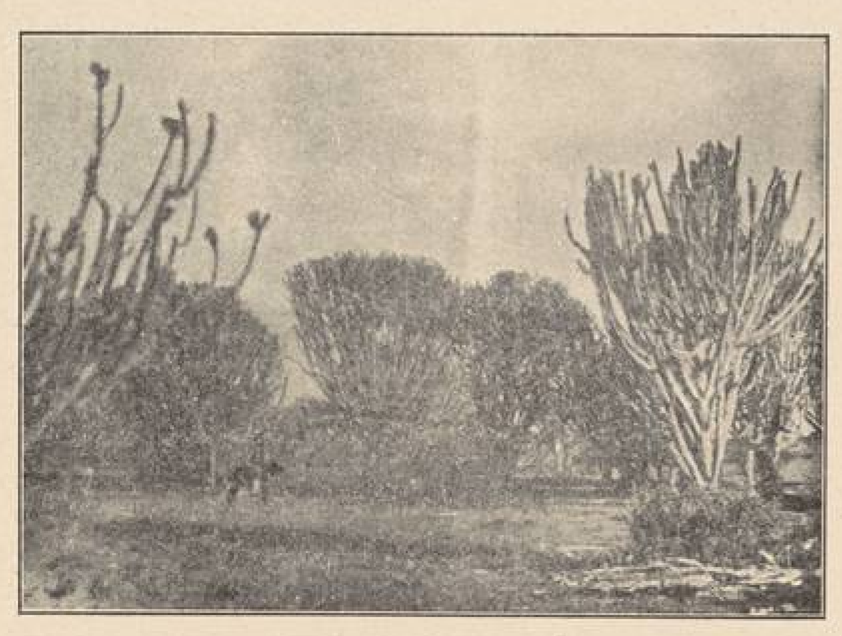
الغـــرنوق

يوم ٢٨ ديسمبر — خرجت الى مكان قيل لنا ان فيه الغزال المعروف باسم غزال أسبيك (Speke's gazelle) ولكننى لم أر سوى أربعة غزلان من النوع الذى صدت منه أول يوم أى غزال البلزن (Pelzeln's gazelle)، فعدت الى الخيام

فى الساعة الرابعة تقريبا . وقد لاحظت لأول مرة عدم مرافقة الكلاب لقطعان الغنم فى هذه البلاد .

والصوماليون على مذهب الامام الشافعى . وهم جميعا لا يدخنون ولا يتبادلون التحية، اذا قابل بعضهم بعضا .

يوم ٢٩ ديسمبر — قصدنا اليوم الى قرية الشيخ الكائنة بالجهة الغربية . وبحثنا عن الغرنوق فى طريقنا فلم نهتد اليه، وبعد الغداء افترقنا فسرت فى اتجاه الشيخ وسار النبيل عباس فى اتجاه آخر للبحث عن الغرنوق . فلما وصلت الى الجبل علمت أن الأسود تأوى اليه، وهنا تغيرت المناظر اذ كثرت الأشجار وبخاصة أشجار الصبّار المعروف بالفُرْبيون (Euphorbia) والمناظر فيها أجمل منها فى السهول، لأنها تذكر الرائى بمناظر جبال أوربا، ويرى المسافر السحب تُمزق على قممها .



أشجار الصبار فى جبل الشيخ بالصومال

ولما وصلت الى محل الاستراحة المقام بالوادى نزلت به لإمضاء الليلة ، وكان الشخص السودانى الفوراوى الذى يحرس هذا المكان جنديا من جنودنا السودانيين حضر الى هنا فى عهد الاحتلال المصرى لهذه البلاد وقد قال لى ان ذلك كان وقتما كانت هذه البلاد تحت إدارة المرحوم نادى باشا .

يوم ٣٠ ديسمبر — كانت حضرت السيارات من بربرة . فلما تيقظت من النوم قصدت الى الشيخ . وكان الطريق كله صعودا والمناظر تشبه مناظر أو روبا بحيث لا يصدّق من لا علم له بالمحاسن الطبيعية للقارة الإفريقية أنه بافريقيا . وكانت السحب تمزق على جوانب الجبل ، فلما وصلنا الى الشيخ ، وكنا على الهضاب العالية ، وجدنا هنا قلعة صغيرة بجوارها مكان لطيارة وثلاثة منازل أو أربعة للموظفين البريطانيين ومكتب للتلغراف . أما القرية الوطنية فصغيرة كغيرها من القرى



صورتى بجوار السيارة فى جبل الشيخ بالصومال

ثم ضريح الشيخ المسمى به هـذا الجبل، واسمه عند أهل الصومال الشيخ قطب.
فركبنا البغال وتبعتنا حملتنا وسرنا صوب الشرق والشمال الشرقى قاصدين صيد الغزال المعروف بغزال أسبيك، وهو الذى ذكرنا فيما تقدم أنه الذى استكشف ينابيع النيل الأزرق ، وأهل البلاد لا يميزون هـذا النوع عن النوع الآخر إذ يسمونه الديرو (Dhero) كما يسمون هذا. وقد صاد النبيل عباس حليم غرنوقا فى الطريق ثم غزالا من النوع السالف الذكر ، أما أنا فبعد أن سرت على الأقدام سبع ساعات تقريبا تمكنت من صيد غزالين وفر غزال ثالث مصابا بجرح ،وكان الليل قد أرخى سدوله فعدنا الى مضرب الخيام حيث أمضينا الليلة .

والهواء بهذا المكان عليل لطيف طرىّ بسبب الارتفاع .

يوم ٣١ ديسمبر — استرحت فى صباح اليوم ، أما النبيل عباس حليم فخرج يبحث عن الصيد وعن الغزال الذى جرحته أمس . وبعد الغداء خرجت قاصدا الى الصيد ولكنى لم أكن موفقا وكذا النبيل عباس حليم (أنظر الصورة وهى صورة الغزال المعروف باسم غزال اسبيك[(١)] .

يوم ١ يناير سنة ١٩٢٥ — خرجت اليوم يصحبنى النبيل عباس حليم، فبعد أن قطعنا مسافة افترقنا، فلمحت بعد افتراقنا سرب غزلان على مسافة بعيدة، فلم أعمل لمطاردتها بل جلست للغداء . وبعد ساعة تقريبا لمحت ثلاثة غزلان من نوع الغرنوق قادمة نحوى ، فرميت أحدها برصاصة فطاشت ، فانثنيت على عقبىّ فلمحت فى طريق أربعة غزلان فى مراح فسيح ترعى الكلأ فربضت لها ثم دنوت

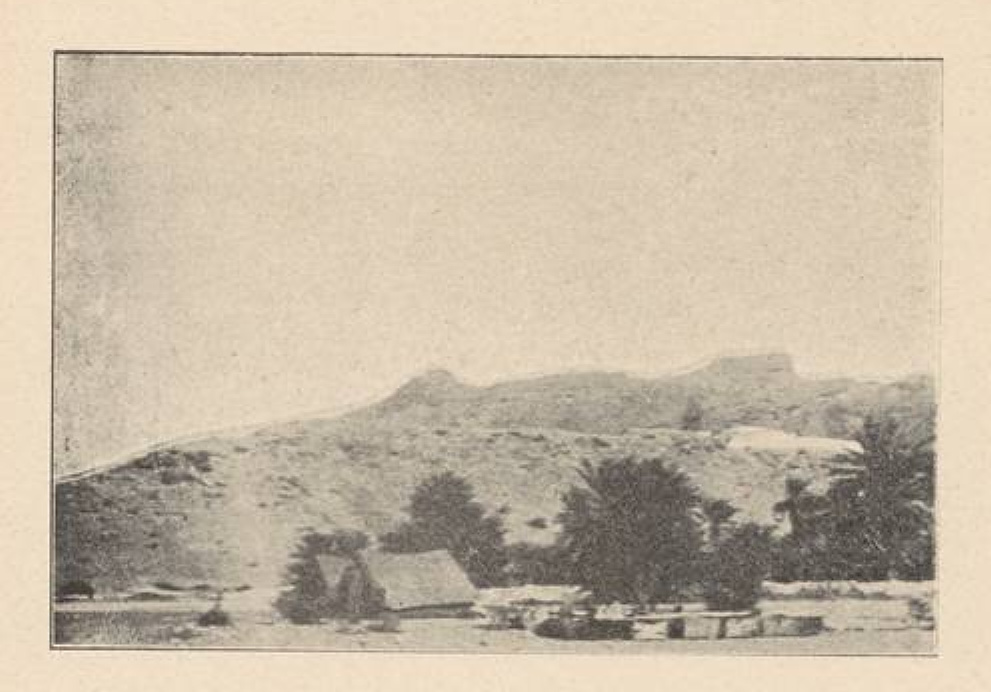
(١) هذه الأسماء هى فى الحقيقة أسماء أوّل من صاد هذه الأنواع، وقد أسمتها الجمعية العلمية أوالمتحف البريطانى بها لأنه لم يكن يعرف لبعض الحيوانات من قبل اسم مميز لها .



صورة غزال اسبيك ومن مميزاته وجود كيس منتفخ بالهواء فوق أنفه يكون منتفخا اذا كان حيا و يزول الانتفاخ بالموت

منها شيئا فشيئا حتى أصبحت منى قيد مائة وخمسين مترا تقريبا، وكان الذكر مختفيا وراء شجيرة فرقدت والبارودة مصوبة الى جهة الصيد ساعة من الزمن ، حتى كلت ذراعى من حملها . وأخيرا نهض الذكر وسار قليلا ثم رقد فعزمت على إفراغ بارودتى فيه فأصبته وعدت الى الخيمة حيث التقيت بالنبيل عباس حليم ومضينا الليلة هنا . وقد لاحظت أن أهل البلاد ودوابهم لايشربون الماء إلا مرة فى اليوم ، ولم أر فى غير هذه البلاد أناسا يتحملون الظمأ كأهلها وحيوانها .

طول قرن الغزال من نوع أسبيك $\frac{1}{8}$ ٩ بوصة .



قـــرية بالصـــومال

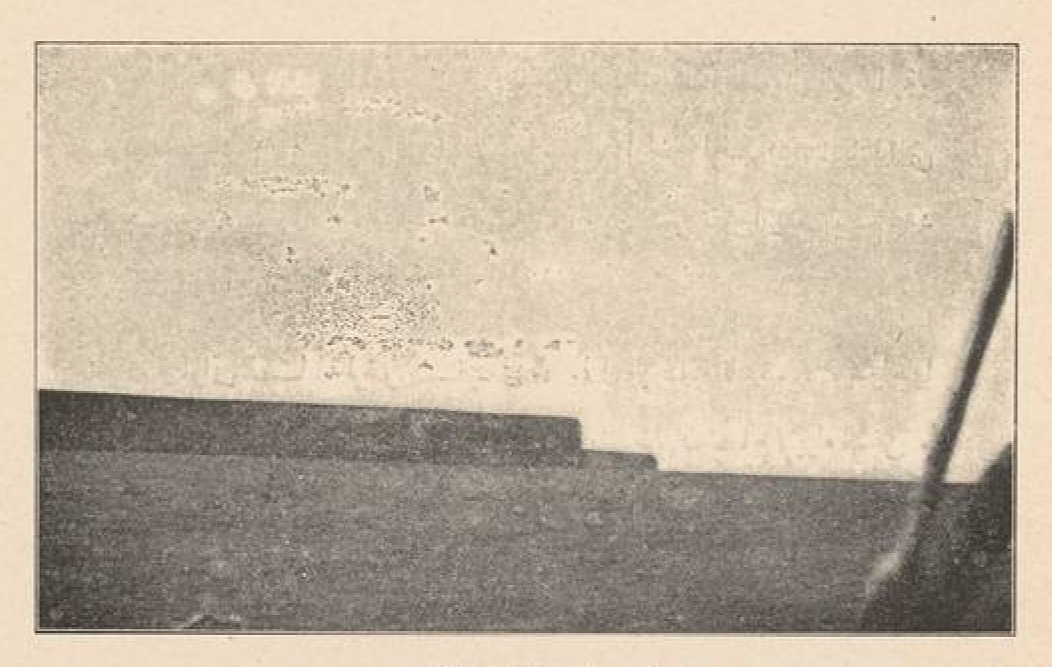
يوم ٢ ينـاير — قصدنا اليوم الى قرية الشيخ حيث ركبنا السيارات وعدنا بهـا الى بربرة ، وصدت فى طريق غزالا من نوع الپلزن ، ويرى هـذا النوع على طريق السيارة لتعوده رؤيتها، ثم وصلنا الى البـاخرة . وفى المساء دعوت جنـاب حاكم الصومال المستـر كترماستر وكذا المستر جيب للعشاء وأمضينا الليـلة فى سمر طلى مفيد .

طول قرن غزال الپلزن $11\frac{3}{8}$ بوصة .

يوم ٣ ينـاير — وفى الساعة السابعة من صبيحة اليوم تحركت الباخرة من بربرة آخذة سمتها الى مونبســه أو مونبسى أو منبسى (Mombasa) فى بحر مطمئن ونسيم عليل وسماء صافية الأديم، مسايرة سواحل الصومال .

وفى اليوم التالى كنا ما زلنا نساير هذه السواحل ونراها الى أيمـاننا رأىَ العين. فلمـا كاد ينتصف النهـار كنا نطوف برأس جردفون (Ras Guardefui) جاعلين وجهتنا الجنوب منجذبا الى غرب ماخرين عباب المحيط الهنـدى ، بعد أن انتهينا من خليج عدن المعروف ببحر البرابر .

وواصلنا السير فى بحر هادئ نوعا ، حتى اذا كان منتصف الساعة السابعـة من المساء مررنا أمام رأس حافونى (Ras Hafun) . وإذ كانت السواحل التى نجاريها هى سواحل الصومال الايطالى فالى القارئ كلمة عنه .



رأس جردفون على الشاطئ الأفريقى

الصومال الايطالى

القسم التابع لإيطاليا من الصومال يحده شمالا خليج عدن، وشرقا المحيط الهندى حيث تنتهى السواحل عند رأس حافونى الواقع فى درجة ٥٢ً ٢٧ َ ٥١° تقريبا من خطوط الطول الشرقية التى هى أقصى نقطة من القارة الإفريقية الى شرق بعد جردفون ، وتنسحب جنوبا بعد ذلك الى غرب حتى تنتهى الى الجزء الشمالى من المستعمرة البريطانية الشرقية .

أما غربا فحده مستعمرة كينيا البريطانية وبلاد الحبشة والصومال البريطانية. ومساحته ١٤٦٠٠٠ ميل مربع يضاف اليها مساحة أراضى الجُبّ (Jubaland) التى ضمت اليها كما ذكرنا آنفا، وعدد سكانها ٤٠٠٠٠٠ نفس تقريبا يضم اليهم عدد سكان هذه الأراضى .

والموانى الصالحة لرسو السفن فى الصومال الإيطالية نادرة، لأن سواحلها مواجهة للبحر دون تعاريج أو عطفات تتولد منها خلجان تصلح لإيواء السفن . يضاف الى ذلك انتشار الرمال والأضحال الخفية تحت البحر بالشاطئ الشرقى على أعماق قليلة .

وبالجزء الشمالى منها جبال تتصرف فى امتدادها نحو الشرق فتنتهى عند رأس جردفون الذى يبلغ ارتفاعه تسعمائة قدم تقريبا ثم تلتوى الى الجنوب متقطعة . أما جردفون فهو الاسم الذى ذكره الربان العربى ابن ماجد الذى أرشد فاسكودى غاما الى طريق الهند إذ قال فى كتابه شعرا :

وان كان فى غرب وفرتك طالع * ملاقاتهم فى جردفون بواجب

أما أقصى نقطة شرقا من بلاد الصومال أو القارة الإفريقية كلها فهو الكائن جنوب جردفون ورأس حافونى[1] الذى يبلغ ارتفاعه ٦٠٠ قدم تقريبا فوق سطح البحر .

أما مدنها الشهيرة فمقدشو (Mogdishu) ويبلغ عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس تقريبا، وبروه (Brava) وعدد سكانها ٤٠٠٠ نفس تقريبا ، ومركه (Marka) وعدد سكانها ٥٠٠٠ تقريبا، وورشيخ (Oar Sheikh) والجب (Juba) ، وكلها على السواحل الشرقية ، والمدينة الأخيرة كائنة على مصب النهر المسمى بهذا الاسم ، ثم الولا على خليج عدن ، وهى أهم قرى الصوماليين من قبيلة مجرتين، ثم أوبيا واللّج (Logh) التى منها يكون الاتصال بأغدن وَدْلبهنْا .

وبداخل البلاد بلدة لوغ (اللج Logh) على الضفة اليسرى من نهر الجب ثم دولو. وهاتان البلدتان مركزان مهمان للتجارة مع داخلية البلاد . وسكان الشواطئ من السواحلية والعرب والهنود وقبائل العمران، وأهلها خليط من العرب والسواحلية.

زراعتها :

الأراضى خصبة فى جهات وابى شِبْلى والنَّجَل وبخاصة فى الجزء الأسفل من نهر الجُبّ حيث تكثر زراعة البقول وتنبت الحشائش العالية بعد الأمطار، وتكثر النباتات والأشجار الراتينجية والعطرية والعاج والبقر والسمن واللبن والقطن والصمغ والبقول .

(١) حافونى بالخاء كتبها بعضهم هكذا وهو تصحيف .

نبـــذة تاريخيـــة
عن الصومال الإيطالى

وضعت إيطاليا يدها على الجزء الشرقى من سواحل الصومال البريطانى بمقتضى اتفاق أبرمتـه مع رؤساء قبائل أو مشائخ أو سلاطين الصومال والحبشـة وزنجبار بمصادقة بريطانيا العظمى وذلك فى سـنة ١٨٨٩ ميلادية . وفى شهر أغسطس سـنة ١٨٩٢ أجّرتْ حكومة زنجبار لايطاليا موانئ بر البنادر فكانت تحت إدارة شركة فيلوناردى ، ومنذ سـنة ١٨٩٨ أصبحت تحت إدارة شركة البنادر . وفى سنة ١٩٠٥ تنازلت حكومة زنجبار لإيطاليا عن حقها فى ملكية تلك الموانئ مقابل مبلغ من المال لا يتجاوز مائة وأربعة وأربعين ألف جنيـه إنكليزى .

وفى ذاك الوقت حلت الحكومة الايطالية محل الشركة الآنفة الذكر فأصبحت إدارة تلك البنادر فى قبضـة الحكومة . وفى سنة ١٩٠٥ تنازلت بريطانيا العظمى لإيطاليا عن قطعة من الأرض بالقرب من كسمايو . وفى سـنة ١٩٠٥ صـدرت إرادة ملكية بجعل البلاد الكائنة بين نهـر الجب وسلطنة أُوبيا تحت إدارة ملكية .

وفى سنة ١٩٠٤ فاوض الايطاليون المُلّا عبد الله ، وبعد الاتفاق مع سـلطان أوبيا وسـلطان مجرتين سلمت الأراضى الواقعة بين الرأس الأسـود ورأس بوين الى عهـدة المُلّا . وبهذه الكيفية استتبت السكينة وساد الوفاق بين الايطاليين والانكليز والحبشة .

وفى خلال المدة بين سنتى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ ابتـدأ القتال بين الملا وقبـائل المجرتين فتدخلت إيطاليا فى الأمر عسكريا . وكان الملا عبدالله قد أغار حينئذ على الأملاك البريطانية .

وفى سـنة ١٩٠٧ وسعت إيطاليا نطاق أملاكها من ناحية الحبشـة فى مقابل مبلغ مائة وعشرين ألفا من الجنيهات الانكليزية . وفى سنة ١٩١٧ أصبحت لموانئ البنادر مناطق داخلية متسعة . وفى سنة ١٩٢٤ أخذت ايطاليا من الدولة البريطانية قطعة من أراضى الجب الجنوبية . (المَعْلَمة البريطانية Encyclopaedia Brit.)

يوم ٥ ينـاير — وفى ليـلة ٥ ينـاير عَلَت الأمواج وظل البحر فى ثورة واضطراب فأخذت سفينتى تميد ذات اليمين وذات الشمال حتى لم يعد بطاقتى النوم أو التماس الراحة، ولم يستقر لى فى فراشى لهذا السبب قرار، مع أنى كنت بالرغم من هذا كله لا أحس تأثيرا للبحر فى نفسى من أية وجهة كانت . ولمـا أسفر الصبح وطالعتنا الشمس من وراء حجاب الاقيانوس كنا نرى سواحل الصومال الشرقية من قسمها الايطالى رأْىَ العين، غير أن رطوبة الجو ازدادت ولم تلبث السماء أن تلبدت بالسحب دون أن توافينا بوابل من مطرها . وكنت أمضى أكثر ساعات النهار فى تسطير هذه الرحلة .

يوم ٦ ينـاير — تغيرت حالة البحر قليلا فاضطرب بعد أن هـدأ، ولكن اضطرابه لم يبـلغ الى الحد الذى أشكوه . وفى المساء اشـتدت الريح ثم مررنا فى صبيحة اليوم بمدينة مَقْدَشـو (١) .

---

(١) ورد ذكر مدينة مقدشو فى الجزء الثانى من رحلة ابن بطوطه صحيفة ١٨٠

يوم ٧ ينـاير — كان لايبقى بيننا وثغر مَنْبَسَى إلا القليل . ولكى نصل اليها فى صبيحة الغـد خفضـنا من سرعة الباخرة ، ولكن الرطوبة كانت قـد اشتدت الى درجة لا تطاق . وفى المساء اشـتد هبوب الريح وتراكمت السـحب فى السماء حتى حجبتها . وفى منتصف الليل اشتدت حلكة الظلام فلم يبد لنا وجه القمر مع طلوعه ، وتضاعف قصف الرعد بشـكل مخيف وتوالى سـقوط الصواعق بدوى يصم الآذان ، وهطل المطر مدرارا وظلت الحالة كذلك أكثر من ساعة . ثم صـفا الجو وسكنت الرياح العواصف وهدأ البحر .

يوم ٨ ينـاير — وصلنا قبيل منتصف الساعة الثامنة من الصباح الى ثغر مَنْبَسَى فرست الباخرة فى ميناء كَلَنْدِينى الجميـل . وهذا الميناء عبارة عن خليج كثير الملتويات والعطفات يرى الى يسار الداخل بحرًا الى ثغر منبسى فبقينا بالباخرة نلتمس الراحة من عناء السـفر ، حتى اذا حان وقت العصر نزلنا جميعا الى البر فركبنا سيارة سائقها من السواحلية وطفنا بالمدينـة وعلى الخصوص بالحى الأهلى والضاحيـة . وما أجمـل ما وقعت عليـه أنظارنا من النباتات والأشجار بألوانها الجميـلة ثم اتجهنا الى السـوق وابتعنا بعض الفواكه ومنها الأَنْبة الهندية (المـانجو)[1] ولاحظت أن المدينة قد اتسع نطاقها أكثر ممـا كانت عليه قبل اثنى عشر عاما تقريبا حين زيارتى الأولى لها ، فانها كانت أصغر بكثير ممـا هى الآن . وبعـد أن قضينا حاجتنا من التنزه والاسـتطلاع عدنا الى السفينة وفيها أمضينا ليلتنا ، وكان جو اليوم شبيها بجو الأمس فقد أظلمت السماء وهطل المطر وقصف الرعد .

---

(١) ثمر شجرة العنبة الهندية (Mangifera indica) والأمبا والأنبة لغات فيها وقد أطلقت كلمة العنبة على النبات المسمى (Carica papaya) والذى يعرف فى اليمن بالباز أو البابة وفى اليمن بدباء الهند .

ويبلغ عدد سكان مدينة منبسى أربعين ألف نفس تقريبا . وهو فى كل عام يزداد ازديادا محسوسا لأنها الثغر الوحيد لكينيا ومنها تمتـد السكة الحديدية فتصل الى نيروبى عاصمة المستعمرة البريطانية الشرقية فبحيرة فكتوريا نيانزا . وسكان منبسى خليط من الانكليز وسائر أمم الفرنجة والهنود والعرب والزنوج . أما أهلها الأصليون فالسواحلية وهو الاسم الذى كان يطلق على سكان زنجبار وأصبح الآن يطلق على عامة أهل هـذه الجزائر من سواحل القارة . والسواحليـة كالصوماليين خليط من العرب والزنوج واللغة السواحلية أقرب اللغات شبها الى الأوردية الهندية فى تكوينها فانها مزيج من اللغات الفارسـية والتركية والعربية والبرتقالية والانكليزية والهنـدية والألمـانية والزنجية ، ومنتشرة بطول البلاد وعرضها حتى أن رجال القبائل الداخلية يفهمونها . واذا ألمّ الانسان بمعانى بضع كلمات منها استطاع التجوال فى البلاد كلها دون حاجة الى ترجمان . أما عقيدة السواحلية فالاسلام وإن يكن من بينهم أفذاذ قليلون اعتنقوا الديانة المسـيحية بمساعى المرسـلين المبشرين . وفى مدينـة منبسى حصن قديم بناه العرب وزاد البرتقاليون فى عمارته أيام احتلالهم البلاد ، وبها تمثال من البرونز للسر وليم ماك كينون ومدارس وكنائس لليسوعيين ومستشفى للفرنجة وآخر للأهالى الوطنيين ، ومدرسة كبيرة عمرها أحد الهنود المسلمين ويكثر بها شجر النارجيل (جوز الهنـد أو الرَّانَج) وشجر العَنْبَه (المـانجو) ، وثمار الأخيرة تبلغ من الحجم مبلغا مدهشا وبجزيرة منبسى آثار من عمائر العرب والبرتقاليين والترك وقلعة بنيت فى عهد الأتراك ، أى لمـا احتلت القوى التركية مدينة منبسى كما سترى بعد .

أما اسم مدينة مونبسه كما جاء فى معجم البلدان فهو اسم مدينة بِعُمَّان . وكانت تأسست محطة عربية وفارسـية فى مدينة منبسى الافريقية فى القرن الحادى عشر وقد ذكرها ابن بطوطه فى كتاب رحلته وصفا لها إذ قال :

”وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الســواحل مسيرة يومين فى البحر ولا بر لها . وأشجارها اللوز والليمون والأُتْرُج ، ولهم فاكهة يسمونها الجُمون (وربما كانت الفاكهة المعروفة الآن بكاجو) وهى شبه الزيتون ولها نوى كنواه إلا أنها شـديدة الحلاوة . ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل“ الخ .

وكانت مركزًا لتجارة مهـمة نافقة عند ما وصـل اليها ڤاسكو دى جاما فى سـنة ١٤٩٨ وكان بهـا الجم الغفير من البانيان الهنود ونصارى بلاد الشرق . ويقال إن حاكمها أراد أن يغتال ڤاسكو دى جاما ، ولأجل ما وقع من المناوشات والحروب وقتئذ بين الفريقين سميت باسم مُوِيتا وهى كلمة باللغة الســواحلية معناها (الحرب أو القتال) . وأهم ماحدث بها أن القائد ألميدا (Almeida) أحرق المدينة فى سنة ١٥٠٥ وأعاد كرة إحراقها من بعده نونو دى كونها (Conha) فى سنة١٥٢٩ فدوارتى دى منيزيس فى سنة ١٥٨٧ وكان إحراقها فى المدة الأخيرة على سبيل الانتقام لاقرارها بالطاعة لسلطان القسطنطينية . ثم حدثت ثورة قتل فيها يوسف ابن أحمد كل البرتقاليين المقيمين وكانوا مائة عدًا .

وحاصرهم أمام عمان (وهو لقب صاحب عمان) من سنة ١٦٩٦ — ١٦٩٨ وهبط عدد الحامية البرتقالية الى أحد عشر رجلا وامرأتين . وانتهى الأمر بأن أخلاها البرتقاليون ولكنهم عادوا فامتلكوها من ٢٢ مارس سنة ١٧٢٨ الى ٢٩ نوفمبر سـنة ١٧٢٩ حيث أخرجهم منها أهل مَسْقَط نهائيا . وفى ديسمبر سـنة ١٨٢٣ خلعت أسرة المزورية التى كانت تحكم على البلاد باسم إمام مسقط واستقلت تحت حماية الحكومة البريطانية . وفى فبراير سـنة ١٨٢٤ عين الملازم رايتز حاكما على المدينـة من قبل الكابتن أوين . وسمى جزء من المينا باسم رايتز الذى مات فيما بعد بمنبسى، وأخلى الانكليز البلاد . وبعد ذلك أى وقتما جاءها السيد سـعيد صاحب

عمان وهاجم البلاد وأصلاها نارا حامية من مدافع أســطوله وذلك خلال المدة بين سنتى ١٨٢٩ و ١٨٣٣ ثم امتلكها فى سنة ١٨٣٧

واتخذ السيد ســعيد زنجبار عاصمة لملكه ففقدت منبسى بذلك أهميتهـا . وفى سنة ١٨٧٥ ثار أهل منبسى على حاكمها الجديد فأخمدت الثورة بمعاونة الانكليز.

وفى ســنة ١٨٧٦ كان من مشاريع الخديو اسمـاعيل ضم منبسى والأراضى الداخلية حتى بحيرة فكتوريا نيانزا الى مصر وندب الجنرال غوردون لانفاذ هذا المشروع وقتما كان حاكما على النيل الأعلى من قبل مصر .

وفى سنة ١٨٨٧ سلم سلطان زنجبار مدينة منبسى الى الحكومة البريطانية لتدير بمعرفتها شـئونها فأصبحت عاصمة إقليم السيديه وكذا عاصمة الممتلكات البريطانيـة فى افريقيا الشرقية .

وفى ســنة ١٩٠٧ نقل مركز الحكومة الى نيروبى . وفى سنة ١٩٢٠ سميت أفريقيا الشرقية باسم مستعمرة كينيا[١] وضمت الى الأملاك البريطانية فزال ماكان لحكومة زنجبار من حق الملكية على تلك الأقطار الواسعة (المعَلّمة البريطانية) .

يوم ٩ ينـاير — أمضينا هذا اليوم فى الباخرة، فلمـا كان أوان العصر نزلنا الى البر وطفنا بالمدينة ثم قصــدنا الى الحصن الذى يرجع تاريخه الى عهد الاحتلال البرتقالى وسمى باسم حصن المسـيح فاذا به الآن قــد تحوّل الى سجن يشتغل فيه المسجونون بمختلف الحرف والصناعات . وفى هذا الحصن برطوم من الخشب من عهــد البرتقاليين ولكن المسلمين محوا النقوش التى كانت على أحد وجوهه ونقشوا فى مكانهـا بعض آى القرآن . ثم دخلنا غرفة صغيرة جعلت مسجدا عقب خروج

(١) أنظر الوثائق التاريخية التى عربتها من مؤلفات القومندان غيان .

البرتقاليين فرأينا سقفها منقوشا بآيات قرآنية أيضا . وبعد الانتهاء من زيارة الحصن طفنا بالشاطئ فشهدنا آثار بعض الحصون الصغيرة العربية أو التركية وهى أطلال دائرة . وتوجد بالحصن الكبير مدافع من عهد البرتقاليين . وعلمت اليوم أن بالمدينة رجلا عهدت اليه وظيفة (الوالى) وهو يطلق عليه هذا اللقب وكان تعيينه فى هـذا المنصب عقب وفاة أبيه وهو عربى الأصل ومن أصحاب اليسار فى البلاد .

يوم ١٠ ينـاير — أمضينا سحابة نهاره كما أمضيناها أمس ولم يقع مايستحق الذكر .

يوم ١١ ينـاير — وصلت اليوم باخرة شركة المساجرى وكان بين ركابها النبلاء عمر حلم وعمرو ابراهيم وسليمان داود . فانتقلوا الى باخرتى حيث أمضينا معهم بضع ساعات تجاذبنا أثناءها أطراف الأحاديث ثم انتقلوا الى فندق مترو بول لتناول طعام الغذاء و بعده سافرنا جميعا فى منتصف الساعة الرابعة بقطار نيرو بى (Nairobi) فوصلنا قبيل منتصف الليـل الى محطة فوى وبها قضينا بقية الليـلة فى إحدى عربات قطـار آخر يسافر من هـذه المحطة فى الصباح . وأما الباقون فسافروا الى نيرو بى .

يوم ١٢ ينـاير — تحرك بنا القطار فى الساعة التاسعة من صباح اليوم فوصلنا الى نقطة تبعـد بستين ميلا عن مكان وقوفه فى الساعة الثـانية بعد الظهر . وليس بهذا المكان محطات بل كوخان لعساكر الدريسة فضربنا فيه خيامنا لقضاء الليلة .

مستعمرة كينيا (Kenya)

وصف طبيعى لها وكلمة عن جغرافيتها وتاريخها الحديث

تحد مستعمرة كينيا شمالا ببلاد الحبشة وشرقا بالصومال الايطالى والمحيط الهندى وجنوبا بمستعمرة تنجانيقا الحالية وهى التى كانت قبل انتهاء الحرب الأخيرة تسمى بالمستعمرة الألمانية الشرقية وغربا ببحيرة فكتوريا نيانزا ومستعمرة أوجندا البريطانية (Uganda) . وتبلغ مساحتها ٢٤٠٠٠٠ ميل مربع تقريبا .

وليس لعدد سكانها ضابط من العدد ولكنه يقدر بمليونين الى أربعة ملايين من النسمات . وعدد الهنود يقدر بنحو ثلاثين ألفا أو أكثر . أما الأوربيون فيقدر عددهم فى الوقت الحاضر بأكثر من عشرة آلاف نفس بعضهم من انكليز جنوب إفريقيا وسوادهم من الأسكتدلانديين والبعض الآخر من البوير أو الهولنديين الأصليين .

طبيعة الأرض :

تكثر الجزر بقرب السواحل فى الجهات الجنوبية وعلى مقربة من منبسى وتقل فى الجهات الشمالية . وليس بداخل الأرض أودية فسيحة بل جبال تنحدر منفصل بعضها عن بعض نحو البحر وتخللها أودية مختلفة الاتساع . واذا أوغل الرحالة فى الداخل رأى أن السهول كثيرة وأنها ترتفع الى ثمانمائة قدم أو نيف وأن الجبال منفصلة غير متصلة ولكنها متجهة غالبا نحو الشمال أو الشمال الغربى مكوّنة فى انفصالها عن بعضها للسهول السالفة الذكر . وتختلف ارتفاعات الجبال من خمسة آلاف قدم الى ثمانية وفيما يلى ذلك توجد سهول مرتفعة فسيحة بعضها مزروع والبعض الآخر

مغطى بالغابات وأكبر السهول المغطاة بالحشائش سهول كابتى (Kapiti) أو كابوت وآتى (Athi) الكائنة بين الدرجتين الأولى والثانية من العرض الجنوبى. ومتوسط ارتفاع هذه السهول المغطى سطحها بالمواد البركانية يختلف من ٥٠٠٠ الى ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . وهذه البقعة أكثر ارتفاعا من غيرها وبها أعلى الجبال الواقعة فى مستعمرة كينيا كجبل كينيا المشهور وهو بركان قديم يبلغ ارتفاعه ١٧٠٠٧ أقدام ثم جبل ستيمة (Sétima) وارتفاعه ١٣٢١٤ قدما، وجبل ندارووره (Ndaruri) وارتفاعه ١٢٩٠٠ قدما .

ويبلغ متوسط ارتفاع سلسلة الجبال التى بها قمة ستيمة والمعروفة باسم أبردارى (Aberdare) ١٠٠٠٠ قدم تقريبا . وغربى ذلك توجد مرتفعات أراضى قبيلة الكيكويو (Kikuyu) . ومتوسط ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم تقريبا، ويجرى شرق وادى الرِّفت (Rift valley) متجها نحو المحيط نهران مهمان هما نهر تانا (Tana) ونهر ثيكى (Thika) . أما نهر الغواسونيرو (Guaso Niro) فمنبعه بالجبال الكائنة بالشمال الغربى لجبل كينيا ويتجه نحو الشمال الشرقى . ثم يصب فى مستنقع عظيم بعد أن يجرى على مدى ثلثماية وخمسين ميلا تقريبا وهذا المستنقع معروف باسم مستنقع لوريان (Lorian Swamp) . وتكثر البحيرات الصغرى فى وادى الرفت المذكور . أما القسم الجنوبى من المستعمرة فمعروف باسم سهول دوجيلانى القفراء وتتجه الى مستعمرة تنجانيقا . ويوجد بطرفها الشمالى بركان سُوسْوَه (Suswa) الذى ارتفاعه ٧٨٠٠ قدم . ولونجونوت (Longonot) الذى ارتفاعه ٨٧٠٠ قدم وبحيرة نيفاشا (Neivasha) ومسطحها ٦١٣٥ قدما ويحدها من الشمال سلسلة جبال جورو وفيما يليها بحيرة ناكور (Nakuru) وغيرها وكذا بحيرة بارنجو (Baringo) وبعد ذلك بحيرة رودولف (Rudolf) فى الشمال .

وفى غرب وادى الرفت جبال الماء وارتفاع قسمها الكائن أمام بحيرة نيفاشا ٨٠٠٠ قدم تقريبا وتعلوها غابات كثيفة وغربيها أراض زراعية تعرف باسم سوتيك ولومبوا (Lumbwa) وغابات تتجه الى بحيرة فكتوريا . وفى شمال خط الاستواء بهذه الجهة الجزء المعروف بناندى (Nandi) وهو كثير المياه . وفى غرب ألجيو تعلو الأرض ثانيا وتوجد جبال ألجون (Elgon Mt.) .

وفى غرب بحيرة رودولف وجنوب بحيرة استيفانى سهول واسعة لامياه بها وهى بركانية التربة . وبها جبال كثيرة أهمها جبل كانجورا وارتفاعه ٦٩٠٠ قدم .

وفى جنوب هذا الجبل أراض عالية اسمها نديل تكثر بها المراعى للجمال . وبين بحيرة استيفانى ونُهَير دارا (Dera) وهو فرع من الجب سلسلة جبال مشهورة باسم جورو وهى الحدّ الفاصل بين كينيا والحبشة . أما القسم الجنوبى الشرقى فمكوّن من سهول واسعة منخفضة لا ماء فيها .

الوصف الجيولوجى :

إن السهول الجنوبية والمرتفعات الشمالية بجهة الشواطئ مكوّنة من صخور حديثة عهد بالتكوّن والوجود .

أما السهول السفلى للمرتفعات الداخلية والتى تأتى بعد السهول الآنفة الذكر فمكوّنة من عين مواد الدور الثانى التى تتكوّن منها سهول جبال (چورا) بفرنسا أما المرتفعات التى تبتدئ بتارو وتمتد الى حدود كوكويو فمكوّنة من الحجر المُبَلْوَر القديم والشطر الأكبر من صخورها بركانى (Post- jurassic to recent) تجمعت فيه مواد الدور الثلاثى التى تألفت منها تلك السهول وبذا تكوّنت الربوات البركانية الكائنة فى الجزء الأوسط من إفريقيا الشرقية (كينيا) .

جو مستعمرة كينيا ونباتاتها وحيواناتها :

إن الطقس فى السواحل حارّ بوجه عام، ولكنه صحى أكثر منه بسواحل البلدان الأخرى وسبب ذلك دوام هبوب نسيم المحيط الهندى وجفاف الجهة وخلوّها من المستنقعات . وتقدّر الأمطار التى تسقط بهذه الجهات بخمسة وثلاثين بوصة فى السنة ويقل المطر فى السهول الداخلية أو على المرتفعات . أما الجهات الواقعة فيما يلى ذلك فصحية جدا ولا تتفشى الحميات بها ومتوسط درجة الحرارة فيها ٦٦ بمقياس فارنهيت شتاء و٧٣ درجة فى الصيف، واذا بلغ الانسان الى ارتفاع ٧٠٠٠ قدم برد الطقس وتحوّل الماء الى جليد فى بعض الأحيان ويختلف متوسط المطر فى تلك المرتفعات من أربعين بوصة الى خمسين. أما اذا قربنا من فكتوريا نيانزا فان الجوّ يسخن على الدوام . ويبلغ مقياس المطر ستين بوصة فى السنة . ومناخ هذه الجهة غير صحى للأجانب .

وأشد الحرارة فى أثناء السنة بجميع أنحاء المستعمرة يكون من شهر يوليو الى سبتمبر . أما المطر فيشتدّ هطولا بين شهرى مارس ويونيه ويقل فى نوفمبر وديسمبر.

نباتاتها :

نباتات الجزء القريب من فكتوريا نيانزا تشبه نباتات أوجندا . أما أشجار السواحل فالنارجيل (جَوْز الهند) والعَنْبَة (المانجو أو الأمبا) أما الأبِنُوس فتوجد أشجاره فى الغابات غير الكثيفة والمنجروف[1] (Mangrove) وهناك غابات لشجر الزيتون والعَرْعَر[2] فى جبال الماو . ويزرع القطن والتين والغاب الهندى بجبال إقليم كوكويو وفى البقاع الأخرى غابات كثيفة كبيرة الأشجار يبلغ علو غصونها السفلى على سطح

(١) شجر يستعمل قشره للدباغة وفى القشر ٣٠ ٪ تانين ويعرف بالشورى أو الشورة .

(٢) العرعر أو الأبهل شجر يسمى علميا (Juniperus) .

الأرض خمسين قدما ولشجر الكاوتشو (اللَّستِك) نوعان اسمهما العلمى هو (لاندولفيه فلوريدا) و (لاندولفيه كيركي) سواء أكان بالسواحل أم بداخل البلاد . وتنمو فى بعض الجبال نباتات المناطق الباردة .

حيــوانـاتهـا :

ومن حيوانات كينيا الجمل على الحالة غير الوحشية والفيل والخرتيت والجاموس البرى والمها ونوعان من الحمار البرى والأسد والفهد والضبع والقط البرى وصنوف مختلفة من القردة وفرس البحر والتمساح والظرافة وأنواع الغزلان و بقية الحيوانات من الفصيلة البقرية والحيّات المختلفة والنعام ودجاج الوادى والقطا والطيور الأخرى الكثيرة والحُبَارَى صغيرة وكبيرة واليمام الخ .

الســكان :

انتشر الجنس الأبيض (وسواده من الانكليز السكسونيين) بجهات كوكو يو فى جوار جبل كينيا و وادى الرفت وهم يزاولون زراعة القطن قليلا ومعظم اهتمامهم موجه الى زراعة البن والصبّار . وقد بدأوا حديثا فى إدخال زراعة الشاى والخضر النافعة للطعام والفواكه وتربية البقر والغنم . وفى مقدمة المشتغلين بهذين النوعين اللورد ديلامير الذى هاجر منذ زمن الى هذه البلاد وتوطن بها وله أراض واسعة فيها ، ثم جماعة من السواحلية وغيرهم الذين مزجوا بالزنوج أنسابهم وتتكون منهم الآن جماعة قائمة بذاتها ، ثم الهنود وهم القابضون على زمام التجارة ومنهم المشتغلون بتسيير المواصلات . وهم فى المدن والأرياف أصحاب الحوانيت فى كل مكان منها ، ثم البانيان ويسكنون الجهات الجنوبية غالبا . وأهم قبائلهم الواكامبا والكيوكيو ووانيكا . وبالجهات الشمالية الشرقية من بحيرة فكتوريا توجد قبيلة الكافير وندو وقبائل أخرى كقبائل الناندى واللومبوا والسوق وتركانه ،وهم فى الشمال

الغربى . أما العنصر الحامى فمنه قبيلة المساى ويتكلمون لغة نيلية . وفروع من قبيلة المساى معروفة باسم واكوافى وتشتغل بالزراعة ، أما نسل الجلا وهم من سلالة حام فمنه قبيلة البورانى بجنوب جبال غورو . أما بلاد البوران الأصلية فهى ليبان أو ديرى ببلاد الحبشة . ويوجد الصوماليون بين نهرى تاناو (Tana) والجُبّ (Juba) أى بالشمال الشرقى . ومنهم الذين ينتمون الى قبيلة حارثى وهم أهل السواحل . وفى الداخل قبيلة صومالية رحالة مشهورة باسم جورا وهم جنوبى دارا (Dera) . أما القبائل المتوحشة فهى الواندوروبو وغيرها من القبائل المتفرقة فى الجبال وباقى الجهات .

أقاليمها ومدنها :

تنقسم مستعمرة كينيا الى أقاليم منها إقليم السيديه وهو الإقليم الذى على الساحل الجنوبى وعاصمته منبسى ، ثم أوكامبا (Ukamba) بوسط المستعمرة وعاصمته نيروبى (Nairobi)، ثم كينيا وعاصمته فورت هول (Fort Hall)، ثم تاناالند فى شمال الإقليمين السالفى الذكر وعاصمته لامو (Lamu) ثم الجبالاند (Jubaland) وهو الإقليم الشمالى وعاصمته كسمايو (Kismayu) ، ثم نيفاشا (Naivasha) وعاصمته نيفاشا ، ثم كيسومو (Kisumu) وعاصمته كيسومو . وكل إقليم أصلى من هذه الأقاليم ينقسم الى أقسام فرعية .

وأشهر المدن هى منبسى وكلنديني (Kilindini) الكائنة جنوبى الأولى ثم فريرى تاون المسماة باسم السربارتل فرير . وفيها منحت الحرية للعبيد ، وبها مركز للمبشرين .

ثم مدينة لامو (Lamu) وهى بالجزيرة المسماة بهذا الاسم وكائنة فى الشمال الشرقى لمدينة منبسى . وقديمة العهد وهى مركز تجارة العرب بالجهات الساحلية .

وبها بعض آثار للبرتقاليين وأطلال مدينة عربية كبيرة مطمورة فى الرمال ثم ملندة (Malindi) وتانا (Tana) وكيبيني (Kipini) وكسمايو . وفى ملندة عمود أقامه

فاسكو دى غاما تذكارا لزيارته المدينة فى سنة ١٤٩٨ أما كسمايو فآخر ثغر فى شمال المستعمرة يمكن للسفن الصغيرة أن تأوى اليه . وقد تكونت حديثا قرى كبيرة بطول الخط الحديدى وأهمها نيروبى وهى عاصمة البلاد فى الوقت الحاضر، ثم نيفاشا الكائنة على بعد ٦٤ ميلا فى الشمال الغربى من نيروبى وعلى ارتفاع ٦٢٢٠ قدما من سطح الأرض وهى محطة طيبة المناخ ومركز زراعة العنصر الأفرنجى .

ثم كيسومو أو بورت فلورانس ، وهى مدينة زاهرة مقامة على تل مرتفع مشرف على بحيرة فكتوريا ومركز للتجارة بين مستعمرة كينيا ومستعمرة أوجندا .

طرق المواصلات فى مستعمرة كينيا عديدة ولكنها غير وافية بالمرام حتى الآن. فهناك طريق من منبسى يمر بكيبويزى وبحيرة نيفاشا ويصل الى باركلى باى أى خليج باركلى . ويمتد خط آخر من منبسى الى نيروبى وكان إنشاؤه فى سنة ١٨٩٦ ومن مدينة نيروبى يتواصل امتداده حتى يبلغ الى بورت فلورانس الكائنة على بحيرة فكتوريا نيانزا ويبلغ طول هذا الخط ٥٨٤ ميلا . وكان من ثمرات إنشائه قطع دابر الاسترقاق من البلاد وتوطيد مركز انكلترا وتعزيز مستقبلها فى بلاد أوجندا، دع أنه ساعد على انتشار العمران فى مستعمرة كينيا .

أما ثغر منبسى فتتوارد عليه سفن الشركات المختلفة كالشركات الألمانية والفرنسية والإنكليزية والايطالية . ويتصل بجزيرة زنجبار بخط تلغرافى، وهناك خطوط تلغرافية عديدة بداخل المستعمرة وفى أوجندا .

زراعتها وصناعتها :

الزراعة بالجهات الساحلية يقبض الأهالى الوطنيون والهنود وبعض الافرنج على زمامها . وهى تنحصر فى زراعة الأرز والذرة وقليل من القطن والدخان . وتغرس فيها أشجار النارجيل والمنجروف التى تصلح قشورها للصباغة . وببعض

الجهات الداخلية يزرع شجر الخروع وقصب السكر (وقد عاينت هذا الصنف بنفسى فوجدت أنه ينبت فى الأراضى العظيمة الارتفاع عن سطح البحر . وما خطر ببالى قط أنه يزكو هنا والذى رأيته أنه يبلغ فى الطول والغلظ ضعف أجود القصب الذى يزرع فى الوجه القبلى ولكن عقلاته متقاربة العقد غير مستطيلة) ولوحظ أن ما ينبت من هذا الصنف بالجهات المرتفعة يكون ضعيفا وما ينبت بالجهات المنخفضة يكون أقوى وأجود .

وقد اتصل بى أنه أنشئ معمل للسكر بهذه المستعمرة وهناك غير ما تقدم شجر الكاوتشو (المطّاط أو اللّستيك) .

أما الجهات المرتفعة فان كبار الزراع فيها من الأفرنجة أى من الانكليز . وتكثر فى أملاكهم زراعة البطاطس والحنطة والشعير والقمح والبن .

وفى منحدرات الجبال المروج الواسعة لرعى الغنم والبقر . وقد جىء من أستراليا بالخروف المعروف باسم ما رينو لتربيته وتبليده . وكان الناس قبل الحرب يهتمون هنا بتربية النعام ولكن الاقبال على هذه التربية بعد الحرب قد قل كثيرا . وقد شرع فى تحسين المراعى بزراعة أنواع البرسيم وما جرى مجراه ثم الصبّار وغيره من النباتات النافعة . والتربة فى أكثر الجهات لا سيما فى الجهات المرتفعة ضاربة الى الحمرة . أما السهول الشرقية فانها سوداء وتصلح لزراعة القطن . والأهالى الوطنيون جبلوا على الكسل والاخلاد الى الراحة، فهم لا يهتمون بالزراعة . ولهذا ترى أن الفلاحين من الجنس الأبيض قد انتشروا فيها أكثر منهم فى غيرها، وان استخدموا الوطنيين أحيانا فى أعمالهم .

وهناك معامل لكبس اللحوم وحفظها، ولا سيما لحم الخنزير . أما الوطنيون بالأرياف فيشتغلون بعمل السّلال أو نسج الأقمشة وصنع الأوانى ، وهم يقطعون

الأحجار من المقالع . وفى هذه البلاد مناجم للنحاس وقد استكشف الماس أخيرا فى أحد النهيرات المشتقة من نهر تانا .

تجارتها :

يؤتى بالأنسجة وغيرها الى هذه البلاد من الهند . والشطر الأكبر من تجارتها هو بأيدى الانكليز . أما الصادرات ومنها ما يصدر الى أوجندا فأهمها البطاطس والجلود والبقول والكاوتشو والعاج والشمع الخام المستخرج من عسل النحل والقطن وألياف الصبار . وقد رأيت من الصبار مساحات كبيرة ولاحظت أنه جيد النبْت فى هذه البلاد . أما المتاجر والصناعات الصغيرة فبأيدى الهنود .

إدارتها :

يتولى شئون الحكومة حاكم عام يعاونه مساعد ينزل منه بمنزلة الوكيل ، ولكل إقليم أو مقاطعة مدير ، وهناك هيئات استشارية وتطبق نصوص الشريعة الاسلامية من بعض الوجوه على الأهلين من العرب والوطنيين المسلمين ، وزمام السلطة القضائية بيد الحاكم يعاونه على تصريف الأحكام مجلس شورى ، والتشريع هنا مأخوذ عن التشريع الهندى مع رعاية العادات الأهلية والنزعات الموضعية ، هذا اذا كان المتقاضون من الأهلين أما اذا كانوا من الأوروبيين فانهم يحاكمون أمام محكمين فى الأحوال الخطيرة . وبالبلاد قوة من البوليس حفظة الأمن والنظام يتجاوز عددها الألفين ، وقوة أخرى من الجنود الوطنيين . ويدفع الوطنيون ضريبة على الأكواخ التى يأوون اليها . وكانت العملة حينما زرت هذه البلاد فى سنة ١٩١٢ لأول مرة الروبية الهندية ، أما الآن فقد وجدت ان الشلن أساس العملة بالبلاد .

ويتولى شئون التعليم جماعة المبشرين ، وفى منبسى مدرسة للعرب هى التى سبقت لنا الاشارة اليها ، وهناك مدارس للأوروبيين والوطنيين أنشأتها الحكومة بمدينة نيروبى .

لمحـــة تاريخيـــة

من القرن الثـامن للميلاد الى القرن الحادى عشر منـه كانت العرب والفرس منتشرين على السواحل وقد أسسوا بها مراكز للتجارة . وكان لهم النفوذ السياسى ، وقامت عقب ذلك مملكة سميت مملكة الزنج سيرى القارئ فيما بعد بعض البيانات عنهـا . ثم اندمج تاريخ البلاد الساحليـة فى تاريخ زنجبار عقب ذلك . أما بلاد القارة أى الجهات الداخلية من المستعمرة المعروفة الآن بمستعمرة كينيا فان أول من استكشفها فى منتصف القـرن التاسع عشر المبشرون الألمـان لودويج كرايف ويوحانس ريمـان والبارون كارل فون دردكن ، وذلك من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٣٥ وارتادها غيرهم بعدهم .

وبينما كان فون دردكن وثلاثة غيره يطوفون بجهات نهر الجب فى سنة ١٨٦٥ قتلهم الصوماليون .

وكان جوزيف طومسن الأسكتلندى قد طاف بالجهات الواقعـة شرق فكتوريا نيانزا وهى الجهات المعـروفة باسم (مسـايلاند) وذلك فى سـنتى ١٨٨٣ و ١٨٨٤ ، ثم جاء الكونت تلكى المجرى فاستكشف بحيرتى رودولف واستيفانى فى سنة ١٨٨٨ .

وكان النفوذ البريطانى وطيـدا فى جزيرة زنجبار خلال الربع الأخير من القـرن التاسع عشر ، وكان السيد برغش سلطان زنجبار شديد الثقة بالسير جون كيرك مندوب الحكومة البريطانية لديه ، فحدث فى سنة ١٨٧٧ أن تنازل سلطان زنجبار عن إدارة الأراضى الإفريقيـة التابعـة لبلاده وجماركها مع حفظ حقوق ملكيته عليها للسـير وليم ماكينون أو للشركة التى يؤسسها ، فلم تصـادق وزارة الخارجية

البريطانية على ذلك ولا على ما أحرزه المستر هـ . جونستون من حقوق التملك بجهات كليمانجارو (Kilimanjaro) ، غير أن الامتيازات التى حصل الألمان عليها فى سنة ١٨٨٤ — سنة ١٨٨٥ لفتت نظر الحكومة البريطانية الى ضرورة الإهتمام بهـذا الأمر . وكان من أثر ذلك أن وافق الألمـان على المطالب البريطانيـة بشأن الأراضى الواقعـة خلف منبسى سنة ١٨٨٦ . وظفر السـير ماكينون من السلطان برغش بامتيازات تخوّله حقوقا على الجهات الداخليـة التى كانت انكلترا ترى أنهـا منطقة نفوذ ألمـانية .

وتم الاتفاق على أن الأملاك التابعـة لسلطان زنجبار تكون ممتـدّة الى مسافة عشرة أميال من الشاطئ ، وأسس ماكينون شركة عرفت باسم (الشركة الشرقيـة الأمبراطورية لأفريقيا البريطانية الشرقية) وكان ذلك فى سنة ١٨٨٨ وقد صادق الملك على تأسيسها فتنزل سلطان زنجبار لهذه الشركة فى سنة ١٨٨٨ عن حقوق أخرلهُ ، الا أن الشركة الانكليزية لقيت صعوبات كثيرة لتعرّض الشركة الألمـانية لهـا بالمعاكسة وعرقلة المساعى .

وكانت الشركة الألمـانية قد حصـلت على امتيازات من سلطان زنجبار فأخذ اللورد سالسبورى (Salisbury) من البرنس بسمرك (Bismark) ضمانا بأن لايتعدّى نفوذ الشركة الألمـانية جنوب بحيرة فكتوريا نيانزا ، إلا أن الألمـان انتحلوا لأنفسهم حقوقا على جهات لامو (Lamu) والسواحل ، ومع هذا فقد قبلت الشركة الانكليزية بأن تدفع مبلغا لسلطان زنجبار .

ولمـا مات برغش أخذ الألمـان يلحون على خلفه بتسليم لامو اليهم وكان هذا أعظم داع لقبول الشركة الانكليزية دفع هـذا المـال لزنجبار حتى لا تسـود نظرية الألمـان فى نظرها و يكون لها الرجحان على نظرية البريطانيين .

وسـنة ١٨٨٧ كان قد تقرر فيما بين الألمـان والانكليز أن أوجنـدا ستكون تابعـة لبريطانيا العظمى ، ولكن الرأى العام بألمانيا ثار ضد هذه الفكرة وبلغ من معارضة الألمـانيين أن صبغوا موقع هـذه البلاد فى مصوراتهـم الجغرافية باللون الذى يشير الى تبعيتها لألمـانيا وفعل الانكليز مثل ذلك بالنسبة لهم .

وفى سـنة ١٨٨٩ وصـل ألمـانى يدعى كارل بطرس (Carl Peters) وأخذ يوغل فى البلاد بعد أن وضع ما يشبه الحصار على جهات السواحل .

وكانت الشركة الانكليزية أرسلت المستر جاكسون الى جهات فكتوريا نيانزا ونبهت عليه ألا يدخل أوجندا ، فلمـا علم هذا بأمر بطرس عقد النيـة على الذهاب الى أوجندا ، ونمى الى بطرس هذا الخبر فتراجع الى الوراء معلنا أنه حصل على وثائق واتفاقيات تثبت احتلاله لبعض الجهات احتلالا قانونيا . وكان تاريخ الصكوك التى فى يد بطرس أول مارس سنة ١٨٩٠ فعقد جاكسون معاهدة أخرى بتاريخ أبريل .

وكانت المفاوضات السياسية فى صدد ذلك دائرة بأوروبا بين الحكومتين الألمـانية والبريطانية وانتهى الأمر باعتراف ألمـانيا لانكلترا بأوجندا فى شهر يوليو سـنة ١٨٩٠ وكان بأوجندا مبشرون فرنسيون يعارضون سياسـة انجلترا ويناوئونها العداء فأرسلت الشركة البريطانية الكابتن لاجارد فوصل الى منجو عاصمة أوجندا فى ديسمبر سنة ١٨٩٠ وقد تمكن هذا الضابط من توطيد النفوذ البريطانى على الرغم من معاكسة المرسلين الفرنسيين .

وفى شهر يوليو من السنة الآنفة الذكر اجتمع نوّاب الدول فى بروكسل وقرّروا منع الرق . فكان تدخل الشركة فى هـذا الأمر من بواعث توطيد نفوذها بأوجندا

وداعيا الى شق طريق للمواصلات بمد خط حديدى بين الساحل و بحيرة فكتوريا نيانزا ولما كانت ماليـة الشركة لا تفى بإنجاز هـذا المشروع فقـد استنجدت بالحكومة البريطانية لتمدها بالمـال إلا أن البرلمـان البريطانى أبى الموافقة على الأخذ بيدها. وفيما بعد أنشئت السكة الحديدية على نفقة الحكومه، ولأسباب مالية قررت الشركة فى سنة ١٨٩١ سحب الكابتن لاجارد من الجهة التى وصل اليها وما تخلى عنها حتى أعلنت انكلترا وضع حمايتها على أوجندا .

ولما أعلنت هذه الحكومة حمايتها على زنجبار أيضا فى نوفمبر سنة ١٨٩٠ قررت أن تكون الأقاليم الساحلية حرة ومفتوحة لتجارة الجميع فزاد هـذا القرار فى صـعوبة الأحوال على شركة التجارة الانكليزية المومأ اليها وتعطلت أعمالهـا . وكان قد توفى ماكينون رئيسها فى يونيو سنة ١٨٩٣ فقرر حاملوا السندات تسليم أراضيها الى الحكومة البريطانية . ثم ابتاعت الحكومة أملاك الشركة المذكورة بمبلغ ٢٥٠٠٠٠ جنيه . وبهذه الكيفية ملكت الشركة الحكومة البريطانية منابع النيل و بقعـة جيدة التربة شديدة الخصب وأراضى واسعة صالحة للاستعمار والاستثمار .

وفى أول يوم من يوليو سـنة ١٨٩٥ تم التسليم رسميا بمدينـة منبسى فوضعت الحكومة يدها على زمام الادارة فى الحال. والأراضى التى عرفت باسم (ايبيا سميث) سميت بالمستعمرة الافريقية الشرقية . أما سلطنة (ويتو) الصغيرة الواقعة تجاه لامو والتى كانت من سنة ١٨٨٥ الى سـنة ١٨٩٠ تحت حماية الألمـان فقـد أصبحت تحت الحماية البريطانية، و بعد انتقال الادارة الى يد الحكومة الانكليزية شب ضرام الثورة للاختلاف على توارث الشياخة فى قبيلة مزورى العربية، ثم لم يلبث أن عاد الأمن والسلام الى نصابهما فى أبريل سنة ١٨٩٦ وفر الثوار الى الأملاك الألمـانية واعتقلوا بها؛ وأصبح لهذه الثورة تاريخ مهم إذ بانتهائها زال نفوذ العرب وحل محله

نفوذ الفرنجة . ويقول السير إليوت ان الساحل كله كان قبل قمع هذه الثورة واقع في ملتقى نفوذ العرب فأصبحت البلاد بعد ذلك مستعمرة بريطانية بحتة .

وبعد إنشاء السكة الحديدية من منبسى الى نيروبى أعطى أول امتياز بأرض مساحتها خمسمائة ميـل مربع الى النقابة الافريقية الشرقية التى أعضاؤها هم أعضاء شركة جنوب أفريقيا (Chartered Co.: S. Africa) ، ثم أعقبتها شركة أخرى تأسست بها شركات يهودية كبيرة .

ولمـا توارد المهاجرون وطلاب الأرض من أفريقيا الجنوبية اعتزمت الحكومة المحليـة منح المساحات الكبيرة من الأراضى، ثم وقع خلاف بين حاكم المســتعمرة واللورد لنسداون استعفى بسببه السير شارل إليوت فعين خلفا له السير دونالد الذى نقل قبيلة المساى الى جهة أخرى وسوى الخلاف الواقع، ورفض مشروع اقطاع الأراضى لليهود ليؤسسوا مستعمرة اسرائيلية، ثم مات السير دونالد نخلفه الكولونيل هايس سادلر، وفى سنة ١٩٠٥ نقلت ادارة المستعمرة من وزارة الخارجية الى عهدة وزارة المستعمرات وفى نهاية ســنة ١٩٠٥ كانت الحكومة المحليــة باعت أكثر من مليون فدان من الأراضى، وفى سنة ١٩٠٧ شكلت هيئـة نيابية، وأبدل من لقب المندوب السامى بلقب الحاكم، وفى الوقت نفسه تقررت مساعدة الهنود على الهجرة الى البلاد وسكنى البقاع غير الصالحة لاقامة العنصر الأوربى مناخا وطقسا .

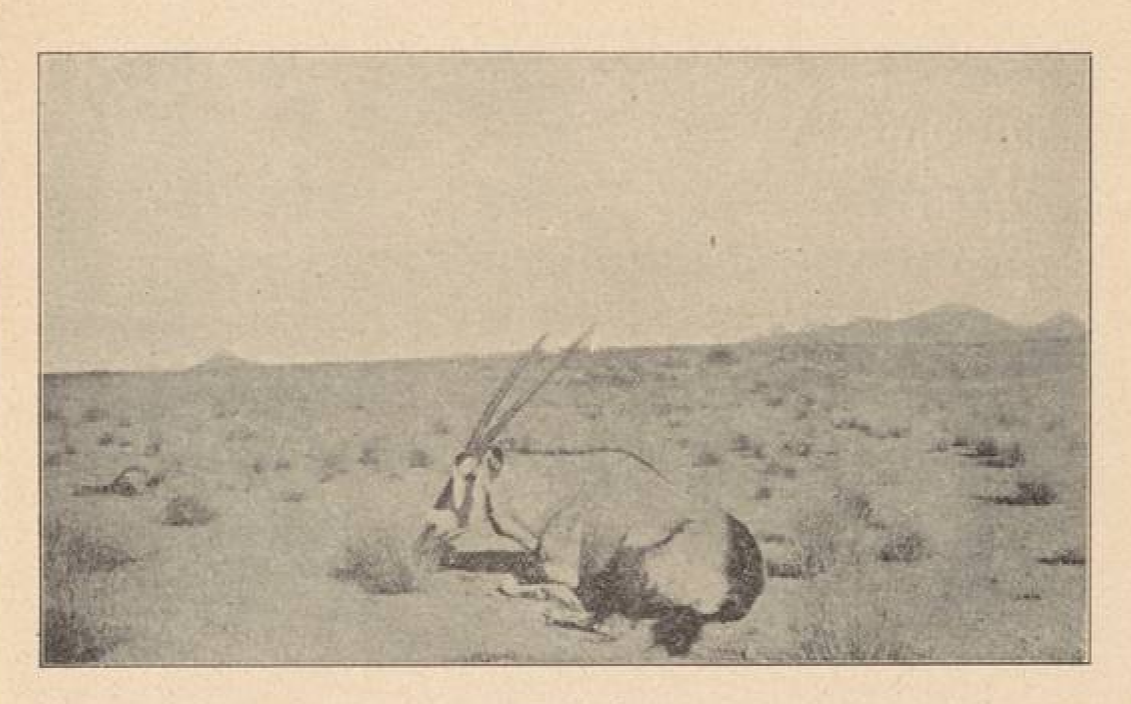
وكان الصوماليون القاطنون ببلاد الجب قد أحدثوا بعض القلق وظل المساى ملازمين للهدوء والسكينة . وربمـا كان سبب ذلك ما أحســه هؤلاء من الجوع والعسف بهـم على أثر ما أصاب بقرهم من آفة الطاعون المهلكة . وكانت قبيـلة النادى من بين القبـائل الثائرة فأغارت أكثر من مرة على السكة الحديدية . وفى سنة ١٩٠٥ سيرت اليها تجريدة لمحاربتها فما زالت بها حتى أدخلتها فى الطاعة .

وكان الوطنيون الذين لم يعتادوا العمل يأبون ممارسته مع البيض وتجسمت المشاكل والصعاب بين الأوربيين المزارعين والحكومة لعدم كفاية العمال فأهمل شأن القسم الشمالى من المستعمرة وترك سنوات عديدة . وكان الأحباش يوالون الهجوم على قبائل تلك الجهات ، وكانت المراكز العسكرية الحبشية تتصل جنوبا ببحيرة رودولف ، ولهذا أتيح للأحباش أن يضعوا يدهم على بلاد البوران ، غير أنه لم تلبث المفاوضات أن دارت لتعيين الحدود وأمضيت فى أديس ابابا معاهدة بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٧ تلتها معاهدات أخرى فى سنتى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ اعترف لبريطانيا العظمى بمقتضاها ببحيرة رودلف وبقيت بحيرة استيفانى تابعة للحبشة وعين الخط ٣٠′ ٤° من خطوط العرض فيما بين نهر الدرا (Dera) ونقطة اتصاله بالجب حدا فاصلا بين الحبشة وتلك الأملاك البريطانية (المعلمة البريطانية Encyclopœdia Britannica) .

يوم ١٣ ينـاير — خرجت فى صبيحة هـذا اليوم لصيد المها المسمى كولوتيس (Oryx Collotis) ، فوجدت سربا من الحيوانات المعروفة باسم أبى محزومة أو كونجونى وبينهـا واحد من المها المنشود فاقتفيت أثره وهو يفـر من مكان الى مكان وكنا فى سهل لا شجر فيه فما زلت به حتى جأته بعد متابعة بلغ مداها الى نحو خمسـة أميال وراء الأشجار ، على بعد ٢٥٠ مترا تقريبا . فرميتـه فاخطأت المرمى ولكنى دنوت منه ثانيا ورميته فأخطأت المرمى ثانيا ثم لمحته فى الدفعة الثالثة مع آخر من نوعه . فلما تكشفت لهما فر المهـا الذى كنت أقصده مارا الى يسارى بينما كان الثانى يهرب من الجهة اليمنى ، فآثرت اقتفاء أثر هذا الأخير حتى دنوت منه ، وهو متوار خلف الأشجار . وما زلت أدنو حتى اذا صرت منـه على قيد ١٥٠ مترا الى ٨٠ مترًا رميته برصاصة أصابته فى عنقه فخر صريعا .

طول قرن المها (أوريكس كولوتيس) ٢٠ بوصة .

ولما أن حضر النبيل عباس حليم ومن معه سرنا نلتمس صيداً، فلما لم نهتد اليه عدنا الى الخيام فى ظهيرة اليوم وتناولنا طعام الغداء .



المها أوريكس كولوتس

وبعد الظهر افترقنا، فسار كل منا الى جهة ولم أر من المها واحداً وكل مارأيناه بعض حُمُر الوحش والكونجونى فعدت بلا صيد وكذا عاد رفيق دون أن يصيد شيئاً .

وفى الساعة العاشرة من مساء اليوم سمعنا زئير أربعة أسود وتواصل الزئير الى منتصف الليل، ثم سمعت زئير أسد آخر فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل .

يوم ١٤ يناير — آثرت الاخلاد الى الراحة لآلام عصبية انتابت فخذى اليمنى . أما النبيل عباس حليم فخرج قبيل الساعة السابعة ليصطاد أحد الآساد التى سمعنا زئيرها فى الليلة السابقة .

ولكنه عاد متأخرا بعد الغروب، دون أن يصيد سوى اثنين من نوع الكونجونى (أبو محزومة) وجاء معه حمار وحش ربما ماتت أمه فانضم الى جماعته وسار معهم حتى الخيام وقد غذيته باللبن ولكنه مات ليلا .

يوم ١٥ يناير — منعنى ألم الفخذ من الخروج لا سيما وأنه لم تكن لدينا دواب فاعتزمنا العودة . ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر مرّ بنا قطر بضاعة فأخذنا مجالسنا فى مركبة بضاعة مكشوفة من مركباته بعد إذ وسقناها بما كان معنا من الخيام والأدوات ، فوصلنا الى محطة فوى (Voi) فى الساعة السادسة تقريبا . وفى منتصف الساعة العاشرة ليلا حضر قطار نيروبى فقضينا فيه الليلة .

يوم ١٦ يناير — شهدنا جملة طيبة من الحيوانات البرية بجوار خط السكة الحديدية وضبعا . وقد وصلنا الى نيروبى بعد الظهر بربع ساعة فقابلنا بالمحطة رفقاءنا وقصدنا معا الى الفندق الذى لزمته حتى اليوم التالى . واذ لم يسمح لنا بالصيد فى المكان الذى نصبنا فيه خيامنا، ولذلك لوجود سمو الدوق دى يورك هناك فقد قوضنا الخيام قاصدين الى مرسابيت أولا .

يوم ١٧ ينـاير — خرجنا بالسيارات اليوم للطواف بالمدينة فرأيت أنها اتسعت نطاقا وازدادت عمرانا وأقيمت بها مبان كثيرة جميلة النمط . وما أجمل القسم الذى به مساكن الانكليز من مستخدمين وغيرهم ، ودار الحاكم العام بل ما أجمل الأزهار بحدائق تلك المساكن والكيفية التى نسقت بها وبعد أن قضينا فى مشاهدة تلك المعالم زمنا عدنا الى الفندق حيث أمضينا الليلة .

يوم ١٨ ينـاير — دعانا صاحب الفندق (فندق نور فولك) الى الصيد فى أملاكه ومراعيه الخصيبة فتوجهنا الى تلك الجهات فوجدنا من أنواع الكنجونى

والفيـلدبيست وغزال غرانت وكذا الغـزال التومسونى (نسبة الى تومسون) .
وقد اصطاد كل من النبيل عمر حليم وسليمان داود واحدا من الفيلد بيست واصطاد
النبيل عمرو ابراهيم كونجونيا ثم عدنا الى الفندق .



الفيلد بيست



غزال غرانت



غزال تومسون

يوم ١٩ ينـاير — سافرنا صباح اليوم بالسيارات قاصدين نيرى (Nyeri) وهى محطة واقعـة الى الغرب من جبل كينيا المشهور وكانت المناظر جميلة وشهدنا مزارع البن فى الطريق وغير ذلك من المناظر الطبيعية ، من جبال شاهقة وأودية جميلة وغدران فوصلنا الى نيرى مؤخرا وتعشينا وأمضينا الليلة هنا . أما الهواء فما أحسنه وما أصفاه .

يوم ٢٠ ينـاير — قمنا صبيحة اليوم من نيرى فقصـدنا الى نايوكى حيث تغدينا ولم نستطع نقل سائر أمتعتنا من نيرى للعطل الذى لحق باحدى السيارات . فأرسلت سيارة أخرى من هنا . أما نحن فقـد استأجرنا سيارة بعد أن أعدنا اثنتين الى نيروبى ، وتحركنا فوصلنا بصعوبة الى المكان الذى ضربت به خيامى ، قبيـل منتصف الليل . وشاهدنا فى الليـل فهدا فى طريقنا الضيق ، ومرت سيارتى على مسافة منه لاتتجاوز نصف متر ، حتى خيل للسائق أن هذا الفهد لابد سينقض علينا .

أيام ٢١ و٢٢ و٢٣ و ٢٤ ينـاير — أمضينا هـذه الأيام فى انتظار وصول السـيارة المعطلة فاعتزم رفقتى الرحيل الى مرسبيت لصيد الفيلة والخرتيت وقد أخذوا جميعا الأهبة لهـذا الأمر . أما الجهة فتبعد نيفا وأربعين ميلا من هنا ، وهى بإقليم الحدود الشمالية .

يوم ٢٤ ينـاير — وصلت السيارة اليوم وآستأجرنا سيارة من بلدة أسيولو ، فسار رفقتى ظهرا ليعبروا نهر غواسونيرو (Guasso - Nyiro) ويسـتأنفوا السير غدا لى الجهة المقصودة وبقيت وحدى والخدم .

يوم ٢٥ ينـاير — أمضيت سحابة اليوم هنا فى الخيام ، ولم تزل الحمى التى أصبت بها تعاودنى فى غضون كل يوم . وقد زارنا فى الليـل نمر إذ دنا من الخيام كثيرا

ومر وسط صناديق المأكولات ، وسمعت زئير أسد فى منتصف الليل وقال لى ابراهيم الصومالى الذى كان يرافق من حملوا بقية الأمتعة لرفقتى الى ما وراء نهرغواسونيرو: إنه رأى ثلاثة أسود وهو عائد ليلا الى الخيام .

يوم ٢٦ ينـاير — انقضى اليوم كأمسه لم أشتغل فيه إلا بتدوين حوادث هذه الرحلة تارة ومطالعة الكتب والتنقيب فيها تارة أخرى . وجاء يونانى اتصل به أنى ذاهب الى مرسبيت راغبا فى السفر إليها معى بالسيارات . فلما علم أنى سأبق هنا وأن السيارات قامت الى الجهة المقصودة عاد من حيث أتى .

يوم ٢٧ ينـاير — خرجت اليوم لصيد المها فوجدت النبيل سـليمان داود والنبيل عمرو ابراهيم وقد عادا ومعهما أسنان فيل صاده النبيل عمر حليم ، وصاد مع الفيل فهدا كما صاد النبيل عمرو غرنوقا وغزالا وصاد النبيل سليمان غزالا من نوع جرانتى ، فأمضينا الليلة معا ولكن عاد حسين بك إيبش الى الباقين ليلا بسيارة .

طول المها من نوع البيسة أو المِتْهَب ٢٩ ٢/٨ بوصة .

ولـما كان المها من الحيوانات المعروفة عند قدماء المصريين وصورته منقوشة فى آثارهم ، فانا نقتبس بعض البيانات فيما يلى من الكتاب الموسوم (المهـا فى مصر القديمة) تأليف البحاثة المسيو بونيه (Bonnet)(١) . وهذا الكتاب يتلوه بحث تحقيق مستفاض فى موضوع (الاسم المصرى للها) بقلم العلامة فكتور لوريه (Victor Loret).

---

(1) Bonnet—L'oryx dans l'Ancienne Egypte suivie d'une etude sur le nom Egyptien de l'oryx, par Victor Loret.

المهـا عند قدماء المصريين

ليس بين النقوش الكثيرة الموجودة على الآثار والمقابر المصرية ما هو أكثر تنوعا وتباينا واختلافا من مناظر الصيد . فانه مما يلفت نظر العلماء بعلم الحيوانات الدقة فى تناسب أعضاء الحيوانات المرسومة وتصوير حركاتها الطبيعية ورشاقة الرسم ودقتـه وضبط مظاهر تألمها أو تأثرها بمختلف العوامل الخارجيـة . وهى موضوع درس وبحث جزيل الفـوائد ، فانا فى مناظر الصـيد المومى اليها نرى حيـوانات لا وجود الآن لأثرها بمصر وإنمـا توجد بجنـوب بلاد النوبة والحبشـة وكردفان والصومال . ومعلوم أن المصريين لم يذهبوا الى هذه البلاد البعيدة للبحث عن نماذج لرسومهم ، وهو ما نستنتج منه أن بعض أجناس الحيوانات التى كانت تسكن الجزء الأسفل من وادى النيل قد تراجعت ، بسبب تقـدّم العمران نحوها الى الصحراء والبلاد الجنوبية . وتدلنا مناظر صيد الأسماك والحيوانات الأخرى وتربية المـاشية على أساليب الصيد وطرق التربية عند قدماء المصريين . وفضـلا عن ذلك تعرّفنا أن أجناسا كثيرة تعتـبر الآن أنها متوحشـة كانت أو على وشك أن تكون من الحيوانات الداجنة المستأنسة .

وأخيرا فان الرسوم التى تمثل مناظر القصابة تثبت أنه بخلاف الحيوانات الداجنة المعروفة ، كانت تستعمل فى الطعام المعتاد أجناس كثيرة من الغزلان وذوات القرون الأخرى التى كانت تُربَّى وتسمن لهذا الغرض .

ومن ذا نتضح لنا أهمية دراسة علم الوحوش وغيرها من الحيوانات بالاطلاع على النقوش المصرية . فان الحيوانات التى كانت، على اختـلاف أنواعها وطباعها

وتربيتها، تعيش فى مصر لمن خير الموضوعات للبحث فى تاريخ نوع من أكبر أنواع الحيوانات القرنية أى المها، وهو ما سنتصدى له بعد :

البحث الزيولوجى فى أصل المهـا :

المها أو الأوريكس (Oryx) من فصيلة الْعِينِ أو بقر الوحش المجترّة والمعروفة باسم (أنتيلوب Antilope)، وهو ضخم الجسم ضامر البطن مكتنز الأعضاء قوى يمتاز بطول قرنيه وحدتهما وتعقدهما عند أسفلهما من غير بروز ظاهر . وهما إما مستقيمان و إما منعطفان قليلا الى الخلف والذكر منها كأنثاه له قرون يميل لونه الى ما بين السمرة واللون الضارب الى الحمرة فى تَرَقُّط قاتم اللون . و يكونُ ذلك بنوع خاص فى هذا النوع ، و بطنه أبيض غالبا وذيله طو يل نوعا و بآخره شعر طو يل ضارب الى السواد .

وفصيلة المها مذكورة فى جدول الحيوانات ذوات الثُّدِىّ تأليف ترويسار . وقد قال عنها : إن لها خمسة أجناس ونوعين ، وهى تسكن جهات الصحراء بافريقيا و بلاد العرب والشام وقد كان نوعان من الخمسة المذكورة معروفين عند قدماء المصريين بأنهما كانا موجودين على حدود مصر ، وهما الأوريكس لوكوريكس [1] والأوريكس بيسة [2] ويوجد أولهما فى كردفان والنوبة وفلسطين و بلاد العرب والثانى فى كردفان والحبشة وبلاد الصومال .

أما الأجناس الأخرى فجهة وجودها بعيدة ولم تجلب الى مصر . وتعيش الأوريكس كولوتيس (Oryx Collotis) فى أفريقيا الوسطى والشرقية وكليمانجارو

(١) نوع من المها يسمى بأبى حراب (Oryx leucoryx)

(٢) نوع يسمى البيسة والمتهب (السودان) (Oryx Beisa)

والأوريكس غزيلا (Oryx gazella) فى أفريقيا الجنوبية الغربية وجهات الزمبيز (Zambesi) وفى بلاد أورانج وصحراء كالاهارى (Kalahari) . وليس يهمنا هنا سوى النوعين الأولين ، ولذا نبدأ بوصفهما لتتمكن من مقارنتهما بما هو مصوّر بالنقش فى الآثار المصرية القديمة .

الأوريكس (المها) لوكوريكس پالاس[١] :

إن الأوريكس لوكوريكس أو أوريكس النوبة حيوان ضخم الجثة يبلغ ارتفاع كتفه مترا وعشرين سنتيا فوق سطح الأرض وشعره قصير كثيف غير متجعّد وعلى ظهره خصلة من الشعر شَعِثَة مائلة الى الأمام وجلده ضارب الى البياض وكذا الجزء الأسفل من رقبته والكتفان . أما مبدأ الفخذين من الداخل وجانبا البطن فضاربة الى الحمرة ، ثم يميل هذا اللون الى البياض عند الكفلين وعلى ظاهر الفخذين . ويخلو العنق ووسط الظهر من كل أثر للخطوط الضاربة الى السمرة ، ولكن بين الجنبين والبطن خطوطا مستطيلة . ثم إن المعرفة سمراء وأكثر السمرة بالجهات الأمامية غير أن اللون الأحمر يذهب متدرّجا من الحمرة القاتمة الى الحمرة الباهتة فى هبوطه حتى الكتفين والفخذين . أما الرأس فأبيض وعليه شبه بقعة سمراء تقع واحدة منها بين القرنين وآثنتان بين الأذنين وآثنتان بين القرنين والعينين. وهناك بقعة سادسة تقع على الأنف فيتكوّن من مجموع هذه البقع :

(أوّلا) بقعتان كبيرتان على الأنف والجبهة متصلتان بخط قاتم اللون غير واضح جدا .

(ثانيا) خط يبتدئ من أعلى كل عين ويهبط الى منتصف الصدغ والأذنين ، وهو ذو لون ضارب الى البياض .

(١) (Oryx leucoryx, Pallas) هو بقر الوحش ويسمى بأبي حراب .

أما الأطراف وجزؤها الأعلى فليست ضاربة الى السواد، والذنب طويل ينتهى بشعر كثيف طويل أسود اللون والقرنان طويلان جدا ويمتدان الى ما يعدل نصف طول الجسم . وتقل ضخامتهما شيئا فشيئا من أصلهما الى طرفيهما العلويين. وهذان الطرفان أملسان وبهما من ثلاثين الى أربعين حلقة فى مدى ثلثيهما من ناحية منبتهما ، وهما متقاربان عند هذين المنبتين ومتباعدان قليلا عند طرفيهما وينحنيان انحناء يتكوّن منه قوس يقابل تحديب الظهر ولا تختلف أنثاه عن الذكر اختلافا بيّناً فان قرنيها كقرنى هذا تقريبا ولكنهما أصغر حجما منهما .

مأواه :

يوجد هذا الجنس فى أفريقيا الشمالية أى فى الجهات الواقعة ضمن خط العرض المارّ بدنقلة والسنغال وكذا فى جنوب آسيا الغربية والشام وبلاد العرب .

عاداته وطباعه :

بحث بعض المؤلفين المتأخرين فى أطوار هذا الحيوان وعاداته وفى مقدّمتهم همبريش وإهرنبرج (Hemprich & Ehrenberg) اللذان رحلا الى بلاد النوبة والعرب، وجابا أقطارهما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٢٥ فقد ذكرا أنهما عثرا على هذا الحيوان فى دنقلة بين أمبيكول والنيل الأعلى وفى كردفان .

وهو يعيش أسرابا متفرّقة فى الصحارى ترتاد المراعى الخصيبة للتغذى بحشائشها التى من أهمها شواك الطلح . وفرسان العرب يصيدونه للتغذى بلحمه والانتفاع بجلده إذ يتخذون منه نعالهم ويصنعون التروس والجحفات التى يتقون بها سهام العدو.

ولم يزد روبل (Ruppel) من المعلومات على ما تقدّم شيئا كثيرا . ووجد اللوكوريكس قطاعا كثيرة فى صحراء النوبة وصعيد مصر، وصاد هوجلن (Heuglin) هذا الحيوان أيضا بالنوبة وكردفان وشرق دنقلة .

ويكثر اللوكوريكس أيضا فى غرب مصر . ولما جاب سكلاتر (Sclater) أنحاء تونس سنة ١٨٩٨ وجد بها نوعا من اللوكوريكس مصبرا فى سراى الباى بالمرْسى . وكان قد جلب الى هذا المكان من حدود تونس الجنوبية . واطلع سكلاتر أيضا على بعض غضائر القاشانى الرومانيــة بالمتحف العلوى بتونس تمثل هيئة أسد يثب على مهًا من نوع اللوكوريكس .

الأوريكس بيسة رويل (Oryx Beisa, Ruppel) :

هيكل هــذا النوع من الأوريكس أكبر بقليل من هيكل النوع السالف الذكر، ولكن يختلف عنــه باللون وشكل القرون . فان قرونه معتدلة أكثر من قرون الأول وارتفاع كتفه متر وثلاثون سنتيا تقريبا وشــعره كثيف خشن وعلى ظهره خصلة شعر بارزة ضاربة الى الحمرة . وتتجه هذه الخصلة نحو الأمام مبتدئة من أقصى الظهر الى ما بين الأذنين فتكون مجموعة من الشعر الأسمر .

ولون جلده أبيض ضارب الى الحمرة ولا يتغير كثيرا عند العنق وجسمه وبطنه أبيضان . وله جُدّتان سوداوان فى جنبيه بين شعر بطنه وظهره . وساقاه الأماميتان بيضاوان تتخللهما بعض خطوط . وعلى الركبة حلقة ضاربة الى السواد تمتــد من الجهــة الوحشية خصوصا وساقاه الخلفيتان تضربان الى البياض دون أن تتخللهما فى أعلاهما بقع، ولكن لونهما أسمر داكن عند قاعدتى الرجلين .

وعلى الرأس بقع سوداء تشبه ترقيط اللوكوريكس تقريبا ولكنها لا تمتد مثله الى الجانبين، ولا تتصل بالخطوط التى على العينين والخدّين وهذا الترقيط يمثل شكل العقد ولا يزال متصلا حتى يبلغ الى جانبى الفك السفلى ولون أطراف الأذنين والجزء الأعلى منهما أسود .

أما الذنب فمتوسط الطول وشعره قصير كذنب الليكوريكس وأسود عند الطرف، والقرنان أقصر منهما فى النوع السالف الذكر . وهما مستقيان رفيعان مستديران غير منحنيين كثيرا الى الخلف ويتجهان من الجبهة فى ارتفاع الى الظهر وينتهى طرفاهما بجزء أملس مُحَدَّد جدا كأنه سن الرمح . وبالقرب من منبتهما نحو عشرين حلقة، ويبلغ طول قرن الذكر من ٩٠ الى ٩٥ سنتيا، أما الأنثى فقرنها أطول قليلا ولكنه أرفع .

مأواه :

يوجد الأوريكس بيسة الآن بالشمال الشرقى من أفريقيا وبلاد الصومال ، وفيما بين بربرة الى سواكن وبلاد الدنكل، وكذا بكردفان وافريقيا الانجليزية . ويرى أيضا بجنوب الأقطار التى بها اللوكوريس .

عاداته :

يقول روبل (Rüppel) : إن أول ما شاهد هذا الحيوان سنة ١٨٢٥ فى المواضع التى تكثر بها الحشائش فى نواحى دنقلة جنوبى أمبيكول . وقال : إن أحد السكان أخبره بوجود حيوان معروف بالدمح (Damah) وقالوا له : إن حجمه يعدل حجم البغل وأن له قرونا مستقيمة وطويلة، الذكور منه والأناث، وأنه سنجابى اللون وعلى رأسه بقع سوداء . ثم قال روبل : وبعد سبع سنوات من ذلك أتاح لى الحظ أن أعثر على اثنين من هذا الحيوان بسواحل الحبشة وفى غرب مصوع ، فاذا بمنظرهما يطابق ما نقله عنه صيادو أمبيكول .

وهذا النوع الجميل مع مشابهته لأوريكس جهات مدينة الرأس قدا ولونا وشكلا فانه يختلف عنه فى البقع التى تخالط لون جسمه . وقد وجدت أنه نوع

جديد ولذا أسميته بيسة وهو الاسم الذى يطلقه عليه أهالى مصوّع . وتدل قصة صيد الكولونل سوين (Swayne) للزّجّ على طباع البيسة وعاداتها، فأوريكس بلاد الصومال نوع من الحيوانات المجترة قوى فى حجم الحمار . وهو يأوى الى القفار والأصقاع الحجرية المكشوفة أو التى تخللها الربوات والآكام والى السهول المكسوة بالحشائش . وهو يأكلها و يعيش بعيدا عن الماء ونظره حاد جدا وحاسة البصر فيه أقوى من حاستى السمع والشم . لهذا نجده يرى خصمه من أبعد المسافات و يعيش على شكل قطعان صغيرة يتألف كل قطيع من ستة رؤوس الى أربعين رأسا وأغلب ما تكون من الإناث لأن الذكور تسير متفرقة ، وهذا ما جعل من المتعذر على الصيادين صيد هذه الذكور . وربما بلغ عدد الرؤوس فى القطعان مبلغا كبيرا كما يثبته قول ف . ب . بيرس، فقد قال : "لقد سرنا حتى بعدنا عن مضارب خيامنا وأمضينا أسبوعا بجهة نيولى الجبلية فرأيت قطيعا كبيرا جدا من الأوريكس لم نستطع تقدير عدده بالدقة ولكن المحقق أنه لم يكن يقل عن مائة وخمسين رأسا . وكان منظر القطيع بديعا بما يسطع من ألوانه الزاهية . وكان يمر على قيد مائتى ياردة منا، فسرنى منظره العجيب سرورا صرفنى عن التفكر فى الصيد الذى لأجله تجشمت مشاق السير" .

والأوريكس اذا أصيب بجرح خيف منه الخطر لأنه يهجم على خصمه بجرأة عجيبة إذ يطأطئ رأسه جاعلا إياه بين ساقيه الأماميتين ويهجم على الكلب المداهم أو على الانسان المعتدى مشرعا قرنيه الى الأمام، وهو بهما يستطيع أن يخرق جسم انسان . والذى يؤخذ من تقريرات (لشتنستين Lichtenstein) و (وود Wood) أن بامكانه منازلة الفهد والأسد أيضا ، وانما الغالب أن تنجلى هذه المنازلة عن هلاك الاثنين معا .

ويصاد الأوريكس إما بركوب الخيل وأخذ الآفاق عليه بواسطتها . وهـذه الطريقـة محفوفة بالمصاعب والمتاعب والأخطار وإما بواسـطة الكلاب ورحالة قبيـلة المِدْجان يعمدون عادة الى هـذه الطريقة وكلابهم التى يصيدون بها صـغيرة الجسم وتسمى الباريا .

وبيان هذه الطريقة أنهم متى وقفوا على أثر الأوريكس المعروف عندهم بشكله المثلث اهتدوا به فى الاتجاه نحو المكان الذى يظن أنه يوجد به، فمتى تراءى لهم تماما سلطوا عليه كلابهم التى تدل بنباحها على أن القنيصة أصبحت قاب قوسين أو أدنى .

ويؤكل لحم الأوريكس وتتخذ التروس والجحفات والنعال من جلده وتستعمل قرونه سنانا للحراب .

الأوريكس فى النقوش المصرية :

يكفى الاطلاع على صور المها المنقوشـة فى الحجر بأيدى قدماء المصريين لتعلم أن هؤلاء كانوا يعرفون النوعين اللذين ذكرناهـا فيما تقدّم ، وهـما اللوكوريكس بقرونه المعطوفة والبيسة ذات القرون المستقيمة . ويظهر أن الجنس الأوّل كان الأكثر انتشـارا على ما يظهر فى عهد الدولتين الوسطى والقـديمة . ذلك لأن النقوش التى تصوّر البيسة نادرة جدا .

والأوريكس ذو القرنين المسـتقيمين كان معروفا فى الزمن الغابر على عهـد الدولة الأولى ولكنه انقرض فيما بعـد تدريجا . فهل ينبغى أن نسـتنتج من ذلك أن البيسة أوّل نوع انقرض من مصر، وأن اللوكوريكس بقى بعد انقراضه .

إن المواقع الجغرافيـة التى يوجد هـذان النوعان فيهـا الآن تنهض دليلا على ذلك، فان البيسة قد تراجع الى الجهات الجنوبية أكثر مما تراجع اللوكوريكس .

أما النقوش التى تمثل اللوكوريكس فقد كانت كثيرة فى عهد الأسر القديمة والوسطى وما زالت النقوش الكثيرة حافظة ألوان هذا الحيوان ، فلون البطن والرقبة هو الأحمر الطوبى . ومما يساق على سبيل المثل فى هذا الموضوع تصوير الأوريكس فى مغائر بنى حسن ، وكان شعارا لأحد الأقاليم ولكن تبين أن فى النقوش الحديثة العهد لم يكن شكل القرون كما ينبغى فى الحقيقة وأن هذا الحيوان كان فى مصر إذ ذاك آخذا فى القلة فغير النقاش شكل انحنائها بالتدريج .

ولما كان الحفار متشبعا بفكرة اعتدال القرون ، وهى أهم وجه لتمييز هذا النوع عن غيره فقد بالغ فى ذلك حتى زاغ عن الصواب .

وبعد أن استقصى المؤلف الآنف الذكر وصف هذا الحيوان تكلم على ما كان له من مركز وشأن فى المعابد وغيرها فقال : " وهل يجب أن نستنتج من هذا البحث الخاص بالأوريكس أن هذا الحيوان كان مستأنسا تماما فى عهد الفراعنة؟ لا أظن أن ذلك صحيح ، فقد قال كلر (Keller) : إن الحيوانات الأليفة هى التى تعيش مع الانسان مدة فيها يسخرها لمصالحه وتتناسل بانتظام خلال حياتها ، وهى فى حالة الاستئناس وتربى تربية صناعية دائمة أو وقتية . ومن عادة الحيوان الداجن أن يقبل بمحض غريزته سيادة الانسان وسلطانه عليه ويقوم له بأعمال يقابلها هذا الأخير بتعهده إياه والعناية به . والحيوانات المستأنسة تمر بثلاثة أطوار متوالية قبل أن تصل الى درجة الاستئناس التى بلغ اليها بعض الأجناس .

الطور الأول : أنها تقتنص فى أثناء صيد الأمم الأولى لها ، ثم تستأنس بما فيها من الغريزة والميل الطبيعى الى معاشرة غيرها من المخلوقات . وبالنظر لما يكون لها من حظ الاستفادة مهما عاد على الانسان من النفع بمعيشتها معه ، وجميع الحيوانات التى حاول الانسان استئناسها بقيت على هذه الحالة ، واضطر هو الى تركها شيئا فشيئا

بسبب الفائدة التى تعود عليه منها. وهذا المثل يحق على الظرافة والكركى والحيوانات التى رؤوسها تشبه رؤوس الكلاب (Cynocephales) والمها . و بعد ذلك تأتى حالة أكمل من هـذه، وهى حالة الاستخدام المنزلى التام . وعادة الانسان أن يتخلى عن الحيوان الذى لا يتسع له مجال المنفعة منـه أو الذى يظل باقيا على غريزته الوحشـية الجفولة فلا يطيع رائده ولا يحفظ من رياضته إياه إلا ما اعتاد منها بقوة الاستمرار .

والمهـا هو المثل الذى يساق فى معرض الكلام على الطور الثـانى، وهو حالة التدرّج نحو الاستئناس . فان هـذا الحيوان لا يطيع الانسان كما تطيعه الحيوانات الأخرى الكثيرة التى عنيت الأمم القديمة بتربيتها و إيلافها فقد كان المها يصاد غالبا بقصد التغذى بلحمه ولهذا تراه ينفر من الانسان الى الصحراء . والأوريكس الذى كان يعيش فى صعيد مصر هو أوّل حيوان من هـذا النوع فر أمام الفاتحين الآتين من بلاد الصومال والبلاد المجاورة لها. وعندما انتشر المصريون حتى بلغوا الى أسفل وادى النيل وجدوا نوعا آخر، وهو الأوريكس الآتى من الجهاب البحرية فاصطادوه واستأنسوه استئناسا غير كامل فكان من أمر هذا الحيوان ما كان من أمر بنى نوعه فرارا من وجه الانسـان ، وقد فر فعلا الى صحراء النوبة وكردفان ثم انقرض نهائيا من مصر .

وهذه سنة الله فى سائر الحيوانات التى بقيت على حالتها الوحشية وأبت الخضوع للانسان . فانها خرجت من بلادها الأصلية الى الصحراء أو الغابات لتحتمى بأدغالها وتختفى عن الأنظار فى أشجارها الكثيفة . اهـ كلام ذلك المؤلف .

ملحوظة صاحب الرحلة — إن النوع الذى كان باقيا بالجزء الشمالى من صحراء مصر الغربية هو النوع المعـروف باسم أوريكس الغزال المعروف عند السودانيين

بأبى حَرْب أو بأبى حِراب وقـد كان موجودا حتى الربع الأخير من القرن المـاضى بدليـل أن بعض الصيادين وقع فى قبضتهم اثنان من هـذا الحيوان على مقربة من اهرام الجيزة فجاءوا بهما لاهدائهما الى المغفور له الأمير محمد عبد الحليم بن محمد على الكبير، وكان ذلك على عهد المغفور له الخديو اسماعيل . أما الأوريكس بيسة فلم يك النوع الباقية آثاره فى تلك الجهات فى الأزمان المذكورة . وفضلا عن هذا فمع أن أنواع المها على اختلاف حِزْمها وأشكال قرونها والشامات المغيرة لها من فصيلة

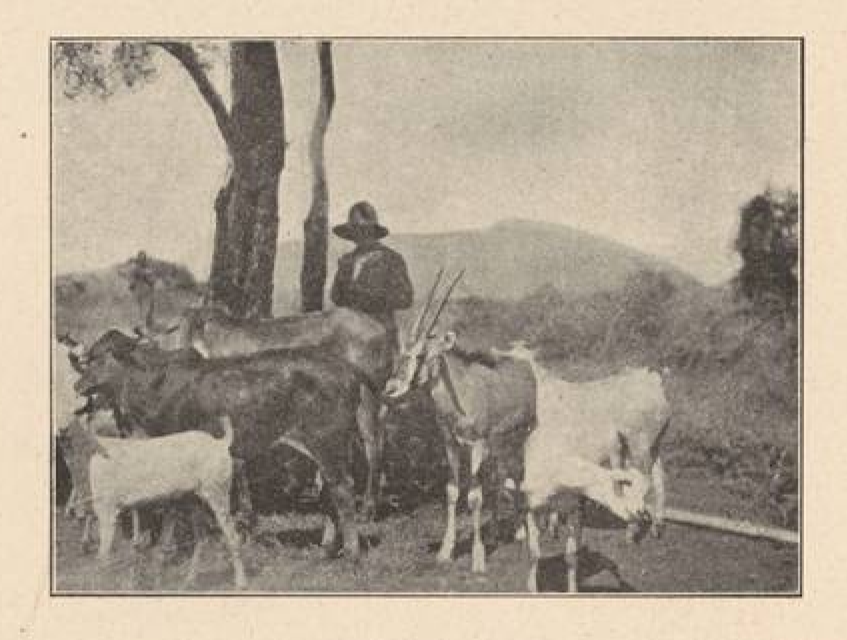


صورة المهـا الغزال (Oryx leucoryx)

واحدة فقد شوهد ، وهو ما شهدته بنفسى ، أنها مختلفة الغرائز إذ منها ما يفضل الأراضى المكشوفة ومنها ما يفضل الغابات فى بعض جهات أفريقيا .

ولنضرب مثلا المستعمرة البريطانية بأفريقيا الشرقية أى مستعمرة كينيا فانه يوجد بها نوعان من هذه الفصيلة البقرية وهما الأوريكس بيسة الذى لا يسكن إلا الأقاليم الشمالية من هذه المستعمرة و يوجد شمالى حدودها ، أى بجهات الصومال . وربما وجد ببعض جهات الحبشة الجنوبية ولا يوجد منه بالصحراء الغربية حتى ولا بجنوب السودان المصرى .

أما الجهات الجنوبية فلا يتعدى منها خط الاستواء بكثير ولكنا لو تعدينا هذا الخط نحو الجنوب الشرقى لوجدنا نوعا آخر من هذه الفصيلة وهو الكوللوتس ولما اهتدينا الى أثر من الأوريكس بيسة كما أن الأوريكس الغزال لا يوجد إلا بالصحارى



بقر وحش استؤنس مع البقر

والقفار أى من مصر التى انعـدم منها الى صحراء دنقلة وبجهات كردفان ، ثم غربا الى صحراء تونس كما لا يعرف له أثر فى شرق النيل .

أما النوع الذى أشرنا الى وجوده فى جنوب خط الاستواء فهو المعروف باسم أوريكس كوللوتيس، وهو يسكن الغابات كالأوريكس بيسة ، وفى جهات معينة . والدائرة التى يأوى اليها ضيقة جدا . وربما لا يوجد إلا فى المنطقة السابقة الذكر ويكون فيها أقل عددا وانتشارا من الأنواع الأخرى ولا يصعد كثيرا الى الشمال ولا يتعـدى فى جهة الجنوب سلسلة جبال كليمانجارو إلا نادرا كما لا يبعد غربا . والنوع الرابع وهو أكبر الأنواع الخمسة ، أفريقية وأسوية وهو الأوريكس المعروف باللغة البويرية (جمس بوك[1]) أو أوريكس غازلا[2] فلا يوجد إلا فى صحراء كالاهارى وفى الجزء الغربى أو الجنوبى الغربى من أفريقيا أى بين الصحراء المذكورة والمحيط الاطلانطى ، والجنوب والوسـط الجنوبى لمستعمرة أنغولا البرتقاليـة وليس له أثر فى الأقطار الشمالية .

ثم النوع المنسوب الى بلاد العـرب أى الأوريكس أرابيكا أو بياتريكس[3] ، فانه لايوجد إلا فى شبه جزيرة العرب ويسميه البعض بالأوريكس لوكوريكس بدلا من الاسم الأول "أوريكس غزال" ، ومأواه من هذه البلاد القسم الشمالى الأوسط ، أى بين خط السكة الحديدية الحجازية ونفود الجَوْف أو ما حولها وربما وجد بالقسم المتوسط أو بالربع الخالى المجهول الى الآن .

---

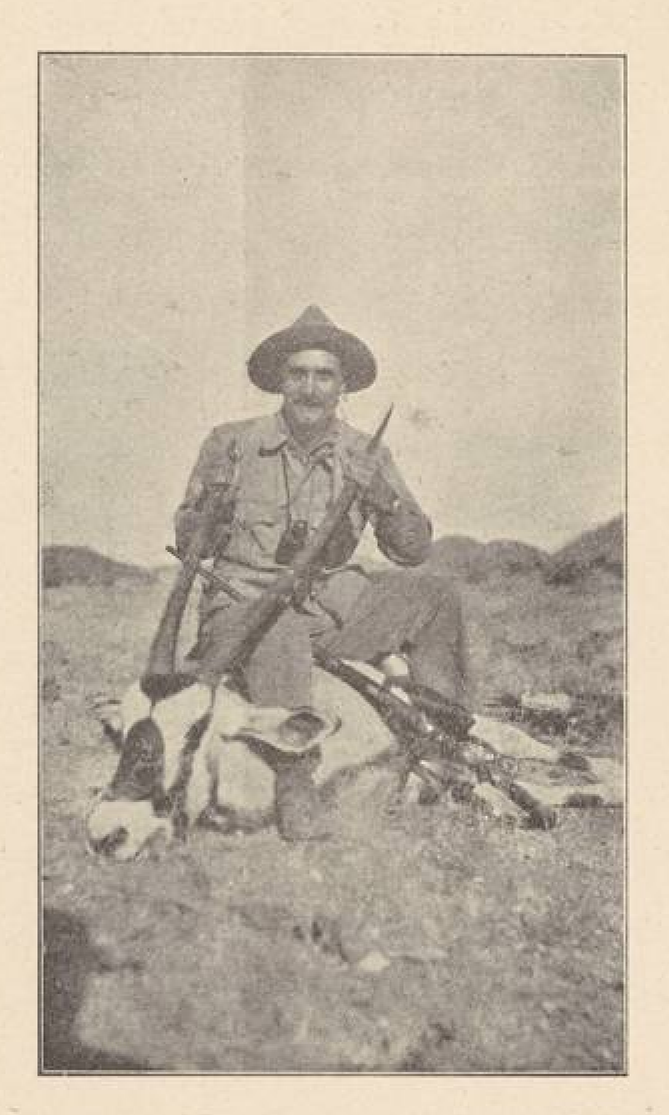
(١) (Games buck)

(٢) (Oryx gazella)

(٣) (Oryx beatrix) و يعرف فى العراق بأبى سُوَلَع وفى نجد بالوُضِيْحى .

يتضح من هذا :

(أولا) أنه لا شك فى أن هذه الحيوانات كانت كغيرها عائشة بجهات لا تعيش الآن فيها بسبب امتـداد العمران، وهو ما يعرض فى أحوال قليـلة ، بسبب فتك الأمراض المعدية التى أفنَتْ هذه الحيوانات فى بعض جهات كانت منتشرة بها .



على بك شريف والجيمس بك

(ثانيا) غير مظنون أن الأوريكس بيسة كان عائشا بالجهات الشمالية مع الأوريكس لوكوريكس لكونه يفضل الايواء الى الغابات، ولكن استدلال صاحب المذكرة، التى عُرِّبَ شطر منها فى الصحف السابقة على وجود الأوريكس بيسة بأرض مصر لمجرد كونه وجد منقوشا فى الآثار القديمة المصرية غير وجيه بل هو لا يدل بصفة جازمة على أن هذا الحيوان كان موجودا فى الأزمان السابقة شمالى الخط الأخير الحالى من خطوط العرض، ولم يتعدّها فى وقتنا هذا . ولما كانت الغابات منتشرة بالسودان حتى بجهات كردفان وجنوب مديرية دنقلة أونهر أتبرة فربما يحتمل وجوده سابقا بتلك الجهات الشمالية من بلاد السودان وأنه جلب منها الى مصر حيث كان يوجد غيرها من الحيوانات التى لا مسوّغ يحول دون دخولها حدود مصر الجنوبية حتى الشمالية وهى ليست موجودة بها الآن .

(ثالثا) ان نظرية نفى وجود الأوريكس بيسة فى الشمال تؤيدها الحقيقة الملموسة الآن وهى أنه لو كان تراجع الأوريكس بيسة من الشمال الى الجنوب لفراره أمام اعتداء الانسان عليه أو لاكتساح العمران إياه فلأى سبب ينسب عدم انتقال الأوريكس الغزال الى جهة الجنوب أى الى ناحية خط الاستواء ثم لِمَ لم يلاحظ عكس ما تقدّم أى انتقال النوع الموجود فى جنوب أفريقيا أى فى صحراء كالاهارى صاعدا الى الشمال نحو ذلك الخط؟

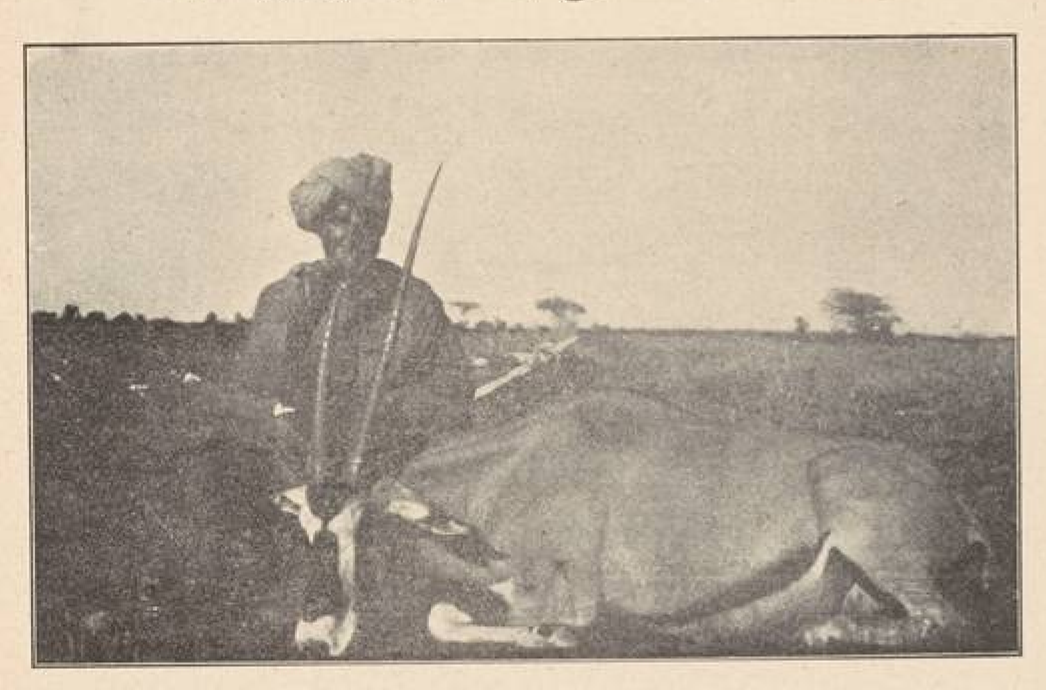
فهل فى بقائه فى صحراء كالاهارى والصحارى الغربية الجنوبية ما يفيد أنه لا يميل الى سكنى الغابات ؟ أم هل فى وجوده بمعزل عن كل نوع آخر من أنواع فصيلته برهان على أن بعض أنواع المها تفضل الاستقرار فى الصحارى وأن البعض الآخر يأوى الى الغابات ؟ فهذه النظرية لمن أقوى البراهين على أن الأوريكس بيسة إذا كان لا يوجد فى وقتنا هذا إلا بجنوب المناطق التى يعيش فيها الأوريكس الغزال

فان مهاجرته الى الجنوب لا بدّ أن تكون لسبب ، وهذا بخلاف ابتعاده عن مراكز المدنية والعمران . على أنه ليس فيما ذكرته برهان قاطع على عدم وجود الأوريكس بيسة فى القطر المصرى فى الأزمان السالفة .

ولقد وجدت فى مديرية الفيوم بجوار بحيرة قارون أو القرن و بالجهات المجاورة لحدود الفيوم غربا هياكل عظيمة لحيوانات لا يصح الاستدلال بها على وجودها نظرا للحالة الطبيعية للبلاد فى الوقت الحاضر . وعثر بعضهم على هياكل عظمية لركركدن وتماسيح وسلحفاة مائية وغيرها ، وهو ما يستنتج منه أن هذه الحيوانات كانت تسير فى الأزمان الغابرة على حفاف المستنقعات ومجارى المياه بين النيل وجهات بحيرة قارون، ثم من هذه الى الصحراء . ولولا وجود الماء فى طريقها لما استطاع الكركدن و بخاصة التمساح والسلحفاة المائية أن تقتحم الجهات التى لا ماء فيها الآن وأن تعرض نفسها للأخطار . والمفهوم أن هذه الحيوانات كانت تجد فى طريقها بعض الحشائش العالية التى تقيها حرارة الشمس أو بعض الغابات والآكام التى اندثرت آثارها الآن .

و يحتمل أن سواحل بحيرة قارون كانت متردّدا لمثل هذه الحيوانات فى العصر السالف . وهذا فضلا عن أن وجود الغابات المتحجرة أشجارها فى عصرنا و بعض الغابات والآكام الصغيرة بالصحراء الغربية والصحراء الشرقية الى عهد شبوب نار الحرب العظمى الأخير مما يحمل على الظن بأن هذه المعالم كانت فى زمن مضى أوسع نطاقا منها الآن. ولنذكر بهذه المناسبة أن الحرب العظمى قد كانت السبب فى انقراض شجيرات الأكمة الصغيرة الوحيدة التى كانت لا تزال باقية الى ذلك العهد فى الجنوب الغربى من بحيرة قارون و بداخل الصحراء الغربية وكانت معروفة باسم الطَّلح . وقد شهدتها بنفسى اذ سكنت بجوارها أياما فى سنة ١٩٠٨ . وقد كان الباعث

على انقراضها أن قطعت شجيرات الأكمة واتخذ من جذوعها وفروعها فحما فى وقت الحرب الأخيرة لما تعذر وجود مواد الحريق . فلو أن هذه النظرية كانت بمكان مكين من الصواب والحق لكان وجود الأوريكس وغيره فى الماضى ورحيله وانقراضه منذ أن صارت تلك البقاع غير صالحة لبقائها، من الأمور المحتملة .



على عيسى المرشد ومهاة من نوع البيسة

يوم ٢٨ ينساير — أمضينا سحابة اليوم فى الخيام وعددت ما يلزم لمكان الصيد فى اليوم التالى .

يوم ٢٩ يناير — بكر النبيلان الآنفا الذكر الى المكان المعروف باسم آرشر بوست للصيد هناك يصحبهما راترى الصياد الانكليزى ، أما أنا فقد لزمت الخيام .

وبعد الظهر خرجت الى الصيد بالمكان الذى خرجت اليه أمس فأبصرت ذكرا من المها راقدا خلف شجرة فتوجهت اليه حتى اذا صرت منه قيد ستين مترا تقريبا

رميته برصاصة أصابته فى رئته فمات لفوره . وفى العودة الى الخيام رأينا عددا كبيرا من حمر الوحش (الزرود) . وسحب المها الذى قتلته بالبغال وجىء به الى مكان قريب من الخيام وترك به . ولما أقبل الليل حامت الضباع حول الفريسة وتكالبت عليها لا تنهاشها وانضم اليها فهد صغير .

طول قرن المها $\frac{٣}{٨}$ ٣٠ بوصة .

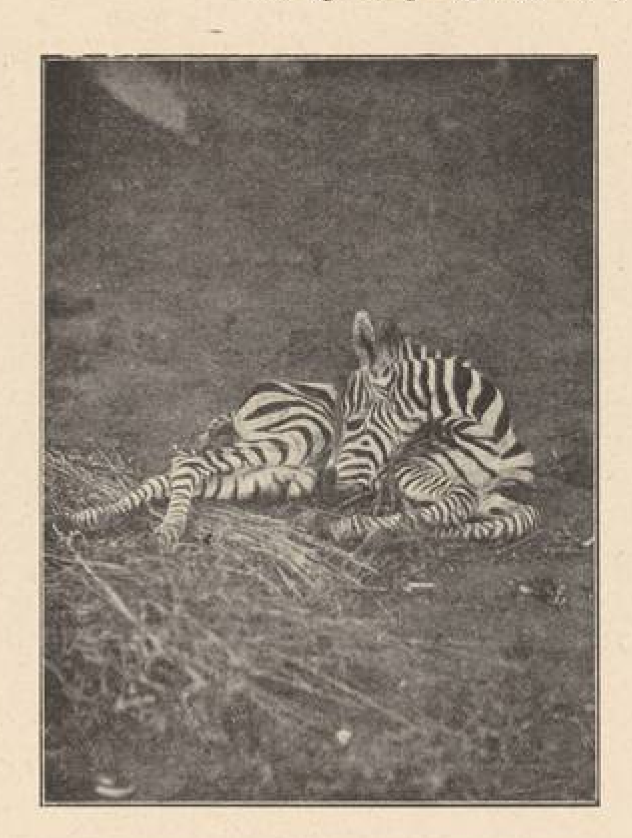
يوم ٣٠ يناير — أمضيت صباح اليوم هنا ثم خرجت بعد الظهر الى مكان المها فرأيت منه قطيعا كبيرا انفرد أحدها عنه فدنوت منه قيد خمسين مترا تقريبا، وكان لا يرانى فاختبأت بشجرة كى أتمكن من تقدير قياس قرنيه ولكنه تحفز للفرار فابتدرته برصاصة ثم بأخرى على اعتقاد أنه أكبر من المها الذى صدته أمس ولكن طاشت الرميتان فلم أصبه فسرت هنيهة فرأيت قطيعا آخر كثير العدد و بينا كنا نبحث فيه عن مها كبير القرنين أبصر على عيسى الدنقلاوى اثنين يطارد أحدهما الآخر فقال ان المطارد أى الخلفى هو الأكبر وكان منا على بعد مائة متر تقريبا فرميته بثلاث رصاصات أصيب بها كلها فسقط مجندلا ، واذا به أقل حجما بكثير مما سبق لى صيده . وقد عدنا الى الخيام وسحب الصيد الى مكان قريب منها فلما جن الليل تهافتت عليه الضباع وفهد صغير، ولكن لم يقرب منه أسد[1] .

يوم ٣١ يناير — قصدت بعد الظهر الى مكان صيد المها فرأيت قطيعا كبيرا يرعى الكلأ مع قطيع من الزُرُود أو الزبيرة فأنفذت بعض رجالى للاكتناف بها ودفعها الى ناحيتى ، وكنت أثناء ذلك مستظلا بشجرة أرقب حركتها فى الاتجاه

(١) من خطأ الحس انخداع البصر فى الصحراء أن يظن قرن المها طويلا اذا كان مستقيما فى حين أنه صغير .

الحى، ولكن رجالى لم يتمكنوا من سوق المها لأنه فر فى اتجاه آخر، ولهذا عجلنا بالأوبة الى الخيام .

وفى ليلتنا هذه سمعنا زئير أسد بالجهات البحرية وعلمت أن أسدا ولبوة وأشبالهما شوهدت بالقرب من جبل صغير نراه من خيامنا .



زيبرة

يوم أول فبراير — أرسلت على عيسى الى الجهة البحرية لاقتصاص أثر الصيد وإخبارنا بأنواعه فى الجهة القريبة من خيامى وأمضينا الصباح فى الخيام، وكان الجو شديد الحرارة فعاد أدراجه قائلا أنه رأى من المها عددا كبيرا وشاهد أثر ستة من الكركدن وبعض حيوانات البُجّع أو الأيلند من الفصيلة البقرية .

يوم ٢ فبراير — خرجت الى المكان الذى خرجت اليه أول من أمس فوجدت المها فى وسط الغابة فدنوت منه ورميته برصاصة جرحته فركض . واذا كان مسموحا لكل صائد أن يصيد ستة من هذا النوع فقد دنوت ثانيا من مها آخر خيل لى أن قرنيه أطول من قرنى غيره ورميته برصاصة قتلته فاذا به من أنثى المها واذا بها قصيرة القرنين ، ثم انطلقت نحوها لأستطلع موضع الجرح منها ولكنها فرت مع المها الأول. وهنا أخبرنى على عيسى حامل بارودتى ، أن الثور الثالث هذا ، وأومأ الى أكبر حيوان ، هو أكبر إخوته . فسدَّدت نحوه بندقيتى وهو منطلق فى البراح ورميته برصاصة منها واست أدرى أأصبتهُ أم لم أُصِبْهُ وعلى كل حال فقد فرَّ مع بقية القطيع .

وكان الحر شديدا فلم أستطع أن أطارد هذا المها بل عدت فوجدت فى طريق غرنوقا فرميته برصاصة لم تلبث أن أصابته فى فخذه اليسرى . و بالرغم من الدم الذى كان يسيل منه فقـد شهدته منطلقا مع بعض الإناث من نوعه فطاردته على مدى ميل تقريبا ثم تخلَّيْت عنه و بعثت بعلى عيسى ليبحث لى عن مكانه اذ قلت فى نفسى أن لا بد أن تخور قواه بفقدان الدم و يأوى الى بعض الأماكن . وفى أثناء طريق الى الخيام لمحت غزلانا من نوع غرانت فرميت أحدها بآخر رصاصـة كانت فى جعبتى فلم أصبه .

ولما وصلت الى الخيام علمت من الصومالى ابراهيم أن رجلا صاد على مقربة من خيامى خرتيتا كبيرا ثم عاد على عيسى بعـد الغروب وأخبر بأن الغرنوق المجروح ما برح منطلقا يلتمس النجاة .

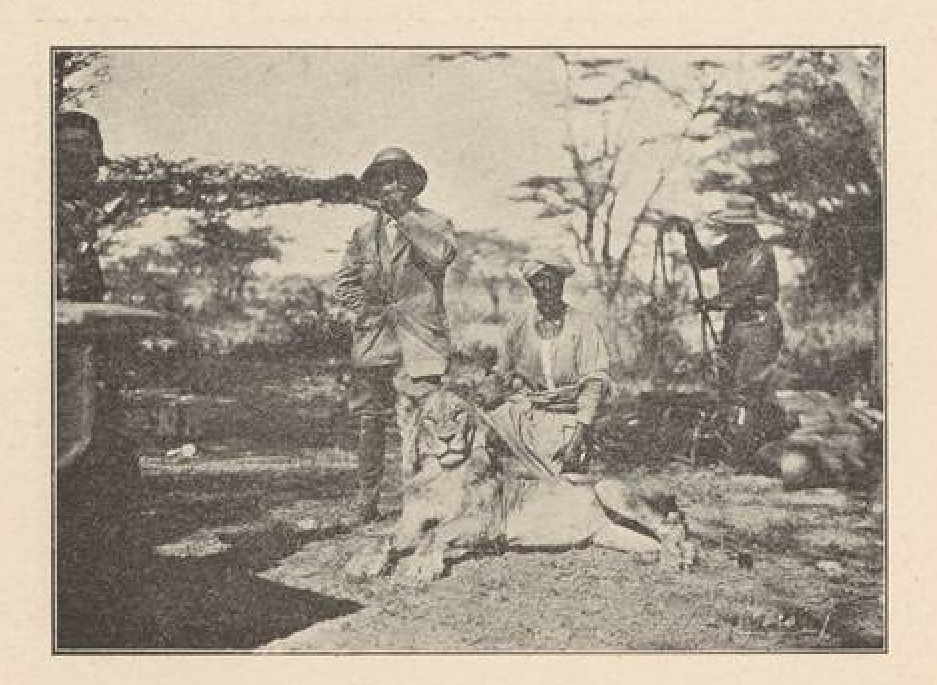
يوم ٣ فبراير — أرسلت على عيسى ثانيا الى المكان الذى تركنا الفريسـة فيه أمس فعاد مخبرا بأنه لم يمت وأنه عثر على آثار أسد مر بالمكان ليلا . هـذا وقد

أمضيت صبيحة اليوم بالخيام وفى العصر صدت اثنين من المها طول قرن أحدهما ٢٧ ⅞ بوصة والثانى ٣٥ بوصة .

يوم ٤ فبراير — قصدت اليوم زيارة أقاربى ورفقتى الذين يصيدون فيما يلى آرشر پوست فركبت السيارة ومعى على عيسى ، ولما بلغت المكان الذى به جثة المها المقتول أمس لم أجد منه شيئا حتى عظامه ولكننى رأيت أثر ثلاثة أسود منها أسد كبير ولبوة وشبلهما الذى يقل عمره عن السنة ثم واصلت المسير بالسيارة وفى الطريق أخذت أفاوض على عيسى فيما سنقوم به بعد يوم أو يومين لصيد هذه الأسود .

وما كدنا نبتعد فى طريقنا بمسافة ميل ونصف حتى سمعت على عيسى يصيح الأسد ! الأسد ! فالتفت الى الجهة التى كان يشير اليها فاذا بلبوة قد اختفى نصفها المقدم وبدا نصفها المؤخر واقفة بجوار شجرة تبعد عنا بمقدار مائة متر تقريبا فبادرت بالنزول من السيارة وصوبت نحوها بارودتى الصغيرة من عيار ٢٤٥ متكئا بذراعى على غطاء آلة السيارة فأصبتها بالرصاصة الأولى فى الشطر البادى لنظرى من جسمها فخارت ثم وثبت راجعة الى الخلف واختفت فى الادغال الكثيفة . ولكننى اذ ذاك لمحت الأسد وكان غائبا عن بصرى لاختفائه بالشجرة فركض الأسد الى الأمام خطوات وكنت قد أسرعت بالانصراف نحو اللبوة فأرانى على عيسى الأسد. وكانت السيارة تتبعنى حيث أذهب غير أن سائقها يَعْبيس كان قد استولى عليه الخوف . وما كان يتقدم مترين إلا ليقف ويقول : الأرض رديئة والعربة يتعذر عليها السير فى مثل هذا المكان . وبلغ من خوفه أن بهت لونه وارتجفت أعضاؤه وكنت قد دنوت حتى صرت من الأسد قيد ستين مترا أو أقل وتبيّن لى جسمه كله جليا وهو واقف فأرسلت اليه رصاصة من عيار ٤٠٠ جندلته اذ سقط منبطحا على

جنبه، ودنوت عندئذ حتى صرت منه قيد خمسة عشر مترا تقريبا وأرسلت اليه رصاصة ثانية فرفع رأسه كأنه يحاول أن يبذل جهدا ولكنه قد خانته القوى فلم يتحرك من مكانه . ولكي لا يضر الكبير بجلده تناولت بارودتي الصغيرة التي عيارها ٢٤٠ ورميته منها برصاصتين واحدة بين عينيه والأخرى في صدره فلم يلبث أن مات، وكنت حينئذ منه على مسافة ثمانية أمتار الى عشرة فتقدمنا نحوه وطفنا به واختبرناه، كل ذلك وسائق السيارة لا يجرأ على مفارقتها والنزول منها لمساعدتنا على نقل جثة الأسد اليها . ثم سكن فؤاد هذا الرعديد وعاد الى صوابه حين رأى علي عيسى ممسكا بذنب الأسد و باشرنا بعد ذلك نقل الجثة . وكان الشبل قبل ذلك يركض مبتعدا عنا فرميته برصاصة، ولكني لم أصبه . ولما كنت غير واثق بشجاعة الرجلين اللذين كانا يرافقاني فقد عدلت عن اقتفاء أثر اللبوة الجريحة وسرنا حتى وصلنا الى



صورتي مع المرشد والأسد

نهر غواسونيرو حيث تعطلت مركبتى عقب عبور النهر فأنفذت رجلا ممن وجدتهم بهذا المكان بورقة الى حيث يقيم زملائى فبادر باسعافى ثلاثة من الأمراء أقاربى اذ جاءوا بسيارة وأخذونى معهم الى خيامهم . وهنا وقفوا جميعا وأخذوا صورتى الفتوغرافية والأسد الى جانبى وقد أمضيت الليلة معهم فى هذا المكان .

يوم ٥ فبراير — عدت اليوم الى خيامى ومعى النبيل عمرو ابراهيم ثم حضر النبيل سليمان داود وعلى بك شريف . وكنت أخذت كلاب الصياد الافرنجى ورافقنى هو الى المكان الذى خرجت اللبوة فيه أمس فلم نعثر بعد البحث عليها . غير أننا وجدنا فى الطريق آثارا حديثة لأربعة أسود ولأسد بمفرده وكلها متجهة صوب الشمال .



صورتى مع رفقتى فى هذه السياحة

ولما وصلت الى الخيام تغذينا ثم ذهبت الى قرية ميرو لقضاء بعض الحاجات وعدت مساء ورميت فى عودتى خنزيرا بريا برصاصة بجندلته، ولكنه عاد ففر مع اثنين آخرين كانا معه وواصلت أنا السير الى الخيام حيث أمضيت الليلة .

يوم ٦ فبراير — أمضيت النهار فى الخيام وخرج النبيل سليمان داود وعلى بك شريف للصيد،ولكنهما لم يصيدا سوى ظرافة . وفى المساء جهز كوخ للنبيل عمرو ابراهيم بجلس فيه ينتظر حضور الأسد ولكنه لم ير شيئا .

يوم ٧ فبراير — خرج النبيل سليمان داود ورفيقه الى الصيد فاصطاد على شريف بك فردا من المها ثم عادا مساء . أما النبيل عمرو ابراهيم فقد قصد الى كوخه وسمع الأسود تنهش فريستها بالقرب منه، ولكنها لم تدن منه .

يوم ٨ فبراير — خرجت صباحا بالسيارة فوصلت الى الغدير الذى يقطعه الطريق بقرب آرشربوست ولم أر أسودا فرجعت وذهب النبيل عمرو فى المساء الى كوخه وأرسل النبيل سليمان داود رأسا من البُجَّع من نوع بقر الوحش المعروف باسم إيلَنْد وكان قد صاده صباحا، ثم عاد ورفيقه فى المساء . وفى الليلة الماضية ثارت ثائرة الكلاب بقرب خيمتى وأخذت تركض خلف حيوان مر بالقرب منها ولكنا لم نره ولم نعلم أىّ حيوان هو . وربما كان النمر الذى تعوّد على زيارتنا ليلا .

يوم ٩ فبراير — عاد صباح اليوم النبيل عمرو من كوخه وسمع الأسود على مقربة منه . ولكنه لم ير واحدا منها أما النبيل سليمان فقد صاد كركدنا صغيرا ثم عاد هو وعلى بك شريف فى المساء .

يوم ١٠ فبراير — خرج النبيل عمرو لصيد الكركدن ثم عاد صباح اليوم كل من على بك شريف والنبيل سليمان داود من كوخيهما دون أن يرى على

شريف بك الأسد . ولكنه سمعه وكذا النبيل سليمان داود سمع زئير ثلاثة أسود بالقرب من كوخه وجاءه فهد فاقتنصه . أما أنا فقد قصدت الى آرشر بوست لمقابلة النبيلين عمر حليم وعباس حليم ، فعلمت اذ وصلت أن أحدهما صاد كركدنا صغيرا .

ثم عدت الى الخيام فوجدت الكابتن دجلس والدكتور رايلى قد حضرا بشىء من المتاع والخيم ، وقد تحطمت سيارتان . وفى المساء عاد النبيل عمرو ابراهيم فصاد فردا من المها .

يوم ١١ فبراير — عاد صباح اليوم النبيلان عمرو ابراهيم وسليمان داود من كوخيهما وكذا على بك شريف دون أن يصيدوا شيئا . وبعد الظهر ركبت سيارتى وجلت وسط الغابات أبحث عن الأسد ثم عدت الى الخيام .

يوم ١٢ فبراير — عاد النبيل سليمان داود من كوخه الى حيث كان بالأمس وقتل ضبعا . وخرج النبيل عمرو ابراهيم الى الصيد وخرجت فى الصباح بالسيارة الى حيث كوخ على بك شريف فالتقيت بفهدين كبيرين فنزلت فورا من المركبة وذهبت مسرعا للبحث عنهما ، فلم أعثر عليهما لارتفاع الحشيش وتكاثف الأدغال ثم عدت . وبعد الظهر قصدت نهر غواسونيرو ، حيث وجدت النبيلين عباس وعمر حليم وحسين بك أيش والدكتور رايلى والصياد الكابتن دجلس وعلمت أن الأمير عمر حليم جرح كركدنا وأن الأمير عباس حليم قد صاد بالأمس كركدنا وقد نقلوا خيامهم الى نهير غواسونيرو ثم تركتهم وعدت الى الخيام .

وفى المساء عاد النبيل سليمان الى كوخه ، وجاء النبيل عمرو وقد رأى كركدنا دنا منه الى مسافة خمسة أمتار ، ولم يك بيد النبيل سلاحه ، فلم يصبه الوحش بأقل

أذى ولله الحمد . ولما حصل النبيل على سلاحه أطلق الرصاص على الكركدن فجرحه وألزمه الفرار .

يوم ١٣ فبراير — عاد صباح اليوم النبيل سليمان داود ، وقد صاد فهدا كبيرا . أما على شريف بك فهو الآن مع الفريق الثانى لصيد الجاموس ، أما النبيل عمرو وأنا فلم نبرح مكاننا . وقد أمضيت الصباح هنا ، وبعد الظهر رافقت النبيل سليمان داود الى المكان الذى فيه رفاقنا وسيبقى هو معهم . وقد وصلت قبل قيامى احدى سياراتى فروى لى سائقها عبد العال انه بينما كان عائدا أمس من مجرى غواسومارا الى نهر غواسونيرو قابل فى طريقه أسدا ضخما لم يبصر به إلا وهو على مسافة قصيرة جدا منه . وكان الأسد رابضا بجوار الطريق فخشى السائق الوقوف ، ولم يستطع أن يحرك سيارته يمنة ولا يسرة ، فسار بها مسرعا ليجتاز المكان محتكا بالأسد تقريبا ، اذ مر منه على بضع سنتيمترات . فوثب الأسد على المركبة من مقدمها ثم هبط الأرض فطأطأ السائق رأسه من الخوف فى وقت وثوب الأسد ولم يمسه الأسد بسوء ، لأن السيارة قد مرت مسرعة دون أن يتمكن الأسد من الانقضاض على جزء منها ولكننى لم أصدق روايته .

ولكن هذه الرواية ان صحت فلم تك غريبة فى بابها . لأن مثل هذا الحادث قد وقع فى هذه المستعمرة . والغالب أن ذلك كان فى سهول نهر آتى ، اذ وثب أسد على ظلة سيارة (كبوت) فقتله أحد راكبيها بعيار نارى بينما كان الأسد ناشبا أظفاره فى قماش الظلة . وقد لاحظت أن الحيوانات سواء أكانت كاسرة أم غير كاسرة لا تخشى السيارات ولا تفر منها ، بل ولا تجفل مما ترسله أمامها من أشعة الضوء الكهربائى الذى يعمى بصرها ويدهشها . واذا لقيها الانسان ليلا فى طريقه فقد يحدث أن تقف وتمعن النظر فى السيارة وقد تدنو منها كثيرا أو تنصرف

مدبرة على مهل ومن غير اكتراث . وهو ما يشاهد غالبا من الأسد والفهد والفيل والكركدن .

وبعد الظهر خرجت بسيارتى فصدت ظرافة ، وبينا كان رجالى يسلخون جلدها ليلا أقبل عليهم أسد مزمجرا، فلما انصرف لم يعد ليشبع نهمه من لحم الظرافة، وهو ما بلغنى فى صباح اليوم التالى .

يوم ١٤ فبراير — خرج اليوم النبيل عمرو ابراهيم قاصدا الى المكان الذى صدت منه الظرافة أمس فلم يعثر على شىء ، ثم طاف بالغابة وعاد . أما أنا فقد توجهت الى قرية ميرو ورميت فى طريق خنزيرا بريا برصاصة أصابته بجرح ثم عدت مساء .

يوم ١٥ فبراير — خرج النبيل عمرو إبراهيم فى الصباح ثم عاد مساء بعد أن صاد غزالا من نوع غرانت ، وخرج على بك شريف بعد الظهر فصاد واحدا من المها وجعله بالقرب من كوخه ثم بات ينتظر وصول الأسد ليلا ، وقد جاء فعلا وشرب من ماء قريب من الكوخ دون أن يصل اليه . أما أنا فقد خرجت ومعى الطبيب، وطفنا بالغابة فى السيارة فرمى الطبيب مها برصاصة وجرحه ولكنه فرّ مع بقية السرب . ثم صاد غرنوقا، ولم نر فى هذه الجولة الأسد ولعله كان مختفيا، ولكنا كنا نجهل مكان اختفائه فى هذه الغابة التى هى مباءته وعرينه .

وفى منتصف الساعة السابعة حضر الكابتن دوجلاس على غير انتظار فى سيارة ومعه اثنان من أبناء جلدته فبادرنا بالاستفهام عن سبب حضورهم فعلمنا أن جاموسة برية انقضت على النبيل سليمان داود . وكان ساعتئذ يسير راكبا فى قسم من الغابة كثيف الأشجار ملتف الحشائش . فلما قصدته الجاموسة نزل عن دابته

وهى من البغال فكان نزوله سبب نجاته من الخطر ، لأن البغل بقى معترضا بينه وبين الجاموس فنطحه هذا مرارا ثم انقض على النبيل عباس حليم ، ولكنهما أدركاه فى هذه الآونة وقتلاه بعد أن انقض على من كان هنالك من الخدم والاتباع مع النبلاء وطعن أحدهم فى بطنه فبقره وخرجت أحشاء الرجل . وخرج الكابتن دوجلاس ليطلب الطبيب رابلى ، فبادر هذا بالتوجه معه فى السيارة نحو مكان الحادثة خلف نقطة تلاقى نهير السيولو بنهير غواسو نيرو : وقد قال لى أحد الرجلين اللذين حضرا مع دوجلاس : إنه رأى ثلاثة أسود بالمكان الذى صدت فيه الأسد ورمى أحدهما برصاصة يرجح أنها أصابته . وقد علمت فيما بعد أنه لم يعثر عليه .

يوم ١٦ فبراير — عاد النبلاء بعد ظهر اليوم وترك الرجل الجريح فى آرشر بوست وحمل فى اليوم التالى الى هنا ومات . ثم خرجت بعد ظهر اليوم ومعى الطبيب رابلى بقصد الصيد فوجدنا قطيعا من المها ولكنه لم يتمكن من صيد أحدها بل صاد غرنوقا ، وعدنا الى الخيام بعد ذلك .

يوم ١٧ فبراير — عاد على بك شريف من كوخه ولم يكن الأسد قد حضر اليه . قد خرجت فى طلب الأسود ومعى الكابتن دوجلاس فلم نعثر على المرغوب وعدنا فى المساء الى خيامنا .

يوم ١٨ فبراير — أمضينا سحابة اليوم فى تصوير رؤوس الحيوانات التى صدناها حتى الآن ، وفى وضعها بالصناديق وأرسلنا بعض الأشياء الى نيروبى . وبعد الظهر خرج النبيل عمر حليم يطلب صيد الأسود ثم عاد مساء .

يوم ١٩ فبراير — رحلنا اليوم الى نيرى ولكن ما كدنا نبتعد حتى تعطلت سيارة من السيارات المشحونة بأحمالنا . وكان هنا اثنتان منها فسرنا بثلاث

أخرى وفى المساء وصلنا الى نيرى كما وصل النبلاء بعدى ببضع ساعات، ثم الطبيب والكابتن دوجلاس .



مجموعة صيد بأفريقيا الوسطى

يوم ٢٠ فبراير — اضطررنا الى البقاء هنا لعدم حضور سياراتنا التى عطلت ، وبعد الظهر قصدنا الى نايوكى للتفرج على سباق الخيل . وقد أعجبنى من هذه الخيل الصغيرة وأصلها من الحبشة والصومال جَلَدها وصبرها، وهى على صغرها تحمل الأثقال الكبيرة . وكان راكبوها من الانكليز طوال القامة ، فكانت المفارقة موضع النظر . ومما زاد عجبى فى شوط القذف انى رأيت تلك الخيل الصغيرة القصيرة تثب من فوق أكثر من عشرة سدود وتركض مسافة ميل ونصف تقريبا فى حين أن أحمالها تزيد على الاثنى عشر أستونا : (الأستون الواحد ١٤ رطلا انكليزيا) . وقد تخلف النبيل عمر حليم هنا لصيد الجاموس البرى ، أما نحن فعدنا الى نيرى . وقد وصلت سيارة من الاثنتين المعطلتين .

يوم ٢١ فبراير — أمضينا سحابة اليوم هنا، وقد تغير الطقس فاحتجبت السماء بالسحب ، وأخذنا نفكر فيما سيعرض لنا من الصعوبات أثناء سيرنا باكرا اذا انهالت الأمطار، مع ماهنالك من الوهاد والنجاد فى طريقنا بين نيرى ونيروبى. أما النبيل عمرو إبراهيم وعلى بك شريف فقد سبقانا الى نيروبى إذ سافرا أمس اليها.

يوم ٢٢ فبراير — سرنا اليوم بسيارة قاصدين نيروبى وكان الطريق صعبا لتأثير الأمطار ولكثرة المنحدرات والاعوجاجات فوصلنا الى نيروبى فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا .

أيام ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ فبراير — قضيت هذه الأيام فى نيروبى للتجهز لحملتنا الثانية حيث كنا فى أول السياحة ، أى فى جهة جبل كليمانجارو . أما النبيل عمر حليم فقد عاد من نيوكى يوم ٢٤ فبراير، ومعه رأس من الجاموس البرى وكان قد صاده . وتبلغ مسافة ما بين القرنين خارجا سبعا وأربعين بوصة ونصفا تقريبا . وهو من أجمل مارأيت من نوعه .

يوم ٢٧ فبراير — ضمت برسمنا مركبتان الى قطار البضاعة وسافرنا من نيروبى فى الساعة الثالثة والدقيقة الخمسين بعد ظهر اليوم التالى .

يوم ٢٨ فبراير — تغدينا بمحطة فوى ثم استأنفنا السفر بقطارنا فوصلنا فى منتصف الساعة الثامنة بعد الظهر الى الميل الستين على خط تافيتا (Taveta)، ونزل جميع رفاقى هنا ولما لم تكن خيامنا معدّة فقد بقيت بالقطر وأمضيت الليلة به فى محطة تافيتا .

يوم أوّل مارس — عدت صباحا بالقطار الى مضرب الخيام وتناولنا طعام الفطور مع الرفقة ثم خرج كل الشبان للصيد . وقد علمت منهم أنهم سمعوا

زئير ثلاثة أسود فى الليلة الماضية . وقد أمضيت النهار هنا وفى الساعة الثانية بعد الظهر عاد الصيادون وقد صاد أحدهم كونجونيا وقتلوا حمار وحش (زيبرة) فعرضت جثث الصيد للأسود، وأمضينا بقية النهار فى الخيام . وفى الساعة الثامنة مساء سمعنا زئير أسد بالقرب منا لعله كان يحوم حول جزء من جثة حمار الوحش وضع على خط السكة الحديدية . وقد استمر هذا الأسد يزأر الى الصباح وسمعنا زئير أسد آخر بعيدا عنه .

يوم ٢ مارس — سمعنا زئير الأسد فى صبيحة اليوم فخرجنا جميعا فى طلبه وبعد أن وصلنا الى ما لا يزيد على أربعمائة متر من محل وجوده سمعناه يزأر مرة أخرى، فواصلنا السير نحوه ولكنا لم نعثر عليه فعدنا . وهنا افترقت عن زملائى متجها نحو منتصف الطريق حيث الخيام فطرق مسمعى عندئذ دوى طلق نارى وسمعت زئير أسد وشهدت كل رفقتى يركضون من المكان الذى أطلقوا الرصاص منه الى مكان آخر، ثم وقفوا ناظرين الى أكمة والكلاب تنبح، فظننت أن الأسد جرح وآوى الى الأكمة فعجلت بالأوبة اليهم فوجدتهم فى مكانهم . وقالوا لى : إن أسدا صغيرا لجأ الى هذه الأكمة وأخيرا لمحه النبيل سليمان داود ورماه برصاصة قتلته، وكان جروا لايزيد عمره على شهرين . أما الدوى الذى سمعته فكان من إطلاق الرصاص على اللبوة أم هذا الشبل، أطلقه النبيلان عباس وعمر حليم فقتلاها به . وكانت قبل رميها بالرصاص قد هجمت عليهما فردها الكلاب ، ولقد رأيتها فاذا بها لبوة ضخمة من أكبر ما وقع عليه بصرى . وبعد ذلك عدت الى الخيام وتناولت طعام الفطور حيث كانت الساعة السابعة والنصف تقريبا . أما الأسد الذى سمعناه وقصدنا اليه فالمرجح أنه كان غير اللبوة التى قتلت وأنه كان معها ثم افترق منها .

ولقد كان النبيلان عباس حليم وسليمان داود فى الكوخ ينتظران حضور أسد،

فنى منتصف الساعة الثانية بعد نصف الليل سمعنا أسدا يزأر بالقرب منا ثم انقطع الزئير . وبعد بضع دقائق سمعنا أربع طلقات نارية ثم علمنا أنه قتل .

يوم ٣ مارس — جاء النبيلان صباحا ومعهما الأسد فاذا به أسد من أضخم ما رأيت . وكان طويل شعر الرأس وناعمه فى أسفل العنق ، أما قاتله فهو النبيل عباس حليم إذ أطلق عليه رصاصتين وهو شاخص فيه ، فكسرت الرصاصة الأولى الفك الأسفل ونفذت فى الصدر ونفذت الثانية فى الصدر أيضا .

وبعد طعام الفطور خرجت ،ومعى النبيل عمر حليم وحسين بك أيبش للطواف بالغابات فجرحت مها من نوع كوللوتيس ففر ثم صدت غزالا من نوع غرانت وصاد النبيل عمر حليم غزالين من الكونجونى ثم عدنا الى الخيام ولم نسمع زئيرا لأسد فى هذه الليلة ، ولزم النبيل سليمان والطبيب رايلى الكوخ طول الليلة ولم يريا أسودا .



النبيل عباس ابراهيم حليم وأسده

يوم ٤ مارس — خرجت مع النبيلين عمر وعباس فلم نلق سوى غزال من نوع كونجونى وغرنوق . وما كنت أطلب فى هذا اليوم غير المها ولكنى لم أعثر عليه فعدنا الى الخيام بعد الساعة الثالثة ، وقد شهدنا فى طريقنا أثرا قديما لأربعة أسود .

يوم ٥ مارس — صاد حسين بك أيبش اليوم اثنين من المها ، أما نحن فبقينا بالخيام النهار كله وفى المساء بينما كان رجالنا يسحبون جثة صيد صاده دليلنا الكابتن دوجلاس رأوا ثمانية أسود . وفى المساء ذهب النبيل سليمان داود ليجلس فى كوخ ومعه حسين بك أيبش والدكتور رايلى فاتجه الى كوخ آخر، فلما كانت الساعة الثامنة تقريبا سمعنا ثلاث طلقات فى اتجاه كوخ النبيل سليمان داود فاذا به قد صاد أسدا .

يوم ٦ مارس — عاد الطبيب صباحا دون أن يرى أسودا وبعد قليل حضر النبيل سليمن داود وأخبرنا أنه صاد أسدا . وقد جىء به فاذا هو شبل يبلغ من العمر سنة ونصفا تقريبا . وكانت معه أنثى هى التى أطلقت عليها الطلقة الثالثة من يد حسين بك أيبش . والمظنون أنه أصابها بجرح لأنه لم يتيسر العثور عليها بعد . وعقب تناول طعام الفطور خرجت قاصدا صيد المها فالتقيت بسرب رميت واحدا منه برصاصة فجرحته وقد فر مع بقية السرب . ثم حملت حملة ثانية فأصبت مها آخر إصابة جعلته ينفصل فى أول الأمر عن إخوته ثم مالبث أن انضم اليه مها كان متخلفا وفرا معا . وفى الحملة الثالثة جرحت أنثى وتعقبتها فألفيتها ملقاة على الأرض فأجهزت عليها ثم عدت الى الخيام وقد وقع ابن آوى فى فخ نصب بجوار الخيام .

طول قرن المها $\frac{1}{2}$ ٢٦ بوصة .

وبعد الظهر أى حينما كان الاتباع يجرون جثة أنثى المها التى صدتها الى الكوخ علمت أنهم رأوا أربعة أسود فاعتزمت الانتظار فى الكوخ مساء اليوم التالى ولو لم أكن أود ذلك، لأنى أفضل صيد الأسد نهارا وفى الغابة . وكان مرادى أن أصيد أسدا جميلا . وقد سمع صوت الأسود فيه جوار الكوخ هذه الليلة .



أوريكس كوللوتس

يوم ٧ مارس — علمت أن الأسود أكلت اللحوم التى جمعناها فى الكوخ بقصد استدراجها الينا ، فقد خرج النبيلان عباس وسليمن ، وكذا الطبيب رايلى والكابتن دوجلاس . أما النبيل عمر حليم وكذا حسين بك أيبش فقد حالت حالتهما الصحية دون خروجهما للصيد . أما أنا فقد بقيت هنا لالتماس الراحة وليتيسر لى السهر .

ثم ذهبت الى شجرة أعدّ لى بها مقعد ، ولبثت فيه الليل كله أرقب حضور الأسد فلم يحضر ، ولكنى سمعت صوتا اشتبهت فيه . وكان الطبيب وأحد الأتباع جالسين بالكوخ على مقربة منى فقالا أن لبوة وشبلها قد حضرا وأن اللبوة نظرت الى الكوخ من بعيد ثم انصرفت .

يوم ٨ مارس — عدنا الى الخيام ونمنا ثم تناولنا طعام الغداء . وقبيل المساء عدنا الى الكوخ فصعدت الى مكانى من الشجرة ولم يقع نظرنا طول الليل على شىء غير الضباع . وقد وقع اثنان منها فى الفخاخ المنصوبة ، ومع هذا فقد طرق مسامعنا زئير بعض الأسود .

يوم ٩ مارس — مضى اليوم كأمسه ، وقد سمعنا زئير أسود على مقربة منا ، ولكنها لم تقبل على جثث الحيوانات المقتولة لتفترس بها . ومر أسد بالقرب من الخيام وأمطرت السماء رذاذًا بعد ظهر اليوم .

يوم ١٠ مارس — توجهت الى شجرتى وجلس النبيلان عباس وعمر حليم بالكوخ فسمعنا زئير الأسود بالقرب منا ولم تحضر عندنا .

يوم ١١ مارس — عدنا الى الخيام وفى الساعة الخامسة بعد الظهر قصدنا الكوخ وكان الجالس به فى هذه الدفعة النبيل سليمان داود . وفى منتصف

الساعة الواحدة سمعنا الأسود من حيث سمعناها فى الأمس فعزمت على تغيير مقعدى غدا وتجهيز محل آخر بالجهة التى جاءنا منها زئير الأسود .

يوم ١٢ مارس — أمضيت صباح اليوم بالخيام بعد أن قضيت الليـل ساهرا متربصا . وفى منتصف الساعة الخامسـة بعد الظهر قصـدت الى شجرتى فقضيت فيها ليلة كالسابقة وسمعت الأسود ولكنها لم تَدْنُ منى .

يوم ١٣ مارس — خرج النبيل عمر حليم الى الصـيد فصاد رأسا من نوع أيلند (وهو أكبر حيوان من الفصيلة البقرية البرية) وقد قصدت الى شجرتى بعد الظهر فأمضيت بها الليلة كما أمضيت أمس .

يوم ١٤ مارس — جاء رفقتى وأنا على الشـجرة فسرنا معـا فى طلب الأسود فلم نعثر عليها ولا على أى صيد سواها، فعدنا أدراجنا الى الخيام قبيل الساعة الواحدة بعـد الظهر . وفى المساء قصـدت الى شجرتى فسمعت زئير الأسود على مقربة منى . أما الضباع فكثيرة، وهى التى تجىء لتأكل لحوم الحيوانات المصيدة .

يوم ١٥ مارس — أضنانى التعب والسهر فى الليالى المـاضية، واذ كنا على أهبـة السفر غدا الى منبسى فقد عوّلت على الاستراحة الليـلة وأمضيت النهار فى الخيام . أما النبيلان عمر وعباس حليم فقد خرجا الى الصـيد . وفى مساء اليوم حضر القطار الذى سـيقلنا الى منبسى فعجلنا بنقـل أمتعتنا الى العربات وتعشينا ثم ركبنا وسرنا الى تافيتا حيث قضينا الليلة .

يوم ١٦ مارس — سار بنا القطار صبيحة اليوم ووصلنا الى فوى بعد الظهر وأمضينا بها بقيـة النهار . وفى الساعة الحادية عشرة ليـلا سرنا فوصلنا الى منبسى فى صباح اليوم التالى .

وقد كان فى نيتى أن أستأنف الطواف حول القارة الإفريقيـة غير أن سوء حظى خاننى إذ وافتنى برقيـة تفيد أن والدتى التى تركتها مريضـة أصبحت حالتها خطرة فاضطررت للعودة الى مصر ... « تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن »

يوما ١٧ و ١٨ مارس — قضيناهما فى سفينتى ، وقد نقل النبيلان عمر حليم وسليمان داود متاعهما اليها ، وسيسافران معى .

يوم ١٩ مارس — أقلعت سفينتى من مرساها فى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم ، وكانت الحرارة شـديدة والجو رطبا . أما البحـر فكان هادئا جدا ، وها نحن الآن نمخر عباب المحيط الهندى للمرة الثانية .

يوم ٢٠ مارس — مازال البحر هادئا ولكن الجو مابرح حارا نوعا . ونحن نمخر عرض البحر الآن تجاه سواحل الصومال الايطالية متجهين الى رأس جردفون .

يوما ٢١ و ٢٢ مارس — مضى هذان اليومان دون أن يجـد شيء غير ما نحن فيه من مواصلة السفينة سيرها فى بحر هادئ وجو لا بأس به وسنمر غدا برأس حافونى .

يوم ٢٣ مارس — مررنا بعـد ظهر اليوم برأس حافونى . وعقب احتجاب قرص الشمس وراء الأفق الغربى اجتزنا رأس جردفون . وها نحن أولاء نمخر عباب خليج عدن أو بحر البرابر .

يوم ٢٤ مارس — قضينا النهار كله سيرا فى هـذا الخليج ورأينا السفن لأول مرة متجهة صوب الشرق .

يوم ٢٥ مارس — وصلنا فى صبيحة اليـوم الى جزيرة بريم وبعـد أن قضينا فيها حاجتنا من المـاء والزيت اللازم للآلات والمؤن استأنفنا المسير قاصـدين الى القصير . وكان البحر مضطربا بعض الشيء لقلة عمقه فى هذا المكان .

جـــزيرة پـــريم

كلمة عنها مقتبسة من القاموس الجغرافى

لڤڤيان دى سان مارتان

پريم هى التى ذكرها ديودورس الصقلى فى رحلة طوافه . وهى التى أسماها العرب بالميون وأسماها البرتقاليون ميهو . وقد رسا بها ألبوكرك سنة ١٥١٣ حينما جاء اليها من البحر الأحمر وجعل بها صليبا ثم أسماها جزيرة ڤيرا كروز . وصارت الجزيرة بعد ذلك مأوى للقرصان الذين كانوا ينهبون السفن الحاملة للتجارة من بلاد الهند وشرعوا فى إقامة حصون بها، ولكنهم بعد أن حفروا الصخر بعمق عشرة أمتار، لاستنباط الماء الصالح للشرب تركوا الجزيرة قاصدين الى جزيرة سانت‌مارى الكائنة بالشاطئ الشرقى لجزيرة مدغشقر .

وفى سنة ١٧٩٩ استولت شركة الهند على جزيرة بريم وأرسلت اليها حامية للدفاع عنها ضد الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ بمصر، اذ كانوا يرومون تأييد تيپو سلطان صاحب ميسور فى الهند ثم تركتها الشركة المذكورة فاحتلت ثانية فى سنة ١٨٠١ وفى سنة ١٨٥٧ عند ما تقدمت الملاحة البخارية بالبحر الاحمر وقبل حفر قنال السويس، احتلت انكلترا جزيرة بريم وأقامت بها منارة فى سنة ١٨٦١ وأقيم حصن صغير بالجهة الجنوبية الغربية، والجزيرة تابعة لعدن الآن فى شؤونها الادارية .

يوم ٢٦ مارس — كان البحر اليوم فى هدوئه كبحيرة، وكان سطح الماء تحت أشعة الشمس كالمرآة، ولا أمواج مطلقا .

يوم ٢٧ مارس — علت الأمواج حتى طغت على السفينة وغمرت سطحها وازداد تلاطمها كثيرا ، ولكنها هدأت بعد . وكانت تسير أمامنا باخرة يابانية فأدركتها سفينتى قبل هياج البحر، فلما اضطرب البحر على الوجه الذى سبق وصفه خفضنا السرعة وحينما رأى ذلك ربان تلك الباخرة دنا منا وحوّل خط سيره بحيث يكون على مقربة منا . ولكنا وصلنا الى السويس قبله فأحرزنا عليه قصب السبق . ولقد كنت شديد الرغبة فى زيارة أطلال ثغر برينيس القديمة وإنما عدلت عن هذه النية لتعذر الاقتراب من البر بتلك الجهة لكثرة الصخور والشعاب وعمق الجزء الغاطس من سفينتى . ولذا فضلت مواصلة السفر مع التعريج على القصير .

ثغر برينيس القديم (١)

كلمة عنـــه

وقف القـارئ على شيء من حالة التجارة والملاحة فى البحر الأحمـر أيام دولة البطالسة ، فقد أفضنا فى الكلام على ذلك قبـل الآن . ولكنا لا نرى بدا هنا من القول بأن ثغر برينيس أنشئ فى عهد الملك بطليموس فيلادلفوس وأطلق عليه هذا الاسم ، وهو اسم والدته ، إكراما وتذكارا لها وهناك زعم بأن برينيس أقدم عهـدا وأن المؤسس للمدينـة الأولى هو رعمسيس الثانى وكانت السفن التى تجلب مختلف البضاعات الى السواحل المصرية ترسو على برينيس فتنقلها على متون الجمال الى مدينة قفط (كوپتوس) الواقعة بوادى النيل .

ولقد أنشئت على طول الطريق المؤدى من برينيس الى قفط أوقوص أماكن لاستـراحة العمال وحظائر للماشية ومخازن وحصون لحفظ البضائع وحماية القوافل وحفرت الآبار . واعتنى الذين خلفوا بطليموس المومى اليه بهذا الطريق كما اعتنوا بتوسيع نطاق الملاحة المصرية والتجارة . وظلت تلك النقطة حافظة لأهميتها مدة أكثر من خمسمائة عام متتابعة .

وموقع برينيس على ٥٠ً ٥٤َ ٢٣° تقريبا من العرض الشمالى و ٥٠ً ٢٨َ ٣٥° تقريبا من خطوط الطول الشرقية . وكانـ موقعها على ضـفة الخليج المعروف فى الأزمان السابقة باسم أغا ثرتوس ويؤخذ من أقوال أغا ثرشـيد أن الخليج انما سمى بهـذا الاسم لتعرّضه للعواصف والامواج . وهو كثير الأضحال أى الشعاب

(١) برنيقة حققه الأب أنستاس الكرملى (Bérénice)

القريبة من وجه المـاء . وكانت بالقرب من ثغر برينيس الى جنوبه الشرقى جزيرة اشتهرت باسم توبازوس ، ولا تزال مشهورة حتى الآن باسم جزيرة الزمرد . والى الجنوب الشرقى من هذه الجزيرة جزيرة الزبرجد ، وتسمى أيضا جزيرة القديس حنا (ماريوحنا) . وكانت الدائرة الخاصة (فى عهد حضرة صاحب السمو الخديو عباس حلمى) تستخرج الزبرجد منها كما كان الأقدمون فى القرون الخالية يفعلون ذلك .

وقـد اختلف الجغرافيون الأقدمون فى تعيين موضـع ثغر برينيس ووصـفه اختلافهـم فى تعيين موقع جزيرة الزمرد اذ اعتبرها بعضهـم جبلا فى القارة وذهب البعض الآخر الى أنهـا (أى برينيس) فى الشمال على مقربة من ميوس هورموس (Myos Hormos) القـديمة أو فى الجنوب على خط العرض المـار بمدينـة سيين القديمة (أسوان) أى على خط السرطان تقريبا .

والى القارئ الآن أسمـاء الذين كتبوا عنهـا على ما ورد فى كتاب (وصف القطر المصرى)[1] .

وهم : اسـترابون[2] (Strabon) وهو ممن قالوا : إن برينيس على خط السرطان أو بالقرب منـه ، هذا فضلا عن تناقض أقواله فيما ذكره عن هذا الموقع فى الباب الثـانى والباب السابع عشر من جغرافيتـه . وبلينـاس (Pline) ، وربمـا كان قوله نقلا عن ايراتوستين[3] (Eratosthène) وبطليموس الاسكندرى الذى اعتبر موقع برينيس على ٥َ ٢٣ْ ويمكن القول بأنه نقـل أقواله فى ثغر برينيس عن ايراتوستين أيضا . ثم أريانـ أنطونان (Antonin) ، فقد اعتبر موقع برينيس على عرض

(١) La Description de l'Egypt.

(٢) جغرافى يونانى .

(٣) فيلسوف شهير من مدرسة الاسكندرية ولد فى قيرين سنة ٢٧٦ قبل الميلاد .

مدينة سين أى أسوان الخ الجغرافيون المتقدمون . أما المتأخرون فكثيرون ومنهم دانفيــل .

أما موقع برينيس فى الوقت الحاضر ففى الخليج المعروف باسم خليج رأس بناس ، أى غربى هذا الرأس الذى سمى بهذا الاسم نسبة الى الشيخ بناس الذى يقال انه كان ربانا حاذقا . أما موقعها القــديم فلم يتيسر الاهتداء اليه الآن بسبب التغير الذى حصــل فى أرض الشاطئ ، ولو أن المعبد القديم موجودة آثاره (أنظر المذكرة المقدمة الى الجمعية الجغرافية الملكية بعنوان الصحراء الشرقية لمصر بين النيل والبحر الأحمر وثروتها المــاضية وأهميتها المستقبلة (بقلم جان ريموندى[1]) .

(1) Memoire de la Societe Royale de Geographie d'Egypt tome IV. Le desert oriental Egyptien du Mil à la Mer Rouge par M. Jean Raimondi Ingenieur en chef du Services des Ponts (Chemins de fer de l'etat).

خليج أغا ثرتوس

أما خليج أغاثرتوس الذى سبق ذكره فى غضون الكلام على برينيس ، فقد قال أغاثرشيد عنه انه كائن بعد ثغر ميوس هورموس وان الى جنوبه خليجا كبيرا معرضا للعواصف وبه صخور بارزة وأن هذا هو سبب تسميته أغاثرتوس أى الخليج الملعون .

وهذا الوصف ينطبق على الخليج الذى به مدينتا القصير القديمة والقصير الحديثة . وأيد ديودورس الصقلى قول أغاثرشيد وتبعه استرابون فى ذلك ثم تبعهما بطليموس الذى قال بوجود خليج فسيح على مقربة من خط عرض قفط (كوبتوس) ويوجد ثغر على خط الطول الذى درجته ٤٥َ ٦٤° ولم يذكر أحد الجغرافيين الأقدمين ما ينفى نظرية بطليموس ، ولذا نعجب من أن دانفيل استطاع أن يعين موقع هذا الخليج كما لو كان واقعا على نفس خط العرض المار بمدينة سين (أسوان) وبعيدا عن ميوس هورموس بأكثر من ستين فرسخا .

أما سترابون فيقول : إن مدينة برينيس كانت فى خليج أغاثرتوس .

والذى يؤخذ مما استشهد به دانفيل فى كتاب (وصف القطر المصرى)[1] من الأقوال والآراء أنه كان ميالا الى اعتبار موقع برينيس وخليج أغاثرتوس فى شمال الموقع المخصص لهذا الخليج وبهذه النقطة أى برينيس على المصورات الجغرافية الموجودة فى وقتنا هذا .

(1) La Description de l'Egypt.

ولم يكن ثغر برينيس الثغر الوحيد الذى أنشأه البطالسة بهذا الاسم ، فان هناك مكانين آخرين أسمى كلاهما بهـذا الاسم ، أحدهما من عهد البطالسة وهو برينيس القريبة من بوغاز باب المندب الى الشمال منه والآخر هو برينيس ابيتيراس الواقعة فى جنوب الأولى بذات المضيق . ويذهب العلامة ڤيڤيان دى سان مرتان الى أنها رومانية (راجع كتابه الموسوم شمال أفريقيا فى العهدين القديمين اليونانى والرومانى)[1] .

(1) Le Nord de l'Afrique dans l'antiquite etc.

ثغر ميوس هورموس (Myos Hormos)

والى الشمال من برينيس ثغر قديم كانت تلجأ اليه السفن بعد أن تفرغ مشحونها فى ثغر برينيس، نريد به ميوس هورموس، وكان موقعه شمال القصير الحالية بنحو عشرة فراسخ بحرية تقريبا. ويحسن فى هذا المقام أن نورد شيئا من وصف المتقدمين لهذا الثغر (راجع كتاب وصف القطر المصرى La description de l'Egypte)

جاء فى مؤلف أغاثرشيد أن المسافر من أرسينوة الى الجنوب وبطول الشاطئ كان يرى فى وسط وادٍ متسع جدا جبالا حمراء يكثر فيها الحديد، فاذا أطال الانسان فيها نظره شعر بملل وتعب. وكان بالقرب من هذا المكان مدخل كثير الملتويات والعطفات يوصل الى مرفأ كبير يعرف بمرفأ الفار أو ميوس هورموس ثم الى مرفأ ڤينوس (Venus) "الزهرة" وكان تجاه هذا الثغر ثلاث جزر الخ. وقد تكلم عليها ديودورس الصقلى، ثم استرابون الذى يقرب وصفه من وصف ديودورس ومن وصف أغاثرشيد أيضا.

وجاء فى رحلة الطواف بالبحر الأريترى، وهى الرحلة التى يرجع تاريخ تصنيفها الى عهد أدريانوس قيصر كلام عن ميوس هورموس بأنها أشد ثغور البحر الأحمر فى زمنه وأهمها.

أما بطليموس فقد عين موقعها بأنه ١٥َ ٥٧° من العرض الشمالى ولذا يكون هذا الموقع على مسافة سبعة عشر فرسخا تقريبا شمالى القصير. وفى عهد الاحتلال الفرنسى للقطر المصرى سافرت سفن حربية من السويس، بقصد الاستيلاء على القصير فاضطرت لهيجان البحر أن ترسو على الساحل الغربى للبحر الأحمر قبل

وصولها الى القصير . وكان فى إحدى السفن اثنان من أعضاء اللجنة العلمية ، وهما العالم أرنولى والعالم شابى . والى القارئ بعض ما كتباه فى تقريرهما (راجع كتاب وصف القطر المصرى) : " توجد على مسافة سبعة عشر فرسخا بحريا من شمال القصير جبال حمراء يسميها ربابنة السفن العرب بالجبل الأحمر، وعلى بعد فرسخ ونصف الى جنوب هـذا الجبل مرفأ فسيح هو الذى رست فيه السفن الفرنسية وموقعه على ١٥َ ٢٧° من العرض الشمالى ، وهو ما يطابق قول بطليموس فى تعيينه لموقع ثغر ميوس هورموس .

وما جاء فى تقرير العالمين الفرنسيين فى وصف المرفأ وبيان مساحته والثلاث الجزر الواقعة تجاهه يمحو كل أثر للارتياب فى أن هذا الثغر هو بعينه الذى كان معروفا عند القدماء باسم ميوس هورموس وهناك خريطة تركية بنى دنفيل عليها خريطته واتخذها تكأته الوحيدة فى تعيين ميوس هورموس ، فجاء حكمه بذلك مطابقا لحكم العالمين الفرنسيين الآنفى الذكر ومستندا الى أقوال السياح البرتقاليين ، فى حين أن بقية الجهات التى تصدّى الى تعيين مواقعها على خريطته غير مقطوع بصحتها .

وأنشأ البطالسة ثغرا آخر عرف باسم أدوليس وقيل : إنه تأسس قبلهم أى فى عهد رعمسيس الثانى عثر فيه القس كوزماس فى القرن السادس على كتابات تشرح فتوحات بطليموس أفرجيطه الأول[1]، وعلى كتابات أخرى تشرح أحوال أحد ملوك الحبشة فى القرن الثانى . وقد ذكره بليناس وعرفه الرومان باسم ثغر أكسوم ، ويعرف اليوم باسم زيلع الواقعة على الخليج المشهور باسمها . أما مكان أطلال

(1) Ptolomée Evergète.

أدوليس فالى الجنوب أى على ½ ١٥َ ١٥° من العرض الشمالى تقريبا و ½ ٣٩َ ٣٩° من الطول الشرقى (راجع ڤڤيان دى سان مرتان والمعلمة الكبرى الفرنسية[١]) .

وثغر زيلع هذا واقع الى الشرق الجنوبى الشرقى من مصوع . وكانت هذه النقطة وخليجها المسمى (أنسلى[٢]) متنازلا عنهما لفرنسا من الرأس صاحب إقليم التجرة (Tigre) سنة ١٨٤٠ إلا أن إيطاليا ضمتها فى سنة ١٨٨٧ الى مصوع، وهو ما أثار احتجاج فرنسا . ولما أنفذ الانكليز تجريدتهم ضد تيودوروس نجاشى الحبشة جعلوا خليج أدوليس مركزا لحركاتهم العسكرية واجتمعت لهم به مئات السفن فى سنتى ١٨٦٧ و ١٨٦٨ وكانوا قد مدوا خطا حديديا وأنشؤا صهاريج للمياه وحينما وصلت الجيوش البريطانية نزلت الى البر فى ثغر زيلع كما أنها أبحرت منه عند انتهاء الحملة[٣] .

---

(1) La Grande Encyclopedie Francaise & Vivian de St. Martin.

(2) Annesley Bay.

(3) Vivian de St. Martin. Dictionnaire de Geographie.

بطـــوليمائيس

مرسى مبارك

فى أيام بطليموس فيلادلفوس (Ptolomée Philadelphe) كانت أنشئت نقطة أخرى بساحل بلاد الحبشة عرفت باسم بطوليمائيس تيرون وكانت أحد الثغور التى تجلب منها الفيلة الى مصر . وهناك مايحمل على الظن أن المرسى المعروف الآن بمرسى مبارك قائم على مكان تلك المدينة وهو واقع عند ٣١َ ١٦° من خطوط العرض الشمالية والخط ١٠َ ٣٩° من خطوط الطول الشرقية .

وممن ذكر هذه النقطة من المؤرخين السابقين بونبونيوس ميلا وأسماها بليناس ابيتيراس واعتبر وجودها بخليج مونوليوس وقال: إنها أنشئت فى عهد بطليموس فيلادلفوس على مسافة أربعة آلاف وثمانمائة وعشرين استاده من برينيس بساحل البحر الأحمر[1] .

واذا كان ما أوردناه عن ثغر أدوليس يذكرنا بثغر مصوع نظرا لمجاورته إياه فالى القارئ كلمة عن هذا الثغر .

---

(1) Encyclopedie Methodique par un Société de gens de léttres, de Savants et d'artistes etc.

ثغـــر مصـــوّع

كلمـــة عنـــه

إن الموقع الجغرافى لثغر مصوّع هو فى ملتقى الخط ٣٧ً ١٥° من خطوط العرض الشمالى ودرجة ٢٨َ ٣٩° من خطوط الطول الشرقية و يقول العلامة ڤيڤيان دى سان مارتان فى قاموسه السالف الذكر: إن المحتمل أن تكون مصوّع قائمة فى موقع مدينة سـبأ القديمة فى عهد البطالسة . وكانت ملتقى صيادى الفيلة لأن أكبر ثغر لساحل الحبشـة فى ذلك العهد كان ثغر أدوليس الواقع على مسيرة يوم من جنوب مصـوّع .

وذكر المؤرخون والجغرافيون العرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر نقطة أخرى عرفت باسم دَهْلَك (كما جاء بأبى الفـدا) فى الجزيرة المعروفة بهـذا الاسم ووصفوها بأنها أول مركز تجارى فى تلك الجهات .

وكانت مصوّع وغيرها من البلاد المجاورة تابعـة لدولة الأحباش وكانت تحت إدارة موظف يسمى (بهاراناغاش) أى ملك البحر . وقد جاء اليها ديجولو پزدى سيكيرا حاكم المستعمرات الهندية فى سنة ١٥٢٠ وكان معه سفير أرسله ملك البرتقال الى نجاشى الحبشة وكان اسمه القس يوحنا وكان بها مسلمون الخ .

وفى سنة ١٥٥٧ استولى الأتراك على مصوّع وظلت فى قبضتهم الى سنة ١٨٦٦ واتخذوا لهم حامية فيها . وجاء فى الانسيكلوبيديا بريتانيكا[١] أنها جعلت تحت إدارة

---

(١) المعلمة البريطانية (Encyclopædia Britannica.)

شريف مكة ثم تحت إدارة ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا . وحضر اليها الانكليز فى سنة ١٨٦٨ لما شرعوا فى قتال الحبشة ورغب المغفور له الخديو اسماعيل باشا أن يمد اليها السكة الحديدية التى اعتزم انشاءها فى السودان وجعل على مصوع حاكما سويسريا يسمى فرمر منسنجر باشا وناط به احتلال كرن (Keren) عاصمة إقليم البغوس الحبشى (Bogos) . وفى سنة ١٨٨٤ احتل الانكليز مدينة مصوع على إثر حركة الدراويش ثم جاءت اليها جنود إيطاليا فى سنة ١٨٨٥ وفى نهاية هذه السنة ضمت مصوع الى ايطاليا طبقا لرغبات انجلترا .

وجاء فى كتاب (شمال أفريقيا فى العهدين القديمين اليونانى والرومانى[١]) تأليف العلامة فقيان دى سان مارتان : أن الثغرين المعروفين باسم سبأ مكانان مما أنشأته العرب والذى يؤخذ من تحديد هذا المؤلف لموقعهما أن أحدهما كائن بالقرب من بوغاز باب المندب بين برينيس شمالا و برينيس أبتيرس جنوبا . أما سبأ الثانية فكانت فى شمال ثغر أدوليس القديمة بمسافة صغيرة (راجع المصورات الجغرافية الملحقة بكتاب فقيان دى سان مارتان الآنف الذكر) .

(1) Le nord de l'Afripue dans l'antiquité Greque et Romaine par M. Vivian de St. Martin.

ثغر سواكن

كلمة عنه

أما سواكن فواقعة على تقاطع الخط ٧َ ١٩° من العرض الشمالى بالخط ٢٠َ ٣٧° من الطول الشرق . (وزعم بعضهم أنها پتولومايس أو پتولومايد فرّاروم) .

جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى : " أن سواكن بلد مشهور على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ اليها سفن الذين يقدمون من جهة جدّة وأهلها بجاة سود نصارى" .

وقال ابن بطوطة فى رحلته : " وفى ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهى على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر والماء يجاب اليها فى القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهى جزيرة كبيرة الخ" . الى أن قال : " وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى اليها الشريف زيد بن نمىّ وأبوه أمير مكة الخ" .

وقال أبو الفداء :" قال ابن سعيد: وصاحب سواكن من البجاة المسلمين وله ضرائب على التجار، وسواكن صغيرة جدا، وبين سواكن و بين عيذاب نحو سبع مراحل .وحكى لى بعض المسافرين اليها قال: وسواكن بقدر ضيعة صغيرة فى جزيرة صغيرة قريبة من الساحل ويخاض اليها من البر وهى للبجاة ، وسواكن وما حولها للبجاة ، وأما ما وراء سواكن الى المندب فهو لجنس من السودان يقال لهم دنكل (بفتح الدال المهملة وسكون النون وفتح الكاف) ثم ما وراء باب المندب للزيلع" .

ويعلم مما جاء فى المؤلفات الأخرى [١] أن سواكن كانت كغيرها من البلاد الشاطئية فى يد البطالسة ، ولكن العرب جاءوها بعد الإسلام فاختلطوا بأهلها من الزنوج وحكموا بها حتى جاءهم السلطان سليم وأخذ البلاد، فبقيت سواكن فى حوزة الترك الى عهد محمد على حيث ضمت الى الحكومة المصرية ثم انفصلت عن مصر الى عهد الخديو اسماعيل الذى ضمها الى الأملاك المصرية، والمدينة نفسها لم تقع فى قبضة الدراويش الى وقت إعادة فتح السودان فى سنة ١٨٩٨ ، وكانت الحكومة فى أيام الخديو إسماعيل قد شرعت فى مد سكة حديدية لتوصيل سواكن ببربر، ولكن القسم الذى أنشئ منها كان قصيرا . وقد آل أمر سواكن الى الاضمحلال منذ فكرت حكومة السودان فى جعل بورسودان الحالية الثغر الأول للأقطار السودانية.

⁂

وصلنا الى القصير بعد ظهر ٢٨ مارس وأمضينا الليلة فى مياهها ولم أنزل من السفينة الى البر ، إلا أنى استطعت أن أرى خلال الدور من بعيد شبح الحصن القديم الذى قيل ان الانكليز أخرجوا الفرنسيين منه أيام وجود حملتهم فى مصر، كما رأيت المبانى الجديدة الممتدة على ساحل البحر ومن أهمها دار الحكومة وأسكلة شركة الفُصْفات الإيطالية ومخازنها ومنازل موظفيها . وهذا الفصفات الصالح لتسميد الأراضى الزراعية يستخرج من جبل يبعد عن الساحل بنحو ثلاثين كيلو مترا بوساطة قطارات سكة حديدية ضيقة ممتدة بين الجهتين ، وكانت باخرة إنكليزية تأخذ مشحونها منه برسم الشرق الأقصى . ولما جنّ الليل أضيئت المدينة بالأنوار الكهربائية المنبعثة من آلات الاضاءة الخاصة بالشركة . وقد كان هذا المنظر مما يزجى الى النفس فكرة الاستغلال والاستثمار وحظ الأجانب منهما بجدهم ومثابرتهم وصدق بصرهم وحرماننا إياهما بتقاعدنا وتواكلنا وسوء تصرفنا .

(١) المعلمة البريطانية (Encyclopædia Britannica.)

ثغر القصير

كلمة عنه

هذه المدينة الصغيرة واقعة على خط ٢٤َ ٢٦° من خطوط العرض الشمالية وخط ٣" ١٧َ ٣٤° من خطوط الطول الشرقية . وقد ورد وصفها فى كثير من المصنفات العربية . وقد قال المرحوم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية : " القصير — بضم القاف وفتح الصاد المهملة ثم ياء آخر الحروف وراء مهملة ، ميناء على بحر القلزم على ثلاثة أيام من قوص فى مفازة وهى فرضة قوص " .

وجاء فى معجم البلدان لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ما يأتى : " والقصير موضع قرب عيذاب بينه وبين قوص قصبة الصعيد خمسة أيام و بينه و بين عيذاب ثمانية أيام وفيه مرفأ سفن اليمن . قال ابن عبد الحكم المقطم ما بين القصير الى مقطع الحجارة وما بعد ذلك من اليحموم . وقد اختلف فى القصير فقال ابن لهيعة ليس بقصير موسى عليه السلام ولكنه قصير موسى الساحر . وقال المفضل بن فضالة عن أبيه قال دخلنا على كعب الأحبار فقال : ممن أنتم ؟ قلنا : من مصر؛ قال : ما تقولون فى القصير؟ قلنا قصير موسى ؛ فقال ليس بقصير موسى ولكن قصير عزيز مصر . وكان إذا جرى النيل يترفع فيه وعلى ذلك فانه مقدس من الجبل الى البحر " .

وجاء فى تقويم البلدان للسلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب حماه ما يأتى : " وقوص مدينة بالصعيد ، وليس بأرض مصر بعد الفسطاط

مدينة أعظم منها . وهى فرضة التجار من عدن ، وهى على حافة النيل من البر الشرقى .
وفرضة قوص قصير بضم القاف وفتح الصاد المهملة ثم ياء آخر الحروف و راء مهملة
والقصير ميناء على بحر القلزم وهى على ثلاثة أيام عن قوص فى مفازة " .

وقال ابن بطوطة فى رحلته : " وأقمت بجدّة نحو أربعين يوما وكان بها مركب
لرجل يعرف بعبد البر التونسى يروم السفر الى القصير من عمالة قوص الخ " .

وجاء بكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : " يختص ذلك بأخبار
إقليم مصر والنيـل وذكر القاهرة وما يتعلق بهـا و بإقليمها " تأليف سيدنا الشيخ
الإمام علامة الأنام تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى
فى ذكر بحر القلزم . " فاذا وصـل الى القلزم انعطف من جهـة الجنوب ومر الى
القصير ، وهى فرضة قوص ، ومن القصير الى عيذاب ، وهى فرضة النحية ، و يمتد
من عيذاب الى بلد الزيلع وهى ساحل بلاد الحبشة " .

فاذا اعتمدنا على ما أورده كل من المقريزى و ياقوت الحموى كان فى وسعنا
القول بأن القصير القديمة والقصير الحديثة ليستا عيذاب . ذلك لأن القصير مكان
وعيـذاب مكان آخر ، قد عين بعض من سلف ذكرهم من المؤلفين موقع القصير
بالنسبة الى موقع عيذاب ، و إن تكن عيذاب أقدم . ولنذكر بعض أقوال الجغرافيين
والمصنفين الأقدمين عن عيذاب ، فقد جاء فى كتاب تقويم البلدان : " قد اختلف
فى عيذاب فبعضهم يحدّ ديار مصر على وجه تدخل فيه وهو الأشبه ، لأن الولاية فيها
من مصر وهى من أعمال مصر حقيقة ، و بعضهم يجعلها من بلاد البجا ، و بعضهم يجعلها
من بلاد الحبشة ، وهى فرضة لتجار اليمن وللحجاج الذين يتوجهون من مصر فى البحر
فيركبون من عيذاب الى جدّة " . وقال ابن سعيد : " وعرض البحر بين عيذاب
وجدّة درجتان ، وهى أشبه بالضيعة منها بالمدن " .

وجاء فى الجزء الرابع عشر (ص ٥٤) من الخطط التوفيقية للرحوم على مبارك باشا بهذا الصدد ما نحيل اليه القارئ .

وجاء فى معجم البلدان : "عيذاب (بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة) بليدة على بحر القلزم هى مرسى المراكب التى تقدم من عدن الى الصعيد".

وقال المقريزى : "اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون الى مكة شرفها الله تعالى إلا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الإبل من قوص ويعبرون هذه الصحراء الى عيذاب ثم يركبون البحر فى الجلاب الى جدّة" الخ .

وورد فى الخطط ذكر عيذاب على لسان الكثيرين من المؤرخين والجغرافيين كابن خلكان وابن جبير الأندلسى وابن قلاقس الاسكندرى وابن بطوطة، فذكر بعض هؤلاء عيذاب مع ذكره للقصير كما تقدّم وفى زمن واحد .

وجاء فى المجلد الرابع من مذكرات الجمعيــة الجغرافية الملكية تحت عنوان "صحراء شرق مصر" بقلم المسيو ج . ريموندى ما يأتى :

"ان موقع مدينة القصير الى شمال الدرجة ٢٦ من العرض الشمالى بقليل، وهو ما يدل على أن برينيس لم تكن مجاورة لهـــذه المنطقة ولا للثغـــر ميوس هورموس الذى ممـــا لاجدال فيـــه أن موقعه الى شمال القصير . إذن يكون موقعها الى شمال موقع برينيس بكثير، فقد تبين أخيرا أن هذا الموقع جنوبى الدرجة ٢٤ من درجات العرض الشمالى بقليل كما ذكرناه فى موضعه . واذن لا ينطبق وصف خليج أغاثرتوس كما جاء فى كتب الأقدمين على خليج ميوس هورموس، بل أن أغاثرتوس هو أيضا الى الجنوب من القصير حيث أجمعت الآراء على وجود ثغر برينيس بهذا الخليج".

و إذ قد تبين من الخرائط الحديثة أن موقع القصير مما أجمعت على تحديده آراء المسيو ريموندى والمباحث التى أجريتها ، وان يكن هذا المهندس جعل موقعها الى شمال الدرجة ٢٦ من العرض الشمالى ولم يبين الدقائق والثوانى كما أوضحناه بالصحيفة الأولى من وصفى لمدينة القصير فى كتابى هذا ، فلنعد الى ما قال المؤلف المذكور عن تاريخ هذه المنطقة فى الأزمان الحديثة .

قال المسيو ريموندى فى الفقرة الثالثة من صحيفة ٢٥ : ان اسم القصير فى الأزمان القديمة كان لوكوس ليمن[1] ، فبصرف النظر عن صواب هذا القول أو عدم صوابه ، فانه يتضح ، طبقا لما جاء فى مذكرات المسيو ريموندى السالف الذكر ، أنه كان يوجد فى هذا الموقع قبل عهد البطالسة ثغر قديم ؛ فقد قال مؤيدا قوله بما أورده المسيو ج . كويا[2] فى مصنفه الموسوم (المرافئ اليونانية والرومانية فى البحر الأحمر) ، مايفيد أن الاسم المصرى لمدينة القصير أو لنقطة بحرية كانت كثيرة القرب للقصير القديمة أو الحديثة هو تأو أو طاو . (راجع ص ١ من الباب الرابع من كتاب ريموندى السالف الذكر) ، وكذا مصنف العلامة ماسپرو (Mospero) الموسوم (فى الكلام عن الملاحين المصريين فى البحر الأحمر) وأن هذه المنطقة كانت موجودة قبل عهد البطالسة . أما بعدهم فقد جاء فى الصحيفة المذكورة من المؤلف الآنف الذكر و بالفقرة الأخيرة أن العرب كانوا يفضلون تنزيل بضاعتهم الى البر بأسرع ما يمكن ، وربما كانت القصير أول ثغر قصدوا اليه أو استفادوا به ، ومنه كانت تحمل البضائع الى مدينة الأقصر .

والبرهان على أن هذه النقطة كانت معمورة لدرجة ما فى عهد العرب هو ما جاء عنها فى المؤلفات التى نقلنا منها ما أوردناه فيما سبق . أما بعد دخول الترك أرض

---

(1) Leucos Limen.

(2) J. Couyat, Les ports Greco-Romaines de la Mer Rouge.

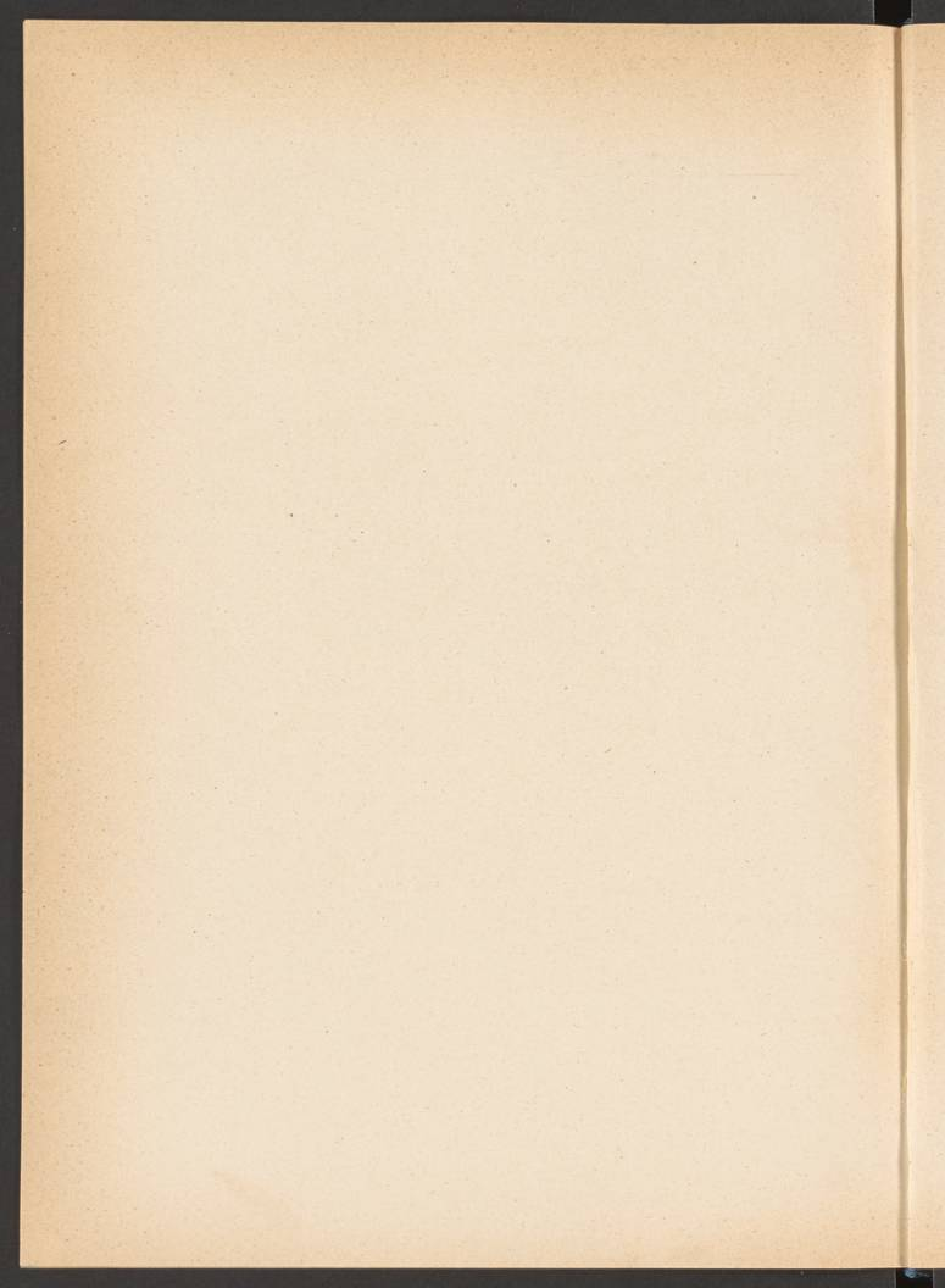
مصر فقـد جاء فى الصحيفة الأولى من مصنف المسيو ريموندى (فقرة ثالثة) أن السلطان سليم بنى بالقصير ميناء وهو الذى أقام المدينة الحالية، وأنه فى عهد احتلال الفرنسيس للديار المصرية أرسلت فصيلة من فرقة القائد ديزكس الى القصير فى شهر مايو سنة ١٧٩٩ فأنشأت بها مركزا عسكريا مهما .

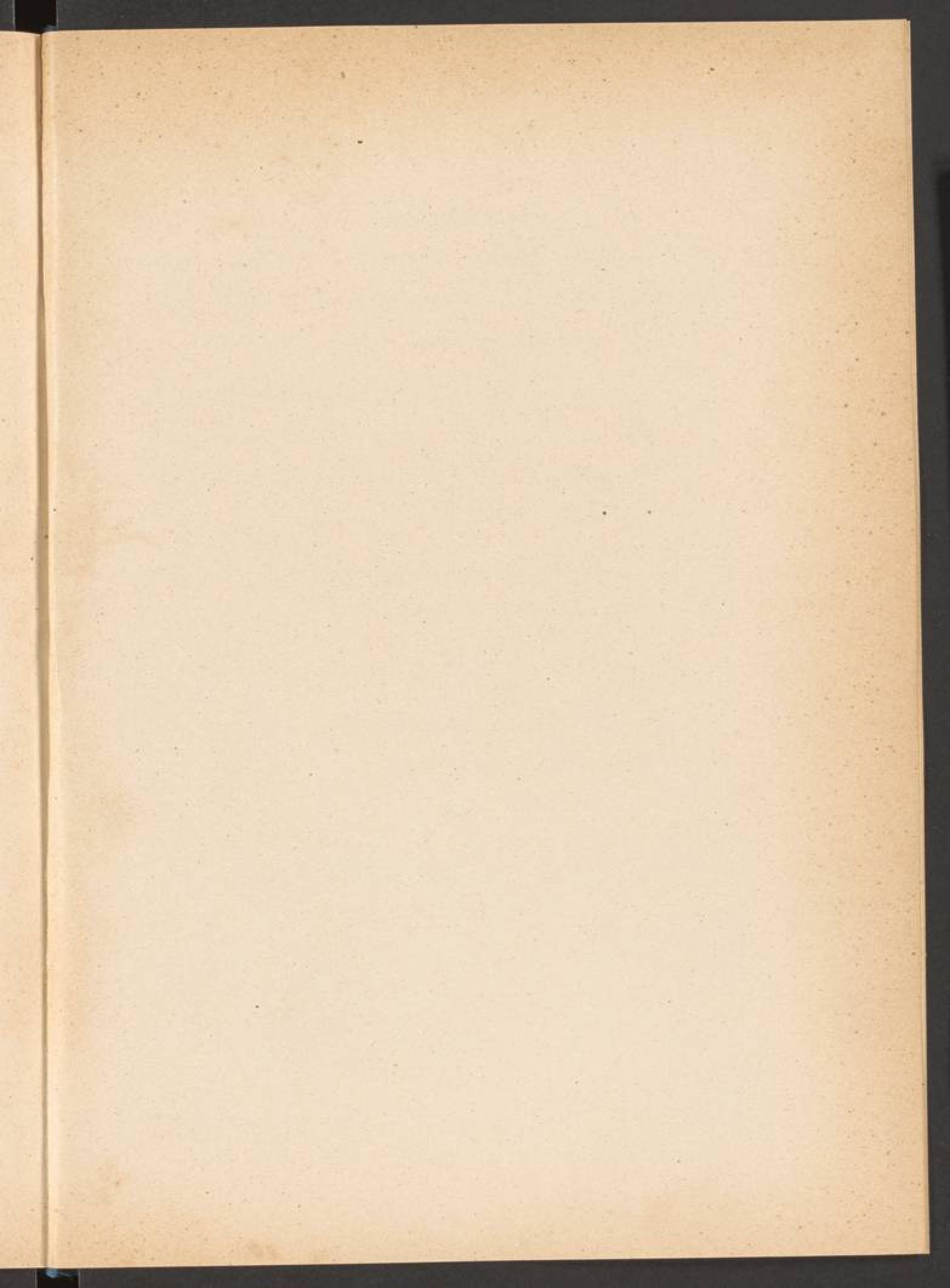
وقد جاء بالفقرة التالية أن محمد على الكبير اهتم بالقصير كثيرا وأقام بهـا مساكن كثيرة ودارا للجمرك ومخازن للبقول، وجعل بها محافظة أى أقام عليها محافظا . وكان يمر بمدينة القصير فى ذاك الوقت نحو الثلاثين ألف حاج ومن بينهم كثير من عظماء العالم الاسلامى .

وقال أيضا فى فقرة بعدها : ان فى عهد المرحوم سعيد باشا لمـا مدّت السكة الحديدية بين السويس والقاهرة فقدت القصير أهميتها الخ .

يوم ٢٩ مارس — سافرت من القصير فى الصباح، وكان البحر هادئا .

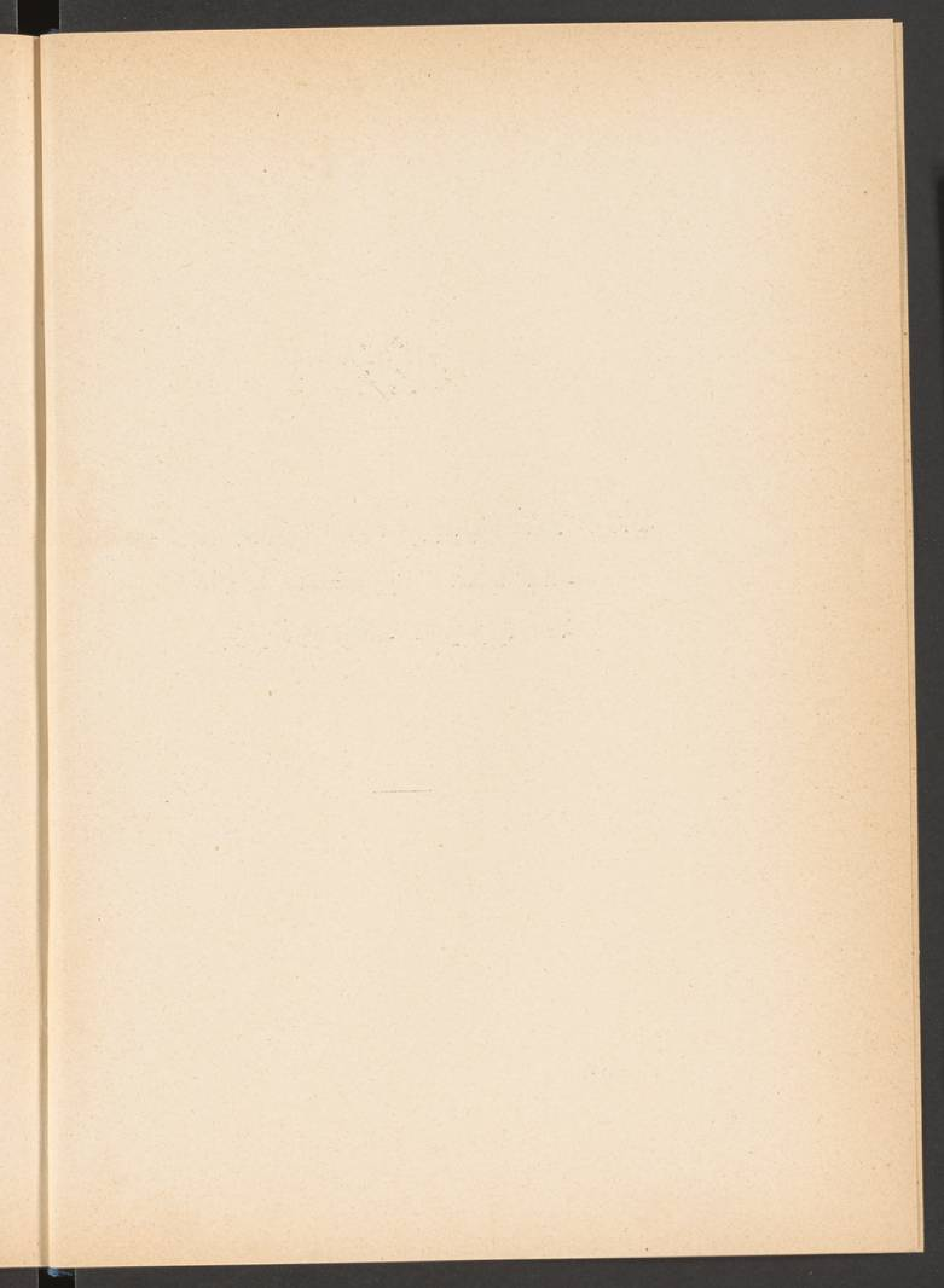
يوم ٣٠ مارس — وصلت فى الصبيحة الى السويس فتحرّكت منها بالسيارة الى المطرية حيث كان وصولى بعد الظهر .



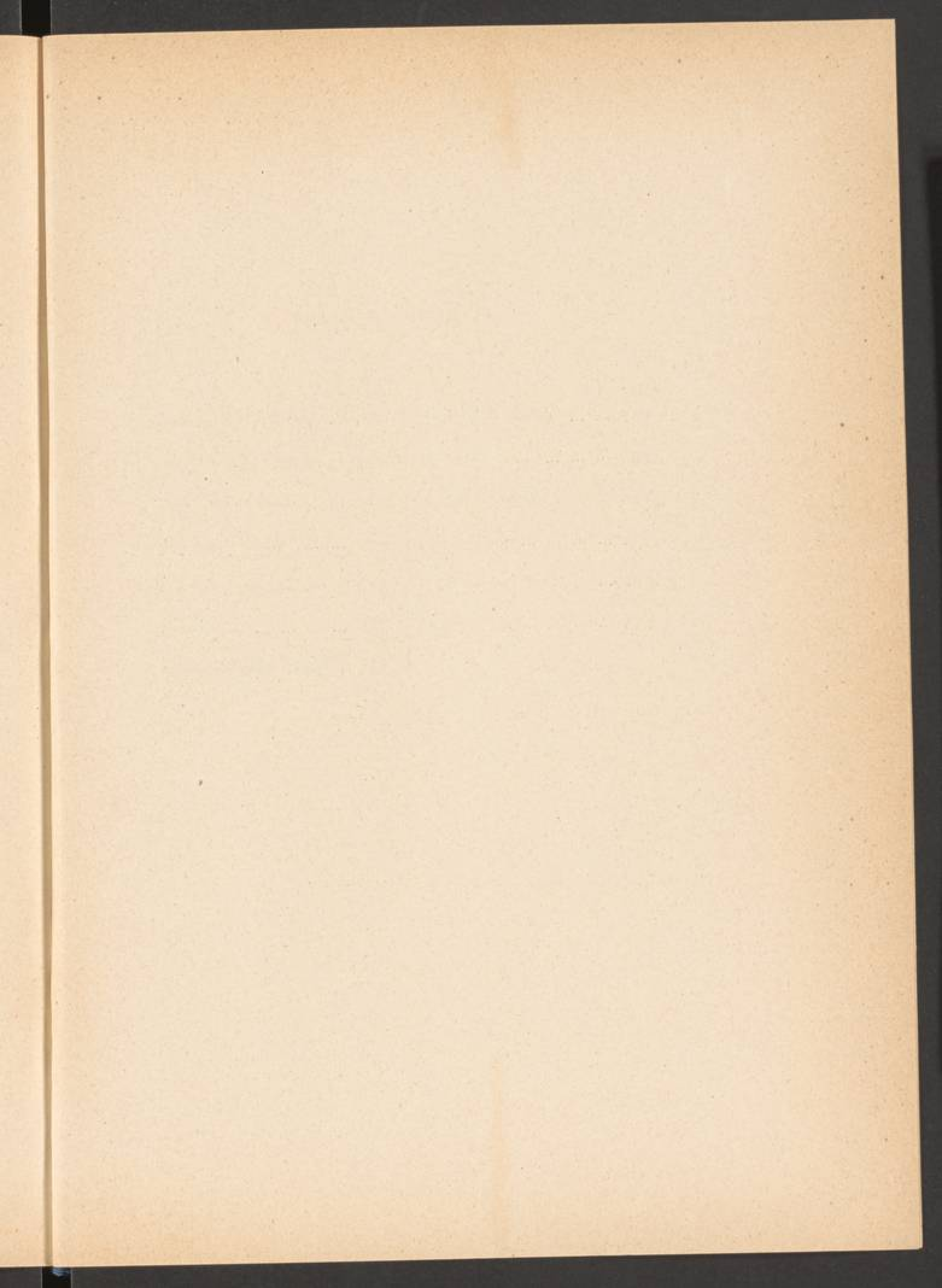


الجزء الثاني

الكونغو البلجيكي ، تنغانيقا البريطانية ، أنغولا البرتغالية
شلالات فيكتوريا ، مستعمرة الكاب ،
جزائر كناريا (الخالدات) وجزيرة مالطة



فهرس الكتاب



الجزء الثاني

الرحلة الى إفريقية الوُسْطَى

سنة ١٣٤٤ — ١٣٤٥ هجرية (سنة ١٩٢٦ ميلادية)

فى منتصف الساعة السابعة من مساء يوم ١٨ يناير سنة ١٩٢٦ ميلادية تحرّك قطار الوجه القبلى قاصدا نجع حمادى حيث اعتزمت أن أقضى بضع ساعات، وقد كان . ثم استأنفت السفر قاصدا الى الأقصر، وفيها قضيت سواد الليل . وما تنفس صبح يوم ٢٠ يناير حتى غادرت الأقصر ميمما الشلال بقصد الرحيل منه الى وادى حلفا فالخرطوم . ولقد وصلت اليها بعد ظهر يوم ٢٣ يناير وكان يرافقنى فى هذه الرحلة كل من النبيل عمر حليم والنبيل سليمان داود وحسين بك أبيش وعلى بك شريف والدكتور غاستون ميرس طبيبنا . وفى يوم ٢٥ يناير تحركت بنا الباخرة "الظافر" من بواخر حكومة السودان الى الرّجاف فوصلنا اليها فى صباح اليوم السادس من فبراير . وما لفت نظرى فى أثناء هذا السفر أكثر مما رأيت من انتشار زراعة القطن فى مساحات صغيرة من الأرض . ولقد فحصت الزهرة والقطن فالفيتهما أقل جودة من نظائرهما فى مصر فضلا عن قصر الشعرة ، وقد أحصيت

ملحوظة للقارئ : راجع المجموعة الكمالية فى جغرافية مصر والقارة الأفريقية لجامعها صاحب هذه الرحلة (Monumenta Cartographica Africae et Egypt)

فى الشجيرة الواحدة أكثر من ثلاثين زهرة، وكانت أكياس القطن مجهزة على المراسى لنقلها الى الجهات البحرية .

أمضينا بالرجاف من يوم ٦ فبراير الى صبيحة ٨ منه ولما أعدت سياراتى ، وكان عددها ثمانيا تحركت بنا شاخصة الى (آبا) وهى من المراكز البلجيكية على الحدود الفاصلة بين السودان وحكومة الكونغو البلجيكى .

وعند ما وصلنا اليها قابلنا المسيو لندجم مدير إحدى الشركات البلجيكية فى الكونغو والمسيو ماتاكساس اليونانى ، وقد جاء الى السودان مع الحملة الأخيرة ثم انتقل الى الكونغو وهو الآن يشتغل فيها بالتجارة وله ادارة واسعة النطاق . فبعد أن أمضينا هنا بعض الوقت سرنا صوب المركز المسمى بمركز (فرج) وهو على بعد مائتى كيلو مترا وعشرين كيلو مترا تقريبا من الرجاف ولما بلغنا الى منتصف الطريق نزلنا بنقطة عينها لنا رجال السلطة هنا كى نتفرغ للصيد فيها بضعة أيام . وكان حسين بك أيبش قد سبقنا اليها فنصبنا الخيام وحططنا الرحال كما يقولون .

ولقد شهدت فى الطريق مزارع صغيرة للقطن ولكنها كثيرة . ومررنا بوسط مزرعة واسعة لشجر المطاط (الكاوتشو) فى نهاية الجزء السودانى من ناحية الغرب ولاحظت اتساع نطاق العمران فى هذا الطريق، فمن مساكن حديثة للوطنيين تمّ بناء بعضها ولم يتم بناء البعض الآخر الى منشئات مختلفة تشير الى اهتمام القوم بالتقدم والارتقاء . والرىّ هنا على ماء الأمطار، والزراعة لا مصاطب فيها، إلا فى جهة واحدة من السودان رأيت هذه المصاطب فيها مصنوعة على الطريقة المصرية، غير أن الرى على ماء الأمطار أيضا .

واذ كنا الآن فى الكونغو كما ذكرت آنفا، فللقارئ كلمة عن وصفها الجغرافى وبيان عن تاريخ هذه الأقطار الشاسعة الأطراف الفسيحة الأكناف الوفيرة الخيرات .

جغرافية الكونغو البلجيكى وحدوده ومساحته وعدد سكانه

ان بلاد الكونغو البلجيكى واقعة بين درجة ٥° تقريبا من درجات العرض الشمالى شمالا ودرجة ٣٠َ ١٣° تقريبا من العرض الجنوبى جنوبا. وبين درجة ٤٥َ ٣٠° تقريبا من الخطوط الطولية الشرقية شرقا ودرجة ٦َ ١٢° تقريبا من الخطوط الطولية الشرقية غربا . وتحدّها شمالا مستعمرة الكونغو الفرنسية واقليم أوبانغى والشارى الفرنسى ثم السودان المصرى، وشرقا مستعمرة أوغندا الانكليزية فمستعمرة تجانيقا الانكليزية والبحيرة المسماة بهذا الاسم فمستعمرة رودزيا . وجنوبا مستعمرة رودزيا أيضا فأنغولا البرتغالية ثم المحيط الاطلنطى غربا . وتبلغ مساحة الكونغو ٢,٣٨٢,٠٠٠ كيلومترا مربعا تقريبا وعدد سكانه ٢,٠٠٠,٠٠٠ نفس تقريبا .

طقس بلاد الكونغو وأمطارها :

حرارة الجو ببلاد الكونغو البلجيكى أشد منها ببلاد أنغولا فى الجهات الجافة . أما الرطوبة الحارة فشديدة بالجهات الوسطى حيث تكثر الغابات الكثيفة وكذا على الشواطئ . أما الجهات الجبلية فالجو بها معتدل وأقل حرارة منه فى غيرها، هذا مع البرد الشديد ليلا خصوصا على المرتفعات و بالجهات البركانية الواقعة فى منطقة البحيرات الشرقية .

وتنزل الأمطار بالكونغو الجنوبى فى سبتمبر وتمسك فى آخر أبريل أو فى أوائل مايو و يهطل المطر بشدّة هائلة .

حاصلات الكونغو :

تنبت أرض الكونغو البقول والحبوب والخضروات كافة وباقى ما ينبت فى أرض مصر من الحاصلات الأخرى كالقطن وقصب السكر والأرز وما هو

مشروح من هذه الأنواع فى مثل هذا الموضوع من باب الكلام على مستعمرة أنغولا البرتقالية من هذا المجلد . وأهم أنواع المصنوعات الحصر والأوانى المتخذة من صنوف القش والسمار ، وصناعة الحديد ومصنوعات العاج والخشب والشمع وما جرى مجرى ذلك من ضروريات المعيشة .

الحيوانات المتوحشة والحيوانات المستأنسة :

الحيوانات المتوحشة التى فى بلاد الكونغو هى الحيونات التى أوردنا ذكرها عند الكلام على حيوانات أنغولا إنما يضاف اليها نوع يسمى الأوكابى(١)، وهو يقرب شكلا من الظرافة والبونغو(٢) من الحيوانات القرنية ثم الفيل الهائل الجثة مما هو شائع فى غير هذه البلاد والفيل القصير القامة " القِزْم " والقردة من نوع الشِّمْبانزى بغابات الأقاليم الوسطى والغوريلَّا على المرتفعات الكبيرة الواقعة بحدود الوسط الشرقى من منطقة البحرات الشرقية .

أما الحيوانات المستأنسة فهى ما ذكرت فى الباب الخاص بأنغولا . وقد شرع البلجيكيون من عهد قريب فى استئناس الفيلة اقتداء بأهل الهند وغيرهم من أمم آسيا ، ولدى الحكومة من الفيلة الافريقية المستأنسة عدد صغير ، تقوم بعمل التجارب عليه .

لا يعلم المؤرخون الكثير من التاريخ القديم للجزء الغربى من القارة الأفريقية (الأوسط والجنوبى) كما لا يدرون أعَرِف الفينيقيون الذين أوفدهم فرعون مصر (راجع مصنفات المسيو جيان وڤيڤيان دى سان مارتان وغيرهما) هذه البلاد أى الكونغو

---

(1) Okapi (Okapia Johnstonii)

(2) Bongo or Isaac's antelope (tragelaphus boocerus) ويسمى المَرَوا

وأنغولا وداماراالاند وغرب مستعمرة الكاب وغيرها من البلاد الشمالية الغربية أم بلغت اليها بعثة هانون القرطاجي التي استكشفت جزءا من غرب القارة الأفريقية قبل الميلاد بخمسة قرون تقريبا أم وصلت هذه البعثة الى مصب نهر الكونغو ، بناء على قول بعض الجغرافيين والمؤرخين ، أم انثنت على أعقابها من نقطة أخرى ربما كانت هي سيراليونه ، بناء على ما زعمه آخرون . أما اليونانيون والرومانيون فليس هناك ما يدل على علمهم بهذه البقاع ، حتى عهد هجرة قبائل البانتو اليها فما هو معلوم لبعض العلماء المؤرخين الباحثين في هذا الموضوع ليس بالحقيقة الجازمة التي يحسن الوقوف عليها . اذا فتاريخ هذه البلاد لا يبدأ إلا من عهد البانتو والعهد العربي . ولذا يحسن العود الى من سبقنا في هذا البحث .

تاريخ الكونغو الحديث

عن البرتغاليين وعن البلچيك

مقتبس من تأليف المسيو چاك پيرين (١) – بروكسيل سنة ١٩٢١

كان ملك البرتغال ألفونس الخامس قد اختص نفسه بحق الملاحة فيما وراء رأس بخادور منذ سنة ١٤٧٤ ميلادية، ولكنه بالرغم من حصول هذا الملك على الصكوك والمواثيق التى تعزز هذا الحق مصدقا عليها من البابوات نقولا الخامس وكاليكست الثالث وسكست الرابع فقد كانت سفن غير البرتقاليين من الأمم الأخرى تمخر عباب المحيط الاطلنطى للبحث عن خيرات الشواطئ الإفريقية وبخاصة منها الذهب .

وكان أكبر مزاحم للبرتغاليين وقتئذ هم الاسبانيين . غير أن الفريقين اتفقا فى سنة ١٤٨٠ من الميلاد على أن يكون للاسبانيين حق امتلاك البلاد الواقعة فى شمال جزر كناريا . أما البرتغاليون فكان زعمهم امتلاك كل البلاد الواقعة الى جنوب الحد المذكور .

وبعد وفاة الملك ألفونس الخامس خلفه ابنه الملك جان (حنا)، فصار هذا على خطة سلفه هنرى الذى اشتهر بلقب "الملاح" (٢)، اذ جهز عدة تجريدات بقصد الاستكشاف فى الجهات الجنوبية، وجعل احداهما بقيادة "ديجوكام" (٣) . فسافر هذا الربان فى سنة ١٤٨٢ ومر برأس القديسة كاترينة (أى رأس لوپز) وهى التى يظن أنها أقصى نقطة وصل اليها السيّاح بحرا من قبله .

---

(1) Jacques Pirenne.

(2) Henri le Navigateur,

(3) Diego Cam.

ثم وصل الى مصب نهر الكونغو، فوضع بهذا المكان حجرا عاليا تخليدا لذكرى وصوله واستيلائه على هذه النقطة بناء على أمر ملكه . وكان البرتغاليون ينصبون أيضا صليبا من الخشب فى كل نقطة يرسون عليها لأول مرة و بقى منها الى يومنا اسم النقطة المعروفة برأس كروس . ثم أوغل فى النهر المعروف بهذا الاسم فوصل الى مكان قريب من قرية متادى ورسا بسفنه أمام شلالات يلالا . وشرع فى مفاوضة سكان تلك البلاد، فعلم منهم أن ببلاد الكونغو ملكا عظيم الصولة شديد البأس فأوفد كام اليه بعض رجاله يحملون الهدايا الفاخرة وأبحر هو قاصدا الى الجهات الجنوبية فوصل الى النقطة التى عرفت فيما بعد باسم سانت مارى . ثم عاد الى مصب نهر الكونغو منتظرا عودة رجال الوفد غير أنه ضجر من تأخرهم فتركهم وشأنهم ثم عاد الى بلاد البرتغال . وكان فى صحبته أربعة من أمراء الزنوج أو مشائخهم بمثابة الرهائن وكان قد وعد أهليهم بالعودة بهم اليهم بعد خمسة عشر شهرا ليقايض عليهم برجال وفده .

وفى خلال ذلك وصل الوفد الى مقر الملك نزينغا فى بلدة على قمة جبل قائم بين الكونغو وكوانغو وتسمى الآن بمدينة سان سلفادور، فأكرم الملك وفادتهم وأحسن معاملتهم . وكانت سلطة الملك نزينغا قاصرة على بعض ضفاف نهر كوانغو ثم امتدّت من ناحية المغرب حتى تناولت كثيرا من بلاد هى عبارة عن الإقليم الكبير الواقع بين نهر الكونغو (أو الزائر) ونهرى كوانغو وكوانزا .

وكانت الأراضى الشمالية الواقعة بجهات كاكونغو وكوانغو تحت حكم بعض أقاربه وخاضعة له أيضا بحكم هذه التبعية .

فلما درى الملك بما فعله البرتغاليون من الاستيلاء على أربعة من رعاياه بمثابة الرهائن احتدم غيظه وأمر بإبعاد رجال الوفد البرتغالى وتوعدهم بالموت اذا لم يعد كام البرتغالى بمن أخذهم معه الى مواطنهم .

وعند حلول سنة ١٤٨٥ عاد ديجو كام الى الكونغو وأنزل الى البر الأربعة الزنوج وأخذ على ظهر سفنه رجال الوفد . وكان بصحبته فى هـذه الرحلة مارتان بى هان (Martin Behain) ثم أقلع قاصدا الى الجنوب . وليس يدرى أحد أمات ديجو كام عقب وصوله الى رأس كروس (الصليب) وهو الرأس الواقع على ساحل أنغولا البرتغالية أم عاد ثانيـا الى مصب نهر الكونغو . وعلى كل حال فقد عادت السفن الى مصب هـذا النهر وسار وفد آخر منها لمقابلة الملك نزينفا، فنجح رجال الوفد فى تنصيره . وبعد ان كان واجدا على البيض (الفرنجة) أصبح معجبا بهم، وأوفد الى ملك البرتغال وفدا برياسـة أمير من الزنوج يسمى كاسوتو يطلب من ملك البرتغال الكاثوليكى أن يوافيه ببعثة دينية كاثوليكية . ولقد وصل هذا الوفد الى بلاد البرتغال فأكرم الملك مثوى رجاله وحضر هو والملكة حفـلة تنصيرهم . وقد كان ذلك فى سنة ١٤٨٩ وفى سنة ١٤٩٠ عاد الأمير الزنجى (كاسوتو) الذى تسمى بهذه المناسبة غونسالودى سوزا الى أفريقيه تصحبه بعثة مؤلفة من عشرة آباء فرنسيسكان ويحمل هدايا للملك، غير أنه توفى فى الطريق فترأس على الوفد بعدئذ زنجى آخر كان قد تسمى باسم روى دى سوزا ، فلما وصل الوفد ومثل بين يدى الملك الزنجى رحب برجاله وأقام حفلة رسمية للتنصـير شهدها هو وزوجته وأقاربه ورجال حاشيته . ثم غير اسمه باسم دون جواو أما الملكة فسميت باسم دونا أليونورا .

وعلى هذا النحو علت منزلة البرتغاليين لدى هذا الأمير وبخاصة حينما أعانه رجال الوفد الفرنجى على صدّ هجوم قبيلة البانيكيس التى تستعمل فى قتالها الأسلحة النارية وبعـد مدّة قصيرة سافر الزنجى روى دى سوزا الى بلاد البرتغال مصحوبا ببعض الزنوج للوقوف على أسرار المدنية الأوروبية وعجائبها .

ولكن ثانى أبناء الملك الزنجى المتنصر ، وهو الأمير نيانزا ، آثر البقاء على عقيدته القديمة . فلما مات أبوه قام خصام بين فريق المتنصرين والفريق الآخر فتغلب الأمير دون ألفونسو على أخيه بمساعدة البرتغاليين له ودمر الأصنام واستعاض منها بالصور الكنيسية . وثبتت قدم البرتغاليين فى البلاد و بلغ من تبادل الثقة بين البلدين أن ملك البرتغال كان يسمى الملك الزنجى بالأخ و يوفد اليه الصناع والقضاة والخيل والبغال ويقيم الكنائس ببلاد الكونغو كما كان الملك الفونس الزنجى يقلد ملك البرتغال فى العادات وكان يلقب رجاله بألقاب الشرف الفرنجية .

وفى خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ساد نفوذ البرتغاليين على هذه الأمارة . وجاء اليها الأطباء والصيادلة والتجار من برتغاليين وايطاليين واسبانيين وألمانيين وازداد عدد القساوسة وفى كل مكان أقيمت الكنائس . وكان بجوار قصر الملك الزنجى عشر منها وسميت مدينته باسم سان سلفادور .

وفى سنة ١٥٣٠ أرسل الملك الزنجى بعثة من الشبان الى لشبونة (Lisbon) لتلقى العلوم والفنون وأوفد وفدا الى البابا بولس الثالث .

وكان ملك البرتغال قد ندب الضابط جورج ديكادرا فى مهمة اختراق القارة الإفريقية . ولكن رجال الادارة فى الكونغو حالوا بينه والابتعاد عن سان سلفادور . لأن الاهتمام بالمشروعات العلمية كان مهملا لدى البيض هناك وكان أجل قصدهم الاتجار بالعاج . والنحاس والنخاسة .

وقد توفى الملك الزنجى دون ديجو فى سنة ١٥٤٠ فثارت ثائرة الخلاف على الملك بين ثلاثة من رجال بيته وانتهى الأمر بأن رجحت كفة أحدهم المسمى دون هنرى بفضل معاضدة البرتغاليين وحاول أحد القساوسة قتل الملك فنشأت من ذلك

مذبحة مات فيها جملة من البرتغاليين، إلا أنه لم يقع أقل تعد على من كانوا بينهم من رجال الدين .

ثم قتل دون هنرى فى معركة سنة ١٥٤٢ وخلفه دون الثاريز الأول فاستدعى البرتغاليين اليه ، ولكن العلاقات معهم لم تحسن على الوجه المرغوب فيه فأوفد الى ملك البرتغال وفدا ليبسط له الشكوى من سوء مسلك البرتغاليين وشناعة ما يأتونه من الظلم الفادح فى البلاد .

وكان من نتائج المذابح التى وقعت فى سنة ١٥٤٠ أن أمسكت البرتغال عن إرسال البعثات الدينية الى الكونغو فضعفت شوكة النصرانية فى البلاد وتضعضعت أحوالها وأخذ الأهلون ينظرون الى الأوروبى تاجرا لا إلّ له ولا ذمة، ليس غير. وحدث بعد ذلك أن الزولو من قبيلة جاجاس أغاروا على البلاد، وأن تحيفها الطاعون ومسها القحط ففر الملك الى جزيرة فى النهر واستغاث بالبرتغاليين فجاءهم من بلاد البرتغال عام ١٥٧٠ مدد مؤلف من ستمائة مقاتل تمكن به من صدّ غارة أعدائه وفى مقابل هذه المعاونة تنازل للبرتغاليين عن أنغولا فأسس هؤلاء فيها مدينة سان پول دى لواندا، وهى الآن عاصمة هذه المستعمرة . وفى ذلك الوقت هبط أرض الكونغو جماعة من الألمان للبحث عن الذهب فأوقف هذا الحادث تيار الأفاقين المجازفين فى تلك الأصقاع، وتحولت أنظار الأوروبيين الى ناحية البرازيل، وكانت قد استكشفت حديثا، ولكن وفد على بلاد الكونغو بعد ذلك مائتان من الفلمنك إلا أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا الى بلادهم . وكان البابا كليمان الثامن قد أنشأ فى الكونغو أسقفية خاصة، ولكنها نقلت فيما بعد الى سان بول دى لواندا .

ولما ازدادت عناية الأوروبيين بالقارة الأمريكية حل محل التجار وغيرهم من البيض فى القارة الأفريقية أولئك الأشخاص الذين كانوا يشتغلون بالنخاسة بقصد تشغيل الأرقّاء بالقارة الجديدة .

ومنذ القرن السادس عشر كان البرتغاليون يستحصلون على الأرقاء من جهات الكونغو فنظر الأهلون اليهم منذ هذا الوقت بعين العداوة والحذر . وقد حدثت ثورة فى جهة سونهو سنة ١٦٢٨ ، وكانت طائفة من الانجليز والهولنديين يقيمون فى رأس بدراو، فأعانوا الزنوج على البرتغاليين وحصلوا بهذه الاعانة على استقلالهم الذى اغتصبه منهم البرتغاليون، ولكن البابا أوربان الثامن بقى مصما على الجد فى تنصير سكان البلاد فواصل ارسال البعثات الدينية تباعا اليها وحدث خلاف بين المبعوثين والقساوسة فأعان الزنوج هؤلاء على أولئك وأخرج الآباء المبعوثون (Cajuins) مدحورين من البلاد وضعفت النصرانية بخروجهم .

وكان البرتغاليون يسرفون فى الاسترقاق لأن العالم الأوروبى كان يعتبر الزنوج بضاعة تأسست شركات عديدة للاتجار بها وأصبحت سان بول دى لوندا ثغرا مهما يستورد النخاسون منه الزنوج لمبيعهم . وكان إقليم الكونغو الجنوبى وكذا كوانغو وكوانزا ميادين لاصطيادهم وأسرهم . وكان أكثر الناس خطرا على هؤلاء الزنوج المساكين مساكنوهم المستولدون من برتغاليين ووطنيين (راجع فى ختام هذا المجلد رسالتى الخاصة بالزنوج وعنوانها السود والبيض) وقد بلغ عدد الزنوج الذين صدروا كالبضاعة الى مدينة لشبونة عاصمة البرتغال دون سواها من عشرة آلاف زنجى الى اثنى عشر ألف فى مدة عام واحد، فليس بغريب بعد هذا أن يقل عدد الزنوج فى أفريقيا الوسطى الى درجة أن عددهم بهذه المدينة فى أواخر القرن الثانى عشر بلغ الخمس من سكانها .

وقد ظلت الحال على هذا المنوال مدة من الزمن انقضت بانقضاء القرن الثامن عشر . وعندئذ بدأ عهد الاستكشاف بداخل أفريقيا فكانت رحلة البرتغالى لاسردا الذى استكشف جهات شمبيزى التى بقيت مجهولة حتى ذلك العهد،لأن البرتغاليين

لم يتجاوزوا شلالات يلالا . ثم رحلة الكبتن تونى الانجليزى الذى استكشف فى سنة ١٨١٦ الجزء الجنوبى من الكونغو الى أزانجلا التى وضعت خريطتها الجغرافية سنة ١٨٢٦ بمعرفة الكابتن أون، ثم رحلة مونتريو وغميتو البرتغاليين فقد وصلا سنة ١٨٣٢ الى لوابولا، فرحلة البرتغالى غراسا الذى انتهى فى سنة ١٨٤٣ الى الجزء الجنوبى من نهر الكونغو ماراً من شمال الكساى واستكشف إمارة لوندا الزنجية، وفى سنة ١٨٥٠ وصل الرحالة مجار الى القسم الجنوبى من الكونغو .

ومنذ سنة ١٨٤٤ أصبحت بلاد الكونغو الطريق الذى سار عليه بعض المستكشفين الذين كانوا يبتغون الاهتداء الى ينابيع نهر النيل والى جبال القمر . وقد وصل اليها الرحالة لفنجستون الشهير عابرا القارة من الجهة الشرقية اذ بلغ الى بحيرة ديلولو ثم الى منابع نهر كوانغو وكان ذلك سنة ١٨٥٤ ثم استكشف بحيرة مويرو سنة ١٨٦٧ ثم بحيرة بنجويلو فى سنة ١٨٦٨ ثم جنوب بحيرة تنغانيقا فى سنة ١٨٦٩ ووصل بعد ذلك الى الكونغو فى جهة نيانجوى فى سنة ١٨٧١ وانقلب بعدئذ الى أوجيجى .

واقتفى أثر لفنجستون الرحالة كامرون اذ اجتاز بحيرة تنغانيقا . واستكشف نهر لوكوجا الذى يوصل البحيرة بالنهر . ثم قصد الى لومامى صاعدا فوصل الى كزالى وعرج على جهة المغرب فاستكشف جهات أوروا ولوندا وكان ذلك فى سنة ١٨٧٤ وجاء من بعده كل من الدكتور پوج وهومير والقومندان لوكس فوصلوا الى مستقر ملك لوندا وأوغلوا فى جهات أوبانجى العليا .

وفى سنة ١٨٧٠ قدم الدكتور شوينفورث من الخرطوم فاستكشف مجرى الويلى واتصل بالزنوج المعروفين باسم مونبوتو وتلاه الايطالى ليامى الذى بلغ

فى سنة ١٨٧٢ الى بوموكاندى فالدكتور بوتاغوس الذى وصل فى سنة ١٨٧٦ الى بومو .

وبينما كانت هذه الاستكشافات تتوالى فى الجهات الشرقية من بلاد الكونغو كانت الهمم منصرفة الى تأسيس الشركات التجارية فى أرجاء الكونغو الجنوبى ، ففى سنة ١٨٥٨ تأسست شركة الريجى الفرنسية لجهات مصب النهر واقتدى بهم الهولنديون فى سنة ١٨٥٩

وفى سنة ١٨٧٣ أنشأت شركة برتغالية مصنعا بجهة أنوكى وفى سنة ١٨٧٤ جاء غراندى اخوان يبحثون عن لفنجستون وصعدوا فى نهر الكونغو ولم تفض الجهود التى بذلوها الى ثمرة ما .

وفى السنة نفسها وصلت بعثة ألمانية برياسة غوسفلد للبحث فى حالة سواحل لوانجو . وفى سنة ١٨٧٥ جاء الكابتن مرلكوت والقومندان قلود فرسما أول خريطة طوبوغرافية لمجرى النهر ومصبه .

وكان التجار قد أخذوا يوغلون من ناحيتى الغرب والشمال فى أرجاء البلاد للبحث عن الخيرات وبخاصة منها العاج والأرقاء من الزنوج .

وفى سنة ١٨١٦ لما وصل توكى الى جهات الكونغو الجنوبى وجد بها طائفة من النخاسين من رعايا البرتغال وكانوا يصدرون من الأرقاء الزنوج فى كل عام ما يربو عددهم على الألفين .

وفى سنة ١٨٠٧ أخذت انكلترا تفكر فى الغاء الرق فعقد فى سنة ١٨١٥ مؤتمر لهذا الغرض بمدينة ڤيينا (Vienna) ، وفى سنة ١٨٢٢ عقد مؤتمر آخر فى فرونا (Verona) ، وفى سنة ١٨٢٦ لم تبق دولة من دول أوروبا كانت تمارس النخاسة

إلا وعدلت عنها رسميا، ولكن الاتجار بالرقيق ظلت أسواقه نافقة، مع ذلك، بالساحل الإفريقي الغربي حتى سنة ١٨٦٨ بالرغم من مطاردة السفن البريطانية لمراكب النخاسين. وضبطت احدى السفن الانكليزية سفينة للنخاسين في تلك السنة، إلا أن هذا لم يعقهم عن الاستمرار في تجارتهم شمالا وشرقا بل وفي وسط القارة.

وفي سنة ١٨٥٠ ظهر رجل من الزنوج عربي الأصل باسم تيبوتيب وحقيقة اسمه هي حميد بن جمعة المرجبي وكان ابن تاجر ميسر من سكان زنجبار فجمع حوله الجموع وعظمت شوكته وامتد نفوذه وعلت كلمته. وفي سنة ١٨٦٧ أقامه سلطان زنجبار حاكما على كوسونغو، وهو أهم مركز بأفريقية الشرقية. وفي سنة ١٨٦٨ ظهر مولد آخر يدعى دوغومبي فأقام بنياجوى فأصبح هذا الموقع فيما بعد مركز أعمال تيبوتيب المذكور، ومنه امتد نطاق حكمه حتى تناول بلاد الكونغو والشلالات ووادى لومامى واقليم أوروا.

تلك كانت الحال في بلاد الكونغو الى أن جاء بها استانلى (Stanley) في سنة ١٨٧٤ موفدا من ادارة جريدتى نيو يورك هرلد والدايلى تلغراف.

بداية العهد البلجيكى

فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ عقد الملك ليوبولد البلجيكى فى قصره بمدينة بروكسيل مؤتمرا جغرافيا رمى به الى تعضيد المستكشفين على إتمام استكشاف القارة الأفريقية والغاء النخاسة فيها . وقد حضر المؤتمر مندوبو ألمانيا وانكلترا وفرنسا والنمسا وايطاليا والروسيا وبلجيكا . فألقى الملك خطبة قال فيها إنه يضع زمام الاستكشاف فى يد أصحاب الهمة والإقدام وأشار الى ضرورة التعاون لمساعدة السياح على تحقيق أمانيهم . وأرشد الى ضرورة إنشاء مراكز دولية لضيافة السياح ومعاونتهم فى تلك الجهات ، فأقرّ المؤتمر هذا الرأى . وكان فى مقدمة المراكز المزمع انشاؤها فى غاموجو على الساحل الشرقى ، وسان پول دى لواندا على الساحل الغربى من القارة الإفريقية ، وأوجيجى ونياجوى ثم فى إمارة لواندا دون تعيين جهة خاصة منها ، مع ايجاد المواصلات المستمرة بين هذه المراكز وفتح طرق للوصول الى الجهات الشمالية والجنوبية . وتحقيقا لهذا المشروع ألف مؤتمر بروكسيل جمعية دولية للاستكشاف وبث الحضارة والعمران فى أفريقيا وكانت هذه الجمعية مؤلفة من أعضاء مختلفين برياسة رئيس الجمعية الجغرافية وتحت رعاية الملك ليوبولد الثانى . ثم لجنة ادارية مستديمة تحت رياسة الملك أيضا ، ثم اللجان الدولية المشكلة فى كل دولة . وشرع فى عمل اكتتاب عام ببلجيكا ، وتقرر أن تسير البعثات التى تقوم بالاستكشاف على الدروب التى سار العرب عليها من قبل ، وهى التى تبتدئ فى بُجُويو (Bogmoyo) الواقعة تجاه جزيرة زنجبار حتى تنتهى الى بحيرة تنغانيقا وعهد بالرحلة الأولى الى اللجنة البلجيكية .

وقد صنع علم خاص للجمعية الدولية وهو علم أزرق تتوسطه نجمة ذهبية فسافرت التجريدة البلجيكية الأولى بقيادة الملازم كامبى وأسست محطة كريمة فى سنة ١٨٧٩ ثم سارت تجريدة استورمس وأسست محطـة أمبلا . أما ارساليات بوبلن وكارتر وكادنهيد ثم رمكس وبيكر ودهانيس فى سـنة ١٨٨٤ ، فانها لم تأت بنتيجة يحسن الوقوف عليها .

وفى سـنة ١٨٨٠ أوفدت اللجنة الفرنسية عضوا منهـا يسمى بلوتب فأسس فى سـنة ١٨٨٠ كوندوا وعقبه دى برازا الذى أوغل فى جهـات أوغوى وأسس المستعمرات الفرنسية بجهة غابون والكونغو الفرنسى . ومن بعد ذلك جاءت اللجنة الألمـانية فأوفدت كلا من بوهم وريشارد وأنشأت فى سنتى ١٨٨١ و ١٨٨٤ مركز كاكوما ثم نفذت الى جهة كاتانغا ونادت بملكية ألمـانيا للجهة الشرقية من القارة الإفريقية .

وكان الرحالة استانلى الشهير قد وصل الى بوما سنة ١٨٧٧ آتيا من بجويو وكان رحيله عنها فى سـنة ١٨٧٤ فمر ببحيرات فكتوريا وألبرت ادوارد وتنغانيقا والتقى بتيبوتيب فى نيانجوى وسأله أن يرافقه على طول النهـر فى مقابل مبلغ يقدمه اليـه وهو خمسة آلاف ريال أمريكى ، غير أن تيبوتيب (حميد بن جمعة) قد تنحى عنه فاضطر الى محاربة قبائل بازكوس والبنغالاس حتى وصـل الى الشلالات المعروفة الآن باسم ستانلى فول ثم وصل الى بوما بعد أن ظل خمسة أشهر متنقلا فى الغابات ، وقد مات رفقته البيض فى الطريق ومات معهـم عدد كبير من الزنوج التابعين له .
ولمـا انتشر فى مدينة بروكسل خبر وصول استانلى الى بوما تقرر العدول عن طريق زنجبار وبجويو والسير منذ الآن من طريق بوما وتبانا . ولمـا وصل استانلى الى مرسيليا سنة ١٨٧٨ أرسل اليه الملك ليوبولد يدعوه الى الاشتراك فيما اعتزم تنفيذه

فى المستقبل من المشاريع الهامة ولم تكن النية فى هذه المرة منصرفة الى الاستكشاف فقط بل أيضا الى انشاء مملكة بل دولة . وقد عرض ملك البلجيك على استانلى الرياسة على بعثة يراد بها وضع المشروعات الاقتصادية والسياسية وتأسيس مراكز للاحتلال على طول مجرى نهر الكونغو . وأراد استانلى اشراك أمريكا وانجلترا فى المشروع لأنه كان يرمى الى جعل الكونغو مستعمرة انكليزية .

غير أن حكومتى انكلترا والولايات الأمريكية لم توافقا على هذا المشروع لخوفهما من فشله ، عندئذ رضى استانلى بما اقترحه عليه الملك ليوبولد . وجهزت الحملة فى السر وعلى وجه السرعة وكان ذلك فى أغسطس سنة ١٨٧٨ وألفت شركة تجارية بلجيكية باسم شركة المباحث فى أعالى الكونغو . وفى أوائل سنة ١٨٧٩ قصد استانلى الى زنجبار حيث حشد الجنود وجمع رهطا من الحمالين ثم عاد الى أوروبا ومنها الى بوما فوجد بها ثلاثة عشر من الرفاق منهم أربعة بلجيكيون وثلاثة انجليز وثلاثة أمريكيون واثنان دنمركيان وفرنسى واحد . ووجد فيما عدا هذا اللفيف من الرفاق سفنا تجارية صغيرة لتحمله الى وسط إفريقية . وفى أغسطس سنة ١٨٧٩ أخذت الحملة تسير صعدا فى النهر ، ففى سبتمبر وصلت الى نوجى التى هى آخر حد وصل اليه الأوروبيون ثم حطت رحالها عند الشلالات . عندئذ أسس استانلى مركز فيفى ونقل سفنه برا الى شلالات استانلى . وفى يناير سنة ١٨٨٠ وصلت الحملة الى ايزانجيلا .

وفى أول مايو أنشئ مركز مانيانغا وفى ديسمبر وصلت التجريدة الى استانلى فول وكان دى برازا قد خرج من غابون اليها . ومن الجهة الجنوبية كان البرتقاليان كابللو وإيفانس قد سافرا من سان پول دى لواندا فاستكشفا كوانغو ، وبعد اذ خيف من تعذر جعل الكونغو بلجيكيا بحتا . وكان استانلى قبل وصوله الى

استانلى فول يخشى أن يجد الأعلام الفرنسية والبرتغالية مرفوعة على النهر لتحول دون امتلاك البلاد باسم الملك ليوبولد . ولكن البرتغاليين لم يتعدوا حدود منطقتهم كما أن برازا لم يتمكن من عبور النهر، لأنه لم يكن يملك سفنا، فتيسر لاستانلى بذلك الاستقرار بالشاطئ الجنوبى حيث أسس مدينة ليوپولد ڤيل .

وأنشئت بعد ذلك مراكز عديدة فيما يلى استانلى فولز . وكانت بلجيكا توافى هذه الحملة بمندوبين وموظفين ليقوموا بالأمر فى البلاد الجديدة . وكان مندوبو الدول الأخرى يخترقون أنحاء القارة من نواحى أخرى ، فقد كان طومش فى سنة ١٨٨٠ يستكشف ينابيع شامبيزى ولوكوجا العليا. وكذا فون ميشو كان يستكشف نهر الكوانغو، وويسمن و بوج كانا فى سنتى ١٨٨١ و ١٨٨٢ يستكشفان جهات الكساى وكذا جيرو فى سنة ١٨٨٣ وبون وريشارد فى سنتى ١٨٨٣ و ١٨٨٤ وجونكر فى أويلى الشمالية وجهات أرويمى بين سنتى ١٨٨٢ و ١٨٨٤

اذن كان من المحتوم حماية المشروع البلجيكى من أثر المزاحمة الأجنبية . وحينما عاد استانلى الى أوروبا فى سنة ١٨٨٢ سميت اللجنة باسم اللجنة الدولية للكونغو وأعلنت مقصدها السياسى، فسافر استانلى كمندوب سياسى .

ومن ذلك العهد صارت اللجنة المذكورة تتصرف تصرف حكومة حقيقية وتعقد محالفات مع أهل البلاد وتحصل منهم على عقود تنازل لها عن بعض الجهات .

وأخذ المندوبون البلجيكيون المقيمون بالكونغو ينظمون فيها هيئة حكومية. وكانت البرتقال تعارض فى ذلك مرتكنة على أنها أول من استكشف الكونغو وأقام بها وطالبت بالقسم الواقع بين مصب النهر ونوجى . وكانت انكلترا تعضد

البرتغال وتؤيدها حتى أن اللورد غرنفيل أمضى فى سنة ١٨٨٤ باسم حكومته وثيقة اعترف فيها للبرتغال بملكيتها للكونغو الأسفل .

ولقد اعتبرت حكومة البرتغال هذه البقعة ملكا لها بناء على ذلك . ومن جهاتها وأقاليمها كابندا ولندانا وبنانا وبوما ونوجى .

أما الشركة البلجيكية فكانت تبذل الجهود لتوسيع نطاق الاحتلال وكلفت فى سنة ١٨٨٢ الكبتن غرانت أليوت باحتلال وادى كويلو فأسس عدّة مراكز وأوصل منيانفا وفيفى بنقطة مسب الواقعة بالشاطئ ليتصل بالبحر وليتمكن من الوقوف فى وجه كل معترض من البرتغاليين .

أما استانلى فقد توجه فى سنة ١٨٨٢ الى الكساى ومفينى واستكشف بحيرة ليوبولد الثانى وفتح طريقا جديدا للملاحة يفضى الى وسط البلاد .

وأسس الكبتن هنسنس فى سنة ١٨٨٣ مدينة فليفيل ، وفى شهر ديسمبر منها خضع له رؤساء القبائل المجاورة ، فتيسر له بهذا الحادث انشاء نقط مايونبا ونيانفا وستيكاما ، وكثر عدد المراكز الجديدة على طول نهر الكونغو زيادة مدهشة ، وأسس الملازم فان جيل فى تلك السنة مدينة اكواتورفيل ؛ وأنشأ استانلى النقطة المهمة المعروفة باستانلى فولز ، وأنشأ كوكيلهات فى عام ١٨٨٤ نقطة بنغالا . وبالرغم من وجود ذلك الاتفاق بين انكلترا والبرتقال تعاقد دل كومون مع رؤساء القبائل بجعل مركز بوما تحت حماية الشركة الدولية البلجيكية . وفى العام نفسه أوغل الملازم ويسمن فى أصقاع لوندا وأسس نقطة لولوابورج فجاء دى برازا الفرنسى يدعى باسم فرنسا ملكية حكومته للضفة الجنوبية من النهر تجاه نقطة استانلى بول .

ولكن تمكنت الشركة أو اللجنة البلجيكية من توسيع نطاق حكمها بكيفية مدهشة ففى مدة خمس السنوات عقد رجالها خمسمائة معاهدة تقريبا بينهم ومشايخ

الزنوج وأسست أربعون نقطة بين مصب الكونغو واستانلى فولز ومن بنغالا الى لولوابورج ، وكان لها خمس سفن تسير فى هذا النهر .

وكان أميل بانتج مبتكر هذه الفكرة الخطيرة يلح على ليوبولد الثانى بمقاومة فرنسا والبرتغال بتحويل هذه الشركة الى حكومة فترفع بلجيكا علمها على النقط المنشأة وتدخل فى مفاوضات سياسية مع جارتها .

وكانت الولايات المتحدة بأمريكية أول من اعترف بعلم الشركة البلجيكية لحكومة موالية لها .

وتعاقدت الشركة مع الحكومة الفرنسية على شرط أن تعترف لها بحقها فى ملكية الأصقاع الإفريقية ، وانما تفضل فرنسا على غيرها اذا عرض للشركة يوما أن تصفى أعمالها ، وحددت التخوم بناء على ذلك ، وشرعت بلجيكا فى الحصول على مصادقة ألمانيا ولكن الغرف التجارية فى انكلترا وهولاندا وألمانيا عارضت فى تدخل البرنس بسمرك فى الأمر ، مع أن بسمرك كان يدعو فرنسا الى عقد مؤتمر لحسم النزاع فى أمر الكونغو . وكان يبدى رضاه من أن البلجيكيين يرغبون فى إنشاء حكومة مستقلة فى الكونغو . وفى ٨ نوفمبر سنة ١٨٨٤ اعترف بسمارك بسيادة اللجنة الدولية على الكونغو ، وفى اليوم نفسه دعت ألمانيا مندوبى الدول الى الاجتماع فى برلين للبحث فى المسألة الإفريقية وكانت نتيجة أعمال المؤتمر الذى عقد الاعتراف بالحكومة الجديدة (٢٣ فبراير سنة ١٨٨٥) .

بقى أمر واحد وهو تعيين المتصرف فى شئون هذه الحكومة وفى هذا الصدد اعترف مجلس نواب بلجيكا فى ٢٨ أبريل من تلك السنة للملك ليوبولد وبصفته الشخصية البحتة بحق الملكية على حكومة الكونغو المستقلة .

وفى ١٩ يوليو أعلن دستور الحكومة المستقلة لمدينة بتانا، وفى أول أغسطس أبلغ ليو بولد الثانى الى الدول خبر ارتقائه الى عرش الكونغو رسميا، وفى اليوم نفسه أعلن حياد الحكومة الجديدة وعين حدودها . وقد أعقب هذه المقدمات بذل جهود ومساع وعقد اتفاقات خاصة واجتماع مؤتمرات دولية ثم شب ضرام الحرب الكبرى عام ١٩١٤ فكان أهم ما وقع من الحوادث فى خلال هذه الفترة الزمنية أن قضى البلجيك على نفوذ العرب، وأن حاربوا تيبوتيب الآنف الذكر وخذلوه، ثم وقائعهم العديدة مع رؤساء القبائل والأمراء الزنوج وتوسيع نطاق حكمهم، ثم تأسيس الشركات وإنشاء الطرقات والسكك الحديدية وتسيير السفن البخارية فى الأنهار والبحيرات واستثمار خيرات البلاد من معادن وغيرها، ووضع نظام جديد للأهالى وتحديد سلطة الرؤساء الزنوج وعقد معاهدات معهم تلزمهم الخضوع للسلطة المحلية، الى غير ذلك مما كان يهم المستعمرين عمله تعزيزا لمصلحتهم وتوطيدا لمركزهم.

أما البلاد التى بقيت فى حوزة العرب فأولها نقطة شلالات ستانلى أى استانلى فولز (راجع رحلتى الى هذه الشلالات) ثم نقطة أخرى ذات شأن فى لومانى . وكانت لهم نقطة حصينة تجاه أورينى على مسافة ماية كيلومتر غربا بوادى الويلى . وكان إخراج العرب فى تلك الجهات بالتدريج وفى حروب عديدة متوالية . واقتفى أثرهم البلجيكيون حتى وصلوا الى النيل من جهة والى شرق بحيرة تنغانيقا من جهة أخرى .

وكان الزعيم العربى المحارب للفرنجة فى هذه الأصقاع يسمى سيفًا . أما فى ناحية شلالات استانلى فكان القائم فى وجههم يسمى راشدًا .

وكان روماليزا ملك أوجيجى فى طليعة المحاربين لهم أيضا . وكان فى نية الملك ليو بولد أن يفتتح للكونغو طريقا توصل تلك البقاع بالمحيط الهندى فعارضه الألمان

فى جهات تنغانيقا ففكر فى البحث عن طريق آخر من شمال هذه البحيرة بحيث يوصل الى دار السلام ، فلم يكن التوفيق رائده فى هـذا المشروع أيضا بالرغم من تقدّم قواته نحو الجهات الجنوبية من مديرية بحر الغزال . و وصل البلجيكيون الى كاتوا كا وحصلوا من حسين سلطانهـا على ترخيص باستخراج النحاس من مناجم حفرة النحاس، ثم وصلوا الى جهات الشارى وأخذوا يفاوضون رابحا الذى كان سلطانا على داربندا ودار كونغا والباجرمى و بورنو، وكذا بعض جهات بحيرة تشاد و بحر الغزال . وجعل البلجيكيون معسكرهم فى نقطة بيلى ، غير أن المفاوضات مع رابح لم تؤدّ الى ثمرة لجاءت انجلترا وفرنسا على أثر سقوط دولة المهدى تمانعان بلجيكا فى تقدّمها، فاستحصل ليو بولد من الانكليز على شطر من بحر الغزال على سبيل الايجار، وكذا ميناء مهاجى الكائنة على بحيرة ألبرت والضفة اليسرى للنيل من واد لاى ولادو الى فاشوده .

ونظـرا للصعوبات التى أقامتهـا فرنسا فى سبيله ا كتفت بلجيكا باقليم لادو الذى أعيد الى السودان المصرى بعد وفاة الملك ليو بولد . واحتل البلجيكيون نقطة الرجاف فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٧ وفى سنة ١٨٩٨ حدثت حادثة فاشودة المشهورة .

وفى سـنة ١٨٨٩ كانت الكونغو البلجيكية مقسمة الى اثنى عشر إقليما ولكل إقليم عاصمة . وكانت تسكن هذه البلاد قبائل مكونة من قرى تحت رياسة شيوخ مستقلين، وكانت القرى كلهـا تحت ريـاسـة شيخ القبيلة أو رئيسها وكان الشيخ أو الرئيس ينتخب من الأعيان . وكان عدد رجال القبائل المذكورة يبلغ فى بعض الأحيان مائة الألف ، غير أنه كانت توجد من ناحية أخرى إمارات أرفع من هذه القبائل شأنا وأعظم شوكة ، فقد كان موانايامفو ملكا على إقليم لوندا وكانت له مملكة عظيمة فى كساى وسنقورو ، وكان امسيرى قد اتخـذ لنفسه مملكة كبيرة

فى إقليم كاتانغا ، وكانت أقاليم لومامى ولوابولا فى قبضة العرب . أما الجهات الشمالية فقد كان سكانها من الزنوج المستعربة وكانوا أكثر تحضرا وتمدنا من غيرهم وكان سلاطينهم وأمراؤهم سلاطين وأمراء بمعنى الكلمة .

وصدر فى عام ١٨٩١ أمر عال بتأليف رياسات زنجية صغيرة ، ذريعة لمد نطاق سلطة الحكومة بواسطتها على الأهلين وجعل رؤسائها الزنوج نوابا عن الهيئة الحاكمة .

وبعد زوال حكم العرب فكر المستعمرون فى توزيع سلطتهم على المشايخ رجاء أن يكون فى ذلك نفع للحكومة وتعزيز لمصلحتها واستمالة لهم الى ناحيتها ، ولكن الحكومة لم تنجح فى هذا المشروع النجاح كله فبقيت أزمة الادارة فى قبضة العنصر الأبيض وقسمت الأقاليم الى مراكز ونواح .

وكان قد شرع منذ البداية فى التجنيد الاختيارى لتأليف جيش من الزنوج واعدادهم كلما مست الحاجة لمحاربة الثائرين من العرب . وتحول هذا النوع من التجنيد بعد ذلك الى التجنيد الاجبارى ، اذ كان يؤخذ من كل قرية أو قبيلة عدد يتناسب مع مقدار أفرادها . ولم تكن تضرب الضرائب بادئ ذى بدء ، اذ كانت الحكومة وملكها يقومان بالنفقات كافة من خزانتهما ، ففكر المستعمرون فى طريقتين : الأولى ، الضريبة النوعية من الحاصلات ذاتها ، والثانية الضريبة الإلزامية بالتشغيل الجبرى . وقد شرع فى تنفيذ الضريبة الأولى بالجهات التى من حاصلاتها المطاط (الكاوتشو) والعاج والضريبة الثانية بالجهات الصالحة للزراعة . ولما لم يتيسر الوصول الى النتيجة المرغوبة وهى توسيع نطاق الزراعة بكيفية محسوسة باشرت الحكومة الزراعة بيد رجالها وأنشئت إدارات للأملاك الأميرية

فى الجهات التى ينمو فيها شجر المطاط كبنغالا و إقليم خط الاستواء والمديرية الشرقية وجهات بحيرة ليو پولد والكونغو الأعلى . و بلغ إيراد الحكومة من ذلك أكثر من ١٧ مليونا من الفرنكات فى السنة . أما التجارة الحرّة فبقيت محدودة النطاق ولم يقبل البلجيكيون عليها إقبالا ظاهرا .

وتجاه الحالة نصح الملك ليو پولد بالسير على خطة أمريكا فى إقطاع الأراضى ومنح الامتياز للشركات . وعلى هذا النحو تشكلت الشركات الآتية وهى الشركة الأنفرسية وشركة أبير وشركة الأنجلو بلجيان ، الا أنه مما يستدعى الأسف أن بعض رجال الحكومة بدلا من أن يبقوا عمالا للحكومة ويسهروا على مصالحها ساهموا فى الشركات نفسها وأوجدوا لهم فيها مصلحة فاضطرب حبل الأمور واختل نظامها ونشأ عن ذلك ضرر بالغ بالمستعمرة ، وزاد الطين بلة أن الشركات سارت بين الزنوج بالظلم والاستبداد مما اضطر الحكومة الى الحلول محل تلك الشركات . وكان قد منح امتياز واسع النطاق لشركة كتانغا فنجحت نجاحا باهرا فى استخراج النحاس والزنك والذهب والماس والفحم . ثم منحت الحكومة الشركة المعروفة باسم الشركة الإفريقية العمومية امتيازا بجهة لادو وكان ذلك فى سنة ١٨٩٧

أما إقليم كساى الكبير فقد بقى مفتوحا للتجارة الفردية ، فتأسست بها سبع عشرة شركة ، واندمجت هذه الشركات أخيرا فى شركة واحدة عام ١٨٩١ وسميت باسم شركة كساى ، وكانت الحكومة تملك نصف الأسهم .

وبهذه المثابة كان ثلث البلاد احتكارا خاصا بالحكومة ، والثلث الثانى للشركات . على أنه كان للحكومة حصص فى أسهمها ، كما كان لها الثلثان من أسهم شركة إقليم كتانغا .

ونفذت مشروعات من هذا القبيل فى الجهات الواقعة على طول نهر الكونغو واستانلى بول وكساى وأرويمى . واهتمت الحكومة بالبحث عن المعادن فى ناحية كيلو فوجد فيها الذهب وجىء اليها بالعمال من جهة استانلى ڤيل .

وقامت بالمانيا وانكلترا اعتراضات على مشروع الحكومة فى منح الشركات تلك الامتيازات باعتبار أنها مخالفة لنصوص القانون الأساسى لحكومة الكونغو ثم سويت هذه المشاكل .

وقامت ضد بلجيكا اعتراضات واحتجاجات على افراط البلجيكيين فى التعدى على حرية سكان البلاد ومعاملتهم بالقسوة والظلم . وقال الانكليز إنهم سينشرون مجلة تذاع فيها ما يرتكبه الموظفون البلجيكيون من أساليب القسوة والشدة ضد الزنوج ، فرفع الموظفون البلجيكيون قضية ضد الذين وجهو اليهم هذه التهم أمام المحاكم الانكليزية . فحكمت المحكمة بمنع نشر المجلة وبرأت الموظفين المذكورين ، ومع ذلك فقد ألفت فى انكلترا جمعية لحماية الزنوج (ولعلها ما زالت مواصلة عملها الى الآن) ولقيت لها أنصارا حتى فى بلجيكا .

وكان الألمان أشد أعوان الجمعية الانكليزية فاتفق الطرفان على مشروع يراد به إزالة حكومة الكونغو المستقلة من عالم الوجود وتقسيم هذه البلاد بين الدول ذات الأملاك المجاورة لها . وفى الوقت نفسه أرسلت ألمانيا المدرعة بانطر الى أجادير من سواحل مراكش وأخذت تتدخل فى أمر الكونغو الفرنسى . ففكر الملك ليوبولد فى صد هذه الهجمة الدولية وأرسل الى الكونغو وفدا مؤلفا من ثلاثة قضاة أحدهم بلجيكى والثانى سويسرى والثالث ايطالى ، وسمح للجمعيات التى يهمها أمر الانسانية وتشتغل بحمايتها والدفاع عنها بإرسال مندوبين لتمثيلها ، وأرسلت انكلترا الى استانلى فيل وليوبولدفيل قناصل للاطلاع بواسطتهم على حالة الزنوج ومنعت

حكومة ايطاليا ضباط جيشها من الالتحاق بخدمة حكومة الكونغو وقامت فى البرلمان البلجيكى معارضات ضدّ تعيين ضباط بلجيكيين فيها .

وظهر تقرير البعثة بعد ذلك ومنه يؤخذ أنها أيدت تلك التهمة ضد الضباط أى استعمالهم القسوة فى التجنيد للجيش كما أيدها نحو الشركات التى تسخّر الزنوج فى أعمالها ، الى غير ذلك ، فاقتنع الملك ليوبولد بضرورة تحسين الحال اذ أصدر أوامر عالية باصلاح القضاء وجباية الضرائب وتحسين حال مشايخ الزنوج وتوطيد الأمن العام الخ .

كلمة لصاحب الرحلة — إنه بالرغم من الاصلاحات المتعاقبة لا يتعذر على أحد ملاحظة اتساع البلاد وأهمية مساحة مراكزها وصعوبة إشراف الرئيس أو الحاكم أو المدير على صغار الموظفين البيض لا سيما وأن طرق المواصلات غير كافية وهو ما يجب النظر فيه . وأنه ليحسن بدون ريب أن تقسم بعض مديريات الكونغو الى مديريتين والبعض الآخر الى ثلاث حتى يسهل للموظف العالى مراقبة الموظفين التابعين له بدقة أكثر وحتى يتيسر للزنجى أن يتصل بالمدير مثلا ليقفه على شكواه بكيفية أضمن مما هى الآن فى بلاد الكونغو وانغولا البرتقالية .

أما إلحاق الكونغو ببلجيكا ، فقد كان فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٨ اذ اعتبرت بلجيكا صاحبة السيادة على الكونغو بعد ان كانت السيادة للملك وحده ولمدّة حياته وضمت إدارة تلك البلاد الى وزارة المستعمرات .

وأدخلت اصلاحات عديدة على الادارة ، منها الاستبدال من الضريبة النوعية بالضريبة النقدية ، ونظمت حالة المشيخات فأصبح فى الكونغو ستة آلاف مشيخة وشرع فى إنشاء الطرق ومد التلغراف ونظمت ادارة البريد وادارة النقل والسفر .

أما السكك الحديدية فزيد على خط متادى — ليو بولد ڤيل — واستانلى ڤيل — بونتيرڤيل خط آخر بين كندو وكونغولا . وصار ايصال إليزابتڤيل بسكة حديد روديزيا ، وسكة حديدية أخرى بين بوما ولوكولا ، وشرع فى إنشاء سكة حديدية بين ألبرتڤيل وكنغولو توصل بين تنغانيقا ولوابولا ، ومزمع إنشاء سكة أخرى بين استانلى ڤيل وبحيرة ألبرت .

وقد استفادت أقاليم عديدة بهذا التحسين فأصبحت إليزابتڤيل مركزا لإقليم كثير المناجم المعدنية استخرج منها ما يربو وزنه على ٢٦٠٠٠ طن من النحاس فى عام ١٩١٧ ، كما استخرج الذهب من مناجم موتو وكيلوا ، وقدر ما استخرج فى سنة واحدة بثلاثة آلاف كيلو غرام . أما الشركات التجارية فقد زاد عددها ، وكان يوجد فى سنة ١٩١٨ ، ١٧٧٥ شركة ومحلا تجاريا ، قدرت رءوس أموالها بخمسمائة مليون فرنك بلجيكى .

وزادت تجارة البلاد فبلغت قيمتها العامة فى سنة ١٩١٣ ، ١٥٨ مليونا منها ٧١ مليونا للصادرات .

أما المحصولات الزراعية فقد زادت مقاديرها حتى بلغ الايراد من زيت النخل أربعة ملايين عام ١٩١٦ وايراد ثمر النخل فى العام نفسه ٢٢ مليونا وزادت حاصلات الكاكاؤ والبن والأرز وقصب السكر والقطن ، وبلغ الايراد من محصول المطاط ثلاثة ملايين فى عام ١٩١٦

ولما نشبت الحرب العالمية اشتركت فيها حكومة الكونغو ضد الألمان اذ أمدت فرنسا بستمائة وخمسين جنديا للحرب فى الكامرون ، وانكلترا بألف جندى فى روديزيا ، وحشدت جيشا آخر عدده عشرة آلاف مقاتل ضد الألمان

فى أصقاع تنجانيقا، وأعان الانكليز الكونغو فى محاربتها للألمان فاستولوا على كيفالى عاصمة رواندا بعد أن أغرقوا السفن الألمانية التى كانت فى تلك البحيرة ثم استولوا على أوزومبورا وكيويتاوى وكيفوما وأوجيجى وغيرها من النقط الألمانية فأوغل البلجيكيون حتى بلغوا الى تابورا .

يوما ٩ و ١٠ فبراير — تأخرت ثلاث سيارات بسبب حادث وقع لإحداها فقضيت هذه الليلة بدون مجاسد (ملابس الليل) بل بدون فراش ولهذا لم أغمض الطرف . وقد عزمت على الاستراحة غدا (١٠ فبراير) أما النبيلان فقد خرجا للصيد ومعهما على بك شريف وأما حسين بك إيبش (وهو الرجل الذى لا يكل ولا يتعب) فقد توجه الى آبا ثم الى فَرَج ليقضى لنا بعض الحاجيات وليحصل لنا أيضا على رخص بالصيد . وقد عاد النبيلان دون أن يصيدا شيئا ثم إن الصيد غير مستطاع حول مكاننا لتكاثف الحشائش فيه ولأنها لم تحرق فكان اذا رفع الصياد بارودته تتعذر عليه رؤية طرفها .

ولا يدرى رجال الإدارة هنا عن الصيد والقنص شيئا لأنهم غير مولعين بهما .

يوم ١٠ فبراير — ذهب النبيلان وعلى بك شريف للصيد فى الناحية الجنوبية من طريق المركبات ولزمت أنا الخيام حيث زارنى جناب حاكم الأقاليم الشمالية الشرقية والبرنس دى ليل البلجيكى والمسيو لاندجم والمسيو ما تكساس ، ثم عاد الى آبا . وبعد الظهر خرجت الى الصيد وأوغلت فى تلك الادغال والحشائش ثم عدت الى الخيام دون أن أرى صيدا .

أما النبيلان فقد عثرا فى طريقهما على مسيرة ساعتين تقريبا بجاموسة برية أطلق عليها على بك شريف عيارين لم يصيباها ثم عادوا . وحينما علمنا من الوطنيين أن الصيد فيما يلى بلدة فرج اعترمنا الرحيل اليها .

يوم ١١ فبراير — أمضينا سحابة اليوم تحت الخيام ولم يخرج أحد الى الغابة . وكانت السماء قبيل الغروب متلبدة بالسحب فأمطرنا رذاذا . وبرحنا حسين بك ايش ومعه شىء من أمتعتنا ومعدّاتنا قاصدا الى جانجرا التى اعتزمت الصيد بها بناء على نصيحة الأهلين . وقد علمت أن ما بعث مدير جهة فرج على النصح لى بالبقاء فى المكان الذى نحن فيه الآن هو أن أحد اللوردات الانكليز كان يصيد فى البقعة التى كنا نريد نحن الذهاب اليها فأراد المدير بنصيحته أن نقضى فى مكاننا أياما ريثما ينتهى ذلك الصياد من صيده، ولم يشأ أن يجبهنا بهذه الحقيقة. ولقد زارنى المدير بعد ظهر اليوم كما زارنى كل من شريك المسيو متكساس وشيخ قبيلة الجهة الذى يطلقون عليه اسم «الملك» وهو رجل عربى الأصل كان أبوه رحل من السودان الغربى الى هذه الجهة فى عنفوان الشباب . وتبلغ مساحة المقاطعة الواقعة تحت مشيخته نحو عشرة الآلاف كيلو مترا مربعا، وعدد رجال قبيلته نحو سبعة الآلاف ، وهو يتكلم العربية ولكنه لا يحسنها . وكان ذلك الشيخ أو الملك لابسا بذلة من قماش الخاكى وقبعة بيضاء وحاملا وساما واسمه ماروكا،ولعله تحريف مبروك أو مبارك .

أما قرية فرج التى مررنا بها فانما استعارت اسمها من أخى ماروكا المومأ اليه وكان سلفا له فى المشيخة ، أما قبيلته فتعرف باسم لوغو . وقد شهدنا أن أمراض الجذام والزهرى والجرب وغيرها من الأدواء الجلدية كالبيان (Pian) منتشرة جدا.

أما النساء فيحملن أبناءهن على ظهورهن فى وعاء من الحصير يغطى رءوسهم كما هو واضح فى الصورة . وغذاء الأهلين الموز والمانيوق[1] والبطاطس والفاكهة

(١) المانيوق Manioc (Manihot utilissima) جذور متحجرة كالبطاطس ويخرج منها النشا المسمى بالتابيوكا .

المعروفة بالباباى[١] والأرز والذرة العويجة . ومع وجود الماعز فى هذه الأنحاء فانى لم أر الأغنام كثيرا . وهذه المنطقة ملوثة بجراثيم مرض النوم و بها الذبابة المعروفة باسم تسى تسى[٢] وهى التى تنقل جرثومة المرض .

يوم ١٢ فبراير — زايلنا مكاننا اليوم فمررنا بقرية فرج وقابلنا مديرها . وهذه القرية كغيرها من القرى منفصلة المبانى بعضها عن بعض ومادة بنائها (الطوب الأحمر) وسقوفها الحشائش الجافة ، إلا أن البعض منها مسقف بألواح الحديد المرقق . وقرية فرج قاعدة المديرية المعروفة بهذا الاسم .

و بعد أن عبرنا وعبرت سيارتى النهير المعروف باسم دنغو قطعنا نحو سبعين كيلو مترا فوصلنا الى محطة صغيرة تسمى جانجرا وضربنا بها الخيام وأمضينا الليلة . وقد جاءنى المدير والمسيو ماكرى التاجر اليونانى شريك المسيو متكساس فأعرب



سيارة تعبر النهر بدون قارب

(١) البابة أو البابز Papaw (Carica papaya) .

(٢) Tse-tse واسمها العلمى جلوسينا (Glossina) ذبابة من ذوات الجناحين .

المدير عن أسفه مما فرط منه بعبارة تخليه من تبعة التقصير . وقد أمطرتنا السماء مدرارا ، وكان دوى الرعد شديدا .

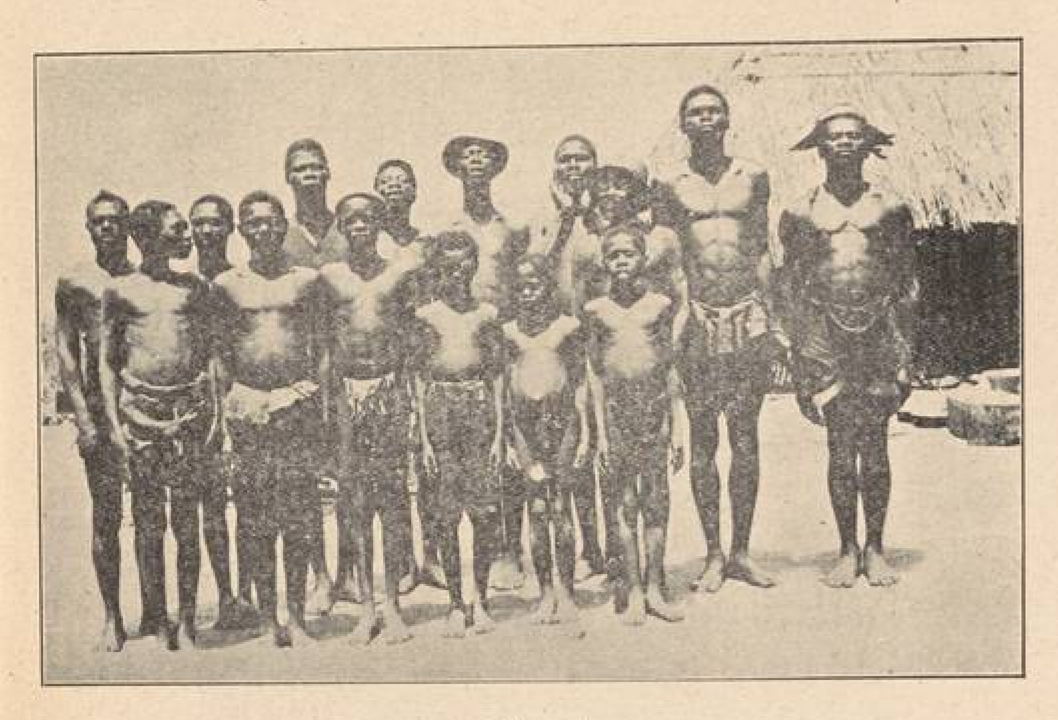
يوم ١٣ فبراير — لزمت الخيام لاعتزام العدول عن الصيد فى الكونغو على أثر ما أنسته فى نفسى من العجز عن احتمال الرطوبة والحر . أما التبيلان وحسين بك



كيفية حمل الأولاد فى أفريقيا الوسطى

أيبش وعلى بك شريف فقـد خرجوا فى طلب الصيد ثم عادوا فى المساء، وقد صاد كل منهم حيوانا من نوع أوغندا كوب (Uganda Cob) (١) وعاد اليوم من الصيد كل من اللورد يجم والقومسير البلجيكى وهمـا اللذان أشرنا اليهـما آنفا وقد صادا كركدنا وجاموسة، غير أنهما لم يوفقا لصيد الفيلة الكبيرة كما كانا يأملان، ثم رحلا الى فرج . وزارنى اليوم أحد الشيوخ التابعين للشيخ الكبير أو الملك أو السلطان غليما الحاكم على هذه المقاطعة وعدد سكانها عشرون ألفا ورجاله من الآزاندى وهم مشهورون بالبسالة والإقدام فى القتال وبأكل اللحوم البشرية فيما غبر من الزمان .

وقد لاحظت أن الرجال والأطفال من سكان هـذا القسم الشمالى الشرقى (اقليم ويلى) من بلاد الكنغو يتسترون بخلاف سكان السودان المصرى، أما النساء



جماعة من الأهالى

(١) Cob' Kob (Cobus) نوع من بقر الوحش يسمى ماريا فى أوغندا .

فأقل عناية من الرجال فى التستر كما هو واضح من الصورة الشمسية لتستر النساء وفيها كفاية للتأمل .



نساء أفريقيا الوسطى

والأهلون كافة ميالون الى حمل القبعات التى يصنعونها بأيديهم من القش وغيرها من القبعات الافرنكية القديمة كما أن فيهم نزعة الى تزيين أجسامهم بالتشريط فيرسمون

على ظهورهم أو صدورهم أو أذرعتهم ما يريدون من الصور مع معالجتهم مكان التشريط بمادة من شأنها أن تجعل الجروح المرسومة على المثال المتقدم بارزة ناتئة عن سطح الجلد وذلك بعد التئامها كما هو واضح للقارئ فى الصورة الخاصة بهذه العادة الغريبة. والرسم على الوجه المتقدم يتزل عندهم بمنزلة الوشم عند الأمم الأخرى.



كيفية تزيين الجلد بالتشريط

يوم ١٤ فبراير — خرج رفاقى جميعا فى طلب الصيد شرق محطتنا . وبعد الظهر عاد فريق منهم وهو فريق النبيل عمر حليم وعلى بك شريف دون أن يصيد أحد منهما شيئا . وقد قالا إنهما وجدا فيلة من الأناث ولم يجدا بينها ذكرا . ووصل على أثرهما كل من النبيل سليمان داود وحسين بك ايش بعد أن قتلا ثلاثة من الأفيال الكبيرة . وقد عانيا كثيرا من المشاق، لأن الأفيال كان عددها اثنى عشر وكانت ترعى فى جهة يربو ارتفاع الحشائش بها على ظهر الفيل ولقد وثبت عليهما الأفيال ثلاث مرات ولكنهما لم يصابا بأذى لحسن حظهما . وقد قصًا علينا أنهما بينا كانا متفرغين للصيد إذ جاء اليهما الشيخ الذى زارنا بالأمس واسمه واندو .



النبيل سليمان داود وحسين بك ايش وسط أسنان الفيلة التى صاداها

والظاهر أنه كان يبغى اغتصاب الصيد منهما، ومع هذا فقد كان أحد الفيلة الثلاثة قتيلا ومطروحا أرضا ولا نزاع فى أمره ولكن الفيلين الجريحين كانا قد ابتعدا مع بقية الفيلة وفيهما إصابات عديدة من رماية الصيادين . فدنا ذلك الشيخ من هؤلاء وأشعل النار فى الحشيش ليحول بينهما وبين صيدهما ويمنعهما من اقتفاء أثره، ثم طلب اليهما ألّا يسيرا وراء الفيلة . ولما ابتعد الصيادان اختفى الشيخ ورجاله فى الحشائش والأدغال وبعد هنيهة سمع دوى البنادق ففهم حسين بك ايبش الحيلة وركض صوب الشيخ فوجد الفيلين الجريحين مجندلين . عندئذ بادر الشيخ بجمع الخراطيش الفارغة التى كانت ملقاة على الأرض وقال لحسين بك إنه هو الذى قتل الفيلين، فأجاب حسين بك أنى سمعت الطلقات التى أطلقتها أنت وعددها كذا ثم أطلعه على الجراح التى أصيب الفيلان بها فاذاهى أكثر عددا، ثم سأله : ما قولك وما رأيك فى هذا؟ فقال الشيخ إنه يرجئ الإجابة الى الغد .

يوم ١٥ فبراير — عاد اليوم القومسير الذى زارنى أول من أمس، ولكنه لم يطلب مقابلتى بل مقابلة الطبيب وسرد عليه حكاية الفيلين فقال القومسير لقد حدث لنا ما حدث لكم . وهذا الشيخ اعتاد مشاهدة الصيادين دائما على هذا النحو ثم وعد بإخبار قومسير مركز دنغو بالحادث وانصرف .

وخرج فى اليوم جميع رفاقى ومنهم النبيل سليمان داود وحسين بك أيبش لحسم مشكلة الصيد الانفة الذكر والعودة الى الخيام . أما على بك والنبيل عمر حليم فكانا يريدان امضاء بضعة أيام فى الغابة لصيد الفيلة وغيرها . وقد عادا النبيل سليمان داود وحسين بك أيبش بعد ظهر اليوم فعلمت منهما أنه قد تم الاتفاق مع الشيخ على المسألة فى مقابل ساعة فضية وألفين وخمسمائة فرنك من عملة البلاد . وفى منتصف الساعة الرابعة عاد حسين بك أيبش ومعه أربع أسنان متوسطة الحجم ثم آذان الفيلين

وأرجلهما . أما الفيل الثالث فأبى رجال الشيخ أن يسلموه الى حسين بك زاعمين أن شيخهم لم يرخص لهم بتسليمه الى أحد ؟



فيل صاده أحد رفقتي بالكونغو

و في المساء تلبدت السماء بالسحب واشتد دوى الرعد ولمعت البروق بشكل غريب لأنها توالت من غير انقطاع وكان المطر الذى نزل بعد ذلك رذاذا . وقد بلغت زنة أسنان الأفيال الثلاثة من صيد النبيل سليمان داود وحسين بك أيبش نحو مائة كيلو غرام .

يوم ١٦ فبراير — إن الأمطار تكاد لا تنقطع فى هذه الأقطار نهى تهطل فى ساعات معينة تقريبا قبيل الغروب و بعده . وقد استيقظنا صباحا على دوى الرعد ونزل شيء من المطر، وخرج حسين بك أيبش لقضاء بعض الحوائج فى قرية فرج ثم عاد بعد الظهر .وحضر الينا اليوم الشيخ واندو ليعرب عن إصراره على عدم

تسليم سني الفيل الثالث وقال لنا إنه سمع طلقات نارية من الجهة التي يصيد بها النبيل عمر حليم وعلى بك شريف . وكان الشيخ واندو هذا راكبا دراجة واتفق أن سقط وأصيب بجراح خفيفة في وجهه وكان ثملا من الخمر فاختفى لحظة ثم عاد بسني الفيل . وبعد جدال طويل انتهى الأمر بأن سلمهما لصاحبهما النبيل سليمان داود . ولما هم واندو بالانصراف وكان لابسا اليوم صدرية عسكرية حمراء مزركشة بالأسلاك المذهبة كان أهداه إياها أحد البلجيكيين سألنا أن نوافيه بشيء من الثياب وآنية شرب الخمر وخمر ، فقلنا له إنه ليس عندنا مما طلب شيء فأنشأ يصف ما حدث لرفيق أثناء الصيد وكيف أحاطت بهما الفيلة ودنت منهما حتى لم يكن بينهما وبينها أكثر من عشرة أمتار وأنها همت ثلاث مرات بالحملة عليهما وكيف أتيحت لهما النجاة من هذا المأزق وهما في وسط الحشائش والأدغال معجبا بسالتهما ثم ودعنا منصرفا الى قريته تصحبه بعض زوجاته وعددهن على ما يقال خمسون . وقد نقل الينا ناقل أن عدد زوجات الشيخ الكبير المشهور باسم غليا وهو أخوه الأكبر يربو على الثلثمائة .

يوم ١٧ فبراير — زارنا اليوم شاب بلجيكي مأمور مركز دونغو يصحبه الشيخ الكبير غليا الآنف الذكر .

وكان الشيخ مرتديا ببدلة من الزى الافرنجي بيضاء اللون على صدره مدالية فضية يبلغ قطرها عشرة سنتيات أو اثنى عشر تقريبا ، وهي المدالية المميزة للسلاطين أو شيوخ القبائل الممتازين على غيرهم . فأرسل مأمور المركز الى واندو يدعوه اليه ثم انصرفا في نهاية الأمر على نية معاقبته بأخذ بارودته منه . لأنه غير مصرح لأهل البلاد استعمال بارودة من الطراز الحديث . وبعد الغروب حضر واندو وكان ثملا من

الخمر ومحمولا على محفة (تپـوى) وحوله نساؤه، فأخذ يصيح و يصخب و يخلط فى الكلام ثم طلب منى سيارة ليذهب بها الى دونغو لمقابلة مأمور المركز فأجبته الى طلبه فأخذ الشيخ بعضا من أعوانه ونسائه وجنديا ؛ وقد أخبرنى السائق فيما بعد أنه كان يطلق فى الطريق بارودته وعكف على هذا الفعل حتى وصل الى المركز، وهناك جثا على ركبتيه أمام شيخه (أخيه) كما هى العادة عندهم، اذا ودّ الصغير مواجهة الكبير فى أمر و بقى فى دونغو فعادت سيارتى أدراجها .

وسافرت أخت واندو المذكور صبح اليوم فى سيارة أحد اليونانيين قاصدة الى قريتها فودعها بعض النسوة والرجال، وكانوا قد حملوا اليها الهدايا الكثيرة من مانيوق وموز وأناناس الى غير ذلك . ولما تحركت السيارة أخذ الجمهور يصيحون ويهتفون ، ولقد لاحظت أن أولئك الشيوخ أو السلاطين متى وجدوا فى حضرة أصغر موظف من الأوروبيين وقفوا وقفة الجندى أمام ضابطه وانحنوا إجلالا له و إعظاما ورفعوا قبعاتهم . واذا أذن لهم بالجلوس كانت لهم المكانة الثالثة فى الجالسين .

يوم ١٨ فبراير — لما خرجت صبح اليوم من الكوخ الذى أقيم به وجدت الأرض مغطاة بالنمل الكبير وامرأتين تجمعان النمل وتضعانه فى إناء للأكل منه بعد الانضاج بالنار . فسألت المترجم المرافق لى وهو من أهل الكونغو المتنصرين عن ذلك، فقال ان هذا النمل اذا حل فصل الأمطار تجرد من جناحيه وأخذ يبنى بيوتا له من مادة الطفل لِيَسْتَكِنَّ بها أشهرا كاملة . وقد فهمت أن الناس اذا أرادوا شيئا من الطفل هدموا بيوت النمل واستعملوا تلك المادة فى مصالحهم كبناء دور للناس بها . وقد خرج اليوم النبيل سليمان داود وعلى بك شريف فى طلب صيد

الجاموس والأسود والكركدن وسيقضيان فى الغابة ثلاثة أيام لهذا الغرض . وزارنى بعد ظهر اليوم قومسير المديرية وهو فى طريقه الى قرية فرج . وبعد الغروب عاد الشيخ واندو من نيانغارا حزينا لأن البارودة أخذت منه مع الألفين وخمسمائة الفرنك والساعة الفضية . وكان القومسير فى زيارته قد ردّ الى النقود والساعة ، ولكنى أعدت ذلك كله الى الشيخ ووعدته بأن أرد اليه بارودته فانصرف مطمئنا مسرورا .



حسين بك إيش والجاموس الوحشى

يوم ١٩ فبراير — بقيت والطبيب فى مكاننا بعد خروج الرفاق جميعا الى الصيد . وبينا كنت فى الكوخ مشتغلا بالمطالعة اتجه نظرى نحو المكان الذى فيه سريرى ، فاذا بى أرى ثعبانا من لون أهل البلاد لا يتجاوز طوله الستين سنتيا وما وقع بصرى عليه حتى رأيته ينساب بجوار جدار فاصل بين مكانى نومى وجلوسى

ثم بقى بالمكان الذى بلغ اليه فصحت بأحد الخدم أن يحضر ليقتل هـذا الضيف الثقيل فحضر وقتله من فوره . ولكن لم تكد تغيب الشمس وراء الأفق حتى وجد بعض رجالى ثعبانا آخر أصغر من الأول لونه ضارب الى لون التراب ففعل به مافعل بزميله الأول، واتصـل بى أن أحدهم وجد ثعبانا ثالثا . فنعم المنزل الأمين ونعم الزوار : الشيخ واندو والثعابين .

يوم ٢٠ فبراير — أمضينا سحابة اليوم فى الخيام ولم يقع من الحوادث ما يستحق الذكر .



صـــورة طبال

يوم ٢١ فبراير — شهدت فى صبيحة اليوم رقص أهل البلاد، وكيفيّته أنهم جاءوا بطبل مستطيل الشكل الاسطوانى من الخشب بل هو قطعة شجر مجوفة ولها أربع قوائم فيجلس اليها صاحبها ويدق عليها بِعَصَوَيْن قصيرتين . وجاءوا بطبل

آخر فوقف الراقصون حول الطبلين يرقصون مَثْنَى أحيانا أو فُرَادَى أحيانا أخرى بينا الباقون يبرطمون بأغانيهم ويصيحون .



جماعة من الأهالى يرقصون

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أقبل النبيل سليمان داود ثم حسين بك إيبش وقد صاد الأول ثلاث جواميس واثنين من القطنبور (١) وكركدنا وصاد حسين بك جاموسة وكركدنا .

يوم ٢٢ فبراير — خرج اليوم الدكتور ميرس وخادمى جيرار للصيد بالغابة . وذهب حسين بك الى دونغو لقضاء بعض الحوائج . وزارنى بعد الظهر قس من قسوس البعثات الدينية الكاثوليكية وشاب من رجال الحكومة . وقد صاد

(1) Water buck (Cobus ellipsi primnus) نوع من بقر الوحش يعرف فى السودان بالقطنبور وفى السومال بالكودو (سواحيلى) .



الرقاصون والطبالون فى الكنغو



كركدن حسنين بك اربش

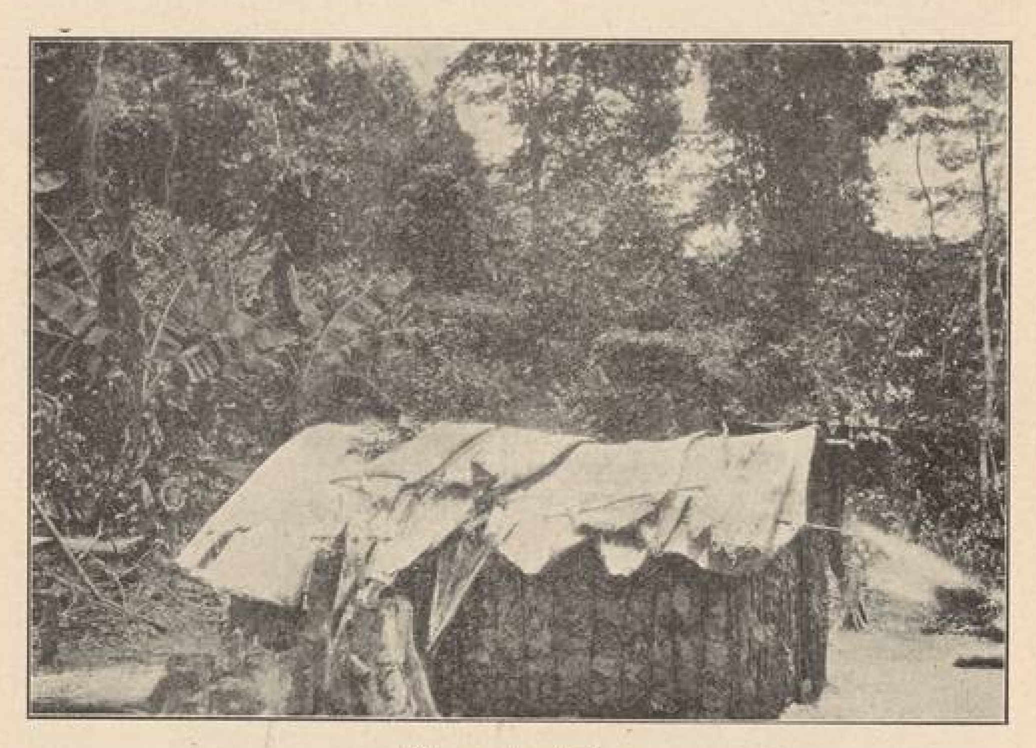
الطبيب قطنبورا وعاد حسين بك قبيل منتصف الليل ورأى فى الطريق كركدنا كبيرا . وجاء الى أحد الزنوج بسمكتين من النهر وأعيدت الى الشيخ واندو بندقيته التى أخذها منه القومسير عقابا له على مناوأته إيانا العداء وصيده فيلا ببندقيته من الطراز الحديث ، اذ لا يباح للأهالى حمل شىء من الأسلحة غير البنادق القديمة ، هذا وأسماء القبائل فى هذه المنطقة هى : تانبيو، واندو، مابالاتا، سكامبو، ناكيتو، بيبى، نا كانغا، ناتكونا، نائدارا .

يوم ٢٣ فبراير — عاد اليوم من الصيد كل من النبيل عمر حليم وعلى بك شريف فصاد أولهما ثلاثة من الأوغندا كوب (Uganda Cob) وفيلا وجاموسة وقطنبورين وصاد الثانى فيلا وقطنبورين وأربعة من الأوغندا كوب . وقد جهزنا للرحيل فى الغد قاصدين الى بوتا .

يوم ٢٤ فبراير — حوالى الساعة الثامنة من صباح اليوم برحنا مكاننا قاصدين الى دونغو فجعلنا وجهتنا جهة دنبا ومررنا فى الطريق بغابات جميلة ورأينا بعض مزارع القطن ونخل الزيت وقد وصلنا فى الساعة السادسة بعد الظهر الى دنبا حيث أمضينا الليلة ووجدنا بها ثلاثة من البلجيكيين يقطنون دارا فأعدوا لنا فيها مكانين وأمضيت الليلة أنا ورفاقى فى مخزن فسيح، ولم تكن المركبة التى تحمل أدوات الطبخ والمؤن الغذائية قد وصلت بعد، فاكتفينا فى سد الرمق بما قدمه أولئك الأوروبيون الينا من الصِّحْناة (السردين) والجبن والموز .

يوم ٢٥ فبراير — نهضنا منذ الصباح الباكر، قاصدين الى بامبيلى فبلغناها فى منتصف الساعة الثانية عشرة تقريبا . ولقد وجدنا بها مكانا ، ولكنه

خال من المعدّات . وكان به بلجيكى وزوجته ولم يكن معنا شىء مّا من الطعام نتعلل به، فحصلنا على بعض علب الصِّحْناة وغيره وتغذينا . وكانت مركبة الطعام حتى آخر الغذاء و بعده متخلفة .



صورة أكواخ مغطاة بقشور الأشجار

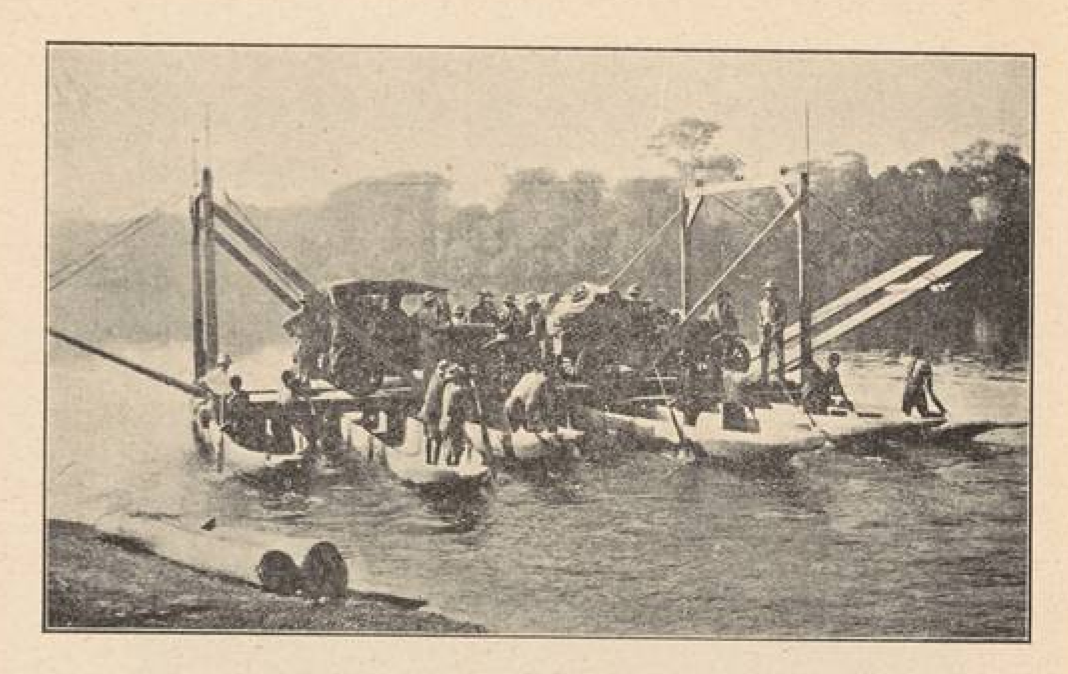
وفى منتصف الساعة الرابعة جاء حسين بك إيش ليخبرنا بأن المركبة تحرّكت من دونغو، وها نحن أولاء فى انتظار وصولها ولقد لاحظت أن رجال القبيلة النازلة فى هـذه الناحيـة ونساءها يطيلون الجمجمة بحيث تنسحب الى أعلى فى اتجاه نحو الخلف . وذلك بأن يتخذوا لرأس الطفل ر باطا خاصا (أنظر الصورة الشمسية) .

وقد شهدنا على الطريق بعض مزارع للقطن والنخل الذى يستخرج منه الزيت كما رأينا أشجارا متفرقة من المطاط والمانيوق .

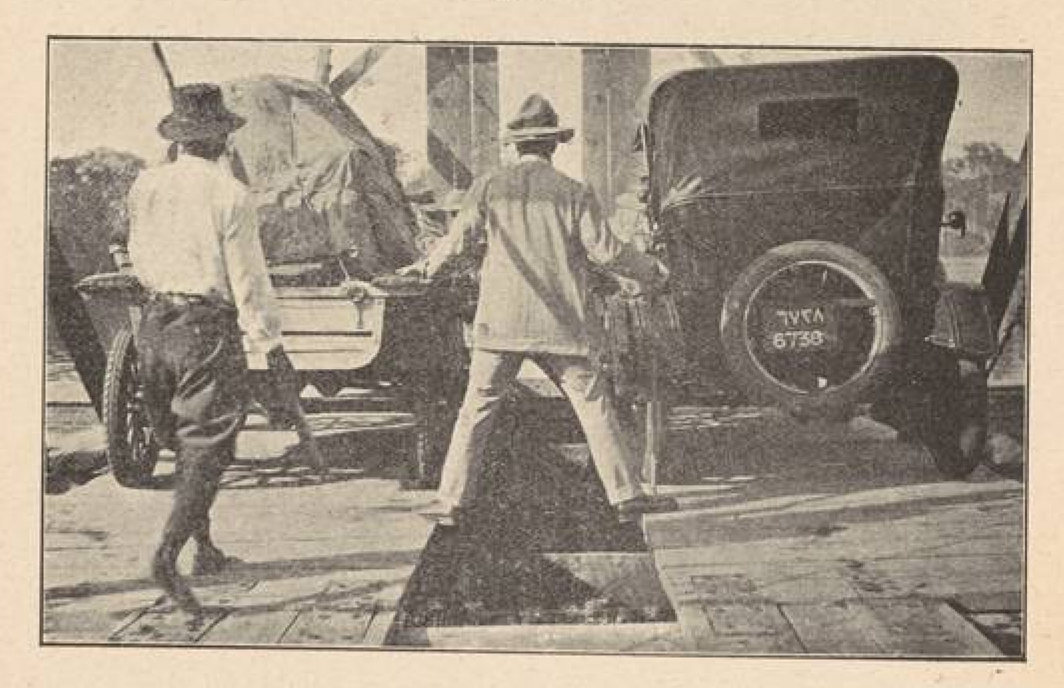


كيفية إطالة الرأس

يوم ٢٦ فبراير — رحلنا فى صبيحة اليوم قاصدين الى بوتا فمررنا بنقطتين فيهما وابوران للحليج و رأينا الكيفية التى بها يأتى المزارعون شركة (كوتون كو) بمحصول زراعتهم . وقد عبرنا نهرين ثم وصلنا الى بوتا فى الساعة الرابعة بعد الظهر، بعد أن اخترقنا تلك الغابات الجميلة و بعض المزارع والمساكن الأهلية . وقد شهدت



كيفية عَبْر السيارات



صورتى والسيارات أثناء عبورها

بجوار الوابورين الآنفى الذكر مساحة صغيرة متزرعة قطنا على المصاطب ، مع أن الرى غير صناعى (أى على المطر) ، ثم وصلنا الى بوتا وهى مدينة عامرة بالأبنية الشامخة وبناؤها بالآجر ، ولا يزيد ارتفاعها على سطح البحر عن ٥٠٠ متر فهى منخفضة عن واندا التى كنا بها بخمسمائة متر تقريبا ، ولهذا كان الحر هنا شديدا والرطوبة أشد ، وها نحن منذ وصلنا لم تجف أجسامنا من آثارها . وقد نزلنا هنا بدار للحكومة قريبة من النهر .



حملة الأقطان بجوار المحلج فى الكنغو

يوم ٢٧ فبراير — أمضينا سحابة اليوم بالدار وكان أمامنا منبسط فسيح من الأرض قسم الى أقسام مستطيلة غرست فيها أشجار المانجو (العَنْبة) . وكانت الطيور الصغيرة ذات اللون الأصفر الجميل والرءوس الحمراء تبنى مساكنها مجدّة . وقد قضينا النهار فى إعداد العدّة للسفر فى صبيحة الغد الى استانلى فيل ، عاصمة الأقاليم الشماليه الشرقية .

يوم ٢٨ فبراير — اطلعت اليوم على السوق ، وقد لاحظت أن أنواع المعروضات فيه قليلة جدا . فليس فيها إلا الموز وهو ضخم جدا وقصب السكر وهو ضعيف رفيع قصير أبيض اللون فى اخضرار ، والمانيوق[1] . وهذه الأنواع الثلاثة هى كل ما وجدته فى السوق ، وأكثر النساء يأتزرن بالخرق الملونة ، أما الرجال فالخادم منهم يرتدى بذلة أنيقة مؤلفة من سروال (بنطلون) قصير ومعطف أو قميص لا معطف عليه ، أما فريق العامة فيلبسون نوعا من الجلابيب الزرقاء . وكان بوسط السوق افرنكى جالسا لملاحظة المبيعات والى جانبه قرد صغير من نوع الشِّمپانزى[2] .

وقد علمت أن قومسير الناحية أجاز لى صيد الأوكاپى وهو حيوان من فصيلة الظرافة وليس بالظرافة ويندر وجوده ولا يسمح بصيده . وقد تحرك حسين بك أبيش اليوم فى سيارة قاصدا الى المكان الذى سأباشر فيه صيد ذلك الحيوان .

وقد علمت أن الخبز واللحم والدجاج وبقية الحاجيات الغذائية لا يمكن الحصول عليها من السوق العمومية بل يجب طلب هذه الأصناف من الموظف القائم بوظيفة المأمور أو المدير . وليس فى الجهة قصاب ولا خباز يشترى منهما الجمهور حاجته من اللحم والخبز .

أوّل مارس — سرنا فى صبيحة اليوم بالسيارات بعد أن عبرنا النهر وأوغلنا فى الغابة من طريق ضيق . ولانخفاض هذا الطريق وكثرة المياه رُصِفَ جزء منه بأغصان الشجر فوصلنا الى محلة الشيخ أمبلازى فى منتصف الساعة الرابعة بعد

---

(١) ان قصب السكر ينبت جيدا فى الكونغو ويبلغ من الحجم مالم نره بمصر .

(٢) هو البَغَام ويعرف بهذا الاسم فى السودان واللفظ مشتق من بغم الثيتل والوعل والأيل اذا صوّت تصويتا غير فصيح وهو الصوت الذى يسمعه الانسان اذا ما وقف بجانب هذه الحيوانات ومثله يسمع من هذا القرد .

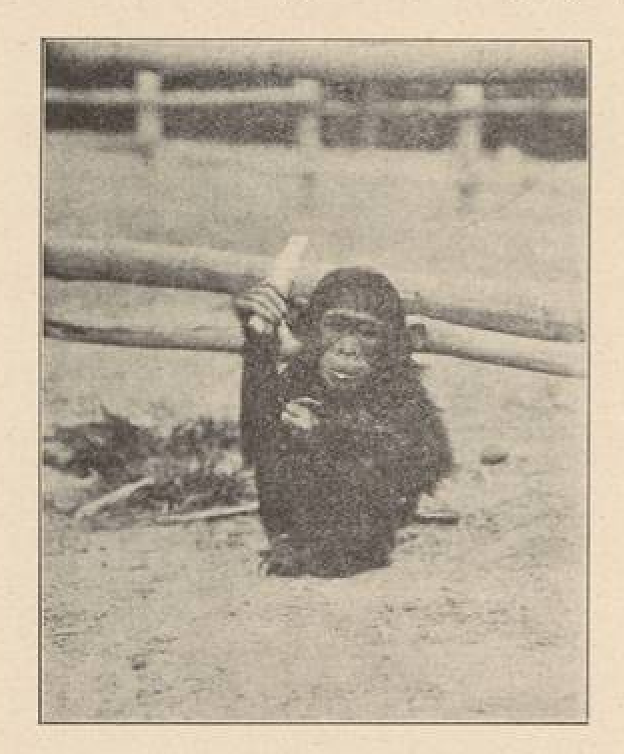
الظهر . وهذه المحلة واقعة على بعد ثمانين كيلو مترا تقريبا من جنوب بوتا . أما الشيخ الشاب فلا يزيد عمره عن السابعة والعشرين سنة فأمضينا الليلة هنا ولما لم تصل بقية السيارات الحاملة للحاجيات فقد اعتزمت البقاء هنا حتى الغد . أما رفاقى فسيقصدون الى الصيد و يوجد الأوكاپى والبونغو والأفيال الكبيرة وغيرها من مختلف الحيوانات فى هذه الارجاء .

يوم ٢ مارس — حضر فى صبيحة اليوم الشيخ أمبلازى وجلس الينا بضع ساعات ثم جاء شاب لا يتجاوز من العمر أربع عشرة سنة وكان يلبس بذلة افرنجية ، عارى الرأس والقدمين . وهو شيخ مات أبوه حديثا . فخلفه فى منصبه ، وعلمت أنه مع حداثة سنه متزوج بخمس زوجات . أما أمبلازى فزوجاته أكثر عددا . ومما فهمت من عادات القوم فى الزواج أن الولد تحل له كل زوجات أبيه إلا والدته منهن وأنه يرث النساء كلهن . وقد نقل أن الشيوخ حريصون على نسائهم وأنهم كانوا يخصون الصبيان فى العهد الغابر وأنهم ما كانوا يأتمنون إلا هؤلاء . ومن عاداتهم أنه اذا مات قريب لهم أو ماتت زوجته رحلوا من مكان اقامتهم الى مكان آخر وبنوا لهم قرية جديدة إذ من عاداتهم التطير والتشاؤم من الموت . وهذا هو السبب الذى يجعل الرحالين يشاهدون حيث مروا من مكان كثيرا من القرى الخالية الخاوية على عروشها .

وسألت الشيخ اليوم عن البارودة التى تستعمل لصيد الفيلة فجاء بها فاذا هى أكبر سنا من جده وأنبوبتها عتيقة يطلق زنادها بالكبسول . فسألته وكم عيارا يطلق على الفيل ليقتله فقال واحدا اذا أصيب بقلبه . أما واندو وهو القرد من نوع (الشمپانزى) الذى ابتعته أمس الأول فقد أصبح من جماعتنا إلا أنه عنيد كالشيخ واندو السالف الذكر ولذا أسميته باسمه .

وقبيل المساء عند الساعة الأولى بعد الظهر عاد النبيلان سليمان داود وعمر حليم وكان التعب قد أضناهما لصعوبة السير فى الغابة الكثيفة حيث لا يرى الانسان طرف بارودته . ولم يعثرا على صيد ما وقد وصلا الى نهر تلى الواقع على بعد عشرة كيلو مترات أو أقل من المكان الذى نقيم به .

أما حسين بك أيبش فكان قد عاد الى بوتا ليقف على أخبار سياراتنا المتأخرة ثم عاد قبيل الساعة الثالثة مستأنفا السفر الى استانلى فيل . وقد بقيت سيارة واحدة متأخرة ولم تصل حتى الآن . وفى مساء اليوم نزل رذاذ من المطر .



القرد واندو

يوم ٣ مارس — وصلتنى ورقة من حسين بك أيبش يعرفنى فيها أن الطريق تلف فيما يلى نهر تلى لمرور سياراتنا عليه وأنه شرع فى إصلاحها. وقد خرج

اليوم النبيل عمر حليم وعلى بك شريف لامضاء ليلتين على ضفة نهر تلى . أما أنا فبقيت بالمنزل وبقى معى النبيل سليمان والدكتور ميرس وكانا على نية الخروج الى الصيد غدا ولكن صعوبة السير فى هذه الغابات الكثيفة حملتهما على ايثار الاستراحة. وفى المساء أمطرتنا السماء مطرا غزيرا .

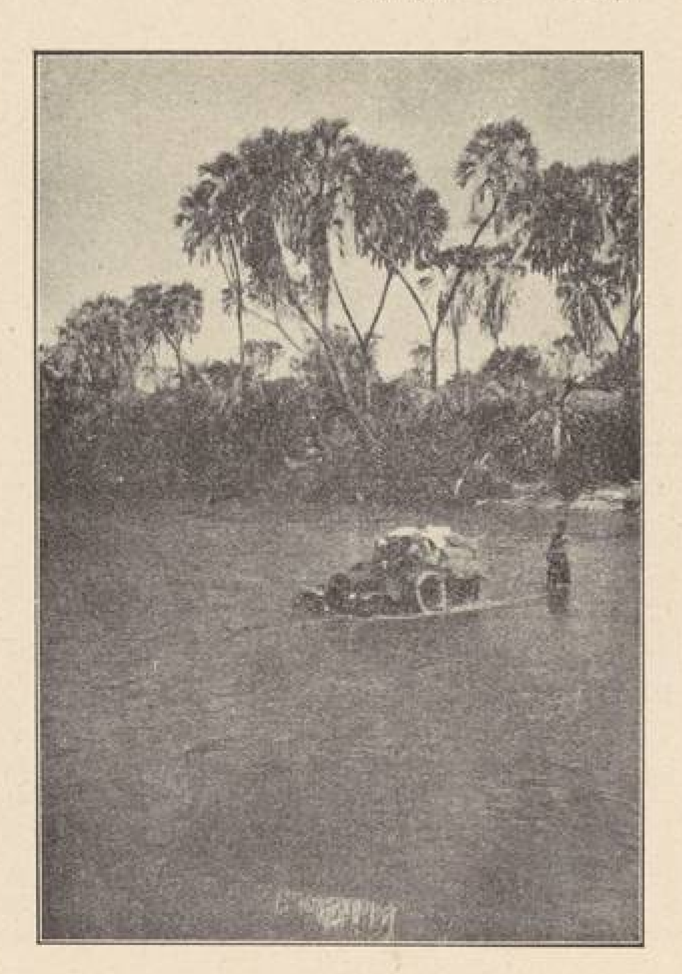
يوم ٤ مارس — بعثت اليوم رسولا للاستفهام عما صاده رفيقاى السالفا الذكر فعاد الرسول بعد الظهر مخبرا أنهما لم يصيدا حتى الآن شيئا وزارنا الشيخ كعادته وله سبعة من الجند وكنا فى كل صباح نستيقظ على صوت البوق العسكرى وكذا فى المساء .

أما شيخنا فقد اعتاد تعاطى الشاى فى الصباح وبعد الظهر معنا وهو لا يشعر بضرورة انتظار دعوتنا إياه اليه وانما تراه يتقدم بنفسه من غير كلفة . وكثيرا ما يقضى معنا ساعات طويلة من غير أن ينبس بكلمة لأنه لايعرف لغة سوى لغته.

يوم ٥ مارس — عاد النبيل عمر حليم وعلى بك شريف اليوم وقد صاد كل منهما جاموسة، وهى نوع من أنواع الجاموس صغير الجسم بالنسبة الى جاموس الجهات الشمالية والشرقية والسودانية وقرن هذا النوع أصغر من قرن الأنواع الأخرى وجلده يميل الى الحمرة . وقد اعتزمنا مزايلة هذا المكان فى الغد .

يوم ٦ مارس — سرنا فى صبيحة اليوم بالسيارات مخترقين تلك الغابات الكثيفة الجميلة فى مسالك رديئة جدا تتخللها قناطر من الخشب غير متينة فكانت هذه الحالة تعوقنا عن مواصلة السير . وبعد أن تغذينا استأنفنا المسير فوصلنا الى نهير ثانى بعد أن عبرنا نهر تلى ووجدنا موظفا من رجال الحكومة سهل لنا أمر نقل المركبات فى القوارب من ضفة الى أخرى وكان النقل مركبة مركبة . ثم استأنفنا

السير ودهمنا الظلام ولكنا وصلنا الى نهر أرويني فى منتصف الساعة السابعة مساء وهذا النهر متسع وعلى ضفتيه أشجار كثيفة . وقد تعشينا حيث وصلنا ثم عبرنا الطريق السابق الذكر وقابلنا مدير الجهة فوصلنا الى الشاطئ الثانى حيث قرية بتاليا وفيها أمضينا الليلة بدار أعدّت لنا . أما المناظر الطبيعة فتفوق مناظر الجهات التى مررنا بها منذ ابتداء السياحة . وسكان هـذه البقاع أشدّ بنية وأوثق أركانا ممن عرفناهم وكثيرون منهم يرخون اللحى ولونهم قليل السواد .



سيارتنا تعبر نهرا فى أفريقيا الوسطى

يوم ٧ مارس — سافرنا بعد ظهر اليوم قاصدين الى استانلى فيل عاصمة الأقاليم الشمالية الشرقية ، ومررنا فى طريقنا بواسط تلك الغابات الجميـلة وبها من الأشجار ذات الخشب الجميل شجر الأبنوس .



نقل السيارات فى القوارب من ضفَّة الى أخرى

وكانت الطريق وعرة لكثرة الوهاد والنجاد وقد عبرنا نهرين ثم وصلنا الى مدينة استانلى فيل عقب الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فتوجهنا توا الى فندق غير مسكون ونزلنا به وقد مررنا بقرى عديدة شاهدت على مساكنها زخرفة بأشكال هندسيّة أو حيوانات مصوّرة بالألوان .



شجرة بأفريقيا الوسطى



زخرفة ملونة على المنازل بالكنغو البلجيكية



زخرفة ملونة على المنازل فى الكنغو البلجيكية



صور ملونة على المنازل فى الكنغو البلجيكية



زخرفة أخرى على المنازل



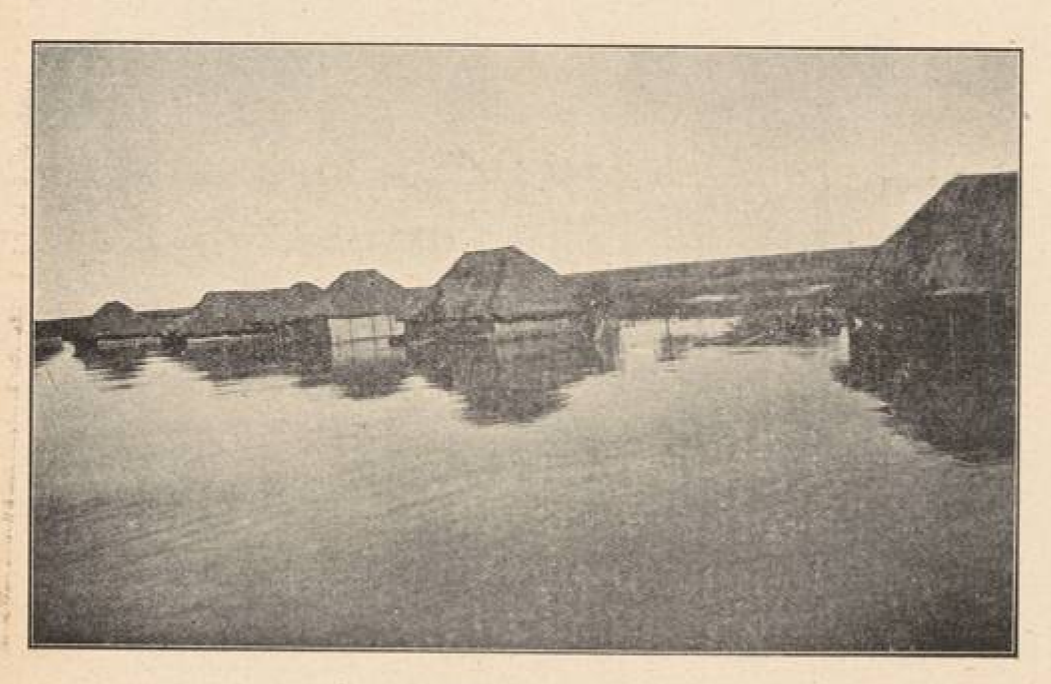
صور زخرفة

يوم ٨ مارس — أمضينا اليوم بالفندق وتجهزنا للسفر الى الجنوب وابتعنا بعض حاجياتنا من يونانى . وزارنى اليوم حضرة قومسير الجهة وفى المساء أمطرتنا السماء مطرا غزيرا . وقد علمت اليوم أنه استكشف بالقرب من هذه المدينة مكانان كبيران أطلق عليهما اسم مقبرة الأفيال . والبحث متواصل الآن عن المكان الثالث . فقد روى بعض السياح والصيادين ممن ساحوا بوسط أفريقيا فى الأزمان السابقة ما يشبه ذلك أو ما يؤيده . فقد زعموا أن الفيلة اذا استشعرت بضعف فى عزيمتها أو وهن فى قوتها آوت الى مكان اختارته من قبل وانزوت به حتى تموت . ومما نقل الينا أن حكومة الكنغو عثرت على موضع من هذه المواضع فلما نبشته وجدت عظام الفيلة وأسنانها مطمورة فيه فباعت هذه الأسنان بما يعدل عشرة مليونات من الفرنكات . ولقد استقصيت عن صدق هذه الرواية من قومسير الناحية فلم يقطع بها بل قال انها حديث خرافة .

يوم ٩ مارس — أمضيت صبيحة اليوم بالمنزل وبعد الظهر زارنى حضرة القومسير وركبت معه سيارة وجسنا معا بها خلال ديار البلدة لمشارفة معاهدها العامة كالمدارس ومنها مدرسة البوليس والمدارس الصناعية ثم المستشفيات الوطنية والنظافة فيها بوجه عام توجب الارتياح وهى عبارة عن أقسام من المبانى مستطيلة ومنعزل بعضها عن بعض ومدرسة الولادة لتخريج المولدات (الدايات) الوطنيات فمدرسة من نوعها لتخريج الممرضات وتفقدت أيضا مدرسة صناعية تابعة للقسوس وذهبت منها لمشاهدة الشلالات ثم عدت الى الفندق . وفى مرورى على مقربة من شلالات استانلى بقرية لقوم يسمونهم أرابيزى أى المستعربين أو الذين هم من أصل عربى وقفت هنيهة أمام منزل الشيخ فتبادل القومسير معهم عبارات التحية . وقد رأيت بهذه القرية مسجدا فلما استفهمت من القومسير عما إذا كان الأهلون

فيها من المسلمين أو من غيرهم قال انهم مسلمون بقيت بينهم آثار من أركان الدين الإسلامى . قال ان المبشرين بالدين المسيحى يحاولون الاهتمام بأمرهم لتنصيرهم ولكنهم يلقون فى هذا السبيل صعوبات جمة لتعذر إقناع المسلمين بالتنصر والتنزل عن عقيدتهم وقد تبينت فى سحناتهم ومعارف وجوههم أنهم من أصل عربى فعلا ، وانما خلطوا بالزنوج أنسابهم منذ سنين طويلة ولباسهم الوطنى هو الطربوش أو السكبة البيضاء للرأس والجلباب أو السترة الافرنجية أو القميص سابلا على ملاءة ملونة أو بيضاء تحيط بالجزء الأسفل من الجسم وهم يعيشون بحالة تشير الى رقيهم على غيرهم من مساكنيهم الزنوج .

وشلالات استانلى على مقربة من هذه القرية وينزل بطاحها قوم من قبيلة زنجية احترفت صيد السمك بالشباك .



مساكن على شاطئ الكنغو

يوم ١٠ مارس — عبرنا اليوم نهر الكنغو قاصدين الى محطة السكة الحديدية فركبنا القطار فى الساعة السابعة الى الجهات الجنوبية وفى الساعة الثالثة تقريبا وصلنا الى محطة بونتيرفيل فتركنا القطار الى الباخرة وحوالى الساعة السادسة تحركت بنا الباخرة حيث كنا فى الجزء الجنوبى من نهر الكنغو المعروف باسم لوالابى. وقد هطلت الأمطار ثم انقطعت بغتة كعادتها .

يوم ١١ مارس — مررنا اليوم بقرى كيرونغو التى يكثر بها المسلمون وبهذه القرى مسجدان ولأهلها سلطان أو شيخ اسمه عبيد وقد استفهمت من أحد مسلميها المتكلمين بالعربية ، وهو صومالى الأصل عن نتيجة الجهود التى يبذلها المرسلون لتنصيرهم فأجاب بأنهم اضطروا الى الرحيل عنهم بعد اذ أخفقت مساعيهم لتحويلهم عن عقيدتهم ، ثم أخبرنا بأننا لسوف نمر بقرى أخرى كبيرة فى طريقنا تعرف ببلاد كوسونغو وأن سلطانها يسمى بعلى وأن المسلمين فيها هم الأكثرية الغالبة ، فلما حللت بهذه الجهة اجتمع حولى من أهلها جمع كبير . وقد رأيت أن الواجب على تلقاء ما تبينته من أمرهم أن أوجه الى العالم الإسلامى كلمة عنهم وأنا واثق بأن كلمتى ستذهب أدراج الرياح وأنها لن تلقَ آذانا صاغية . إنا معشر المسلمين نعجب ونفخر بالاسلام . وهذا حسن لوقرنا الاعجاب والافتخار بعمل ذلك الدين دين الفطرة ودين التسامح والحضارة الصحيحة ، بل أحسن مايكون لو اقتدينا بأولئك المبشرين المسيحيين أصحاب الهمم العالية والعزيمة التى لاتنى ولا تنثنى والعمل الدائب على نصرة دينهم ونشره بين أمم الأرض ، فهل لنا أن نرى من بين المسلمين لامن يعمل على توسيع نطاق الدين الاسلامى بتحويل عقائد غير المسلمين اليه ، فان هذا الدين مبشر لنفسه لايمحى له أثر حيث يمر مسلم سائح أو تاجر وهذا ما أخبرنا به المبشرون

المسيحيون أنفسهم فيما خطبوا أو كتبوا وفيما رووا عن حكايات فشلهم فى حمل مسلمى افريقيا على التنصر، بل من يعمل على الاحتفاظ بما وصل اليه من الانتشار، وذلك بأن تؤلف بعثات للوعظ والارشاد تصلح من إيمان أولئك الأقوام وتصحح غلطاتهم فى تفسير أصول الدين وتقوم بالجملة ما اعوجّ من شؤونهم الدينية بسبب بعدهم السحيق عن مراكز العمران الاسلامى وقلة احتكاكهم بالأمم الأخرى الإسلامية . اذًا يكون المسلمون قد أدُّوا واجبا يطالبهم الشرع به، فانما الشريعة الإسلاميه تقضى على المسلمين أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وليست حاجتهم الى التماسك والتعاضد والتكاتف فى أمر بأشدّ منها فى مثل هداية فريق من من المسلمين قضت عليهم العزلة فى وسط القارة الإفريقيـة بأن يكونوا بين عاملين عامل انحلال عُرَى عقيدتهم الوثيقـة وعامل التبشير الذى اذا وثقوا بقدرتهم على مغالبته فليس فى مقدورهم أن يزعموا هـذا الزعم بالنسبة لأبنائهم الذين لا يبعد أن تتزعزع عقائدهم بما قضت عليهم به ظروف الزمان والمكان من الاتصال بالغربيين وعاداتهم وتقاليدهم، والمغلوب كما قيل مولع بالاقتداء بالغالب، فهم إذن معرّضون اذا لم يكن للتخلّى عن عقيـدة آبائهم فللتساهل فى ضروب شتى من أمور وهنـات ليست من الدين فى شىء . ولعـل حكومة الكونغو وغيرها لن تعارض فى وجـود بعثات إسلامية ببلادها متى وثقت بأن الغرض منها انما هو مجرّد الوعظ والارشاد لا العمل لتحقيق غاية من الغايات السياسية .

و بينا كنت أكتب هذه الأسطر اذا بالباخرة قد رست تجاه البر فلمحتُ رجلا علمت أنه من تجار مَسْقَط ورأيت أيضا جماعة من الصوماليين والسواحلية وهم جميعا من التجار. أما منظر النهر وضفتيه فمن أجمل ما تقع عليه الباصرة لا سيما وأن الغابات الكثيفة تمتدّ منهما الى أبعد مدى . والطقس هنا أجود منه بكثير فى استانلى فيل وفى الجهات التى مررنا بها حتى الآن .

يوم ١٢ مارس — أمضينا سحابة اليوم والليلة بالباخرة .

يوم ١٣ مارس — وصلنا اليوم الى كاندو . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر تحرّك القطار فكان سفرنا متواصلا بين الغابات . وقد مررنا بقُرًى صغيرة وجملة محطات واقعة كلها بوسط الغابات الكثيفة .

يوم ١٤ مارس — وصلنا ظهرا الى محطة كونغولو فغادرنا القطار، وكانت إحدى البواخر بانتظارنا فانتقلنا اليها، وفى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر اتجهنا صوْب الجنوب وقد ألفيت المناظر فى هذه المنطقة سريعة التغير كما لو كانت شريط سينما، إذ كنا ننتقل من الغابات الكثيفة الى الروابى المكسوّة بالحشائش الخضراء الى االسهول المغروسة بالنخل من نوع الدَّوْم الى السماء متلبدة بالسحب . أما باخرتنا هذه فمن البواخر المعدّة للسياح، ولكن الباخرة السابقة كانت من بواخر نقل البضاعات . وعند مستهل الساعة التاسعة مساء وصلنا الى كبالوه .

يوم ١٥ مارس — تحرّك قطارنا فى منتصف الليل تقريبا فوصلنا الى البرتڤيل قبيل الساعة الثالثة بعد الظهر، وكانت المناظر جميلة وتكثر الروابى والنِّجاد. وها نحن أولاء على الضفة الغربية من بحيرة تنجانيقا . ومدينة البرتڤيل الصغيرة مشيدة على الجبال القائمة حفافى البحيرة، والمناظر هنا لا تختلف عن مناظر بعض البحيرات بأوروبا . وقد لسعتنى ذبابة من نوع تستسى المعروف بأنه جالب النوم وذلك فى أثناء السفر اليوم فأحدثت ورما بالساق اليسرى ولسوف أدرى هل أصاب بمرض النوم "وكلنا نيام" أم يلحقنى مرض السُّهار وأنا ممن لا ينامون إلا جزءا صغيرا من الليل .

يوم ١٦ مارس — سافرنا صباح اليوم وكان موعد رحيلنا أمس ، ذلك لأنى طلبت من ربان الباخرة الانتظار ريثما تصل الباخرة التى تقل السياح من كيفومو فإن بها تابعا لى حضر من مصر يحمل البريد . وقد تحركت الباخرة فى الساعة الثامنة تقريبا . وشكل البواخر هنا يغاير شكلها فى الأنهر فانها كبواخر البحار بسبب اضطراب الأمواج فى هذه البحيرة وارتفاعها اذا ما اشتدت الريح . وكان سيرنا اليوم على مقربة من الشاطئ الغربى أى البلجيكى ، وهو شاطئ لازوردى اللون تتصل به سلسلة جبال شاهقة مكسوة بالأشجار كلها .

يوم ١٧ مارس — وصلنا فى صبيحة اليوم الى النقطة الأخيرة من الشمال الشرقى للبحيرة وهى نقطة أوسومبورا ، على أنا مازلنا فى منطقة الأقاليم التابعة لحكومة الكونغو . وهنا تنحصر البحيرة بين سلسلتين من الجبال أكثر ارتفاعا من التى مررنا بها . غير أن هذه الجبال لا شجر فيها بعكسها فى الجهات التى أسلفنا ذكرها إلا أنها مكسوة بالحشائش والأعشاب . وبعد أن اتخذنا معبراً كبيرا (صَنْدلا) لعبور السيارات فى المسافة القصيرة بين مرسى الباخرة والبر فى جهة أوفير الواقعة بالطرف الغربى الشمالى من البحيرة قصدنا الى هذه النقطة فبلغناها قبيل الظهر . وهناك اتصل بنا أن الكبارى التى كانت مقامة على الأنهر فيما بين هذه النقطة وبحيرة كيفو قد تخربت على أثر السيول فعدلنا عن نيتنا الأولى . وكان الوصول الى جهة روشورو الواقعة شمالى بحيرة كيفو لمشاهدة البراكين الكائنة شمالى تلك البحيرة وللصيد أيضا ، لذا اعتزمنا العودة الى كيغوما فى بلاد تنغانيقا التابعة لانكلترا وأن نصيد هنا ، وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم والسحب وابتدأ هطول الأمطار وتحركت باخرتنا عائدة فى منتصف الرابعة بعد الظهر . وتختلف ارتفاعات قنن الجبال المجاورة لنا بين ألف متر . وثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر أما ارتفاع سطح ماء البحيرة فسبعمائة متر فوقه .

يوم ١٨ مارس — وصلنا الى أوسومبورا وقد شهدنا فيها شحن قطيع من البقر الكبيرة القرون برسم البرتقيل ثم استأنفنا السفر بعد الظهر وقد هبّت العواصف وهطلت الأمطار واضطربت البحيرة . وفى مساء اليوم وصلنا الى قرية بركة حيث أمضينا الليل .

يوم ١٩ مارس — تزودت الباخرة فى الصباح مقدار الحطب اللازم لها ثم تحركت بنا الى كيغومو . أما نقطة بركة فللحكومة فيها خنازير كثيرة ومزارع ضيقة المساحة للذرة وليس بها أكثر من أربعة مساكن أو خمسة ولا أكثر من اثنين من الأوروبيين . وفى المساء تغيرت حالة الجو واضطربت البحيرة ولمع البرق واشتدّ هزيم الرعد وهطلت الأمطار .

يوم ٢٠ مارس — وصلنا فى الصباح الى كيغومو الواقعة فى نطاق الأملاك البريطانية . وقد التقى بى فى الباخرة اثنان من الموظفين البلجيكيين فقال لى أحدهما إن ضابطا ألمانيا من الذين كانوا هنا فى أثناء الحرب وقتما كانت هذه البلاد تابعة لألمانيا قد حضر منذ أيام ودفع للجنود الوطنيين الذين كانوا يحاربون فى صفوف الألمان مقدار المستحق لهم من متأخرات مرتباتهم .

أما كيغومو فمحطتها المشيدة فى عهد الألمان جميلة النسق وثيقة البناء . وفيها عمارات أخرى أنشئت حديثا وسوق أغلب تجارها من الهنود وعرب زنجبار واليمن ومسقط والمسلمين المولّدين من العرب أى السواحلية . وكانت سكنانا ومبيتنا هنا فى عربات السكة الحديدية ، ويكثر فى هذه الأرجاء شجر العنبة (المانجو أو الأمبا) والقرية تحف بها الروابى من جميع جهاتها .

مستعمرة تنغانيقا

كلمة تاريخية عنها

أوردنا فى ملخصنا المعرَّب عن كتاب القومندان جيان تاريخ بلاد السواحل الشرقية الإفريقية ووصفها الجغرافى وأسهبنا فى بيان استيلاء العرب على تلك البلاد وتبعيتها لسلطان زنجبار ثم امتداد حكم العرب بحيث تناول المناطق الداخلية . فلنبحث الآن فى تاريخ مستعمرة تنغانيقا الحديث ولنبين كيف استولى الألمان عليها .

لما بدأ الانكليز يمدون نطاق نفوذهم على بعض جهات السواحل ويحصلون من سلطان زنجبار على الامتيازات وما جرى مجراها توطيدا لأقدامهم فى بعض أملاكه كما ذكرناه بالتفصيل فى الجزء الأول من هذه الرحلة (رحلة سنة ١٩٢٥) أخذ الألمان يفكرون فى إنشاء مستعمرة لهم بتلك الأصقاع وأخذ مندوبو الشركة الألمانية للاستعمار يعملون على تحقيق هذا الغرض منذ عام ١٨٨٤ وفى طىّ الخفاء . وكان من بينهم ثلاثة فى غضارة الشباب أولهم كارل بترس والثانى يواقيم كونت بقايل والثالث الدكتور جولكى فنجحوا فى إبرام معاهدة مع أحد مشايخ جهة أوزامبارا التى كانت مستقلة وقتئذ عن سلطان زنجبار وعقبوا هذا الاتفاق باتفاقيات وتسويات أخرى . وفى ١٧ فبراير عام ١٨٨٥ شمل قيصر ألمانيا الشركة برعايته وحمايته ، فعارضت زنجبار فى ذلك ولكن انكلترا وافقت على عمل الألمان وفى آخر الأمر حملت حكومة زنجبار على الاعتراف بهذه التصرفات والتنازل للالمان عن جزء من أراضيه الواقعة جنوبى مصب نهر أومبا .

وكانت الشركة الانكليزية قد تملكت الأراضى الواقعة شمالى هذه البقعة وعلى أثر ذلك اتسع نطاق الأملاك الألمانية بمقتضى ما أبرمته من الاتفاقات مع انكلترا والبرتقال وحكومة الكونغو البلجيكية . وفى سنة ١٨٩٠ باعت حكومة زنجبار لألمانيا الأراضى السابق ذكرها كافة فى مقابل مائتى ألف جنيه . وفى أثناء تلك المدة تأسست جملة شركات ألمانية لاستخراج خيرات تلك البلاد، وتأسست أيضا الشركة الألمانية لأفريقيا الشرقية وبهذه المثابة حل الألمان محل العرب فى إدارة شؤون البلاد كلها وتنظيمها . وبعد قليل ثار العرب على الألمان فى المنطقة الساحلية وعجزت الحكومة المحلية عن اخماد نار الثورة . فجاء الضابط هرمان ويسمن الذى كان البرنس دى بسمرك جعله مندوبا أمبراطوريا فى البلاد ومعه ألف جندى أكثرهم من السودانيين ومنهم من أشرت اليهم فى هذه الرحلة بقيادة ضباط ألمانيين وبعض رجال الأسطول الألمانى، وحارب العرب فى سنة ١٨٨٩ وقمع ثورتهم وألزمهم الطاعة، وبقى ويسمن فى البلاد الى سنة ١٨٩١ ثم عين حاكما على المستعمرة.

وفى سنة ١٨٩٧ نشر إعلان ببيان حدود السلطة الألمانية وقد تحسنت الأحوال وساد الأمن واستتب السكون بحسن تدبير ذلك الرجل . وكان خلفه فى منصبه كارل بترس فوقعت بينه وبين أهل البلاد بجهات كليمانجارو حوادث اضطرتهم الى رفع لواء العصيان فسار فى قمع فتنتهم بالشدة والقسوة وارتكب من الفظائع ما أدى الى محاكمته وعزله . على أن السلام لم يستقر الاستقرار كله بهذا التدبير إذ هبَّ الأهلون الى الثورة ضد المستعمرين فى جهات مختلفة ولكن تمكن هؤلاء من إخمادها ثم نظموا الأحوال فعهدوا السلطة الفرعية فى مختلف الأقطار الى الشيوخ وأرخوا لهم العنان بعض الشىء واحتفظوا لأنفسهم بالسلطة العليا المركزية. وحدثت فى سنة ١٩٠٥ معارك بينهم وقبائل البانتو .

وترجع أسباب هذه الحركة الاضطرابية الى التسخير فى الأعمال الخاصة والعامة، فان الأهلين الذين ساءهم هـذا الإكراه رفعوا لواء العصيان ونادوا بالثـورة وانضم اليهم كثيرون من سكان الأقطار المجاورة فقتـل عدد ليس بالقليل من الأوروبيين والمبشرين . وقد استدعى الألمـان قوة عسكرية من السودان وغنيا الجـديدة، وتواردت النجدات المؤلفة من رجال البحرية الألمـانية فانتهى الأمر فى سنة ١٩٠٦ باستقرار الأمن وعودة السلام الى نصابه .

والمعروف أنه قتل من السود فى تلك الحوادث ما يزيد على مائة وعشرين ألف نسمة . وفى عام ١٩٠٧ زار هِرْ درنبورغ تلك المستعمرة، وكان وزيرا للمستعمرات، فكان من نتائج زيارته وتعهـده للأحوال ودرسـه إياها بالدقة أن تركت وسائط القمع بالشـدّة والعنف وصرفت الهمم الى توسيع نطاق المشروعات الاقتصـادية وتعزيزها . وبقى الألمـان آمنين مطمئنين فى مستعمرتهم هـذه الى أن شب ضرام الحرب الأخيرة فانتزعها الانكليز من أيديهم بعد أن عانوا منهم ما أدهشهم من المقاومة الشديدة (مقتبس من المعلمة البريطانية — الانسكلو بيديا بريتانيكا) .

بحـــيرة تنغانيقـا

كلمــــة عنها

تمتـاز بحيرة تنغانيقا بطولها الذى يتجاوز طول جميع البحيرات العذبة فى العـالم كله . ويبلغ ارتفاعها على سـطح البحر ثمانمـائة وكسرا من الأمتـار . أما طولها فستمائة وخمسون كيلو مترا تقريبا وعرضها فى أوسع نقطة منها يربو على سبعين كيلومترا وليس ماؤها جيـدا . وأول مستكشف لهـا هو الرحالة بورتون الذى فتح بهـذا الاستكشاف بابا ولجه من بعده رحالة كثيرون أتمّوا العمل الذى بدأ من استكشاف ووضـع خرائط كالرحالة لفنجستون واستانلى وكامرون وغيرهم . وكانت فى بادئ أمرها مقسمة بين الألمـان والانكليز والبلجيك فلمـا وضعت الحرب الكـبرى أوزارها أصبحت مشـتركة بين الدولتين الأخيرتين على أثر زوال الحكم الألمـانى فى تلك الأصقاع .

وللقارئ الآن كلمة من كتاب السير ريشارد ف . بورتون مستكشف البحيرة فقد قال بعد أن أسهب فى الكلام عليها من كل الوجوه كما يأتى :

« وبعد أن سرنا فى مدى خمسمائة وسبعة وثلاثين ميـلا جغرافيا وعلى استقامة واحدة من الشاطئ الشرقى وصلنا فى ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨ الى أعالى الجبال الكثيرة الغابات المتصلة بالجهة الشرقية من بحر أوجيجى . ومن المنحدر الغربى لهذا المكان رأينا امتداد بحيرة كان اسمها ما زال مجهولا منا . وبعد بضعة أشهر بينا كنت أقرأ الرحلة الأولى من رحل الدكتور لفنجستون وجدت فى الباب الرابع والعشرين منها أن صاحبها كان قد آلتقى بجماعة من العرب فى نالبلى الواقعة فى بطن القارة الإفريقية

وسمع لفظ تنغانيقا فعرف بعد الاستعلام والاستيضاح أنها بحيرة كبيرة قليلة العمق وان القوارب تسير فيها . وكنت قد أرسلت الى انكلترا فى ذلك الوقت لأذيع اسم تنغانيقا باعتبار أنها ملتقى للمياه ... الخ » .

يوم ٢١ مارس — قضينا يومنا فى مركبات السكة الحديدية وفى منتصف الساعة السابعة تقريبا تحرك القطار فى اتجاه دار السلام .

يوم ٢٢ مارس — مررنا فى طريقنا بمناطق مرتفعة مكسوة بالغابات والأعشاب وهنا يكثر العرب أو المولدون منهم وهم مسلمون . وقد شهدنا فى طريقنا مزارع الذرة، وبخاصة عند ما قربنا من طابورا، وزراعة الأرز. ولا ترى الغابات هنا على مقربة من السكة الحديدية. وقد وصلنا الى طابورا فى منتصف الساعة الأولى تقريبا فبقينا بها حتى منتصف الساعة السابعة مساء حيث استأنف القطار مسيره صوب الشرق .

أما طابورا أو تابورا فمدينة أنشأها العرب حوالى سنة ١٨٣٠ كما أنشأوا سائر المدائن التى يدل ظاهر لفظها على أنها عربية كدار السلام وكريمة وغيرهما. و بعض هـذه المدن وإن دل ظاهر لفظه على أنه زنجى فقـد كان الى زمن قريب أى الى عهد الحكم العربى من المراكز المهمة .

يوم ٢٣ مارس — وصلنا الى محطة غولو فى منتصف الساعة الثانيـة بعد الظهر. واذ قد عُيِّنَتْ لنا هذه النقطة لصيد الكودو فأمضينا الليلة وقدوجدت فيها الكثيرين من المسلمين والهنود ولا أدرى كيف انتشر فى هـذه البلاد خبر وصولنا اليها، فانا كنا كلما وقف القطار احتشدت حولنا جموع كثيفة منهم .

يوم ٢٤ مارس — كلفت بالأمس رجلا بأن يحضر لى من قرية مپاپوا حميرا وحمالين لنقل الصناديق والخيام فعاد اليوم صباحا بثلاثة رجال وحميرهم وكان

أحدهم جنديا دنكاويا ممن حشدهم الألمان فى أول عهد احتلالهم البلاد والثانى من أهل أسوان ، وكان حضوره بعد هذا الاحتلال بعامين والثالث حبشيا جلاويا حضر بجندى مع الدكتور ويسمن وهم جميعا يعرفون العربية ويتخاطبون بها وإن نسوا بعض ألفاظها . وربما كان الجندى الدنكاوى أكثرهم إجادة للنطق بها وأحقهم بالامتياز فى ذلك على صاحبيه .

يوم ٢٥ مارس — خرجت والنبيل سليمان داود وخرج النبيل عمر حليم منفردا وبقى على بك شريف والطبيب ، أما حسين بك أيش ففى دار السلام يقضى لنا بعض الحوائج . ولقد طفنا فى الغابة التى تكسوا منحدرات تلك الجبال وأسنادها للبحث عن الكودو . وكان السير شاقًا فى بعض جهات منها لتكاثف الأشجار الشائكة وتعانق أغصانها ، وأبصر النبيل سليمان بثلاثة من ذلك الحيوان ، أما أنا فلم أر سوى حيوان من نوع الدويكر[1] الصغير وعدنا بعد ذلك الى مقرّنا وقد مالت الشمس الى المغيب ، ولم يصد النبيل عمر حليم شيئا .

يوم ٢٦ مارس — قضيت النهار فى مكانى وقد خرج النبيل عمر حليم فى طلب الصيد فلم يقع بصره إلا على ثلاثة حيوانات . وخرج لهذا الغرض النبيل سليمان داود مع الطبيب فلم يعثرا على صيد وكانت عودتهما بعد الظهر .

يوم ٢٧ مارس — عزم رفاقى على الذهاب الى النقطة المعروفة باسم ميوايوا ومنها الى سجالًا التى اشتهرت بكثرة الصيد فى أرباضها وقد استأجرنا سيارة كبرى لنقل الأمتعة واللوازم وأرسلنا بعضها اليوم الى ميوايوا حيث توجد نقطة للأطباء البيطريين التابعين للحكومة . وقد عاد النبيل عمر حليم قبيل الغروب دون

(1) Duiker (Cephalophus grimma).

أن يرى سوى اثنين من حيوان الكودو، أما الطبيب فقد صاد دجاجة وبعضا من طير القُمْرِىّ .

يوم ٢٨ مارس — سافر رفاقى فى الصباح الى سِجاَلا ووصل الى هنا حسين بك أيبش عائدا من دار السلام . أما أنا فقد خرجت مبكرا فى طلب الصيد فبعد أن قطعت فى الغابات شوطا طويلا عثرت بعد الظهر على ست من الظرافات. وإذ كنت لا أروم صيد هذا الحيوان الوديع فقد تركتها وشأنها وعدت قبل الغروب الى مأوانا .

يوم ٢٩ مارس — لم أزايل مكانى التماسا للراحة ورغبة فى مطالعة الصحف التى أحضرها برسمى من دار السلام حسين بك أيبش .

يوم ٣٠ مارس — اعتزمت الرحيل الى نقطة أخرى فى جنوب غولو إذ قيل لى إن الحيوان المرغوب فى صيده كثير بها وانما بالنظر لقلة الحمالين آثرت البقاء فى مكانى واكتفيت بمن وجدته من الرجال فى متناولى لأنى اعتزمت الرحيل فى البكور .

يوم ٣١ مارس — تحركنا فى الصباح صوب الجنوب الغربى فقطعنا ثمانية كيلومترات أو عشرة وصلنا بعدها الى سلسلة جبال فتفرغنا للصيد فى غضونها ثم انحدرنا فيما وراءها وحططنا رحالنا على مقربة من مياه جارية وقرية آهلة بالسكان .

يوم أول أبريل — استأنفنا المسير فوصلنا الى قرية أخرى وها نحن أولاء الآن فى بقعة جميلة على قنة جبل تكتنفه جبال أخر شامخة كسيت من الأشجار

والأعشاب ببساط سندسي . وكان وصولنا الى هنا قبيل الظهر فتغذينا ثم سرت أنا وحسين بك أيبش قبيل الساعة الثالثة نصيد آونة ونتزل أخرى للبحث عن الكودو فوجدنا أنثى تركناها وشأنها . ولما دنا الغروب عدنا قبيل الساعة السابعة فعلمنا من رجالنا أنهم لمحوا بعضا من الكودو على منحدر الجبال التي يبلغ ارتفاعها في هذا المكان ألفا ومائة وخمسين مترا . تقريبا وهذا المكان معروف باسم وُتا .

يوم ٢ أبريل — أمضيت الليلة في اضطراب لتلبك في المعدة فلم أستطع الخروج للصيد . وقد جاءنا رجل أخبرنا بأنه سمع الكودو ولمحه وهو يرعى بالقرب من مزارع الذرة في الوادي ، فلما كان بعد الغذاء سار حسين بك أيبش للبحث عنه في النجاد وقمم الروابي ثم عاد قبيل المساء ولم يصد شيئا .

يوم ٣ أبريل — انطلق حسين بك صباحا في طلب الصيد فلما عاد مساء قال إنه لمح ثلاثة من الكودو متوسطة الحجم . أما أنا فخرجت بعد الظهر لهذا الغرض فلمح بعض رجالي أربعة منها وقالوا إن من بينها ذكرا كبير القرنين وإنها ربما كانت راقدة فلما مررنا على مقربة منها نفرت وابتعدت حتى توارت عن ناظري فاقتفينا أثرها منحدرين الى واد ضيق فما كدت أصل الى مرتفع كثيف الأشجار حتى سمعت هذا الحيوان يثغى ثُغاء الذعر إلا أنه فر ثانيا دون أن أعلم الى أين فر فاندفعت أبحث عنه غير أن الضباب كان قد اشتد والليل قد جن فعدت الى الخيام .

يوم ٤ أبريل — كنت في فراشي واذا برجل وافاني بخبر مؤداه أن ثلاثة من الكودو ترعى بالجبل المقابل لنا أي في المكان الذي تركتها فيه بالأمس فلم أشأ أن أخرج لصيدها في مثل هذه الساعة التي تفيء فيها الى الظلام لطلب الراحة لأن من عادتها اذا أقبل الليل أن ترتاد المراعي الخصيبة ويسهل على الصياد صيدها .

واذا كانت الساعة منتصف الرابعة فقد قصدت الى الجبل متجها صوب نقطة قريبة من مزرعة تجتذب ذلك الحيوان الى الدنو منها . وقد ذهب حسين بك للبحث عن الصيد ، وسرت أنا صاعدا فى الجبل فلما بلغت الى منتصفه لمحت على القمة ثلاث أناث ووجدت ذكرا كبيرا يتبعها . فانتظرت لحظة ريثما تتوارى الحيوانات بالأشجار ثم صعدت الى مكان لمحتها منه ولكنى لم أقف لها على أثر لكثافة الآجام . عندئذ نزلت ، لا سيما وقد جن الليل ، وأخذت سمتى الى الخيام . و بينا كنت فيها أتعاطى شراب الشاى إذ جاءنى أحد رجالى يخبرنى بأن الحيوانات نزلت الى واد صغير بالقرب من مكاننا وأنها ترعى الذرة فبادرت بالذهاب الى المكان المنشود ولكنها توارت مرة أخرى فلم أعد أرى لها أثرا . وحينما عاد حسين بك أنبأنى بأنه لم يجد أثرا للصيد فى كل مكان حل به .

يوم ٥ أبريل — سبقنى حسين بك الى ما وراء الجبل وكنت أريد التربص بالحيوانات على مقربة من مزرعة الذرة التى جاءت لترعاها أمس ورافقنى أحد الزنوج ولكن لم يدرك مقصدى فأخذنا ننتقل من بقعة الى بقعة دون أن نهتدى الى المكان المنشود . عندئذ أرجعته الى الخيام ليوافينى بالرجل الذى يعرف التخاطب بالانكليزية فلما حضر لم نهتد أيضا اليها رغم ما بذلته و إياه من الجهود فأنفذت الزنجى مرة ثانية الى الخيام ليجىء بالرجل الذى كان مرافقا لى واستغرق كل هذا زمنا طويلا ومالت الشمس الى المغيب فعدت أدراجى الى الخيام ، وفى منتصف الساعة التاسعة من المساء عاد حسين بك فقال إنه ذهب الى نقطة بعيدة وأنه اهتدى الى الحيوانات ، ولكن الظلام كان قد أرخى سداله ولم يكن ليتسنى له أن يطلق بارودته على أى هدف ما .

يوم ٦ أبريل — عاد حسين بك أبيش بعد الظهر الى المكان الذى كان به فى الأمس كى يمضى به الليل مترقبا حضور الصيد فى مساء اليوم أو صباح غد . وجلست أنا فى زراعة ذرة على مقربة من الخيام مترقبا حضور الحيوانات اليها للأكل منها ، وظلت فى مكانى حتى مدّ الظلام رواقه على الأفق ثم عدت دون أن يقع نظرى على شيء ما من الصيد .

يوم ٧ أبريل — فى مساء اليوم تنتهى مدّة رخصة الصيد وقد عاد حسين بك فى الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم ولم ير حيوانا . وقد أقمنا تحت الخيام للاستراحة والاستعداد للرحيل غدا فى الصباح للعودة الى غولو التى كنا نتوقع أن يصادف وصولنا اليها وقت وصول رفاقنا أيضا .

وقد شهدت اليوم كيفية تنظيف الشعر عند القوم فان الذين يريدون تنظيف شعورهم يجلسون مولين ظهورهم نحو أشخاص آخرين يقوم كل منهم بتنظيف شعر الجالس أمامه . أما العملية الأولى فهى تجريد تلك الأجمة الكثيفة القذرة واخلاؤها من ساكنيها العديدين القذرين وتمشيط الرأس بفرع دقيق من فروع الشجر بأن يجيل طرفه فى داخل الشعر الكث الشعث دافعا إياه الى أعلى .

يوم ٨ أبريل — رحلنا صباحا صوب غولو فوصلنا اليها فى الخامسة بعد الظهر . وما مضى يسير زمن على وصولنا حتى جاء رفاقنا جميعا من سجالا مكان صيدهم وانتظم بهم شملنا وقد صاد كل منهم أنواعا مختلفة من الغزلان الموجودة بتلك البقاع كالغزلان مع نوع غرانت ونوع إيلنْد (Eland)[1] ، وهو نوع من الثور البرى ، والأمپالا (Impala) والمها من نوع كولوتيس (Oryx collotis) .

---

(١) ويعرف فى السودان بالجُعُع Eland (taurotragus orias).

يوم ٩ أبريل — قضينا اليوم هنا واذ كنا نريد إمضاء يومين فى دار السلام فنحن ننتظر القطر الذى يقلنا اليها بعـد باكر . وقد حضر الينا اليوم سـودانى ممن حشدهم الألمان فى مصر لاحتلال هذه البلاد وروى علينا قصة سياحته مع الألمان الذين ذهبوا الى وادلاى لينقذوا أمين باشا (الدكتور شنتزر) وجنده وقد ذكر أن رجال أمين باشا أبوا إخلاء وادلاى وروفيلى فسار الى الجنوب تاركا بعض رجاله بروفيلى ووادلاى . وقد رأيت أن هـذا الرجل يحسن العربيـة ويسكن مع بخيت بقرية بجّالا .

يوم ١٠ أبريل — أمضينا سحابة اليوم فى منزلنا بجوار محطة غلوة .

يوم ١١ أبريل — قمنا بقطار الساعة الحـادية عشرة صـباحا وأمضينا الليلة فى الطريق ومررنا ببعض مزارع الذرة .

يوم ١٢ أبريل — وصلنا فى الساعة السابعة من الصباح الى مدينـة دار السلام عاصمة مستعمرة تنغانيقا .

يوم ١٣ أبريل — نزلنا أمس فى فندق (نيوأفريكا أوتيل) وهو لرجل يونانى . وقد طفت اليوم بالمدينة وسوقها والحى الوطنى منها فرأيت أنها لا تختلف كثيرا عن غيرها من مدن الشرق وأنها كباقى مدن إفريقيا الشرقية تكاد تكون مدينة هندية أكثر منها إفريقية والتجارة فى أنحاء أفريقيا الشرقية بأيدى الهنود، وهم منتشرون فى أنحاء البلاد كافة . ومما لاشك فيه أن هناك تجارا من أهل البلاد أى من العرب المولدين لا من الزنوج لأن هؤلاء مابرحوا متأخرين، وهم اذا زاولوا عملا لا يبلغون فيه الى أرقى من الخدمة بالمنازل .

ولمدينة دار السلام منظر ليس فى شىء من منظر نيروبى أو منبسى إذ لا تكثر الجبال بقرب المدينة بل ترى الأرض من حولها صعيدا مهدته يد القدرة تمهيدا. وفيها منازل حسنة كانت فيما سبق للألمان وطرق ممهدة تحف بها الأشجار من جانبيها . والظاهر أن أصحاب الأملاك فيها لا يعنون بتشييد المبانى الجديدة . أما مخازن التجار فأقل شأنا بها منها فى مدينة نيروبى مثلا وليس من الميسور لأحد أن يجد على الدوام فيها كل ما قد يحتاج اليه. وللهيئة الحاكمة بوليس اذا كان زيُّه حسنا وهندامه جميلا فانه لا ينتعل الأحذية أبدا. والجيش هناك يسمى (Kings' African Rifles) كما يسمى كذلك فى كينيا وأوغندا ورجاله خليط من مختلف الزنوج وأكثرهم من جهات أوغندا . أما ضباطه فمن الانكليز . ويقيم هنا بعض أفراد من الألمان يعملون فى التجارة وقد شارفت ثغر دار السلام فاذا به من الثغور الطبيعية التى يغلب عليها أن تكون خليجا ضيقا . وقد شهدت فى مياهه المراكب والبواخر الصغيرة التى كانت للألمان وأغرقوها قبل جلائهم عن البلاد ثم عومت . وتمر بهذا الثغر سفن ألمانية وفرنسية وهولندية وانكليزية وايطالية، وبين دار السلام وجزيرة زنجبار اتصال مستمر بالبواخر الصغيرة مرة أو مرتين فى كل أسبوع والمسافة بينهما مسيرة بضع ساعات بها .

يوم ١٤ أبريل — تحرك ركابنا فى المساء عائدين الى الكونغو البلجيكى عن طريق كيغوما .

يوم ١٥ أبريل — أمضينا اليوم بالقطار .

يوم ١٦ أبريل — مازلنا بالقطار وفى الثلث الأخير من الطريق. وتكثر فيه الغابات الى جانبى السكة الحديدية دونها فى الثلثين الأولين والمطر متواصل سقوطه ولكنه غير غزير .

يوم ١٧ أبريل — وصلنا الى كيغوما صبيحة اليوم فانتقلنا الى الباخرة التى حضرنا فيها من الكونغو . وجاءنى اليوم عربى يحمل إلىّ فاكهة من قبل أحد التجار العرب المقيم فى البرتفيل . وقد علمت منه أن الشطر الأكبر من سكان أوجيجى القريبة من كيغوما هـذه مسلمون وأن عددهم يتجاوز خمسة الآلاف . وجاءنا شاب ليسألنا أن نرشده الى كيفية تلاوة خطبة الجمعة بالمسجد وعلمنا منه أنهم يدعون لسلطان المسلمين إلا أنه غير معروف عندهم . وطلب الينا أن نوقفه على حقيقة من تقرأ الخطبة باسمه . ولما لم يك فى الوقت الحاضر خليفة للمسلمين فقد أفهمناه ذلك وانصرف .

يوم ١٨ أبريل — سافرنا بعد الظهر بالباخرة الى ألبرتفيل ووصلنا اليها فى صبيحة ١٩ الجارى .

يوم ١٩ أبريل — انتقلنا من الباخرة الى قطار خاص تحرك بنا توا الى كابللو فوصلنا اليها مساء ووجدنا باخرة للبضاعة أقل درجة بكثير من التى سبقت الاشارة اليها فى الكلام على رحلتنا من استانلى فيل الى هنا . وقد قيل لنا إن بالباخرة مايلزمنا من الطعام ولكنا لم نجد شيئا فآل بنا الأمر الى أن نكون والبضاعة سواء ،



شاطئ نهر الكونغو

فى حين الشقة ستكون طويلة إذ سيستغرق السفر ونحن بهذه الحال ستة أيام وصالا حتى نبلغ الى بوكاما .

يوم ٢٠ أبريل — تحركت الباخرة وهانحن أولاء الآن نشق نهر الكونغو بعد أن فارقناه أمدا من الزمن . وقد قيل لنا إن نبات البَرْدِىّ كان قبل وصولنا بأيام يسدّ الممر وإن هناك ممرا ضيقا للبواخر تحفُّ به من جانبيه أخشاب وضعت لتحول دون انسداده بمنعها ذلك النبات من التراكم فيه . غير أن نبات البردى تنفصل منه قطع كبيرة فى أثناء الفيضان فتطفو على الماء وتعلو على تلك الحوائل فتنصب فى مجرى الممر حتى اذا انخفضت المياه تراكمت تلك القطع وتضامت بعضها الى بعض وسدّت الممر . وفى العصر وصلنا الى نقطة تكثر فيها الآجام والمستنقعات بين النهر والغابة فرأينا من الجاموس البرى عددا كبيرا فأصبت ثلاثة منها ببارودتى وأنا على ظهر الباخرة إلا أننا لم نستطع الوصول اليها لتكاثف الأعشاب والأدغال وعلوّها . وقد نزل حسين بك أيبش الى المكان الذى اختفت الجاموسة الثالثة الجريحة فيه من البر وبقيت بالباخرة أرقب حركته ، فلما دنا من المكان المقصود رأيت جاموسة تريد الانقضاض عليه والفتك به فرماها برصاصتين تباعا وأطلق عليها حامل البندقية الثانية رصاصتين أخريين ثم كرّ حسين بك عليها برصاصة ثالثة حتى ماتت وقد ربطها حسين بك بطرف السلك الذى تربط به الباخرة وسحبت الى السفينة على هذا الوجه فاذا بها ذكرا كبير القرنين ولما لم أتأكد من أن هذا الجاموس هو الذى جرحته فقد تركته لحسين بك . وهذه الحيوانات كثيرة فى هذه المنطقة . وبعد الغروب بقليل بلغنا الى قرية فأمضينا بها ليلتنا لتزويد الباخرة ما يلزمها من الوقود .

يوم ٢١ أبريل — استأنفنا المسير صباحا وقد خبّرنى ربان السفينة أنه بصر بحيوان فصعدت الى ظهر الباخرة وصوّبت بارودتى اليه على الفور فأصبته

للمرة الثالثة على بعد مائتى متر منى تقريبا . ولما صرعته نزل بعض رجال الباخرة للبحث عنه ثم لم يلبثوا أن عادوا ، إلا أنهم حزُّوا رقبته بالرغم من صياحنا بهم ألا يفعلوا . ولست أدرى من أى نوع هذا الحيوان ولكن اذا كان الحكم على نوع حيوان وفصيلة بهيئة قرنيه فيكون من نوع البوكو[1] أو بهيئة جسمه وتركيب أعضائه



البوكو

(1) Puku (Adenota Vardony) البوكو بلغة نجامى نوع من المها

أو بلون اللطع التى عليه فيكون من نوع الأوغندا كوب[1] ولا يبعد أن يكون من هذا النوع لولا أنى أميل الى عدّة من النوع الأوّل .

طول قرن اليوكو (؟) ١٣ أنشا (بوصة)

المسافة بين القرنين ٥½ أنش (بوصة)

وقبيل الغروب لمحت ذكرا آخر من هذا النوع فرميته برصاصة أصابت فخذه والراجح أنه أصيب من الرمية الثانية فى أحشائه وكان موجودا فى مستنقع بين الأدغال التى كانت تعلو على جسمه فنزل حسين بك أيبش فى قارب للبحث عنه فلم يجده فانطلق للاهتداء اليه بعض رجال الباخرة فلم يقفوا له على أثر .

يوم ٢٢ أبريل — وصلنا الى منتصف المسافة بين كاللو وبوكاما ومررنا على قرى صغيرة عديدة وفى إحدى هذه الجهات مناجم للنحاس والقصدير . وقد أغرق الفيضان كل القرى القريبة من مجرى النهر وعلت المياه حتى سترت من المساكن نصفها الأسفل ، والمواصلات بالقوارب . ولم نلمح اليوم حيوانا بريا لكثرة السكان وزيادة العمران وانتشار مزارع الذرة . وقد وصلنا بعد الغروب الى نقطة تعرف باسم كالا وهى غير كاللو المذكورة آنفا فوجدنا بها اسبانيا وزوجته وبرتغاليا وكلاهما يتجر بالذرة ويورد الدقيق الى الحكومة وشركة المناجم ولهما مطحن وبستان فيه برتقال وجوافة ورأينا هنا بنات آوى مستأنسة .

وقد أخبرنا الرجلان الآنفا الذكر أن فى هذه البقعة تكثر الأسود والفيلة والجاموس وغيرها من الحيوانات .

ولكن لاتساع منطقة الفيضان وتراكم البردى لا يمكن الوصول الى الأرض اليابسة إلا بعد عبور أكثر من كيلو مترين خوضا فى الماء وبين أغصان البردى .

(1) Uganda Cob (Adenota Kob)

يوم ٢٣ أبريل — قصدنا صباحا الى بحيرة سيسالى باقليم كتانغا فألفيناها مسدودة سدا محكما بالبردى .



منظـــر نهـــر الكونغو

وكانت باخرتان هناك يحصرهما هـذا النبات فلا تستطيعان التقدم ولا التأخر . وكان هـذا هو الشأن بالنسبة للباخرة التى أشرنا الى صورتها . وقد استطاعت إزالة البردى على مدى ثلاثة أو أربعـة كيلو مترات ولكنه لا يزال أمامها منـه ما طوله ثلاثة كيلو مترات أخرى على الأقل . وليس لدى الحكومة حتى الآن باخرة كالتى فى منطقة السدود بالسودان لإزالة الأعشاب . والطريقة المتبعة هنـا هى أن يقطع رجال الباخرة نبـات البردى بسكاكين كبيرة ولا يعـلم إلا الله متى يتاح لهـا قطع ثلاثة الكيلو مترات الباقية . وفى هـذه المنطقة قد تفشّى مرض النوم لكثرة ذباب

تستيتيى . هذا وقد أخذت باخرتنا تتقدم الى الأمام تارة وتتراجع الى الخلف أخرى لانتزاع قطع البردى وفتح ممر لنا من بينها، ثم عدنا وعادت الباخرة الثانية الى إحدى القرى حيث قضينا الليلة .

يوم ٢٤ أبريل — آثرت العودة الى الشمال للبحث عن صيد ريثما يتم فتح الطريق فتحركت الباخرة صباحا وأوغلت فى النهير المعروف باسم لوفوى حيث ألقت مراسيها تجاه إحدى القرى .

يوم ٢٥ أبريل — عدنا اليوم الى مكاننا بالأمس ووصلت باخرة أخرى تدعى البرنس ليوبولد وعلمنا فى المساء أن باخرة غيرها مرت من البحيرة وأن الطريق فتحت فاعتزمنا السير أثر البرنس ليوبولد غدا صباحا .

يوم ٢٦ أبريل — سرنا كما فى اليوم الماضى فوصلنا الى المكان الذى كنا فيه أول أمس فألفينا الممر مسدودا . وكانت أمامنا الباخرة الآنفة الذكر وأخرى تقطعان السدود وكان لا يزال أمامهما من البردى الذى يجب قطعه ما يبلغ سمكه خمسمائة متر . وقطع السدود تنحدر عادة مع التيار . ولقد استطعنا فى آخر الأمر أن نمر وأن نجتاز المنطقة المسدودة وأمضينا الليلة تجاه إحدى القرى .

يوم ٢٧ أبريل — استأنفنا السير وقد صِدْتُ ذكرا من البوكو وفى الساعة الخامسة بعد الظهر وصلنا الى بوكاما (Bukama) ، وهى مدينة صغيرة أنشئت حديثا على النهر واليها تنتهى الملاحة بالسفن الكبيرة لتعذر مواصلة السير بها لانخفاض المياه وهنا تبتدئ السكة الحديدية الموصلة الى الكاب .

طول قرن البوكو الثانى ¾ ١٣ انشا .

ولقد تبين لى هنا مرة أخرى أن رجال الإدارة يجهلون الجهات المجاورة للمنطقة التى فيها مقر حكمهم فلقد سألت من يسمونه المدير أو مأمور المركز عن الطريق المؤدية الى أنغولا البرتقالية فأجابنى بأنه لا يدرى ، مع أن هذه المنطقة أقرب المناطق لأنغولا ومنها تسير السيارات للانتقال من الأراضى البلجيكية الى الأملاك البرتقالية .

يوم ٢٨ أبريل — سافرنا فى المساء بقطار خاص الى كميتا وهى قرية تبعد عن هذا المكان بمقدار ١٤٥ كيلو مترا .

يوم ٢٩ أبريل — وصلنا فجرا الى كميتا حيث لبثنا بضع ساعات وفى الظهر تغذينا ثم تحركنا بالسيارات واستأجرت أربع سيارات أخرى وكانت أجرة نقل الطن الواحد على مسافة كيلو متر واحد إثنى عشر فرنكا بلجيكيا ونصف فرنك وكان وزن ما معى من الأثقال أربعة أطنان وبضع مئات الكيلو غرامات ومدى المسافة كلها أكثر من ١٧٠٠ كيلو متر .

ولقد وصلنا مساء الى قرية ماتو فى منتصف الساعة السابعة تقريبا فقابلنا مأمور المركز وكان قد أعد لنا منزلا أمضينا فيه الليلة وصاد أحد سائق السيارات المستأجرة قُطًّا بَرِّيًّا وقال إنه لمح أسدا على الطريق .

يوم ٣٠ أبريل — استأنفنا المسير الى قرية لوامبي فمررنا بها قبيل الظهر ثم استأنفنا المسير الى لوبيش ، فوصلنا اليها بعد عبور النهير المعروف بهذا الاسم فى منتصف الساعة الثالثة تقريبا . وقد رأينا فى طريقنا كثيرا من أثر الأسود . وقيل لنا أن الفيلة والجاموس وغيرها من ذوات القرن كثيرة فى هذه الأصقاع .

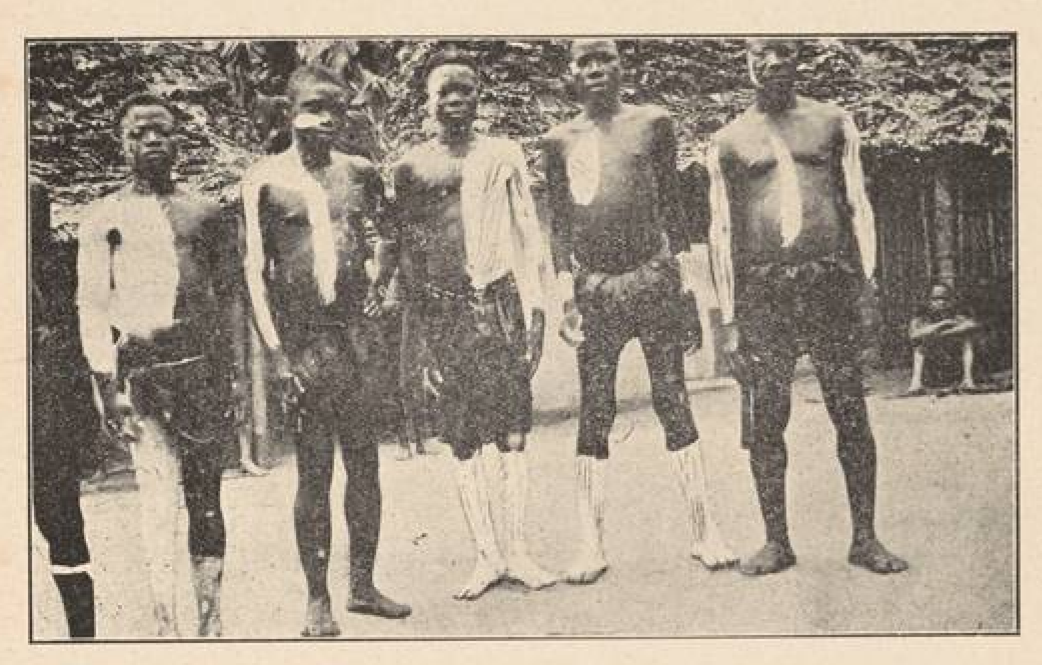
يوم أوّل مايو — وصلنا الى قرية متاديتو حيث سكنى الرجل الذى استأجرنا السيارات منه وقد تعشينا مع زوجته وعبرنا فى طريقنا نهرين وأمضينا الليلة هنا .

يوم ٢ مايو — سافرنا صباحا الى نهر يجرى بجوار القرية المسماة باسمه أى نهر لوكا لانجى فقطعنا مائة وخمسة وثلاثين كيلو مترا . وقد لاحظت أن المزارع كثيرة ، وإن تكن ضيقة المساحة . وفى هذه المنطقة مناجم الماس غير أن إيرادها قليل على قول مندوب الشركة صاحبة الامتياز . ويوجد الألماس هنا بمجارى النهر أو الغدران . وبعد أن عبرنا النهر قصدنا الى عزبة مسترهل ، وهو هذا المندوب فأكرم وكيله وفادتنا وحضر هو بعد العشاء وبقى معنا مدة ثم استأذن ، والمستر هل أمريكى الأصل . وقد هطلت الأمطار بغزارة .

يوم ٣ مايو — سافرنا صباحا فوصلنا الى مقرّ البعثة الدينية الأمريكية الواقعة بين مثوانا فى الأمس وقرية كتنده (Katanda) فلقينا من رجال الارسالية كل إكرام وأمضينا الليلة بالمستشفى التابع لها فى هذه الجهة . وقد لاحظت فى طريق أمس أنه اذا أراد وطنى أن يسلم على أرفع منه شأنا وأكبر مقاما جثا على ركبته وصفق بإحدى يديه على الأخرى مرات متوالية فيحييه هذا الكبير بأن يقرع بإحدى يديه اليد الثانية وأن أحدهم اذا ودّ المثول بين يدى السلطان صبغ وجهه بلون أبيض . وتبين لى ازدياد عدد معتنق الديانة المسيحية فى القرى القريبة من مركز البعثة إلا أنى لم أر أثرا باقيا لهذا التحول من عقيدة الى عقيدة لا فى أحوالهم المعيشية ولا فى أخلاقهم وعاداتهم وأطوارهم الاجتماعية .

يوم ٤ مايو — رحلنا فى الصباح فمررنا بقرية بها بعثة للجزويت (اليسوعيين) . وإذ كان عَبْرُ النهر الذى اجتزناه الى هنا يستغرق ساعة لكل

سيارتين وكان عدد سياراتى إحدى عشرة ، فقد تفيأت ظل شجرة ممتدة الأفنان من أشجار العَنْبَة فى انتظار عبورها جميعا . وقد التف بى جمع حاشد من الوطنيين . وحضر فى هذه الأثناء قس فسألنا اذا كنا نقبل منه برتقالا فشكرنا له كرمه ولقد



جماعة من الأهالى ملطخون بالأبيض

بعث الينا بقدر منه . ولما هممنا بنفح أبناء الزنوج الذين حملوا الينا هذه الهدية بمكافأة أبوا قبولها وقال أحدهم بالحرف الواحد :

Attends-moi demonder pére

ثم انصرف وعاد بعد قليل قائلا :

Non !rien, mosieur, c'est pour misruior Dieu, Va bon voyage!

ولما كانت الرائحة المتصاعدة من أجسام هذا الجمع المحيط بنا ينبذها الأنف فقد اضطررنا الى مزايلة مكاننا قاصدين الى قرية كتندى فوصلنا اليها قبيل الظهر. وفيها استفهمنا عن الطريق من أوربى صاحب عزبة . ثم تغذينا فى ظل شجرة

وفى الأثناء وصلت اثنتان من سياراتى وثالثة من السيارات المستأجرة فاستأنفت هذا الطريق قبلنا ، غير أنها أخطأت الغاية المقصودة فاتجهت نحو لولو أبورج بدلا منها الى أمبوى . فلما أردنا اقتفاء أثرها على طريق أمبوى لم نهتد الى أثرها فعدنا أدراجنا فوجدنا بقية السيارات المتأخرة قد وصلت واعتزمنا امضاء الليلة هنا .

يوم ٥ مايو — وصلنا اليوم الى قرية لو بيو وهبطنا فندقا لم يكمل بناؤه ، وهذه القرية قائمة على ضفَّة نهر لو بيو . وقد شهدت فى طريق الى هنا كثرة عدد الزنوج البيض المعروفين بكلمة ألبينوس (Albinos) وهم بيض البشرة وشعورهم بيضاء لا يظن من يراهم أنهم من الزنوج .

يوم ٦ مايو — سافرنا فى الصباح فقطعنا أكثر من مائتى كيلو متر لكى نصل الى شيكابا ، وهنا مركز شركة الفورمينير ، والمدينة الحديثة كلها للشركة وبها مبانى بالطوب الأحمر أو الآجر فنزلنا بمستشفى لم يكمل بناؤه . وقابلنا هنا سكرتير الشركة وهو رجل كريم الشيم .

يوم ٧ مايو — قضينا اليوم فى هذا المكان لإصلاح السيارات ، وقد انقلبت احداها مساء أمس وأصيب سائقها بجرح بسيط فى رأسه ، والروابى كثيرة فى هذا المكان والهواء رطب والشمس يحجبها ما يكاد يكون ضبابا . ولنبات القرع فى أفريقية الزنجية أهمية كبرى ، فان الزنوج يتخذونه إناء للماء وأداة للتدخين ووعاء يصان فيه الغذاء .

والآن وقد أوشكت رحلتى فى بلاد الكونغو أن تنتهى فقد حق علينا توجيه عبارات الشكر لكل من هنرى نوس بك مدير شركة السكر والمسيو لاندجم والمسيو دى شالو وكذا الحاكم العام لمستعمرة الكونغو ولسعادة المندوب السياسى لدولة بلجيكا بالقاهرة لما بذلوه من المساعدة على تسهيل هذه الرحلة .

يوم ٨ مايو — لم ينته ترميم سياراتي فقضيت سحابة اليوم هنا . وقد أمطرتنا السماء مطرا غزيرا واشتدت وطأة الرطوبة ويمكن القول بأن حالة الجو هنا تشبهها في الجهات الشمالية أي فيما بين الرجاف واستانلي فيل . وقد قست موزة من النوع الكبير المنتشر في هذه البلاد فكان طولها ثلاثة وعشرين سنتيًا . وقامة الرجل



كيفية التدخين

من أهل المناطق الوسطى والجنوبية كقامة الرجل الربعة ، فلا هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ولكنها على كل حال أقصر من قامة الرجل من أهل الشمال والوسط الشمالى وان يكن بينهم ضخام العضلات وعريضوا الصدور .

يوم ٩ مايو — وصلنا اليوم الى دوندو بالأملاك البرتقالية (أنغولا) وقد هبطنا منزلا لم يكمل بناؤه ، فكأننا على وعد بسكنى الدور الناقصة . وقد لقينا من لدن مدير شركة الماس البرتقالية الأمريكى وهذا البكباشى توردى فاللى هشاشة وكرما وحسن وفادة . وقد أقبل منتصف الليل دون أن تصل السيارات ولم يكن معنا من الطعام ما يفى ، ولكننا قضينا الليلة فى سرور واغتباط ، والأرض هنا مرتفعة ، وقد هطل المطر غزيرا فى هذه الليلة .

يوم ١٠ مايو — شهدنا اليوم ألماسا مستخرجا من المناجم المجاورة فوجدناها كالحصى البراق المتبلور ولكنه لم يكن من الصفاء والاشراق على ما يدل على حقيقته المعلومة وكثيرا ما يوجد فى مجارى الأنهار وفى منحدرات الشواطئ مختلطا بغيره من الحصى وعلى قاع النهر أو الغدران ، وعندئذ يلتقط بالأصابع . وقد اتصل بى أن مقدار ما يستخرج منه بهذه الجهة فى العام الواحد مائة وخمسون ألف قيراط تقريبا . وقبيل ظهر اليوم سافرنا صوب الجنوب الى قرية كاكمبا الكائنة على مسافة مائة كيلو متر من مكاننا الذى أمضينا فيه الليلة . واذ كنا الآن فى أنغولا البرتقالية فالى القارئ كلمة عنها .

———

أنغولا البرتقاليــة

جغرافيتها، حدودها، مسطحها، تقسيمها، سكانها

تقع أنغولا البرتقالية فى الوسط الغربى من القارة الأفريقية بين درجة ٦° تقريبا من خطوط العرض الجنوبيـة شمالا ودرجة ١٨° تقريبا من هـذه الخطوط جنوبا ثم بين درجة ٢٤° من خطوط الطول شرقا . ودرجة ٥٠َ ١١° من هذه الخطوط غــربا .

أما حدودها فالكونغو البلجيكى شمالا وشمالا بشرق ومستعمرة روديزيا البريطانية شرقا وجنوبا ، ومستعمرة دامارالند البريطانية جنوبا ، والمحيط الأطلنطى غربا . وتبلغ مساحتها ٧٦٨٠٠٠ كيلومتر مربع تقريبــا . وعدد سكانها من الزنوج مليونان ونصف مليون من الأنفس تقريبا (والحقيقة أنه لا يدرى أحد كم عدد سكان هذه المستعمرة) .

طقس مستعمرة أنغولا :

تختلف حالة الجو باختــلاف المواقع وارتفاعاتها فوق مستوى سـطح البحر . وفى الاقليم الواحد تختلف درجة الحرارة والرطوبة باختلاف المناطق . والحــرارة بوجه عام رطبة فى الجهات الغربيــة والساحلية ، وحارّة وجافة فى الجهات الواطئة البعيدة عن مجارى الأنهار الكبرى والبحر . والجوّ يكون معتدلا أو باردا وخاصــة فى الليل بالمرتفعات، أى فى المناطق الجبلية. والفرق بين درجة الحرارة من منتصف الليــل الى منتصف النهــار يتجاوز أحيانا ٢٥ درجة من الميزان المئوى (سنتيغراد) فى هذه المنطقة وبخاصة فى صحراء موساميديس (Mossamedes) .

أمطـارها :

تختلف مواقيت الأمطار باختـلاف مواقع الأقاليم (وفيها تتأخر الأمطار أياما عن مواعيد سقوطها فى الجنوب) بحرية كانت أم جنوبية، وغربية كانت أم شرقية. ويندر نزول المطر فى بعض المناطق كموساميديس مثلا طوال السـنة، فى حين أن سقوط المطر بالجهات الغربيـة الأخرى الواقعة على المحيط كموساميديس المومأ اليها يكون متراد فا وكذلك فى لواندا وغيرها .

وتبتـدئ الأمطار فى أوائل سـبتمبر بالجهات الجنوبيـة والجنوبية الشرقيـة وفى منتصف الشهر أو أواخره بالجهات الشمالية وتكف فى أواخر أبريل أو منتصفه، فالأشهر التى لا تمطر فى خلالها تلك البلاد تمتد من النصف الأخير من أبريل تقريبا الى منتصف سبتمبر .

طبيعة أرض أنغولا :

تختلف أنغولا من حيث المعـدن والارتفاع باختلاف النقط . فتكثر السهول الخضراء والغابات فى الأقاليم الشرقية والوسـط الشرقى والجنوب الشرقى ثم الجنوب الغربى ولكن تخترق البلاد من الشمال الى الجنوب سلسلة جبال تعرف باسم شـلا وتكثر بهـا الغابات ثم سـلسلة تمتد من الشمال الشرقى والجنوب الشرقى الى الغرب وتتخللها سهول واسـعة خضراء . أما السهول الجنوبية فتتصل بصحراء كالاهارى (Kalahari) ودمارالاند (Damaraland) فتكون أعلى المناطق هى المناطق الوسطى الممتدّة من الشمال الى الجنوب ثم تليها فى الارتفاع فوق سطح البحر المناطق الشرقيـة بانحدار منخفض الى الشرق والجنوب ثم الصحراء الجنوبيـة والجنوبية الشرقيـة التى لا تعلو عن سـطح البحر إلا بأكثر من بضـعة أمتار . أما الجهات

الشاطئية فمنخفضة ورملية و إن تخللتها الروابى وقطعتها جبال صخرية منفصلة بسهول رملية جنوبا ومعشوشبة فى الوسط والشمال الغربى . وكما أن النباتات والأشجـار تكثر بقرب الأنهـار فكذلك الغابات فى جنوب موساميديس (Mossamedes) وعلى مقربة من مصب كوينني (Cunene) ومجراه والنهيرات المخترقـة للصحراء الجنوبية، تكثر أيضا .

الحيوانات المتوحشة والحيوانات الأليفة :

فى أنغولا من الحيوانات البرية القردة بمختلف أنواعها والجاموس الكبير الأسود والجاموس الصغير الأحمر والسيبل (١) والرون (٢) والفيـلة وفرس البحر والقَطَنْبُور والإمبالة (٣) والكودو والپـوكو (٤) وأبو محزومة (Bubalis buselaphus) والريدبك والسّـتوتنغا (٥) والبوشـبك (٦) والأسبرنج بك (٧) وأنواع الأوربى والديكر والاستين بك والأوريكس المعروف بالجيمس بَكْ والكركدن والأسد والنمر والفهد أو الشيتا والضبع وابن آوى (جمعه بنات آوى) والثعلب والأرنب البرى الخ، ومن الطيـور دجاج الوادى ونوع من الحجل والعقاب الأسـود والحُبَارَى والمرابط (المرابط) الخ الخ، ومن الحشرات

(١) (Sable antelope; Hippotragus niger) الظبى الأسود ويسمى بالهاله بلسان بلاده.
(٢) (Roan antelope; Hippotragus equinus) أبو عُرف — أبو معارف ويسمى كرونجو بالســواحلى .
(٣) (Impala; Aepyceros melampus) امباله — فاله (ســواحيل) — أم جابةٌ (شـــرق إفريقيــة) .
(٤) (Reed buck; Redunca arundinum) باللسان الفلمنكى ويسمى بُنْهاطًا فى السودان وتوهى بالسواحلى وهو نوع من المها .
(٥) (Situtunga (Limnotragus spekei) نوع من المها الإفريقى يسمى فى السودان غطَّاس البحر .
(٦) (Bush - buck) ظبى الغاب ويسمى أبا نبَّاح فى السودان .
(٧) (Spring buck, Antidorcas marsupialis) .

والسوابح المختلفة السلحفاة البرية وغيرها . أما الحيوانات الداجنة الأليفة ففى مقدمتها البقر ويكثر وجودها عند الزنوج ، وهى رأس مالهم ، ثم المـاعز والغنم ، إلا أنهـا قليلة الانتشار . وقد جىء بالنوع المعروف بالمـارينوس لتبليده ، ولكن السعى وراء هـذه الغاية قد أخفق ثم الحمير والبغال وهى قليلة وأكثرها يقتنيه العنصر الأبيض لأن السـود يستغنون عنها بالبقر اذا أرادوا ركوب المطايا ، وهم قليـلا ما يركبونها ، وكثيرا ما يمتطون أقدامهم ثم الخيل وبعضها برتقالى الأصـل والبعض الآخر أصـله من بلاد النيجر أو بلاد المغرب ثم الدجاج ، وهو كثير بالقرى عند الزنوج ، والدجاج الرومى ، والبيض هم الذين يقتنونه ، والأوز والأرنب المنزلى ، وهمـا أيضا مما يعنى الأوربيون بتربيته فى تلك الأصقاع النائية .

تاريخ مستعمرة أنغولا

مقتبس من تصنيف المسيو ج. مونتيرو ونقلا عن مصنف فيوكاردوزو الذى عنوانه "تاريخ حكام أنغولا"

يبـدأ تاريخ أنغولا البرتقاليـة مع تاريخ الكونغو فى عهـد واحد . لأن أول أوروبى استكشف الكونغو هو أول أوروبى هبط أنغولا كما سبق ذكره فى الكلام على تاريخ الكونغو . أما هـذا الافرنجى فهو ديجوكام الذى أوردنا اسمـه مرارا باعتبار أنه قدم على هـذه البلاد سنة ١٤٨٠ وأسس نقطة سان پول دى لواندا (Loanda) عاصمة هذه المستعمرات البرتقالية فى الوقت الحاضر .

وكان سبب رسوخ أقدام البرتقاليين بهذه المستعمرة أن ملكها الزنكى كان قد داخله الحسد حينما شهد اتصال ملك الكونغو بالبرتقاليين وارتباطه وإياهم بالعلاقات الوثيقة فأرسل وفدا من رجاله الى البرتقال يرتبط بمثل هذه العلائق معهم . وكانت الملكة كاترينة صاحبة عرش البرتقال فبعثت اليـه بيولو دياز دى نوفايس حفيـد بارتولوميودياز الذى كان استكشف شـطرا كبيرا من الساحل الغربى ورأس الرجاء الصالح وهو الذى أسمى هذا الرأس برأس العواصف ثم أبدل ملك البرتقال من هذا الاسم الذى تطيَّر منه باسم رأس الرجاء الصالح .

وقد سافر بولودياز من لشـبونة فى سبتمبر سـنة ١٥٥٩ فى ثلاث سفن وفرقة من الجند ومعه جملة هدايا برسم ملك أنغولا . وكانت المهمة التى وكلت اليه توثيق العلائق التجارية مع هـذا الملك وهدايته الى الديانة المسيحية ، فوصل الى مصب نهر كوانزا (Kwanza) . وكان ملك أنغولا المذكور قد مات ولكن سار خلفه على خطته فى تحسين العلائق مع البرتقاليين .

فنزل باولوديا ز الى البر فى عشرين من أعوانه وأمر رجاله بالعودة بالسفن الى البرتقال ، ان لم يعـد اليهم قبل ذلك فى زمن معين ، ثم سار الى لقـاء الملك الزنجى فأحسن هذا وفادته وأكرمه وجامله هو ومن معه وقبل ما أتوا به من الهدايا برسمه و بعد أيام أراد باولو دياز أن يعود الى سفنه فألح الملك عليه بالبقاء معه ملتمسا منه معاونتــه فى قتال كان لا مناص له من أن يلتقى فيـه بأعداد من القبائل الأخرى . ولما انتهى القتال أذن له بالرحيل . وكان بولودياز قد رأى فى البلاد من الأثاث والأشـياء الخاصة بالكنائس ما أيد عنده الظن أن بعثة دينية قد نزلت هذه البلاد من قبل . ولما عاد الى البرتقال قص هذه الحادثة على الملك دون سباستيان فأمره هذا الملك بالأوبة الى أنغولا ومنحه لقب الفاتح المستعمر والحاكم على أنغولا وخوله سلطة لاحدّ لها، لتأسيس المستعمرة الجديدة . ففى سنة ١٥٧١ — ١٥٧٥ سافر دياز قاصـدا غرب أفريقية فى أسطول مؤلف من سبع سفن تحمل سبعمائة رجل و بعد أن قضى فى سفرته هذه ثلاثة أشهر ونصف شهر شهد أرض السواحل فهبطها فى الجزيرة المقابلة لثغر لواندا (Loanda) الحالية . واستولى عليها باسم ملك البرتقال .

وقد حضر حفلة الاستيلاء عدد من الزنوج والبرتقاليين الذين فروا من الكونغو بسبب الحروب والقلاقل الداخلية التى حدثت فيها . (راجع تاريخ الكونغو البلجيكيــة) .

فأحسن ملك أنغولا مقـابلة البرتقاليين وقبل الهـدايا التى أرسلها له الملك دون سباستيان . وفى مقابل ذلك سلم باولو دياز قطعا من الفضة والنحاس وعصيا من خشب كيكونغو وود (Quicongo - Wood) ولما تراءى للبرتقاليين بعد ذلك عدم صلاحيـة الجزيرة لتأسيس مستعمرة فيها انتقلوا الى القارة واتخذوا مركزا لهم النقطة التى يوجد بها فى الوقت الحاضر حصن سان ميخائيل وأقاموا كنيسة وأسسوا

أوّل مستعمرة لهم فى بلاد أنغولا . ثم أعانوا الملك الزنجى على إخضاع العشائر الثائرة .
ودامت العلاقات حسنة مدّة ست سنوات لم يلبث الملك الزنجى بعدها أن انبرى لهم
بالمعاكسة والمشاكسة منذ أن قصد اليه أحد البرتقاليين وأخبره بأنه يريد إيقافه على
سر خطير . وقد استغرب الملك سعى هـذا البرتقالى لديه ومن أنه اقترح عليـه
أن يكون من عبيده وهو ما لم يكن منتظرا وقوعه من برتقالى ، فجمع اليـه الشيوخ
لاستشارتهم فى الأمر وطلب الى الرجل فى حضرتهم إفشاء سره فقال إن دياز يعمل
للاستيلاء على بلاده وأنه أخذ يجمع الأسلحة والذخائر لهذا السبب .

وفى اليوم التالى دعا الملك اليه سائر البرتقاليين وطلب من ذلك البرتقالى أن يكرر
على مسمعهم ما قاله بالأمس على ملإ من النـاس ، فكرر هـذا الرجل قوله فأخذ
البرتقاليون ينكرون مانسب اليهم . ولكن الملك أخذ رأى مستشاريه فى الأمر فقرّر
إعدام البرتقاليين جميعا على الفور دفعا لضررهم . وبالفعل أنحى على رقابهم و رقاب
نحو الألف من الوطنيين الذين اعتنقوا النصرانية وصودرت أموال الذين استوطنوا
البلاد للاتجار من هؤلاء البرتقاليين ، ولقى البرتقالى فاضح سر بنى جلدته حتفه معهم .
وبعث الملك الى دياز بعد ذلك يعلنه بأنه لا يجيز له الايغال فى البلاد الى ما بعد النقطة
التى وصل اليها . وإذ كان يجهل الطامة التى نزلت بالجالية البرتقالية فانه لم يصدّق
بها حينما بلغت اليه أخبارها ، ومع هذا فقد رأى من الحكمة وحسن التدبير التراجع
الى الخلف للتحصن فى نقطة أنزل وكان معه مدفعان صغيران فلما تأكد له صدق
الأخبـار التى وصلت اليـه ، عن الكارثة الفادحة ، بعد أيام من ذلك وأيقن أن
فى الطريق جيشا كبيرا من الزنوج يزحف نحوه للقضاء على بقيـة البرتقاليين فكر
فى الانتقام لرجاله . وكان يرابط معـه فى الحصن نحو مائة وخمسين مقاتلا فتمكن
من صدّ ذلك الجيش الضخم وتمزيقه كل ممزق . وأنفذ بعد ذلك الى داخل البلاد

أحد أعوانه فى قوة من رجاله مطلقا له العنان فى التخريب والتدمير بالنار والحديد وقتل كل من ساقه سوء الحظ الى الوقوع فى قبضته . ولما تم لدياز النجاح فى الأخذ بالثأر للبرتقاليين ندم ملك أنغولا على مافرط منه وأمر بقتل مستشاريه الذين أغروه بمناوأة البرتقاليين .

وكانت الامدادات قد وصلت الى باولو دياز من البرتقال فحارب بها مشائخ كيساما وأدخلهم فى طاعته وقهر أيضا جيوش ملك أوغندا لثانى مرة واستولى على نقطتى كيساما وايلامبا ثم أراد وضع يده على مناجم الفضة فى كامبامبى فتحصن هو والضابط لويز سيّراو ومائة وعشرون رجلا فى نقطة نكاندونغو القريبة من هـذه المناجم . وكان جيش ثالث لملك أنغولا قد دنا حتى صار منه قيد فرسخين فهاجمهم دياز فى ٢ فبراير سـنة ١٥٨٣ بمعاونة بعض المشائخ السود فبدد شمل المهاجمين . وأمر دياز بقطع أنوف القتلى وارسالها الى لواندا ليتأكد لمواطنيهم أنه انتصر انتصارا باهرا على أهل البلاد . ولما أيقن ملك أنغولا قوة دياز وكثرة مدده قرر أن يحشد جيشا كبيرا جدا وأن يضرب البرتقاليين به الضربة القاضية ولكن الفشل كان حليفا له فى هذه الواقعة أيضا . وأنشأ دياز عقب هـذا الفوز تخليدا لذكراه نقطة فى جهة مسانغانو أسماها نوسا سنهورا دا فيكتوريا (Senhora de Victoria Nossa.) .

وفى سـنة ١٥٨٩ تولى الحكم على أنغولا الحاكم لويس سراو بدلا من دياز ثم خلفه لويس پريرا . وفى سنة ١٥٩٧ وصـل الى لواندا مائتان من الفلمنك غير أن أغلبهم ماتوا لرداءة الطقس وسوء تأثيره فيهم . وفى الآن نفسه أنشئت مستعمرة فى نقطة بَنْغَالَا (Benguella) أسسها سبعون جنديا . وإنما حدث أن خمسين منهم خرجوا من الحصن عزلا من السلاح لصيد الأسماك بالساحل ففجأهم بعض

السود وأطاروا رؤوسهم ثم انقضوا على العشرين الباقين بالحصن فدافعوا عن نفوسهم حتى ماتوا عن آخرهم إلا اثنين منهم كانت نجاتهما من المصادفات .

وكان المشايخ لا يكفون عن محاربة البرتقاليين بشدّة وعنف، ومع ذلك فقد تمكن هؤلاء من الإيغال فى البلاد وتوطيد أقدامهم فى جهات كثيرة. وفى سنة ١٥٩٥ جاء جيرنيمو دى ألميدا أخو دون فرنسسكو دى ألميدا فى أربعمائة راجل وعشرين فارسا آتيا من لواندا للاستيلاء على مناجم الفضة فى كامبامبى وأنشأ فى طريقه حصن موكسيما على نهر كوانزا واستمر موغلا فى البلاد حتى دهمه المرض فعاد الى لواندا تاركا فى هذه النقطة أعوانه . وقد وقع هؤلاء فى كمين نصب لهم فى ناحية كامبامبى إذ انقضّ عليهم رهط من السود قتلوا ستة وعشرين من البرتقاليين ونجا من هذه المذبحة سبعة فقط. وفى السنة نفسها وصل جواو فولتادو دى مندونسا الى لواندا ومعه اثنتا عشرة امرأة من العنصر الأبيض . وهنّ أوّل من حضرن الى أنغولا من السيدات الأوروبيات . والمعروف أنهن لم يلبثن أن وجدن أزواجا . وكان أوّل عمل الحاكم الجديد إصلاح ما أفسد فى عهد سلفه . غير أنه تحرّك من لواندا فى فصل غير ملائم فاضطر الى ملازمة ضفاف نهر بانغو لانتظار الوقت الملائم وتوفى بالحمى فى أثناء ذلك مائتان من رجاله وقل الزاد من عنده فأخذ الذين بقوا على قيد الحياة يشكون الجوع . ثم استأنف المسير فى هذه الحالة السيئة فأخضع الثوار وأنقذ الحامية الصغيرة التى كانت فى مسانغانو واندحر الزنوج اندحارا شنيعا فى واقعته . ثم عاد بعد هذا الظفر الى نهر كوانزا وعمر فى موكسيما الحصن الذى خلا من ساكنيه .

وفى سنة ١٦٠٢ وصل جواو روديجس كوتنهو الذى عين حاكما فى جند كثير وذخائر وفيرة . وكان قد منح السلطة المطلقة للاستيلاء على مناجم الفضة فى كمبامبى. وقد سير لهذا الغرض حملة كبيرة فلما وصلت الى جهة كاكوللوكيامونى أصيب

الحاكم بمرض انتهى بوفاته . نخلفه مانو يل سرفيرابيريرا فسار قاصدا كامبامبى وحارب الزنوج فى ١٠ أغسطس سنة ١٦٠٣ وهزمهم شر هزيمة ثم سار فى طريقه فشيد حصنا فى كامبامبى وأخضع شيخ هذه الجهة .

وفى سنة ١٦٠٦ شرع لأول مرة فى إيجاد صلة بين وسط إفريقية والسواحل الشرقية بطريق نهر ستافندب وذهب لتحقيق هــذا المشروع بلزارر بالودى أراغا وما كاد يقطع من طريق سفره مسافة قصــيرة حتى عاد الى كامبامبى لانقاذ حاميتها وفك حصار الزنوج عنها . وهكذا ظلت المناوشات محتــدمة بين الفريقين وانتهت بانتصار البرتقاليين واندحار الزنوج والاستيلاء على إقليم بنغآلا وتوطيد نفوذهم فيه .

وفى ســنة ١٦٢١ حدث أن الملكة جنغاباندى وردت على لواندا فى وفد من قبل أخيها غولاباندى فانجلت المفاوضات عن عقــد محالفة مع البرتقاليين واعتنقت هــذه الملكة الديانة المسيحية وسميت جنغارونا أنادى سوزا وقد أقامها البرتقاليون ملكة على أنغولا . ولمــا توفى أخوها مسموما بأمرها لاجترائه على قتل ولدها جحدت عقيدتها الجــديدة وحاربت البرتقاليين وخلقت لهم المصاعب والمشاكل مدّة ثلاثين عاما تقريبا وان لم تفز بمقصــدها من مناوأتها إياهم العداء . ولمــا كان الهولنديون قد أخذوا فى مناوأة البرتقاليين بغرب إفريقية منذ سنوات كثيرة فقد أرادوا الاستيلاء على مراكز لاســترقاق العبيد منها ، وكانوا فى ذلك الوقت مرغوبا فيهــم لتشغيلهم بالقارة الأمريكية .

ولمــا كان فرناند دى سوزا حاكما بأوغندا أرسل الهولنديون أسطولا مؤلفا من ثمان سفن تحت قيادة بترى بتريد وهاجم هذا الأسطول ثغر لواندا فرأى من صدق المقاومة وشدّة الدفاع ما اضطره الى التراجع والانسحاب بعد قتال ثلاثة أشهر خسر فيه أربعا من وحداته . وكان الكونت فون ناسّاو يعتقد أنه إذا لم يحصل من

الأرقَّاء الزنوج على قدر لتشغيلهم بالمستعمرات الهولندية فى أمريكا فان مشاريعهم فى هـذه البلاد سيقضى عليها بالاخفاق والفشـل ولهذا عوّل على اتخاذ تدابير أخرى لاحراز تلك البضاعة البشرية بجهز عشرين سفينة عهـد قيادتها الى الجنرال تولو وظهر هذا الأسطول الجديد فى ٢٤ أغسطس سنة ١٦٤١ تجاه لواندا فانسحب حاكمها وسكانها الى جهة بمبه (Bembe) ونزل الهولنديون الى البر واستولوا فى اليوم الثانى عليها من غير قتال . وقصد بتروسيزار الى نهر بنغو حيث اقتفى الهولنديون أثره فانسحب الى مسانغو ففتكت الأمراض بالبرتقاليين، فانتهز مشائخ الزنوج وزعماؤهم هـذه الفرصـة للثورة عليهم ومحالفة الهولنديين ضدّهم . وكان فى طليعة من انتقضوا على البرتقاليين الملك جنغا وكثيرون من الزعماء ولم يفلح البرتقاليون فى الانتقام منهـم . ولما عقد الصلح بين البرتقال وهولنـدا فى أوروبا تصالح الهولنديون والبرتقاليون فى إفريقية ولكن الهولنديون لم يلبثوا أن حنسوا بعهدهم إذ هاجموهم على غرة منهم وقتلوا فريقا وأسروا فريقا آخر ومن نجا من هؤلاء قصـدوا الى مسانغانوا وأقاموا بها حتى عقـد اتفاق آخر وخرج بتروسيزار من حصن القديس ميخائيل وكان محصورا فيه .

فى هذه الأثناء وصـل من البرتقال فرنسسكو دى سوتو مايور الحاكم الجـديد فأخذ بقية حامية بنغالا وسار بها سرا الى مسانغانو ، وكان الهولنـديون قد أخبروا الملكة جنغا بما يرمى البرتقاليون اليه من المقاصد وكانت هذه قد استعدت للقائهم ولكنها هزمت شر هزيمة وبعـد أيام قليلة فسخ الهولنديون شروط الصلح مرة أخرى فأعلن البرتقاليون الحرب عليهم . ودام الفريقان فى حروب حتى حضر سلفادور كوريادى سابنافيدس ، وكان حاكما وقتئـذ على ريو دى جانيرو بأمريكا الجنوبية البرتقالية .

وكان حضوره فى أسطول مؤلف من خمسة عشر سفينة تحمل سبعمائة مقاتل ، فلما وصل الى لواندا بعث الى قائد القوة الهولندية يخبره بأنه وان يكن مأذونا بعقد صلح معه ولكنه بالنظر الى ما أتاه الهولنـديون من إخلاف الوعود ونكث العهود مرارا متتابعة مضطر الى إعلان الحرب عليهم . إلا أنه حقنا للدماء يعرض عليـه التسليم تسليما شريفا . فطلب الهولنديون مهلة ثمانية أيام فأبى سلفادور كوريا إلا يومين . فلما انتهت هذه المهلة بعث القائد البرتقالى الى الهولنديين بمن يسألهم أقبلوا الشروط أم هم على أهبة القتال فأجابوا بأنهم مستعدون للقتال فنزلت القوة البرتقالية عندئذ الى البر على عجل واستولت على حصن القديس ميخائيل . وكان الهولنديون قد تركوا سـتة مدافع فأخذها البرتقاليون وضموا اليها أربعة عشر من مدافع السفن وأخذوا يطلقونها على أعدائهم ولمـا لم يظفروا بمرادهم أمر سلفادور كوريا بالهجوم العام فصدوا . ومع هـذا فقد رفع الهولنديون العلم الأبيض وفاوضوا فى التسـليم بوساطة وفد أرسلوه ووقع ذلك فعلا فأرسل كوريا المستسلمين الى السفن وسفرهم ثم هدم قلاعهم بجهات بندا ولوانغو وأخرجهم من البلاد و بعـد ذلك انقض على رؤساء القبائل وهزمهم .

وفى عهـد حكم هـذا الحاكم انتقل القس الايطالى فريار من مملكة الكونغو الى لواندا وأسس جملة مراكز دينيـة بداخل البـلاد ، وحارب البرتقاليون قبائل الليبولوس والكيساماس وشـيخ نغولا كابوكو ومشائخ بنغالّا والدنبوس امبيولاس بجهات انكوج .

وفى سنة ١٦٩٤ أدخلت لأول مرة العملة النحاسية البرتقالية فى أنغولا وكانت العملة المتعامل بها وقتئذ بشكل قطعة صغيرة من الحصير تسمى ليبونفوس وكانت

قيمتها تعـدل خمسين ريسا واستمر تداول هـذه القطع الصغيرة الى عهـد حديث فى كيبيندا (Kabinda) .

وفى سنة ١٧٥٨ أسس البرتقاليون مركزا لهم فى أنكوجا .

وفى سـنة ١٧٨٣ أرسلت تجريدة الى ثغر كيبندا لتؤسس حصنا ومات بها ثلاثمائة رجل لرداءة الجو . أما البـاقون فسلموا الى الأسطول الفرنسى الذى جاء الى تلك البلاد ليدمر الحصون التى أقامها البرتقـاليون لمنع حرية التجارة فى لوانغو (Loengo) . وبعد سنة ١٧٨٤ حارب البرتقاليون سكان اقليم موسولو وتغلبوا عليهم بعد خمس سنين .

وفى عهد حكم الحاكم أنتونيو دى سلدانها دى غاما أى بين سنى ١٨٠٧ و ١٨١٠ تم الاتصـال بسكان جهات مولواس وتمكن بمساعدتهم من الاتصال بالشاطئ الشرقى لإفريقية .

وفى سـنة ١٦٠٦ كان الاتصـال بين أنغـولا ومستعمرة موسانبيـق (Mozambique) ممكنا وكان قـد شرع فى تأليف حملتين احداهما من موسانبيق والأخرى من أنغولا لتتلاقيا فى الداخل وكانت الأولى بقيادة العالم الطبيعى الدكتور لاسروا فسافرت من نهر سـنا (Sena) فوصلت الى كازمبى (Kasempa) حيث مات لاسروا بسبب الأمراض . أما أنتونيو دى سلدانها فكان يريد امضاء ذلك المشروع العظيم الفائدة من الوجهة الجغرافية والجزيل النفع للبرتقال نفسها وأخذ الأهبة لاصابة هـذا الغرض . وفى بونغو اندونغو كان يوجد فانسسكو أونوراتو دا كوستا ، الضابط برتبـة قائمقام فى الجيش البرتقالى وكان رجلا ماضى العزيمـة ومدبرا حكيما يتولى شئون الادارة فى اقليم كاسانغى (Kasengi) وهو أقصى أقاليم الممتلكات البرتقالية ، فوقف أنتونيو دى سـلدانها منه على خبر مؤدّاه أن اقليم جاغا التابع لشـيخ كاسانغى كان محـدودا شرقا بمملكة زنجيـة قوية كان لملكها علاقات

بالمولواس، وكان يحرم على هذه القبيلة معاملة البرتقاليين من غير وساطته رغبة منه فى احتكار التجارة كلها لنفسه، وكان يتخذ التدابير الكثيرة للتسلط على موتايامبا ملك المولواس وكان يقول له إن البرتقاليين أو البيض قد خرجوا من مياه البحر وإنهم يأكلون السود، وإن ما يتجر به من المصنوعات هو من عمل بلاده وإن المولواس اذا اعتدوا على بضاعته فان البرتقاليين يعاقبونهم بالصرامة والشدّة . فلما اتصل بالحاكم البرتقالى نبأ هذه القصة كلف أونوراتو بالوقوف على حقيقة مسألة المولواس فبعث أنوراتو بمندوبين من الزنوج الى مكان اقامة موتايامبا (الملك الزنجى) فأحسن هذا لقاءهم وأكرمهم فأقتنعوا بأن أقوال جاغا كاسانغى لم تكن إلا أراجيف لا أصل لها . ولكن مُوتا ظل متوجسا خيفة من البرتقاليين وقرر أن يوفد اليهم زوجته فى لواندا وجعلها فى صحبة أونوراتوس بومبيروس وأحب الوفد أن يمر بالاقليم التابع لشيخ كاسانغا فمانع هذا فى مروره من إقليم شيخ بومبا الذى رحب بالوفد وضم اليه وفدا من قبله ووصل الجميع الى لواندا فى سنة ١٨٨٠ حيث قابلهم الحاكم .

ولما وصل الوفد الى باب قاعة الاستقبال تقدّم أعضاؤه ومعهم ما يحملونه من الهدايا برسم القائد وقدّموها اليه . وكانت هذه الهدايا عبارة عن أرقاء وجلود الزرود (زيبرا) وجلود القردة النادرة والحصر والمصنوعات من السمار وقطعتين من النحاس وملح من اقليم كازمبى، ثم عادوا بعد تقديمها من حيث أتوا يحملون هدايا البرتقاليين الى ملكهم .

وكان رجال الوفد يرخون اللحى ويحملون على رؤوسهم قلانس من ريش الببغاء ويحلّون معاصمهم بحلقات من الحديد والنحاس، وكان سلاحهم المدى والرماح يرفعونها باليد اليسرى بينا يحملون باليمنى أذناب الخيل، وهذه الأذناب هى الأشارة الى علو مراكزهم ورفعة شأنهم .وكانوا يرتدون بقطع من القماش تعلوها جلود القردة،

وكان منظرها وحشـيا للدرجة القصوى بينا أن الموفدين الزنوج الذين أوفدهم البرتقاليون الى المولواس كانوا يصفونهم على شيء من الحضارة والمدنيـة و يقولون فى وصف قرى الموتا إن الطرق تشقها من طرف الى طرف و إنها تظلل فى الصيف و إن فيها سوقا للدقيق والحبوب و إن القرى منظمة و بها ميادين فسيحة ، و إن زوجة الموتا كانت بعيـدة عن زوجها لأن لها مملكة أخرى تحكم رعاياها على مشيئتها شأن الحكام المطلق التصرف ، وأنها كانت لا ترى قرينهـا الملك إلا أياما معدودة فى كل سنة . و إن الملكة كانت فى كل يوم تأمر بقتل عشرة من الزنوج أو خمسة عشر، و إن زوجها ربما كان مثلها فى الجرى على هذه العادة الوحشية . ونذكر بهذه المناسبة أن رؤساء الزنوج من عاداتهـم أن يقتلوا يوميـا أو فى غالب الأيام بعض رجالهم أو أبقارهم على سبيل السلوى أو التضحية للمعبودات أو الاكرام للضيوف .

ومما نقله الزنوج أيضا الذين أوفدهم البرتقاليون الى داخل البلاد أن الكازامبى الذى مات الدكتور لاسردا فى أرضهم كانوا تابعين للموتايامبا وأنهم كانوا يدفعون اليه خراجا سـنويا من ملح البحر الذى كانوا يجلبونه من الساحل الشرقى لإفريقيـة فتأكد للبرتقاليين مما سبق امكان الاتصال بالمستعمرة الشرقية بالمرور من وسط القارة فأمر الحـاكم سلدانها أولئـك الزنوج بأن يرسموا له خط السـير فى جهات الداخل ويثابروا على السير فى هذا الاتجاه .

وفى عهد خلفه المسمى جوزى دوليفيرا بار بوزا ازداد المشروع وضوحا الى حد أن الموفدين من المستعمرة الغربيـة عادوا ومعهم كتب من رجال المستعمرة ولكن لم تأت هذه الرحلة بمعلومات جغرافية جديدة لجهل المندوبين وعدم درايتهم بمثـل هذه الأغراض .

وفى ســنة ١٨١٣ أراد هذا الحــاكم ايصال نهر كوانزا (Coanza) الى مدينة لواندا (Loanda) على مدى أربعــة عشر فرسخا تقريبا بحفر ترعة . وقد بدأ بحفرها فعلا وانمــا فى سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ترك العمل قبل أن يتمّ .

يوم ١١ مايو — سرنا فى الصباح وكانت الطريق ممهــدة إلا فى بعض الجهات فإن الرمل فيها كان غزيرا وقد لاحظت قلة عدد السكان فى هــذا الطريق مع أنه سهل فى أغلب أجزائه كثير الأعشاب التى تشبه فى علوها أعشاب الكونغو . وليس فى هذه البقاع جبال بل كثير من الروابى الخفيفة الانحدار . وقد وصلنا الى ساو ريمو بعد ظهر اليوم فتوجهنا من فورنا الى مركز محافظ هذا الاقليم الذى تلقّانا بهشاشة ولطف رعاية . وقد أعدّ لنا دارا تم بناؤها حديثــا ولم تسكن فقضينا ليلتنا بها وها نحن الآن باقليم كساى الشمالى (Kasai) .

يوم ١٢ مايو — لمــا لم تصــل الثلاث السيارات الكبرى المستأجرة للنقل قضت الظروف بأن نمضى اليــوم هنا وقد حضرت السيارات قبيــل الساعة العاشرة صبــاحا فعلمنا من أحد السائقين أنه رأى أســدين فى الطريق و بتنا الليلة هنا .

يوم ١٣ مايو — قصــدنا صباح اليوم الى ڤيلّالوسا فى إقليم موشــيكو وفى عاصمتها الحديثة التى تبعد بثلاثمائة كيلومتر تقريبا عن ساو ريمو، وكان الطريق وعرا وجزء منه مستنقعا بسبب الأمطار، فقطعنا هذه المنطقة بعناء شديد إذ كانت السيارات تنغرز فى الطين تارة وطورا تخوض المــاء وما زلنا متابعين السير حتى وصلنا بعد الغروب الى قرية كزوا وهى محطة صغرى بها عسكريان و بعض الأنفار لمساعدة السيارات وتزويدها المــاء اللازم لها ولا يقع نظر المسافر فى هــذه المناطق

على أحد من السكان . وقد قضينا الليلة فى هــذه القرية ولكن السيارات الثلاث الكبرى لم تحضر بعد وربما لحقتنا غدا .

يوم ١٤ مايو — قضينـا اليوم فى كروا لأن السيارات الكبيرة لم تكن وصلت . وقد عاد حسين بك ايش فى الصباح ليأخذ معه من القرية بعض الرجال لانقاذ السيارات الموما اليها فلم تصل السيارات إلا قبيل منتصف الليل .

يوم ١٥ مايو — قطعنا فى الصباح مائة وثمـانين كيلو مترا تقريبا فمررنا فى طريقنا بنقطة تحتوى قلم جوازات المرور وكان الموظف المنوطة به هــذه المهنة عصبي المزاج جدًا فانتهى الأمر الى التفاهم معــه ، بفضل الحلم والتؤدة وضـبط النفس. ثم واصلنا السير الى ڤيلّالوسا فوصلنا اليها فى منتصف الساعة الخامسة تقريبا وقد قابلنا نائب محافظ المنطقة وضابط برتبـة يوز باشى مقابلة ودية سداها الحفاوة ولحمتها اللطف وكرم الأخلاق ثم أنزلانا دار حاكم الجهة وكان المنزل جديدا لم يسكن بعد فبتنا به الليلة فى خير حال .

يوم ١٦ مايو — حضر فى الصباح الضباط الموجودون هنا ونائب الحاكم وبعض الموظفين والتجار وهم جميعا من البرتقاليين ولبثـوا معى فترة من الزمن . فلما جهزت السيارات شكرت لهؤلاء الرؤساء حسن حفاوتهم بى وبرفقائى وما أظهروه لنا من اللطف والرقّة وفى الساعة التاسعة من الصباح استأنفنا السير فوصلنا الى قرية موشيكو . وكانت عاصمة الاقليم المعروف بهـذا الاسم قبل نقل العاصمة الى ڤيلّالوسا أما الطريق فكان وعرا رديئا ومع هذا فقد بلغنا فى منتصف الساعة السادسة مساء الى مينغو أما ارتفـاع ڤيلالوسا فيزيد على ألف وخمسمائة متر وارتفاع نقطة مينغو على ألف وأربعمائة متر تقريبا . وتكثر الغابات فى هذه المناطق ولكن السكان قليلون .

يوم ١٧ مايو — قصدنا فى الصباح الى قرية كوانزابوست الواقعة على النهر المسمى بهذا الاسم فوصلنا فى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر وكان الطريق وعرا لاعتراض المستنقعات المتكونة من ماء الأمطار ففرش بأغصان الأشجار لجعله صالحا لمرور السيارات . وعند وصولنا التقينا بمأمور المركز ورجل موفد لمقابلتنا من قبـل مدير إقليم بيهى (Bihe) المتاخم لاقليم كوانزا، فقال لنا ان بقرية (كماكوبا) منزلا معـدّا لسكانا فتوجهنا اليه بعد عبور النهر، غير أننا لم نجد هـذا المنزل عند وصولنا وكل ما وجدناه انما هو بناء فرشت أرضه بمختلف أنواع القاذورات ثم سير بنا الى محل آخر وهو بنـاء أرضى وجىء بأناس لتنظيفه على قدر الطاقة وقد أمضينا الليلة ولبثنا ننتظر وصول السيارات الثلاث التى تخلفت .

يوم ١٨ مايو — جاء للقـائى صباحا ذلك الرجل الذى قابلنى بالأمس وزارنى أيضا يونانى يتكلم بالعربيـة لأنه أقام بمصر زمنا . وبعد هنيهة من وصوله حضر كاتم أسرار حاكم الاقليم ولبث معى فترة من الزمن مخبرا إياى بأن الحاكم سوف يصل الى هذه القرية قبيل الساعة الحادية عشرة وأنه يود أن لو أقابله فى دار الحكم فقبلت هذه الدعوة كى أنجو فى رحلتى من التقاليد الرسمية . ولمـا حلّ الميعاد توجهت اليـه فى تلك الدار فوجدته على جانب عظيم من الأدب والتهذيب ثم انصرفت من عنـده وأنا معتقد بأنه لم يكن يفهم الغرض من دعوته إياى حين دعانى الى مقابلته فى دار الحكومة ولا معنى اجابتى إياه اليها .

يوم ١٩ مايو — قصدت اليوم الى كوانزابوست وهنا حضرت سيارتان من السـيارات المتأخرة تحملان بضاعتى فوضعت فى بعض الصـناديق ما يلزم لرحلة الصيد القادمة إذا عتزمت الصيد هنا ثم عدت مساء الى مستقرنا .

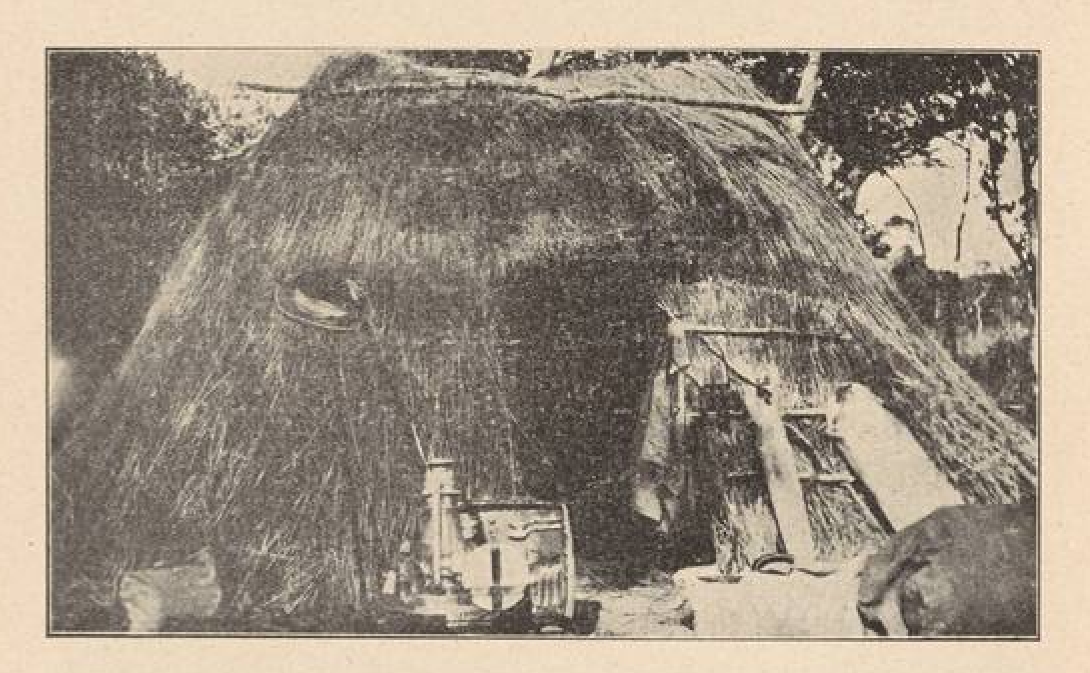
يوم ٢٠ مايو — أمضينا سحابة اليوم فى كاكوبا ولا شىء يستحق الذكر غير ما لاحظت فى كثرة المســتولدين ومما لا شـك فيه أن عددهم يبلغ أضعاف المستولدين فى الأملاك البلجيكية (الكونغو) . أما حالة الافرنج العائشـين بأنغولا وعلى الخصوص فى قراها فأحطّ بكثير من حالة أهل طبقتهم من البلجيكيين، وكذا منظر القرى البرتقالية ومبانيها فانه يذكر الرائى بمنظر مبانى جنوب اسبانيا والبرتقال وهم لا يهتمون بالنظافة كغيرهم من الأوروبيين .

أما أهل البلاد الأصليون فسكان الفلوات منهم ترى على وجوههم سمات التوحُّش والكراهة للأجنبى وخوفهم منه أكثر مما يرى منها فى وجوههم بالأراضى البلجيكية. مع أن البرتقاليين استعمروا هذه البلاد قبل البلجيكيين بقرون . ولبس القبعة منتشر حتى بالأصقاع النائيـة عن مراكز العمـران ، ولن يرى السائح أناسا مجردين من الثياب كما يرى فى بلاد الدِّنْكا والشلّوك . والتدخين عندهم أى فى أنغولا بالشـبك المصنوع من الحديد وفمه من حديد أيضا فى حين أن أهالى الكونغو يدخنون بالجزء الضيق من القرع أو بأنابيب الغاب أو بفروع البردى إذ يجعلون بأعلى الفرع فتحة تتصل بداخل العود المجوّف ويصبون التبغ فى الفتحة العليا ثم يدخنون من الثانية . وهذه الطريقة تشبه شُبُكات الأفيون عند الصينيين إلا أن هذه متقنة الصنع .

أما الآنية فى بلاد أنغولا فيستعمل لها القرع أيضا . وهناك نوع من الآنيـة متَّخذ من الطَّفْل المحروق بالنار ، وهــذه وتلك تشبه ما يصـنع منها فى الكونغو . وأما المساكن فيختلف شـكلها فى نظر السائح متى عبر الخط الفاصل بين البلدين ، فأكواخ زنوج أنغولا هى كما ترى فى الصورة الخاصة بها .

وأما الطعام فى القطرين فلا يختلف اختلافا محسوسا لأن محاصيل البلدين وقد ألمعنا اليهـا فى القسم الخاص برحلة الكونغو واحدة وأما الحيوانات الداجنة كالبقر

والمـاعز فهى هنا أجود منها هناك. ولمـا أدخل البوير طريقتهم المشهورة فى النقل وهى استعمال المركبات الثقيلة التى يجرّها من اثنى عشر الى ستة عشر ثورا نشأ عن ذلك اهتمام القوم بتربية البقر. ولما جاءوا من بلاد البرتقال بعدد منها برسم النتاج فاستولدوه فتحسّن نوع هذا الجنس بالبلاد وجىء أيضا بعدد كبير من خراف المـارينوس فلم تنجح تربيتها لأن الجو هنا لايلائم هذا الحيوان بل يتلف صوفه. والدجاج هنا وفى الكونغو



عشـــة فى أنغـــولا

جيد النوع، ولا شك فى أنه مستحضر فى الأصل من الخارج . وأما الحمير والبغال فتكثر ببلاد أنغولا ، إلا أنه لا يتيسر تربية هذه الحيوانات فى كل جهة على السواء بسبب ذباب تستسى الذى ينقـل جرثومة التريپانوسوما وأصل هذه الحيوانات من بلاد البرتقال. وارتفاع بلاد أنغولا فوق سطح البحر يبلغ من ثمانمائة متر الى ألفى متر وذلك فى جهـات الداخل ثم يذهب مستوى الأرض منحدرا بالتدريج نحو المحيط

الأطلنطى . تقول هـذا عن الجهات العامرة والمدن الآهـلة بالسكان بخلافنا عن الجهات المشرفة على هذا المحيط والسهول المرتفعة التى بينها والقارة . ولا يكثر الذباب الناقل لجرثومة مرض النوم إلا فى بعض مجارى الماء وهو هنا أقل انتشارا منه فى بلاد الكونغو . أما الجو فلا شـك فى أن جهات الداخل من أنغولا أجود هواء وأقل رطوبة مع ميل محسوس الى البرودة أكثر منهـا فى بلاد الكونغو يستثنى من ذلك جهات السواحل فانها رطبة تتفشى الملاريا فى أكثر جهاتها .

هذا وأبدان زنوج أنغولا أضعف منها فى زنوج شمال الكونغو والوسط الجنوبى ومتى اتجـه السائح الى جنوب كبلو (Kabalo بالكونغو) رأى الصـدور تضيق والعضلات تدقّ والقوام يقصر ، وان يكن فى رجال انغولا كثيرون ممن يشبهون الجبابرة فى أبدانهم . وللزنوج هنا طريقة مفيدة لحزم ما يحملونه من الأثقال على رؤوسهم ، ذلك أنهم يجعلون الشىء المراد حمله بين قضيبين طويلين يزيد طولهما على طول الربطة مرة أو أكثر فإذا أرادوا رفعها من الأرض عقب الراحة لم يكن لهم احتياج الى من يساعدهم على ذلك إذ يجعـل طرفى القضيبين على الأرض ثم يرفـع الحمل الى فوق بحيث يرتكز عليهما و يكون عند مستوى رأسه تقريبا ، وعندئذ يحنى رأسه أو يدنى كتفه من الحمل فيلقيه على جسمه و يحمله كما هو مبين فى الصورة الخاصة بذلك .



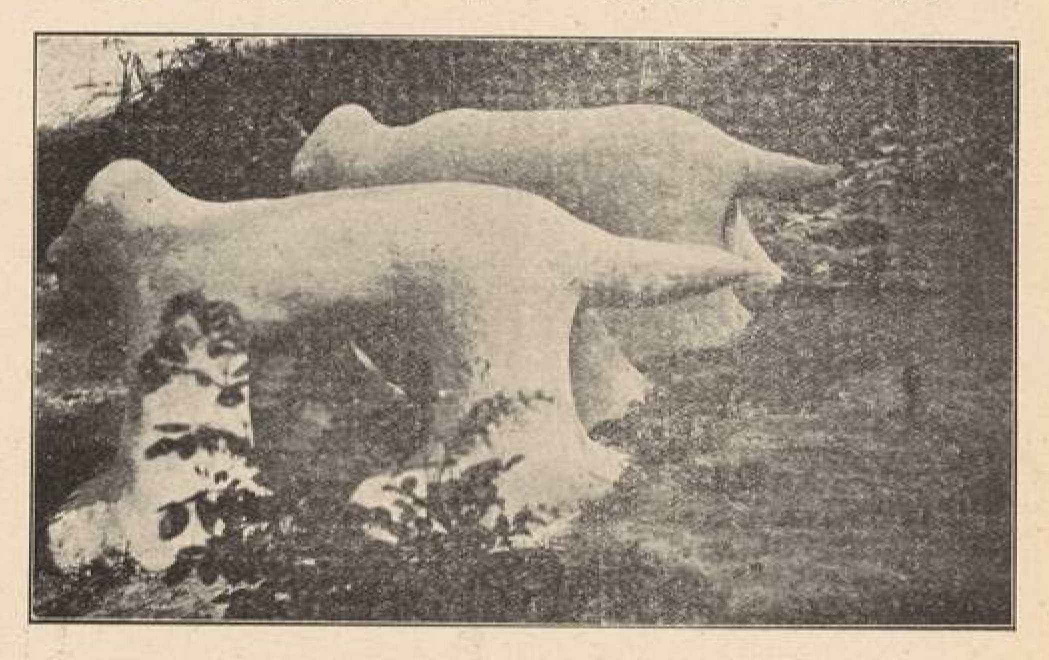
كيفية ضفر الشعر فى أنغولا



حمال من أنغولا البرتغالية

أما أسلحة الزنوج هنا فكأسلحة سكان الكونغو وغيرهم أى النبال والقسىّ المتخذة من القضبان الخشبية والأوتار المصنوعة من قُصّاب الحيوانات والبلطات الصغيرة ذات المقابض القصيرة والرماح وهى قصيرة أيضا . وقد رأيت فى الكونغو زنوجا يحملون من المُدى ما لا يتجاوز طوله الستين سنتيمترا أو أقل ومقبض كل مدية وقرابها مزينان بقطع من النحاس والحديد ويلتوى القراب فى منتهاه فيكون هلالى الشكل . ولم أر من المسلّحين بالرِّماح والنشّاب فى أنغولا سوى القليل .

وقد فاتنى أن أذكر أن لكل القرى تقريبا ، ولا سيما ببلاد الكونغو ظُلّة صغيرة تشبه سقفا محمولا على أربعة أعمدة أو عمودا واحدا تناط به أشياء كثيرة مختلفة من آنية إفرنجية قديمة كالأباريق والصحفات الى ما شاكل ذلك من الهنات التافهة . وهم يتخذونها لتكون طلسما يوقى القرية أذى الشياطين . ومما يتقن سكان هذه البلاد والكونغو صناعته الآنية المتخذة من القش المجدول . ومن



طلسم فى مدخل قرية زنجية من قرى الكونغو

عاداتهم وشمهم الجبين والخدّين رجالا ونساء بأشكال مختلفـة ورسم الصور المختلفة على أبدانهـم رسما بارزا على الطريقـة التى سبق لنا شرحها حين الكلام على بلاد الكونغو . ومن عاداتهـم أيضا التحلّى فى معاصمهـم وأذرعهـم وأقدامهم بأساور وخلاخل متخذة من الأسلاك المضفورة .

يوم ٢١ مايو — لزمنا فيه المنزل .

يوم ٢٢ مايو — ذهبت فيه إلى كوانزا پوست لتجهيز الصناديق و إعداد المعدّات لسفرى القريب الى الشمال لصيد الحيوان المعروف باسم سيبل (Sable) . و بينـا كنت أعبر النهر فى مَعْبَر احتوى بعض الزنوج من العابرين الى الضفة الأخرى تراءت لى امرأة حاولت النزول فخنق عليها برتقالى وأنحى عليها ضربا بحذائه وليس هذا بأوّل الحوادث التى شهدتها من هذا القبيل . فلقد رأيت ضروبا شتّى من هذه المعاملة القاسية فى الكونغو . انى ما أبصرت برجل إفرنجى يترأس على زنوج يشتغلون فى عمل إلا وكانت معاملتـه إيّاهم على هذا المثال القاسى . نعم إن صبر المرء لينفـذ حيال ما يبديه الزنوج من الغباوة والبلادة ولكن هـذا لم يكن مبرّرا لمعاملتهم بتلك المعاملة الصارمة القاسية .

يوم ٢٣ مايو — قضينا اليوم هنـا وقد زارنى سكرتير محافظ إقليم بيهى ليخبرنى بأن الحاكم العام أجازنى صـيد اثنين من السيبل فقط فطلبت إليه أن يجيز النبيل سليمان وكل واحد من رفاقى الباقين صيد رأس واحد من هـذا الحيوان فلبّى هذا الطلب .

يوم ٢٥ مايو — قضت الضرورة علينـا بالانتقال اليـوم إلى نقطـة كوانزا پوست التى أعدّ المأمور بها طائفـة من الحمّـالين برسم حملتى ، فاستصحبت

الطبيب الدكتور ميرس وحينما وصلنا طلبت إلى رفيق هـذا أن يكشف على المائة والأربعين حمالا الذين اصطفوا لهـذا الغرض فشرع الطبيب فى عمله وبعد أن انتهيت من إعداد الصناديق وغيرها دنوت من الطبيب واشتركت معه فى عملية الفرز . فكانت نتيجة عملنا أننا استكشفنا من بينهم خمسة مصابين بالجذام وأن وجدنا الباقين جميعا مصابين بالجرب . وقد شهدت ظهور بعضهم مُجلّلة بالقروح العفنة الخاصة بالجرب وأفخاذ البعض الآخر أو أعضاؤه المختلفة تنزّ بقروح وجروح أخرى وكان ثلاثون من هؤلاء يتألمون بالمرض المعروف باسم پيون (Pion) وهذا البيان كاف لإيقاف القارئ على مقدار انتشار الأمراض الخبيثة بين الأهلين فى تلك الأصقاع النائية . على أننى أسكن روعه وأمحو كل أثر للقلق والخوف من نفسه إذ أقول له إننا وجدنا بين المائة والأربعين حمالا المومأ إليهم ستة سالمين من آثار تلك الأمراض ، ومع كل هـذا فقد علمت أنه قبل قيامنا بهـذا الكشف الطبى بمعرفة الطبيب المرافق لى كان أولياء الأمر هنا كشفوا طبيا على أولئك الرهط من المرضى بمعرفة طبيب المركز فتقرر أنهم سالمون من الأمراض وصالحون فوق ذلك للعمل فى شركة السكك الحديدية وأن ذلك كان منذ أيام قليلة .

يوم ٢٦ مايو — قصدنا بعد العشاء إلى نقطة كوانزا پوست وفيها أمضينا الليلة .

يوم ٢٧ مايو — تحرّكت حملتنا فى صباح هذا اليوم وقد أعدّت المحفّات لحملنا وكان عدد الحمالين اللازمين لنقل لوازمنا مائة وأربعين ونيفا فكان اتجاهنا إلى الشمال فالشمال الشرقى . وقد وصلنا إلى غدير فى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر تقريبا . ولما هممنا بعبور الغدير ألفينا قنطرة هى عبارة عن أغصان من الشجر مرتكزة على ضفتى الغدير . هذا وقد جهز رجال الحملة طعامهم . ولما كان منتصف

الساعة الثالثة بعد الظهر استأنفنا السير فوصلنا إلى قرية هجرها أهلوها لموت شيخهم جريا على عادتهم التى أشرنا إليها فيما سبق . وقد حططنا هنا الرحال وأمضينا الليلة ، وآلتقينا فى هذا المكان بصياد برتقالى وكان عائدا من الصيد بعد إذ صاد أنثى من نوع الحيوان الذى نريد صيده وقال انه لم ير سوى ثمانى فقط من جنسه والسكان فى هذه البقاع قليلون والقرى تبعد بعضها عن بعض بمسافات شاسعة .



مروري والحملة على القنطرة

يوم ٢٨ مايو — رحلنا صباحا فوصلنا بعد الظهر الى قرية كاكوندا وفيها حططنا رحالنا وأمضينا الليلة .

يوم ٢٩ مايو — أنست من جلّ رفاقى بل كلهم تقريبا ميلا الى التماس الراحة من عناء النقلة فرأينا أن نقضى فى هذا المكان سحابة اليوم والليلة .

يوم ٣٠ مايو — استأنفنا المسير صباحا فلما انتصفت الساعة الحادية عشرة عوّلت على الانفصال عن رفقتى لطلب الصـيد ، فسرت ومعى الدليـل والطبيب

ميرس وما كدنا نبتعد عن الطريق بقدر أربعمائة متر حتى عثرنا على أثر السيبل فاقتفيناه حتى بلغنا الى نقطة كان قد بال بها وبهذا الأثر فهمنا أنه قريب من مكاننا غير أننى آثرت الجلوس لتناول الطعام فى مكاننا حتى لا يفلت الصيد منا لأنه كان فى مثل هذا الوقت راقدا يلتمس راحته . ومع هذا فقد أخطأت التقدير بمبادرتى بالنهوض للبحث عنـه عقب تناول طعام الغـداء مباشرة . ذلك لأنى تحركت من مكانى فى الساعة الأولى فعثرت عليه راقدا ففزع ولجأ الى الفرار . ولو أننا تربّصنا به الى الساعة الرابعة لوجدناه فى المراعى وسهل علينا أمر اصطياده . ولقـد اقتفيت أثر الحيوانات ردحا من الزمن ثم عدت الى قرية شـوندو حيث التقيت برفاقى وكانت الخيام قد ضربت فى مواضعها . ولما كانت هذه الجهة خير مصاد لحيوانات ذلك النوع فقد قررنا البقاء بها أياما .

أما حسين بك ايش فقد عاد الى كوانزا لمقابلة مدير اقليم موشيكو وطلب اليـه أن يلازمنا مأمور مركز كوانزا حتى لا يترك الحمـالين حماتى فيتعذر علىّ الانتقال من مكان الى آخر .

يوم ٣١ مايو — خرجت متصيّدا فى منتصف الساعة السابعة من الصباح وكان الطبيب مصاحبا لى فما كدنا نقطع خمسمائة متر حتى عثرنا على أثر حديث فقصصناه وكان معنا السو با أى شيخ القرية ورجل آخر . وفى الساعة العاشرة من الصباح استدللنا من أوضاع الأثر واتجاهاته أن الحيوانات قد أحسّت بنا فشردت، نقول ذلك على سـبيل الحزر والتخمين لأنه يتعذر علينـا أن نراها لحيلولة الأشجار الكثيفة بيننا و بينها . أما الحيوان فانه يشعر بوجودنا إما بمشاهدته إيّانا و إما بسماعه وقع أقدامنا أو شمّه لرائحتنا اذا حملها الريح الى خياشيمه كما هو معلوم .

وكان اتّجاه الحيوانات الى الشمال فى بادئ الأمر ثم انحدرت الى الشرق قليلا. وكان لا بدّ لها أن ترقد طلبا للراحة وها قد آن أوان رقادها فمنعت الدليلين من مواصلة السير وأفانا الى ظل الأشجار زمنا تناولنا طعام الغداء بعده، وفى الساعة الثانية بعد الظهر أمرت رجالى بمتابعة الأثر مرة أخرى، ولو أن فى ذلك تعجيلا بالسير. وقد كنت أعلم ما يتطلب السير فى الأعشاب لقص الأثر من الوقت الطويل وأننا لن نصل الى مراقد الحيوانات إلا عنـد ما تكون قد نهضت منها وغادرتها طلبا للرعى، فسرنا ساعتين تقريبا متيامنين متياسرين وفى آخر الأمر اهتدينا الى مرقد الصيد وعرفنا من روثه أنه على قرب منا .

ثم وصلنا الى مكان فسيح لا شجر فيه ولا نبت فأشرفنا عليه من آخر أكمة ولمح الصـياد الحيوانات المطلوبة وهى المعروفة فى الانجليزية باسم « السيبل أنتيلوب »[1] وفى اللغة البرتقالية باسم « مَلَنْك بِرِيت » وفى لغة الزنوج « كوارى أوكولوا » (أنظر صورته الشمسية) وقد رأيناها نحن أيضا اذ لفت اليها نظرى ولم أكن فى تلك الآونة مستعدا أى أننى لم أضع نظارتى التى أصبحت منذ بضع سنوات لا غنى عنها سواء للطالعة أو للصيد، ورأيت حيوانا منها يتجه نظره الىّ ولما صاح الصياد وهو يشير الى الحيوان قائلا : ماجو ! ماجو ! أى الذكر ! الذكر ! رميته برصاصة فلم أصبه وكان فى مكان مظل . فركض فرميته برصاصة ثانية أصابته ولكنه لم يخر صريعا بل توارى عن الأنظار . ولم تمض برهة حتى رأيت اثنين يركضان أحدهما على بعد مائة وخمسين مترا من يمينى فظننت أن الخلفى هو الذى أصابته الرصاصـة وأنه هو الذكر . فرميته برصاصتين أصابتاه فتجندل .

---

(١) Sable antelope وسمّاه الدكتور محمد شرف الظبى الأسود .

عند ذلك ركضت نحوه ولكن ما كان أشــد يأسى وامتعاضى حين تأكد لى أنه أنثى ! رمقت الدليل عندئذ بنظرة فهم مكنون سرها . فقال مشيرا الى الثالث



(شكل ٢) الســيبل

الذى تركته دون أن أصوِّب اليه بارودتى و إنمـا رماه الدكتور ميرس برصاصة دون أن يصيبه : ان هــذا ذكر . ثم أشار الى الحيوان الذى بقى بالمكان الذى أصيب فيه أوّل وهلة قائلا : وهذا أيضا ذكر، فاستنتجت من ذلك أن الحيوان الذى وقع هنا لم يكن هو الذى رميته برصاصتين أولا . فناجيت نفسى بأنه اذا كانت هــذه أنثى وقد خاب فيها أملى فلعل الثانى يكون ذكرا، غير أنى كنت أعتقد أنى أصبت فى الدفعتين حيوانا واحدا . فانتقلنـا إلى المكان الذى كانت الحيوانات واقفــة به للمرة الأولى، فبعد أن عثرنا على الدم وعلمنا أن حيوانا آخر، وهو الأوّل، قد أصيب تقدّمنا بضع خطوات فعثرنا عليه ولكنه كان أنثى أيضا . وهكذا ضلّ سعيى وخاب أملى الذى لأجله جئت الى هنـا من القطر المصرى ألا وهو صيد هــذا النوع من الحيوانات واثنين من المعروف باسم (جيمس بَكْ) وهو النوع الرابع من أنواع المها الأربعة الموجودة بالقارة الإفريقية .

ولمـا كانت الرخصة التى بيدى لا تسمح لى بأكثر من حيوانين من هذا النوع فقد ذهبت كل جهودى هباء منثورا . ولا يشعر بمـا شعرت به الآن إلا من كان

ولوعا مثلى بالصيد ولما عدت الى الخيام وعلم رفاقى بما حصل استولى عليهم اليأس واشتدّ أسفهم وأراد كل منهم أن يتنازل لى عن الحيوان الواحد المرخّص له بصيده من هذا النوع ولكنى أبيت قبول ما عرضوه علىّ شاكرا، لأن فى ذلك حرمان أحدهم هذا الصيد الجميل النادر المثال، والذى إن وجد فى بلاد أخر فلا يوجد النوع الكبير منه إلا فى أنغولا البرتغالية وفى المقاطعة التى نحن فيها فقط .

يوم أوّل يونيو — لما ختمت صيدى على الوجه الذى شرحته عوّلت على قضاء اليوم فى الخيام. أما رفاقى فقد عثر بعضهم على ثمانى من أناث ذلك الحيوان ولم يصيدوا شيئا .

يوم ٢ يونيو — قضيت اليوم بالخيام كالأمس وآثر البقاء معى النبيل سليمان داود، أما على بك شريف والدكتور ميرس فقد خرجا للصيد ولكنهما عادا بخفى حنين، هذا وقد رجع حسين بك ايبش من كوانزا .

يوم ٣ يونيو — دعت ظروف الأحوال أحد رفقتى الى أن يؤم موشيكو لمقابلة المحافظ وطلب الترخيص منه لى بصيد حيوان ثالث . وكان هو حسين بك ايبش الذى لاتنى همته ولا تكلّ عزيمته. وخرج فى الصباح كل من على بك شريف والدكتور ميرس للتصيُّد ثم عادا فى المساء كما خرجا .

يوم ٤ يونيو — خرج الدكتور ميرس وعلى بك شريف اليوم فى طلب الصيد . أما النبيل سليمان فقد اضطر الى البقاء لأسباب صحية . وبقيت أنا أيضا مكانى فى انتظار حضور الرخصة الجديدة . وقد عاد الصيادان الأولان وخبرانا بأنهما عثرا على ذكر كبير من نوع السيبل فرماه على بك شريف برصاصة ولكنه أخطاه .

يوم ٥ يونيو — ذهب اليوم كل من النبيل سليمان داود وعلى بك شريف ثم عادا دون أن يجدا شيئا .

يوم ٦ يونيو — برحنا الدكتور ميرس ابتغاء الصيد ثم عاد مساء ولم يصد . وذهب على بك شريف ليقضى الليلة بجوار مزرعة بطاطس مرتقبا ظهور الصيد .

يوم ٧ يونيو — برحنا الدكتور ثم عاد فى المساء خاوى الوفاض . أما على بك شريف فقد وجد أثرا حديثا للحيوان ولكنه لم يره فعاد غير موفق لتحقيق غرضه كما عاد حسين بك ايش فى الساعة التاسعة مساء مخبرا بأنه التقى بمحافظ موشيكو وأنه باحثه فى مسألة الترخيص لى بصيد ذكر من نوع السبيل فرضى المحافظ بعد جدال وتردّد أن أصيد اثنين ولكنه اشترط فى ذلك ألا يصيد أحد من رفاقى فرفضت الصيد دونهم واعتزمت العودة الى كاكوبا .

يوم ٨ يونيو — رحلنا فى الصباح من شوندو، وبعد أن استرحنا وتغذّينا استأنفنا السير حتى منتصف الساعة الخامسة مساحلين أحد الغدران وأمضينا الليلة على ضفافه ثم أشرفنا على قرية شهدت بها معبدا أقيمت بأحد أركانه أصنام من الخشب محلاة بالفيسفاء وأمام الباب إناء فوق حاملين من الخشب يحتويان قطع خشب مطلسمة لمنع السوء عن السكان .

يوم ٩ يونيو — بلغنا فى المساء الى كوانزا پوست ومنها الى كاكوبا حيث أعدّ لنا مسكن .

يوم ١٠ يونيو — أمضيناه فى كوانزا پوست وقد حصلنا منها على مالم نستطع نقله معنا من الصناديق والخيام .

يوم ١١ و ١٢ و ١٣ يونيو — قضينا الأيام الثلاثة فى كماكوبا لاعداد حملتنا وأخذأهبة الرحيل للصيد شرقى مدينة موساميدس (Mossamedes) .

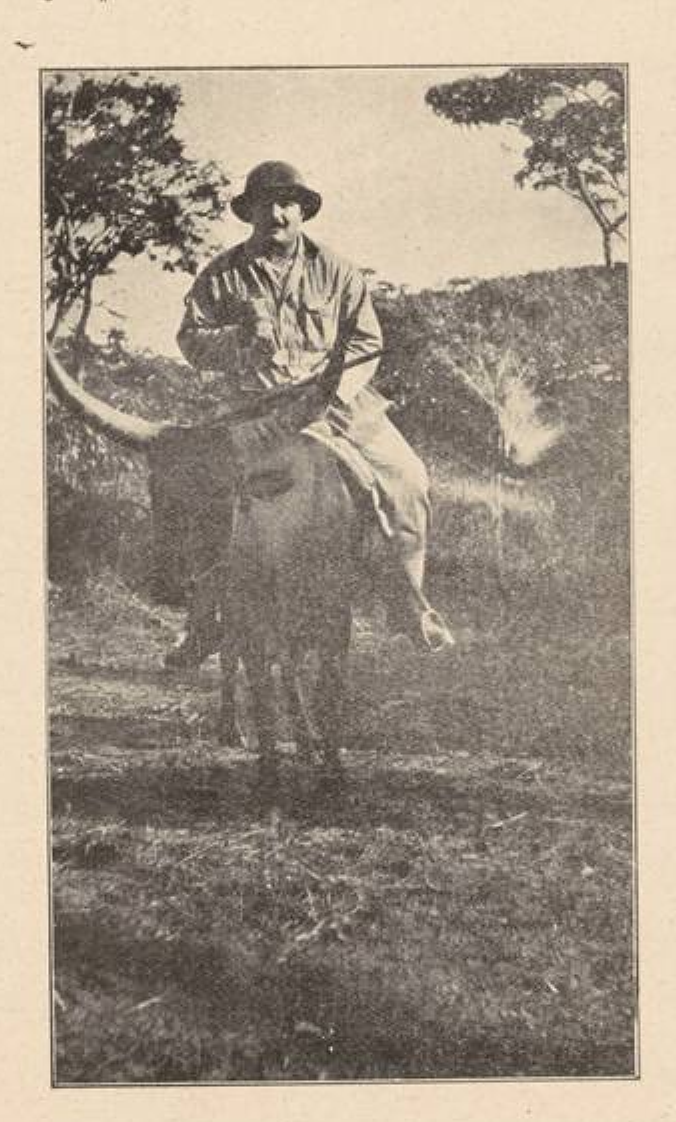
يوم ١٤ يونيو — زارنى حاكم اقليم موشيكو وجرى الحديث بيننا فى شئون الصيد وغيره . وقد أخبرنى فى غضون حديثه بأن الحاكم العام لم يرخص بأكثر من اثنين وأن حاكم بيى هو الذى أفهمنا بجواز صيد ستة من الحيوان المعروف باسم سيبل أنتلوب . وبعد أن رحل عنى قضيت بقية النهار فى المكان . ولما توارت الشمس وراء حجاب الأفق عاد جناب الحاكم ولبث معى أكثر من ساعة تجاذبنا فى خلالها أطراف الحديث فى موضوعات مختلفة وقد كان من ضمن حديثنا أن وجهت اليه السؤال الآتى : هل فى السود بجهات لواندا ، عاصمة المستعمرة ، وبنغلا وموساميدس من تعلموا بالمدارس فارتقوا ، وهل فيهم الأطباء والمهندسون والصيادلة والمحامون والقضاة؟ الخ أجاب : كلا ولكن فى المستولدين من البرتقاليين والزنوج من يزاولون تلك الحرف الراقية ، ولا يشغل من الزنوج وظيفة الكاتب الصغير فى الادارات العامة الخاصة سوى النزر اليسير . سألت : وهل ترقون الزنوج فى الجيش الى مرتبة الضابط؟ أجاب : كلا بل الى رتبة الأونباشى فقط أى الى درجة صف ضابط . وقال أيضا : ولكنى رأيت فيما مضى زنجيا برتبة القائمقام وكان زنجيا الطبيب الخاص لشارل ملك البرتقال . ثم قال : ويوجد الان فى مجلس شورى القوانين بلواندا زنجى بين الأعضاء . وأكد أن الزنوج هم الذين انتخبوه للذود عن حقوقهم فى ذلك المجلس . ثم سألته : وهل فيهم الأغنياء وأصحاب المزارع الواسعة؟ أجاب : نعم ، قاصدا بذلك مشايخ القبائل الذين يملكون من البقر الشىء الكثير الى أن قال : انا معشر البرتقاليين لا نرضى بالنزول الى درك الزنجى وإنما نرفعه الينا . سألت : وكيف؟ أجاب : نحن لا نتعلم لغتهم لنكلمهم بها و إنما نرغمهم

على التكلم بلغتنا ليرتفعوا بواسطتها الى مستوانا . ثم قال مزدهيا : ولست أشغل الزنوج فى إقليم موشيكو التابع لى من غير أجره ولا أشغل النساء والأطفال كما هو مألوف بالأقاليم الأخرى . فخرجت من هذا الاستجواب معتقدا بصدق ظنى فى كل ما كتبت عن العنصرين الأبيض والأسود . وأنى لأعدّ سعيدا لو أثبتت الأيام خطئى فيما ذهبت اليه .

يوم ١٥ يونيو — رحلنا اليوم ومقصدنا موساميدس فمررنا أولا بمدينة سلڤابورتو مقر حاكم إقليم بيهى ثم بمدينة هوامبو التى نزلنا فيها فندقا جعله الله فندقا ونحن فى مدينة مهمة من إقليم بنغالا . وهنا محطة للطيران وأخرى للسكة الحديدية الموصلة الى بنغالا (Benguella) على المحيط الأطلنطى ، وقد بدأت مظاهر العمران تبدو للسائح بكثرة العزب الخاصة والقرى الصغيرة ، ورأينا فى طريقنا فهدا كبيرا جدا فأوقفت المركبة ونزلت فى طلبه ، إلا أنى لم أعثر عليه لتواريه فى أجمة بالقرب من الطريق . وشهدنا بمدينة بيهى امرأة قصابة ذات غدة كبيرة فى رقبتها ، وهذا الداء المعروف بالنَّوطة أو الجُوتر منتشر بين الأهلين فى بعض أقاليم مستعمرة أنغولا . ويقول الكولونل استاتهام فى رحلته بأنغولا إن الطريق من كاكوبا الى بنغالا كانت مسلك الأرقَّاء الذين كانوا يصدَّرون الى البرازيل وغيرها وإن مدينة بيهى الحالية كانت عاصمة امارة زنجية مهمة وأن الفضل فى عمران ثغر لوبتو (Lobito) وإنشاء السكة الحديدية من بنغالا الى كاكوبا ثم مدها الى كتانغا (Katanga) يرجع الى روبرتس وليم الذى كان أهم أعوان رودز المشهور أيام برزت فكرة قطع افريقية بسكة حديدية بين الكاب والقاهرة وكانت ألمانيا تثير العقبات وتضع الموانع لمنع انشاء هذا الخط فى أملاكها أو فى الأملاك المجاورة لها .

يوم ١٦ يونيو — استأنفنا المسير صباحا الى مدينة صغيرة تعرف باسم شنغروار ثم الى أخرى تعرف باسم ڤيلافيستا ووصلنا بعد الظهر الى قرية

كاكوندا (Caconda) وفيها نزلنا فنـدقا أقل درجة من الذى أشرنا بالأمس اليه وأمضينا به الليلة . وتكثر على حفاف الطـريق الذى سكلناه أمس واليوم صخور متفـرقة تتشابه فى الأودية تشابها يلفت النظر، اذ هى عبارة عن قمم عالية صـغيرة لا يتجاوز سمك الواحدة منها أو قطرها المـائة أو المـائة والخمسين من الأمتار يراها



النبيل سليمان داود ممتطيا ثوره فى أنغولا

المرء من بعيد فيخيل له أنها أطلال بالية أو منازل على عروشها خالية، لولا ارتفاعها الذى يتجاوز المألوف فى ارتفاع الأبنية .

وبلدة كاكوندا (Caconda) هذه قرية قديمة يتّسع بها نطاق زراعة البساتين الفاكهية ويرى السائح من حجم أشجارها ما لا يكاد يصدّقه العقل لولا وقوعه تحت الحس . فقـد رأيت للبشملة مثلا شجرة يربو قطرها على سـبعة أمتار، وكذا شجر البرتقال فإنى لم أر بأى بلد آخر، فيما عدا دنقـلة بالسودان المصرى ومدينـة ثور السورية ما يحاكيها فى ضخامتها . ورأيت فى هذه الأصقاع من الأوربيين من يفلح أرضه بيـده . ويكثر هنا كما فى المدن القريبـة من البحر جمـاعة المستولدين من العنصرين . ونظرت اليوم طوائف الفعلة ينقلون التراب من مكان الى مكان فى أوعيـة ليست هى سوى قطعة من الشجر مجوفة لا يزيد ما يحمله كل رجل فيها على ما يحمله الطفل، ولا يجد المرء فى هذه الجهات من أثر لأعمال الرجال من الزنوج فى الطرق بقدر ما يجد من أثر لأعمال النساء اللاتى يشتغلن بها .

يوم ١٧ يونيـو — رحلنا صباحا قاصدين الى لوبانغو فى إقليم هويلى أو ويلى (Huilla) فوصلنا اليها فى منتصف الساعة الثامنـة مساء . وقد تأخرت بعض السيارات لعطل حلّ بهـا وانقلبت واحدة منها، وكان وصولها فى منتصف الساعة الأولى بعد نصف الليل .

وقد أعدّ لنا رجال الحكومة غرفا بدار محطة السكة الحديدية ورأينا فى طريقنا بعض نساء هـذا الاقليم فاذا بهن يتبعن طريقة خاصة فى تسوية شعورهن، يخيّل للرائى معها أنهن يحملن على رءوسهن قلنسوة كالقبعـة فى حين أن ما تراه انمـا هو شعرهن مع إضافة بعض الخيوط الصوفية اليه على ما أظن .

أما مدينــة لوبانغو فكائنة وسط جبال شاهقة تكتنفها من جميع جهاتها وهى قائمة بنهاية السكة الحديدية الموصلة الى مدينــة موساميدس . ويكثر عدد البيض (البرتقاليين) فى هــذا المكان وعدد المزارعين والتجار . والمبانى فيها أحسن منهـا فى غيرها من المدن التى مررنا بها ويزداد عدد المنازل ذات الطبقتين . ولكن أثمان البضاعة للأجنبى فادحة جدا مثلها فى جميع أنحاء هذه المستعمرة .

يوم ١٨ يونيو — انتقلنا صباحا الى منزل جميــل الموقع وأمضينا النهار ريثما يعدّ لنا قطار لنسافر به الى محطة كيلو متر ١٠١ فى اتجاه موساميــدس التى اعتزمنا أن نحط فيها رحالنا للصيد .

يوم ١٩ يونيو — أمضيناه فى مكاننا .

يوم ٢٠ يونيو — استأجرت قطارا تحرك بنا فى الساعة الثامنة من الصباح فمررنا وســط جبال شاهقة . والسكة الحديدية هنا ضــيقة وضيقة جدا إذ لا يزيد انفراج ما بين قضبانها على ســتين سنتيمترا وخطوطها كثيرة الالتــواء والانعراج . وكان يذهب بنا منحدرا من ارتفاع ألف وثلثمائة متر حيث كنا الى ارتفاع خمسمائة متر حيث المسافة بينــه وبين موساميدس سبعون كيلو مترا وقد وصلنا الى هذا المكان وضربنا فيــه مخيمنا بجوار صهريج طبيعى أقيم حوله سور لجمع ماء المطر فى الأودية وفى هذه البقعة جبال صخرية وأشجار بالأودية غير متكاثفة وكان الصــيد الذى نطلبه من الحضور الى هذا المكان هو الإسبرنج بك[1] وهو نوع يشبه الغزال وربما كان أحد أنواعه، ولكنه أكثر ارتفاعا من الغــزال المصرى إذ يقرب حجمه من حجم الأُدْرَع الموجود بكردفان . وربما كان السبب فى إطلاق ذلك الاسم الذى معنــاه اللولب

(١) Springbuck (Antidorcas marsupialis) وسمّاه الدكتور محمد شرف بالظبي البَنْقُوز من النَّقز أو النقز وهو وثب الظبي ثم وقعه منتشر القوائم بخلاف القفز فان القوائم تكون منضمّة .

على هـذا الحيوان أنه يجمع قوائمه ويثب وثبات عاليـة ثم يهبط الى الأرض خافضا رأســه الى ما بين يديه الأماميتين ومقوّسا ظهره تقويسا محســوسا . ثم إنه سريع الركض جدا والدنو منه سهل بالسـيارة أو المركبة التى تجرها البقرات ، غير أنه اذا رأى الانسان واقفا على قدميه بادر بالفرار من وجهه .

يوم ٢١ يونيو — تحركت بنا صـباحا ثلاث سيارات فطفنا بالجبـال الصخرية والأودية ونقـل الينا أن هنا نوعا من المها المعروف بالاسم الهولنـدى : جيمس بَكْ والموجود منه فى صحراء كالاهارى (راجع الكلام على المها فى الجزء الأول من هذه الرحلة) ولكنا لم نعثر له على أثر . وكل ما رأيناه بعض من الذرود (الزيبرة) هذا وقد صدنا بعضا من الإسبرنج بك فصدت أنا ذكرا وأنثى وصاد النبيل سليمان ذكرا وصاد حسـين بك ايبش أنثى وذكرين، ولم يصـد على بك شريف شيئا . أما طبيبنا فكان ملازما الفراش تحت الخيام لاصابته بالحمى .

وللإسـبرنج بك علامة ممـيزة له لم أشهد مثلها بل لم أعلم بوجودها فى غيره من الحيوان . ذلك أن ظهره الضارب الى الحمـرة تخترقه قناة بيضاء تمتـد من جانبى أسفل الذنب الى منتصف الظهر وينبت فى هـذه القناة شعر طويل أبيض اللون فى منبته وأحمر بأطرافه . واذا أشرف على الموت أو قفز انتصب شـعر تلك القناة ثم هبط الى مكانه شيئا فشيئا فلا يعود يرى للقناة سـوى أثر ضعيف ولست أدرى ما علة ذلك .

قياس قرون الاسبرنج بك :

(الذكر) طول القرن من الخارج ... ... $13\frac{1}{2}$ بوصة

المسافة بين القرنين ... ... $2\frac{3}{8}$ «

(الأنثى) طول القرن وهو يختلف عن الذكر بالتواء طرفي القرنين الى الخلف حالة كون طرفي قرني الذكر ينحنيان حتى يكادا يلتقيان... ١١ بوصة

المسافة بين طرفي القرنين ... ... $\frac{١}{٢}$ ٣ »



ظهر الاسبريج بك

يوم ٢٢ يونيو — استأنفنا الصيد صباحا وقد أوغلنا في بطون الجبال سائرين في الاودية فصدت ثلاثة من الاسبريج بك وطيرا من نوع الحبارى الواسع الانتشار في هذه الجهات وثعلبا (١) يخالف نوعه نوع الثعلب المعروف بمصر فان ثعلب أنغولا والكونغو أسود الظهر وتنتهي أطراف شعره بالبياض . أما بطنه وقوائمه والجزء الأسفل من رأسه فضارب الى الحمرة . وقد صاد النبيل سليمان داود ثلاثة

(١) قال الدكتور محمد شرف إن هذا الحيوان هو المسمى بالبَعْشُوم في السودان و يعرف علميا باسم (Canis mesomelas) وهو نوع من بنات آوى .

ذكور من الاسبرنج بك كما صاد على بك شريف ذكرين وحسين بك ايش ذكرا.

طول قرن الذكر الثانى من الخارج	١٣ بوصة
المسافة بين القرنين	$٣ \frac{١}{٢}$ »
طول قرن الذكر الثالث...	$١١ \frac{٣}{٨}$ »
المسافة بين القرنين	$٢ \frac{٣}{٨}$ »
طول قرن الذكر الرابع	$١٤ \frac{١}{٢}$ »
المسافة بين القرنين	$٣ \frac{٧}{٨}$ »

ولا أثر للعمران فى الجهات التى نحن فيها فلا ديار ولا نافخ نار والذين يوجدون بالمصادفة من الأهلين قليلون جدا وهم جميعا من أصحاب الماشية (البقر) ومتفرقون فى مختلف الأنحاء بعيدا عن الطرق الحديدية . والمساكن التى تعرض للأنظار باعتبار منزل أو منزلين فى كل عشرين كيلو مترا أو أكثر إنما هى للبيض . ويشاهد بين كل آن وآخر فريق مشتغلا بصنع الجير أو باستخراج المعادن . وقد مررنا بجبل يحتوى معدن الراديوم، والجبال فى هذه الأصقاع لا تخلو من المناجم لكن أمر استثمارها مهمل لقلة المال لدى البرتغاليين كما ذكرت آنفا .

يوم ٢٣ يونيو — رحل اليوم حسين بك ايش بسيارة النقل قاصدا الى موساميدس وسينتظرنا هناك حتى اذا وصلنا اليها غدا سرنا معا الى الصحراء الواقعة الى الشرق والجنوب الشرقى من تلك المدينة وسنصيد هنا المها اذا وُفِّقنا لذلك .

يوم ٢٤ يونيو — تحركنا صباحا بالسيارات مخترقين منطقة صخرية ورملية مقفرة فوصلنا الى موساميدس، وهى كائنة بمنطقة المستنقعات . والمدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها من الجنس الأبيض الألفين والخمسمائة تقريبا ومبانيها عادية وفيها حصن عتيق وثغرها طبيعى وهى قائمة على ضفة نهر يسمى بيرو وفيها

مصنع لكبس السمك وتمليحه . والسمك أهم حاصلات البحر فيها وتجهيزه صناعة يزاولها سـواد سكانهـا ولإحدى الشركات النرويجية هنـا منطقة لاصطياد الحوت المعروف بالبال(١) الكثير فى مياه المحيط الاطلنطى نحو الجنوب من هذه المنطقة .

وقد كان وصولنا الى هذه المدينة فى منتصف الساعة الأولى فمررنا بفندق التقينا فيه بحسين بك ايش وقد قابلنى المدير أو الحاكم بالنيابة وموظف آخر كان قد أمضى معى ليلتين عند الكيلو متر السـبعين و بعد بضع دقائق اسـتأنفنا المسير فى الصحراء الواقعة الى جنوب المدينة والمترامية الأطراف الى حيث تتصل بإفريقية البريطانية الجنوبية الغربية التى كانت قبـل الحرب مستعمرة ألمـانية فوصلنا الى نقطة تبعد بسبعين كيلو مترا من موساميدس وتعرف باسم بيكودازفيس وفيهـا حططنا الرحال وضربنا الخيام . ومما رأينا فى هذه الصحراء نباتات من فصيلة الصبّار عجيبة الشكل تعرف باسم ولوتيسيا ميرابيليس وتشـبه الأخطبوط و يتجاوز عمر بعضها مائة السنة على ما يقال .

يوم ٢٥ يونيو — عاد حسين بك ايش الى موساميدس لقضاء بعض الحوائج أما أنا فقمت فى ثلاث سيارات مع النبيل سـليمان داود والطبيب ميرس وعلى بك شريف والدليلين اللذين استأجرتهما فى موساميدس للبحث عن المهـا . المعروف بالاسم البو يرى (جيمس بك(٢)) ، فبعـد أن جبنا الصحراء متتبّعين الأودية الخضراء بالأعشاب و بعض الشجيرات ومجارى السـيول التى فيهـا بعض الأشجار عثرنا بغتة على ثور واحد فرّ راكضا فرميته برصاصة وأنا فى سيارتى فأصيب بفخذه . ولـما أردت أن أعبر الغدير للحاق به اعترضت سيارتى الرمال وعاقتها عن مواصلة السير.

---

(١) الحوت والبال كلمتان معربتان من اليونانية (Balaena) .

(٢) Gems bok (Oryx gaxella) باللسان الفلمنكى .

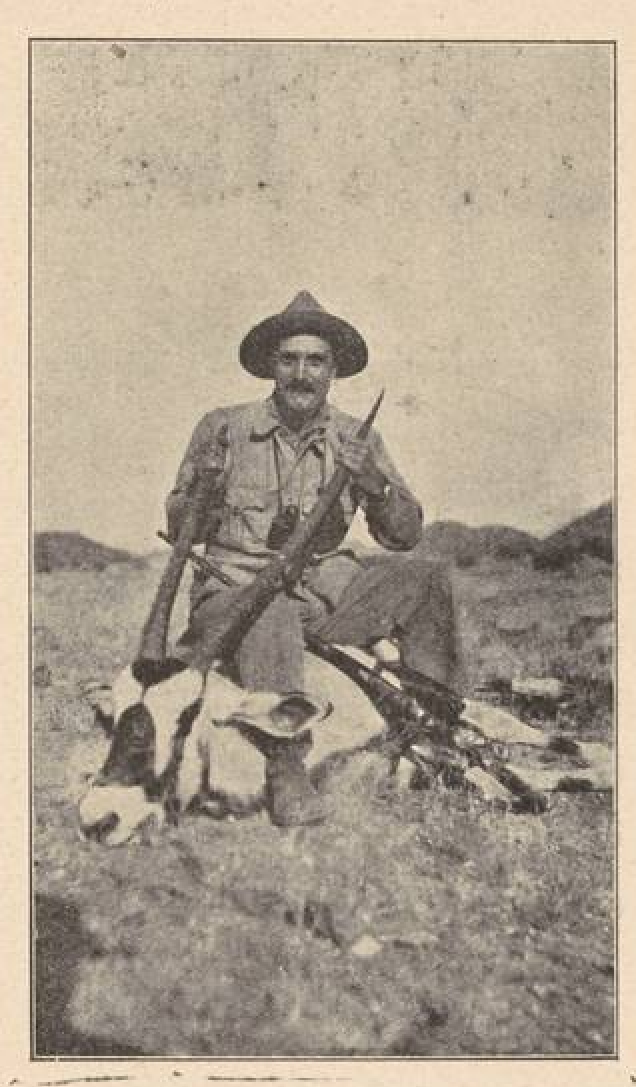
وقـد لمحته من بعيد فرميته برصاصتين لا أدرى أأصيب بهما أم لم يصب . وقـد استغرق استنقاذى السـيارة من الرمل وقتا ليس باليسير ، فلما تقدمت أبحث عنه لم أعثر عليه . عندئذ استأنفنا السير فصاد الطبيب ذكرا من الاسبرنج بك وصاد النبيل سليمان مثله وصدت أنا واحدا . ثم جلسنا فى ظل شجيرة للغذاء . و بعد قليل استأنفنا السير للصيد فالتقينا بثور جرحته برصاصتين وهنـا طار إطار المطاط من إحدى عجلات سـيارتى فتوارى الثور بالغابة عن نظرى وأفلت منى بسبب ما ذهب من الوقت ضياعا فى انتظار وصول سيارة أخرى . وحينما وصلت هذه السيارة تتبعت بها أثر الثور ولكنى لم أره .

وقد استأنفنا البحث عن الصيد فاهتديت بعد قليل الى ثورين رميتهما فجندلت الأول منهما ثم ركضت خلف الثـانى ولكنه توارى عن نظرى هنيهـة ، فأخذت أبحث عنه حتى وقع نظرى على ما ظننا أنه الثور المنشود . وكان قرنا هذا الحيوان كبيرين فرميته بالرصاص وأسرعت بالسيارة خلفه ، وهو يتوارى و يظهر بينا تنغرز عجلات مركبتى فى الرمال فأنزل لأعمل على خلاصها كى أتوصل الى النتيجة التى أرنو اليها والغاية التى أبذل كل تلك الجهود لاقتناصها وما هى فى الحقيقة إلا نزعة الانسان الى الظلم والجبروت . وقد تمكنت فى آخر الأمر من القضاء على الحيوان المسكين. وكان أنثى ، ولكن من أضخم أنواع الإناث حجما فاستوليت على قرنيهـا وعدت الى مكان الثور الأول الذى تركته مجندلا فوجدت هنـاك رفاق ، وقد أخذت رأسـه وعدنا الى الخيام .

و بعد العشاء عاد حسين بك ايبش والدليل الثانى .

طول قرن المهاة (Oryx Gazella)	٤٢ $\frac{٣}{٨}$ بوصة
المسافة بين طرفى القرنين	٢٢ $\frac{١}{٢}$ «

محيط قاعدة القرن	٧ $\frac{٢}{٨}$	بوصة
طول قرن المها الثانى (الثور)	٢٣ $\frac{٣}{٨}$	«
المسافة بين القرنين والأيمن أقصر	١٧ $\frac{١}{٨}$	«
محيط القرنين وقشرهما عند الجمجمة تالف	٧ $\frac{١}{٨}$	«



صورة المها من نوع (أوريكس غزلًا)

وتكثر الحُبَارَى فى هذه الصحراء وفيها بعض القطا .

يوم ٢٦ يونيو — أمضيت النهار هنـا وخرج رفاقى فى طلب الصيد ثم عادوا قبيـل الغروب وقد صاد النبيل سليمان داود أنثيين من المهـا وصاد على بك شريف ذكرا وحسين بك ايبش ذكرا طول قرنه ثمان وثلاثون بوصة . وكان أكبر من الآخرين حجما .

يوم ٢٧ يونيو — خرجت فى طلب الصيد صباحا يرافقنى أحد الدليلين وحسين بك ايبش والطبيب ميرس وما كدنا نبعد عن الخيام بقدر خمسة عشر كيلومترا حتى التقينا بثلاثة من المها واثنين صغيرين فدنونا منها مسرعين بسياراتنا ولمـا أيقنا أن اثنين منها أناث تركناها وحمل الطبيب على الذكر فصاده .

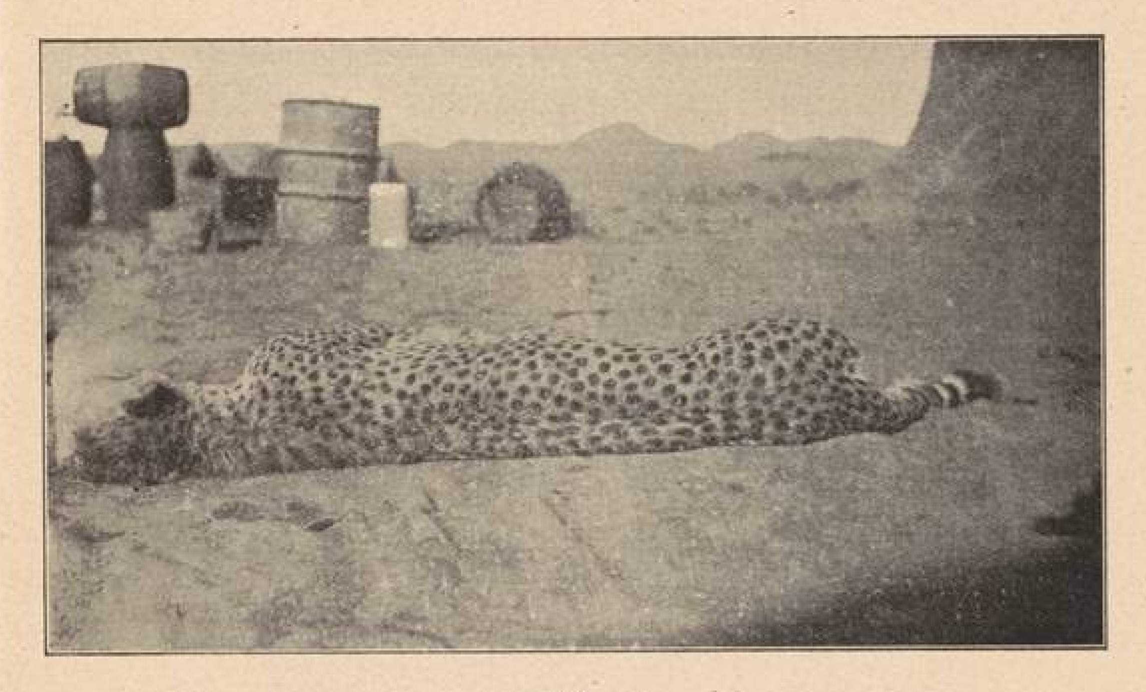
وبعد هنيهة لمحنا مها فريدا وكان ذكرا ولكن صـغيرا فصاده حسين بك ايبش وعلى أثر ذلك لمحنا ثلاثة حيوانات من فصيلة القط على مسافة بعيـدة فصاح بعضنا قائلا الأسد فأسرعنا نحوها فوجدنا أنها ثلاثة فهود من نوع الشيتة[1] .

وقد اقتفينا أثرها بالسيارات فانفصل واحد منها عن صاحبه وكان ذكرا فاتجهت اليه بسيارتى مسرعا وتبعته حتى كلَّ من التعب ووقف بسبب ما يعترى الحيوانات المفترسة، اذا ركضت كثيرا، من جمود العضلات . فتركت سيارتى عندئذ، وصوبت اليه بارودتى، وكان قد لجأ الى شجرة ورميته برصاصة أصابته فى كتفه اليمنى ونفذت منها الى رئته فوثب بضع وثبات ثم توارى عن الأنظار فسرت وراءه ومعى حسين بك ايبش، فأرشدنى الى الفهد مجندلا بين شجيرات كثيفة وكان على بعد خمسة عشر مترا منّا فأجهزت عليه برصاصة أصابته فى عنقه ورأينا أن خير ما نكافئ به أنفسنا الجلوس الى الطعام للغذاء .

---

(١) Cheetah (Cynaelurus jubatus) الشيتة وهى كلمة هندستانيـة نقلت الى الانجليزية والعربيـة .

والفهد من هـذا النوع[1] قابل للاستئناس أكثر من غيره ويُتَصَيَّد به الظباء في الهند والعجم والعراق وجزيرة العرب . ويعيش أليفا مع الناس فيكون شأنه شأن الكلاب دون فارق حتى اذا قصد الى الصيد حمل على ناقة أو فى مركبة معصوب العينين كما هو الحاصل بالهند . ومتى شوهـد الصيد أميطت عن عينيه العصابة وأطلق سبيله ، ولما كان سريعا جدا فى المسافات القصيرة فانه يدنو من الصيد مُتسحِّبا وراء الشجيرات أو من خلف الصخور فاذا دنا منـه انصبَّ عليـه انصبابا وقبض عليه ولا يدعه يفلت من بين براثنه .



الفهـــد الصياد

وفى الساعة الأولى بعـد الظهر استأنفنا البحث عن الصيد فعثرنا على مها صغير تركناه، ولما دنونا لمحنا مها كبيرا فأسرعنا نحوه بسياراتنا وإنما تعذَّرت علينا معرفة

(1) Hunting leopard or cheetah (Cynaelurus jubatas)

نوعه أذكر هو أم أنثى، غير أن الدليل أكد أنه ذكر، ووافقه كل منا على هذا الرأى لما بدا لنا من غلظ قرنيه ، ولكنه فى الحقيقة كان أنثى ، وكان قد لحق أحدى السيارتين بعض العطل فعدت مضطرا الى الخيام .

ولم ألبث بعد عودتى أن خرجت للبحث عن مها كبير لمحه كل من على بك شريف وحسين بك ايدش ورمياه بالرصاص دون أن يصيباه وقد أوغلنا فى الجبال والأودية حتى وقت الغروب ولم نعثر من الصيد على غير الاسپرنج بك ثم عدنا .

يوم ٢٨ يونيو — انتهى صيدى هنا واذ كنت معتزما الرحيل فى الغد الى الكيلومتر رقم ١٠١ أى الى النقطة الواقعة شرقى التى صدنا فيها الاسپرنج بك على مقربة من السكة الحديدية، وذلك لصيد الحيوان المعروف باسم كودو(١) (Koodoo).

وقد خرج جميع رفاقى ما عدا الطبيب فى طلب الصيد فانه بقى معى هنا وقبيل الغروب عاد الصيادون بعد أن صاد كل منهم واحدا من نوع الإسپرنج بك وصاد النبيل سليمان داود ثلاثة ثعالب جميلة يختلف لونها عن لون بنات آوى لأنها كانت زرقاء الجسم سوداء الآذان والقوائم دقيقة الفم فى حسن وقصر بالنسبة لفم الثعلب المصرى .

يوم ٢٩ يونيو — ذهب حسين بك ايدش الى موساميدس . أما نحن فقد لبثنا جميعا فى الخيام . ولم نتمكن من الرحيل اليوم كما كنا عقدنا النية .

يوم ٣٠ يونيو — تحركنا صباحا فمررنا بموساميدس ومنها قصدنا الى الكيلومتر ٧٠ حيث أمضينا الليلة لتعذر مسير المركبات كلها بسرعة واحدة .

يوم أول يوليو — رحلنا فى الصباح الى كيلومتر ١٠١ حيث يوجد حيوان الكودو وحططنا بها رحالنا على مقربة من السكة الحديدية وليس بالجهة محطة .

(١) Koodoo (Strepsiceros kudu) والكودو كلمة فلمنكية الأصل .

يوم ٢ يوليو — خرج للصيد صباحا كلّ من النبيل سليمان داود وباقى الرفقة . أما أنا فلم أستطع السير على قدمى لأن دودة وضعت بويضتها على إحدى أصابع قدمى اليمنى فأحدثت بها التهابا خفيفا ، وقد حضر مساء اليوم الصيادون دون أن يلتقوا بالصيد ، ما عدا حسين بك ايبش فانه لمح ذكرا كبيرا من نوع الكودو ، ولكن صيد هذا الحيوان متعذر جدا لملازمته دواما الجهات الكثيفة الأدْغال والأشجار والتى لا يستطيع نظر الصياد فيها أن ينبعث الى أكثر من عشرة أمتار من طريقه .

يوم ٣ يوليو — خرج رفاقى جميعا فى طلب الصيد ، ومابقى بالخيام سواى للسبب الآنف الذكر ومعى الدليل البرتقالى .

وقد أخذ الحمالون يرقصون فى هذه الليلة ويصيحون . وكان صياحهم يحاكى تغريد بعض الطيور فى هذه البلاد العجيبة .

وتعرف القبيلة التى تسكن هذه البقاع باسم مكوباس . وهناك جماعات أخرى من المتوحشين الذين يعيشون فى قمم الجبال ويعتصمون بالصخور ولا يختلط أفرادها بأحد حتى الزنوج الآخرين . وقبيلة مكوباس يضطهدونهم ويسيئون اليهم فيزيدونهم بهذا شقاء على شقائهم لا سيما وأنهم لا يملكون زرعا ولا ضرعا بل يقتاتون بجذور النباتات البرّية وبالصيد الذى يسوقه اليهم مقدور رزقهم . وتلك الطوائف المتوحشة تعـرف باسم مكوبايس وهى تنزل من سكان تلك الأقطار بمنزلة الغجر من سكان الأقطار الأخرى .

ولما دنت الشمس من التطفيل عاد حسين بك ايبش وعلى بك شريف والطبيب الذى صاد حيوانا صغيرا من نوع الدّقْدِق . أما على بك شريف فرأى فردا

كبيرا من الكودو فرماه برصاصـة وهو يظن أنه أصابه ولكنه اختفى ولم يسـتطع العثور عليه .

يوم ٤ يوليو — أخذت صباحا أجوس خلال الغابة بجوار الجبال القريبة ثم عدت فى منتصف الساعة الثانية عشرة دون أن أعثر على شىء . وكل ما وجدته كان أثرا خفيفا يسـتدل منه على أن هـذا الكودو حيوان نادر الوجود جدا بهذه الجهة، ولذا اعتزمت الرحيل الى ما يبعد عن مكاننا بنحو ستين كيلو مترا أى فى اتجاه لوبانغو للصيد بالقرب من محطة ڤيلًا أرياغا .

ولما عاد رفاقى بعـد الظهر علمت أن على بك شريف رأى أنثى الكودو وكذا حسين بك .

يوم ٥ يوليو — أمضينا الصباح فى الخيام وبعـد الظهر ركب كل من على بك شريف وحسين بك والدليل البرتقالى سيارة وقصدوا الى منزل الأخير ليأتونا بالخضر والدجاج . وما كادت السيارة تبعد عنا كيلو مترا حتى سمعنا ثلاث طلقات متواليات، ثم رأيناها عائدة والذين فيها يصيحون فرحا ويشيرون بأيديهم الى ما أتوا به معهم فلما وصلوا رأيت أنه الكودو وعلمت أن صائده هو على بك، وأنه ذكر متوسط الحجم طول قرنه ٤٧½ بوصه تقريبا . وبعد برهة خرجت بالسيارة وطفت بالغابة فلم أر إلا ذكرا وأنثى من نوع الأمپاله (Impala) فأمسكت عن صيده أملا بالعثور على الكودو ولكننى لم أعثر عليه .

يوم ٦ يوليو — سافرنا صـباحا فوصلنا بالقطار الى ڤيـلًا أرياغا ومنها بسياراتنا مخترقين الغابة الى موطن الكودو ولكن الطريق لم تكن للسيارات بل للعربات التى تجرها البقر . وقد وصلنا الى نقطة اضطررنا الى قضاء الليـلة بها ولم

يكن معي سوى الدليـل والطبيب وبعض الخدم أما سيارتي الثانيـة التي كان فيها بعض رفقتي فقد تأخرت ولم تصل ولكن وصلت السيارة الحاملة للمتاع وقد تعشّينا جلوسا على صخرة، وأوقدنا النار وأمضينا الليلة في مكاننا .



علي بك شريف والكودو

يوم ٧ يوليو — وصل رفاقي اليوم فسرنا معا وكان الطريق رديئا جدا . وكان لأيّنا أن يتساءل عما اذا كان راكبا سيارة أم دابّة تثب براكبها في كل خطوة . ولما أيقنت أن الدليل يجهل المكان الذي يقصد اليه وأنه يسير بنا بناء على إرشاد زنجي كان مرافقا لنا آثرت العودة لا سيما وأن الخـدم نسوا أن يأخذوا من المؤن الكفاية، فضلا عن أن البنزين لم يكن كافيا اذا بالغنا في الابتعاد الى ڤيلاّ أرياغا . ولما صرنا منها على مسافة ثمـانية كيلومترات تقريبـا علمنا من برتقالي حضر الينا ونحن نشتغل باصلاح مركبة تعطلت أن الكودو موجود هنا فاعتزمنا الصيد بهذه

البقعة . وكذا ضربنا فيها خيامنا على ضفاف الطريق الجارى إنشاؤها للايصال بين تلك القرية وموساميدس . ولقـد سرّنى ما شهدت فى هـذا المكان من أن أهليها ليسوا مصابين بالأمراض الجلدية والأدواء الوبيئة كغيرهم ممن سبق ذكرهم .

يوم ٨ يوليو — أمضيت الصباح فى هـذا المكان وخرجت الى الصيد بعد الظهر ولكننى لم أر سوى الحلوف البرى . وقد جهزت مركبتين كبيرتين يجرهما الثيران وعددا من دواب جرّ العربات الكبرى التى حمولتها ثلاثة أطنان تقريبا ويجرها ستة عشر ثورا ، وعزمنا على العودة غدا حيث كنا أمس الدابر ومنها الى حيث كنا نروم الصيد .

يوم ٩ يوليو — بعد مسيرة ثلاث ساعات وصلنا الى المكان الذى أمضينا فيه الليـلة المرة الأولى . وعقب تناول طعام الغداء استأنفنا السـير راكبين الحمير وفى الطريق رأى الطبيب ميرس فردا من الكودو وأشار إلىّ فنزلت عن مطيّتى وسرت لمتابعـة الحيوان وكنت أسمع صوته دون أن أراه . وبعد هنيهة لمح زنجى كان يتقدمنى خمسـة من الكودو فدنوت منها راجلا و رميت أكبرها برصاصـة مرت فوق ظهره ثم بثانيـة . وكان يعترض بينى و بينـه ذكر آخر أصغر منه حجما فأصبت هـذا الذكر ففرت الحيوانات فواصلت السـير على القدمين خلفها حتى لاحت لناظرى إلا أنها أخذت تركض مسرعة إلا واحدا منها انفصل عن الباقين. ولا بد هنا من الاشارة الى أن هذا الحيوان تتعذّر رؤيته غالبا ولا سيما اذا ركض . ذلك لأنه يأوى الى الغابات الكثيفة فاذا لم يسرع الصياد توارى الصيد عن نظره وقد رميت ذلك الذكر برصاصة فأصيب أيضا ، وبذا أكون قد صـدت ذكرين صغيرين على غير مرادى ، وما كنت أروم صـيده قد فرّ منى . ثم استأنفنا السـير حتى بلغنا الى مكان يجرى فيه غدير ماء فحططنا رحالنا بجوار هذا الغدير .

طول قرن الذكر الأول... ... ... ٣٣ بوصه
« « « الثانى ... ... ٣٠ ٥/٨ «

يوم ١٠ يوليو — أمضيت الصباح فى الخيام . وانتظرت أن يحضر الينا بعض سكان القرية الزنوج لنهتـدى بهم الى الأماكن التى يكثر الصـيد فيها ولكن الأهلين هنا متوحشون جدا وهم يبادرون بالفرار كلما علموا أن البيض دنوا من أكواخهم وقد أرسلت اليهم رجلا من أهل البلاد ليطمئنهم وليأتينى ببعض منهم ، فجاء ثلاثة ساروا بنا بعد الظهر ، وكان قد خرج بعضنا فى الصباح فعدنا جميعا دون أن نعثر على شيء ما .

يوم ١١ يوليو — خرجنا صباحا متفرقين إذ سار كل منا فى آتجاه مخالف لمـا سار فيه الآخر ثم عدت وعاد النبيل سليمان داود وعثرنا على أثر حديث للصيد ، ولم نعثر عليه نفسه .

وبعد الظهر خرجنا ثانيا فلمح بعض رجالى فردا من الكودو ، أما أنا فلم أستطع رؤيته وإنمـا اهتديت إلى أثره فقصصته على مدى بضع مئات الأمتـار ، ولكن لم أوفق لصيده .

يوم ١٢ يوليو — جاءنا أحد الزنوج صـباحا من قريته التى تبعـد عن محطتنا بنحو عشرة كيلو مترات وأخبرنا بأن الكودو كثير بالقرب منها فعقدنا النية على اختبار حالة الصيد هنـاك فى الغد . وقد خرج النبيل سليمان داود والطبيب وعادا بلا صيد . وتركت أنا مضرب الخيام بعد الظهر . وذهب النبيل سليمان داود وحسين بك ايبش والدليل البرتقالى إلى المكان الذى اعتزمت التوجّه إليه فى الغـد لتفقُّد حالة الصيد واقتصاص أثره لمعرفة إن كان كثيرا أو قليلا ولقد عدت مساء

وعاد غيرى من الصيادين دون أن نرى صيدا إلا الطبيب فقد رآه ورماه برصاصته ولكنه لم يصبه .

يوم ١٣ يوليو — رافقنى اليوم كل من حسين بك ايبش وعلى بك شريف الى المكان الذى وجد أولهما به فى الأمس أثرا للصيد فلما صرنا على مقربة من الجبل الشاهق الكائن فى ناحيـة الشمال الغربى ولم يبق بيننا وسفح الجبـل سوى مائة متر شعر بنا الكودو وكان فردا ففر . ولقـد لبثت فى مكانى منتظرا رؤيته أثنـاء سيره فلما طال انتظارى وعيل صبرى خُيِّل لى أنه سار الى خلف الجبـل فقصدت الى هذه الجهة وصعدت الى قمة رابيـة صخرية لمراقبة حركاته . وفيما أنا أرقبـه إذا بى أسمع صوت أحجار تنحدر الى أسفل الجبل المقابل، وبعد قليل لمحت الكودو متواريا بالأشجار فانتقلت الى مكان يمكننى من رؤيتـه أكثر من الأول ، وكان على مسافة مائة وخمسين مترا تقريبا منـه فرأيته يمشى الهوينـا صاعدا فصوبت نحوه بارودتى فلم أصبه وكانت علة الخطأ أنى لم أستعن بنظارتى فرميتـه برصاصة أخرى وهو واقف . فمشى صاعدا ووقف مرة ثانيـة متواريا بشجرة ثم بثالثة أخطأته فسـار منحدرا الى الوادى واختفى عن الأنظار فتتبعت أثره حتى اذا قطعت بضع مئـات من الأمتار لمحه الدليل وواحد من رجالى ثانيـا، إلا أنى لم أره . عندئذ جلست، وكان حسين بك ايبش و بعض الزنوج قد تخلّفوا ، فظننت أنهم سيسوقون الصيد نحوى، فلمـا طال انتظارى دون أن يصلوا أرسلت إليهم من يبحث عنهم، وحينما عاد علمت أن هنـاك سوء تفاهم . ذلك أنهـم بينما كنت أنتظر حضورهم كانوا ينتظرون الإشارة ليسوقوا الصـيد نحوى . وعلى كل حال فقد جلسنا للغـذاء فى الساعة الثالثة بعـد الظهر ولمـا قمنا عن الطعام هبطنا الوادى وانفصلت أنا من رفاقى، موغلا فى الغابات ولم أر الصيد . و بعد قليل وصل اثنان من الرفاق والطبيب

فقالوا انهم لم يعثروا على الصيد . أما النبيل سليمان داود فقد أمضى الليلة فى جهة أخرى .



امرأة إفريقية تمثل جمال الزنجيات

يوم ١٤ يوليو — لم يعد النبيل سليمان فى صبيحة اليوم وخرج حسين بك ايبش لإمضاء الليلة حيث كنا بالأمس . وسار الطبيب الى مكان وجودنا

بالأمس لقضاء الليلة هنـاك إن لم يوفّق للصيد فى النهار ، أما أنا وعلى بك شريف فبقينا بالخيام و بعد الغداء سرت قاصدا الى الجبل بالشمال الشرقى لمحطتنا هذه ، وعدنا بلا صـيد . وقد أمضى طبيبنا الليـلة فى انتظار الصيد ولكنه لم يصـد . وكذا حسين بك ايبش فقـد أمضى ليلته حيث كنا بالأمس . أما النبيل سليمان فقد عاد اليوم بعد الظهر ولم يصد .

يوم ١٥ يوليو — خرج بعضنا صباحا والبعض الآخر ، وأنا فى جملتهم ، بعد الظهر ولم يصد أحد . وقد اعتاد ضبع أن يختلف إلينا مساء كل ليلة ونقل لى أنه رفع قائمتيه الى العربة للبحث عن اللحم وكان رجل نائمـا بجوارها .

يوم ١٦ يوليو — قيل لنـا إن الكودو كثير شمـالى منزلنا على مسافة اثنى عشر كيلو مترا منه تقريبا . وجاءنا برتقالى يسكن تلك الجهة وقال إن الصـيد كثير بقرب منزله فسافرنا اليوم إلى هذه الجهة فوصلنا قبل الظهر . وبعد الاستراحة فترة من الزمن نصبت خيامنا على مقربة من مجرى نهر يَنْبُط المـاء منه اذا حفر على عمق عشرين سنتيا أو ثلاثين . وبعد الغداء خرجنا للبحث عن الصيد ثم عدنا مساء دون أن نعثر على الكودو .

يوم ١٧ يوليو — خرج كلّ رفاقى فى طلب الصيد ما عداى والطبيب ، ثم رجعوا بلا صيد وبقى بعضهم النهار كله ثم عاد فى المساء .

يوم ١٨ يوليو — رحلنـا صباحا الى ڤيـلّا أرياغا ومررنا بمزرعة قطن من الأنواع التى تزرع بأمريكا . وقد وجدت شجيراته حاملة مقدارا كبيرا من اللوز وأن البعض منـه قد تفتّح . وهو قصير التيلة جدّا وغير حسن وكان وصولنـا الى القرية قبيل الغروب .

يوم ١٩ يوليو — استأجرت قطارا سافرنا به الى لو بانغو فبلغناها فى الساعة الخامسة تقريبا . وقد قصدنا الى المنزل الذى نزلنا به عند ما جئنا هنا لأول مرة .

يوم ٢٠ يوليو — أمضينا سحابة اليوم بالمنزل لتجهيز ما يلزم لعودتنا غدا الى كاكوبا .

يوم ٢١ يوليو — برحنا لو بانغو صباحا وأمضينا الليلة بكاكوندا .

يوم ٢٢ يوليو — وصلنا اليوم الى هوامبو وأمضينا الليلة بها .

يوم ٢٣ يوليو — وصلنا بعد الظهر الى كاكوبا .

يوم ٢٤ يوليو — قضينا اليوم فى تجهيز ما يلزم لصيدنا بالجهـة التى كنا فيها بين نهرى كوانزا (Kwanza) ولواندا (Loanda) .

يوم ٢٥ يوليو — انتقلنا بعد الظهر الى كوانزا بوست للسفر غدا كما فعلنا فى الدفعة الأولى . وكان فى انتظارنا جناب حاكم اقليم موشيكو وقد قضينا الليلة هنا .

أيام ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ يوليو — وصلنا صباحا وكان مبيتنا فى نفس النقط التى كنا نزلنا بهـا فى سفرنا فى المرّة الأولى وقـد وصلنا الى محطتنا الأخـيرة فى منتصف نهار ٢٨ يوليو، ولكننا استأنفنا المسير بعد الغداء . ورأى بعض الحمالين سرْبا من الصيد المنشود نتبّعه النبيل سليمان ولكن لم يصد شيئا منه . وقد وصلنا فى الساعة الخامسة تقريبا الى قرية تعرف كغيرها باسم شيخها وهو مسوشو فأمضينا الليلة بهـا .

يوم ٢٩ يوليو — استأنفنا المسير فى البكور وكانت الحشائش قد أحرقت ونبتت فى السهول الأزهار الجميلة . أما ألوان وريقات الأشجار فكانت من أجملها

وأزهاها . فمن أحمر الى فُسْتُقِىّ الى أخضر فاتح أو ضارب الى الصفرة . وليس فى شجرة واحدة وريقة واحدة يختلف لونها عن غيرها . وفى الساعة العاشرة تقريبا عبرنا نهرا يسمى لوسنغى يصب فى نهر لواندا . ثم وصلنا الى قرية هنوما فى الساعة الحادية عشرة تقريبا، وحططنا بها الرحال .

يوم ٣٠ يوليو — خرجنا صباحا متفرقين للبحث عن الصيد وكانت الأعشاب ما زالت مرتفعة وأكثرها لم يحرق فرأيت أثرا حديثا تتبعناه، ولكن رجالى عفوا على معالمه فاندثر . وقد طفنا بالغابة زمنا ، ثم عدنا الى الخيام قبيــل الغروب دون أن أعثر على صيد وكذا رفيقى فانهما قد عادا دون أن يريا شيئا غير الأثر .

يوم ٣١ يوليو — اجتزت فى الصباح غديرا صغيرا يصب فى اللوسُنْغى وطفت بالغابة حتى قرب الغروب ولم أعثر على غير الأثر . أما النبيل سليمان فقــد لزم الخيام ، ولمــا عاد حسين بك ايش من الصيد بالمكان الذى كنّا به فى الأمس قال إنه دنا من الصيد فوجده راقدا، غير أنه أحس به . ولم تسمح الأعشاب للصياد برؤية الحيوان على مسافة بعيدة .

يوم أوّل أغسطس — كان مأمور مركز كوانزا قد حضر فسافر فى صبيحة اليوم، بعد أن زوّدته التعليمات اللازمة بشأن طعام الحمالين الى غير ذلك، وبقيت أنا بالخيام لبرد شعرت به وكذا النبيل سليمان . أما حسين بك فقد خرج فى طلب الصيد . وعلمنا قبيل الظهر من زنجى سمع دوىّ بندقية بالجهة التى بها حسين بك . فلما كانت الساعة الرابعة بعد الظهر طفت بالغابة قليلا ولم أعثر على الصيد . وفى عودتى وجدت حسين بك وعلمت منه أنه أصاب أنثى، فيكون قد لحق به ما لحقنى فى المرة

الأولى من الأسف الشديد . وقد جدّدنا هذا الأسف لأنه لم يسمح له إلا بصيد رأس واحد من السيبل ولقد قال أنه رأى أكثر من ثلاثين أنثى .

ولما تأكد لنا أن الصيد كثير هنا اعتزمنا البقاء أياما .

يوم ٢ أغسطس — أردت الخروج صبيحة اليوم فمنعنى الزكام ولزمنا مكاننا نحن الثلاثة . وفى نيّتنا استئناف الصيد غدا .

يوم ٣ أغسطس — خرج معى فى الصباح حسـين بك ايبش فطفنا فى الغابة دون أن نقف على أثر . وفى المساء عدنا وقد صدت رأسين من الريدبك (١) وهو يختلف عن الريدبك بأن لونه دخانى .

طول قرن الذكر الأكبر	١٣ ٢/٨ بوصة
المسافة بين طرفى القرنين	٦ ٣/٨ «
طول قرن الذكر الثـانى	٨ ٦/٨ «
المسافه بين القرنين	٦ ٦/٨ «

يوم ٤ أغسطس — سار حسين بك ايبش قاصدا الى نهر لُوسى الواقع شمالى هـذه المنطقة وسرت أنا أبحث عن السيبل كما سار النبيل سليمان فى اتجاه آخر وبينا كنت أستريح قبيل الظهر جاءنى أحد الأدلّاء من سكان القرية ليخبرنى بوجود الحيوان المنشود على مقربة منا ، فتوجهنا اليـه ولكنا لم نعثر عليه . ولما كانت الساعة وقت استراحة الحيوانات فقد آثرت الراحة وتناول الطعام الى أن توافينا الساعة الثالثة ، وفيها استأنفت السير فعثرت على الحيوان ولقد أمعنت مرارا النظر بمنظارى فى قرون الحيوان الوحيـد الذى كنت أراه كيلا يحدث ما حدث فى المرة

(1) Reed Buck.

الأولى . فلما تأكّد لى أنه ذكر وأنه كان مُدْبِراً عنى رميته برصاصتين تباعًا فاصيب دون أن أدرى فى أى مكان من جسـمه، وكان مشرفا على السـقوط ثم استجمع قواه وركض مع حيوان آخر من نوعه وهو يرفس باليسرى من قائمتيه الخلفيتين . والراجح عندى أنه أصيب فى بطنه أو فخذه . وكانت المسافة بيننا قصيرة لا تتعدّى المائة والثلاثين مترا وقد تتبعنا خطواته ولكن لم نهتد الى أثر دم واعترى رجالى تعب شديد وكان الوقت غروبا، فقبل أوْبتنا قطعنا بضع مئات من الأمتار فى أرض أحرقت أعشابها فوجدنا ذلك الأثر منقولا فيها حديثا، وقد صاد النبيل سليمان داود ذكرا من نوع الرُّون (Roan) المسمى أبو عُرْف فى اصطلاح أهل السودان .

يوم ٥ أغسطس — أمضيت النهار فى الخيام . وخرج النبيل سليمان للصيد ثم عاد ولم يصد .

يوم ٦ أغسطس — بقى النبيل سليمان داود فى الخيام وخرجت للطواف بالغابة فوصلت الى بسـيط من الأرض أحرقت فيه الأعشاب ، ولمحت قطيعا من الحيوان المقصود يرعى الحشائش، ولكن عدم وجود الأشجار حال بينى والدنو منها وكانت المسافة تتجاوز مائتى متر وكانت الحيوانات تسـير الهوينـا فرمقتها بالمنظار لتبيُّن الذكر من بينها إلا أننى لم أره وقد أرانى إيّاه الدليـل . وكان هـذا الحيوان يسـير خلف القطيع تفصله عنه مسافة فبعـد أن تأكد لى أنه الذكر صوّبت اليه بارودتى وهو واقف وأطلقت عليه منها رصاصة ، وكنت نسيت أن أرفع النيشان الى مائتى متر فرأيت الرصاصة تمس الأرض فيما دونه فرميته بأخرى . وفى هذه المرة وثب الحيوان وثبته حينما يصاب بالرصاص ثم سار مسرعا من غير ركض فاعتقدت أنه أصيب فرميته بثالثـة ثم برابعة فاختلط بالقطيع وفرَّ الكل فتوجهت الى المكان

الذي كان واقفا فيه لأبحث عن الدم فماذا وجدت ؟ وجدت أنثى الحيوان قتيلة طريحة على الأرض وقد كان من شأني تجاه هذا المنظر وما أحدث في نفسي من أثر شأن من اعتقد أنه عقد قرانه على آنسة من ربّات الجمال حتى اذا اجتمع بها في ليلة الزفاف رأى أنها الى القردة أقرب منها الى الإنسان . وكان مما أوجب العجب والدهشة أني لم أطلق الرصاص على هذه الأنثى . فكيف أصبت بها هذه التعسة التي أتعست بموتها صائدها . وبقي لي الحق في صيد ذكر واحد بعدها . ومما لا شك فيه أن رصاصتي مسّت الأرض فتغير اتجاهها وأصابت الأنثى لأن الذكر كان منعزلا وعلى مسافة تتجاوز مائة المتر ، فلنقل وما قدر كان . ثم اقتفيت أثر الحيوانات ثانيا وظللت سائرا حتى الغروب بعد أن استرحت زمنا للغداء وأخيرا عدت الى الخيام وقد عاد حسين بك ايش من لوسى وقال إنه وجد أثرا ولم ير الحيوانات .

طول قرن الأنثى $\frac{1}{8}$ ٣٤ بوصة .

يوم ٧ أغسطس — خرجنا جميعا وكان يرافقني حسن بك ايش فطفنا بالغابة فلم نجد حيوانا ما . أما النبيل سليمان داود فصاد ذكرا من نوع الريد بك .

يوم ٨ أغسطس — عدنا اليوم الى قرية شوندو التي شرحنا صيدنا بها في المرة الأولى وفيها نصبت الخيام بالقرب من نهير ماء جارٍ في الجهة البحرية منها.

يوم ٩ أغسطس — سرت متّجها صباحا صوب الشرق ومعي دليل من سكان القرية واتجه النبيل سليمان داود نحو الغرب ، فبعد أن طفت بالغابة ثلاث ساعات وثلاث أرباع الساعة من غير أن أعثر على شيء كثير من آثار أمس آثرت الاستراحة لأن الحيوانات تلزم مراقدها عادة بعد الساعة التاسعة . وفي الساعة

الثانية و بضع دقائق استأنفت المسـير متّجها نحو الجنوب الشرقى فما كدت أقطع أربعمائة متر تقريبا يتقدّمنى الدليل حتى لمح هذا الرجل ذكرا من السـيل المنشود يرعى بمفرده . ولم يكن مقدّم جسمه باديا لاحتجابه بشـجرة فلفت الدليل نظرى مشيرا الى الحيوان بالبنان ولمحه أيضا السو با (شيخ القرية) واسمه جوزى ثم رأيت



السـيل

الحيوان وعلمت من سواد لونه أنه ذكر ولكني لم أر قرنيـه فتناولت بارودتي من حاملها ولـا أردت اطلاق الرصاصـة منهـا ألفيتها غير محشوة بالرصاص فبادرت باخراج رصاصتين من جيبي وحشوت بهما البارودة ثم صوّبتها نحو الحيوان فأصابته الرصاصـة الأولى بكتفه اليسرى مخترقة رئته فتحرك خطوتين ولكنه لم يلبث أن سـقط بجنبـه صريعا على الأرض وكانت المسافة لا تتجاوز مائة وثلاثين مترا . فركض من كانوا معي جميعا وسمعت السوبا جوزي يصيح فرحا ما جو ! ما جو ! التي معناها باللغـة البرتقالية الذكر ! الذكر ! أما أنا فقـد مشيت على مهل متفرّسا في وجوه الرجال لأعلم من هيئة سحناتهم أمرا . وقد خص الصـيد أذكرا هو أم أنثى ، فرأيتهم جميعا ساكتين واجمين تخفق لمنظرهم قلبي حتى لقـد كدت أسمع ضرباته بأذني .

على أنني اعتصمت بالصبر ودنوت منـه ونظرت في القرنين وحمـدت الله على ما أولاني من صيد اليوم . وبينا أنا أقيس قرني الحيوان سمعت النبيل سليمان داود وكان قيـد بعض الخطوات مني ، وهو يهنئني بثمرة أتعابي وصـبري وعجبت حين علمت أنه كان قريبا جدا من الحيـوان حينما أطلقت الرصاص وأنه لو تأخرت عن رميه بضع دقائق لكان هو الصائد له بالنظر لوجوده في طريقه . وعندئذ أخذ كل منا يصوّر السيبل فيما جعل فيه من الأوضاع المختلفة ثم انقضّ الحمالون عليه فلم يتركوا في مكانه سوى أثر الدم الذي نزف منه على الأرض وعادوا به كما عدنا نحن الى الخيام فرحين جذلين . وكان الخدم أشدّ الناس فرحا وسرورا بذلك الظفر بل بتلك النتيجة التي كنا نرتقبها بذاهب الصـبر . لأنهم اعتقـدوا أننا سنعود على الفور الى كاكوبا راحلين عن هذه الجهة عائدين الى مواطننا . ولكن نفوسهم انقبضت اذ علموا أن النبيل سليمان داود أهداني السيبل المرخّص له بصيده وأننا سنبقى أياما حتى نصيده

طول قرن السيبل الذكر ... ... ٥٦ $\frac{٤}{٨}$ بوصـة
محيط القرن من قاعدته عند الجمجمة ... ... ١٠ $\frac{٥}{٨}$ «
المسافة بين طرفى القرنين ... ... ٢٨ $\frac{٦}{٨}$ «

يوم ١٠ أغسطس — أمضيت النهار بالخيام مع رفيـق الآخرين وأرسلت رجالا للبحث عن المناطق التى بها أثر حديث للسيبل أو التى يلمح فيها هذا الحيوان حتى أخرج لصيده فى الغد فعاد الرجال مساء وقد شهدوا الحيوان المنشود .

يوم ١١ أغسطس — خرجت اليـوم مبكرا كبير الأمل فى ألا أعود من غير صيد أختم به الصيد فى هذه المرة و بهذه البلاد ،هذا بخلاف تكرُّم رفيق وتنازله لى عن حقه وكان يرافقنى حسين بك ايبش . أما النبيل سليمان فقد بقى فى الخيام . فسرنا نحو الساعة وكنّا على مقربة من قرية سوندوا الى الجنوب منها فعثرنا على أثر فرد واحد منها قال الأولاد عنه أنه ذكر كبير . و بدت علامات السرور وشارات الأمل على كل الوجوه فأخذنا نتتبَّع الأثر تارة يمنى وطورا يسرى حتى قادنا الى غابة كثيفة بعد إذ كان يرعى فى سهل أحرقت أعشابه . و بعد مسافة قصيرة انحدر بنا الأثر الى مجرى جفَّت مياهه وقد نبتت فى قاعه الحشائش اليانعة وكان المجرى ضيِّقا لا يتجاوز عرضه الثلاثين مترا . ولـما استأنفنا السير قلت لرفيق ورجالى أن يسيروا خلفنا على بعد منا وتناولت بارودتى من حاملها وكان يرافقنى السو با جوزى السابق ذكر اسمه وأحد القرويين ، فـما كدنا نقطع أربعمائة متر تقريبا حتى لمح القروى الحيوان الذى قيل إنه ذكر كبير وأشار اليـه ، وكان على مسافة أكثر من ثلاثمائة متر منا وأبصر به السو باجوزى أيضا . أما أنا فقد خُيِّل لى أنه راقد وقد أخذت أبحث عنه بنظرى فى مدى مائة متر تقريبا ، وكان الرجلان فى حالة اضطراب شـديد . وأخيرا لمحت الحيوان خارجا من الضفة الجنوبية لهذا الوادى الضيق ليعبر تلك المسافة وكان سيره

حثيثا من غير ركض . وإذ كانت الشمس ما زالت على أفق المشرق والحيوان بيننا وبينها فقـد لاح لناظرى أن لونه أسـود كلون الذكر الكبير فاذا أضيف الى ذلك ما أكده لى رجالى والسوبا قبلا من أنه ذكر كان لى العـذر كل العذر فى الاعتقاد بأنه كما قالوا . على أنه ليست هـذه بالمرة الأولى التى خدعهـم فيهـا خطأ الحس وخدعونى به . عند ذلك ركض الرجلان وركضت معهما لنقرب من الحيوان بقدر الطاقة . ولقد هممت بأن أقف لأتحقق بالمنظار حجم قرنيه ، فلما فعلت لم أستطع إيقاف الرجلين المجنونين إلا بأن دنوت من القروى وضربته على ظهره بيدى اليسرى (انظر ما كتبته عن الزنوج) ولست أدرى ماذا كانا يقصدان ما دامت البرودة بيدى وأنا الذى سأصيد لا هما . وقد دنوت من الحيوان فى آخر الأمر وصرت على بعـد مئتى متر تقريبا . ولكن الشـجيرات هنا كانت كثيفة جدًّا فلمحنى وانطلق راكضا ، فرميته برصاصـة أصابت شجيرة ثم بثانية أصابته فى الصميم ، حتى إنه بعد إذ كان مارا الى يسارى ركـض مبتعدا عنى فرميته برصاصة رابعة أصابته أيضا فانعطف الى ناحية اليمين وسقط مجندلا ولم يتحرك .

حدث هذا وما كنت أرى من الحيوان إلا أجزاء من جسمه لتقارب الشجيرات بعضها من بعض ، فصاح السوبا والقروى فرحين ، وكرر السوبا كلمة ماجو! ماجو ماجو ! — وأخذ يومئ الى قرن الحيوان بأصبعه قائلا بالبرتقالية إنه ذكر كبير . فحمـدت الله على ما حبانى من نعمة الصـيد وفق مرادى وانطلقت لأراه وإنما بسرور مشوب بشعور الشك والارتياب . ولمـا صرت على مسافة ٦٠ الى ٧٠ مترا منـه كرر السوبا كلماته السابقة فحل بعض اليقين محل بعض الشك وأخذتنى هزَّة الفرح ، ولكن ... وهـذا الاستدراك كثيرا ما لزمنا فى مواقف أخرى . ولكن ما كدت أدنو من الحيـوان حتى تكشَّفت لى الحقيقـة المرة فى أفظع مظاهرها .

لأنه كان أنثى لا ذكرا كما زعم ، ولهذا السبب أنحيت على السوبا باللعنات ولعنت القروى معه أيضا لأنهما كانا فى الختـام سبب خيبتى وفشلى ، ثم اتجهنا الى الجنوب بنية صيد أحد الذكور وإن يكن ما رخص لنا بصيده هذه المرّة لا يتجاوز أربعة ، على أن أرضى حاكم اقليم موشيكو كيفما كان . وفى الواقع فقد اهتديت بعد الغداء الى آثار قطيع من السيبل . وفهمنا من أثر فهدين وطرف ذنب واحد من صغار السيبل أن الفهدين افترساه وأن أمه جاءت لتبحث عنه ، وذلك لأن الأنثى لا تسير وحدها وإنما الذكر الضعيف أو المسن هو الذى يقصيه عن القطيع الذكر الشاب القوى . فسرنا على أثر القطيع حتى لمحت حيوانا منه ينظر الينا ، فأمرت رجالى بالجلوس على الأرض وسرت مستترا بحصن من حصون النمل ثم صعدت فيـه وأخذت أفحص بالمنظار ولم أجد سوى ذكر واحد لا يزيد طـول قرنه على العشرين بوصـة فبقيت حيث أنا حتى ابتعدت الحيوانات ثم عدت الى الخيام .

طول قرن صـيد اليوم ... ... ٣٣ بوصة

أى ببوصة واحدة أقلّ من قرن الأنثى التى صدتها خطأ كما سبق شرحه قبـل الذكر الكبير .

يوم ١٢ أغسطس — رحلنا صباح اليوم فكان وصولنـا الى كاهورى فى الثالث عشر منه ، ومنها الى كاكوبا وهى مركزنا المختار .

يوم ١٣ أغسطس — انفصلنا ، فقصـدت وحدى الى قرية جوزو وقصد النبيل سليمان وحسين بك الى كاكوبا .

يوم ١٤ أغسطس — سرت صباحا الى تلك القرية بعد الظهر لصيد السيتوتونغا .

يوم ١٥ أغسطس — خرجت اليوم لصيد السيتوتونغا فكنت أحرق القش وأنتظر ظهور هــذا الحيوان ، ولكن لم يظهر منــه شيء بل الذى ظهر هو الريدبك فصدت منه ذكرا صغيرا .

طول قرن الريدبك ... ... ٩ ⅞ بوصة
المسافة بين القرنين ... ... ٩ «

يوم ١٦ أغسطس — خرجت اليوم فوصلت الى منطقة المستنقعات فغصت فى المستنقع الى صدرى وصُبِغْتُ منه بلون أسود قبيح ضارب الحمرة . ذلك لأن ماءه كان مصبوغا بلون متولد من جذور النباتات والحشائش . وقد أشعلت النار فى الأعشاب فظهر حيوان من الريدبك فصدته ثم انتقلت الى جهة أخرى . وهنا لما قربت النار التى أشعلتها ولم يظهر حيوان جلست للغــذاء . وما قمت عن الطعام حتى جاءنى خادم قائلا أنه رأى حيوانا . وقد شهدته فعلا وهو يركض وكان من نوع سيتوتونغا وهو يعيش على الأعشاب والحشيش وينام فى المـاء . وبعـد برهة اختفى الحيوان فانتظرته، وقد قربت النار جدا فرأيتــه ثانيا قادما إلىّ فرميته برصاصتين أصابتاه فى كتفه اليمنى فخرّ صريعا وتدحرج فى المـاء فأخرج منه .

طول قرن الريد بك (Reed buck) ... ... ١٢ ⁶⁄₈ بوصة
« السيتوتونغا ... ... ١٦ ½ «
المسافة بين القرنين... ... ... ١١ «

يوم ١٧ أغسطس — قصدت الى المستنقعات التى الى جنوب قرية شورو بشرق لصيد السيتوتونغا فلم أجد هــذا النوع بل وجدت الريد بك فصدت أربعة منه أحدها صغير كان صيده للحمه .

طول قرن الذكر الأكبر	$\frac{٢}{٨}$ ١٣ بوصة
المسافة بين طرفى القرنين	$\frac{٥}{٨}$ ١٠ «
طول قرن الذكر الثانى	$\frac{١}{٨}$ ١٢ «
المسافة بين طرفى القرنين	١٠ «
طول قرن الذكر الثالث	$\frac{١}{٤}$ ١٢ «
المسافة بين طرفى القرنين	$\frac{٧}{٨}$ ٩ «

يوم ١٨ أغسطس — قصدت اليوم الى المستنقعات البحرية حيث صدت السيتوتونغا أوّل من أمس وخضت الماء الى ما فوق الركبتين من الساعة الثانية والنصف الى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر وعثرنا على سيتوتونغا من صغار الذكور مختفيا فى الأعشاب الرفيعة وراقدا فى الماء . ولما دخل رجالى هذه الأعشاب دنوا من الحيوان الى مسافة لا تتجاوز الستة الأمتار فانتظرته خارج الأعشاب وسار الناس اليه ففرّ الى ناحيتى حتى لم يبق بينى و بينه أكثر من خمسة أمتار فرميته برصاصة ثم ثانية فثالثة فرابعة وهو فارّ ولم أصبه . وقد خضنا هذه المستنقعات وساق الرجال الصيد نحوى فظهرت إناث ثم ذكر صغير صدته . ثم انتقلت الى نقطة أخرى وهنا وجدت إناثا ولم أر ذكورا ولست أدرى لماذا قلّت الذكور وكثرت الإناث، وأين اختفى الذكور . ثم عدت الى الخيام وقد أخبرنى شيخ القرية وغيره أنه يوجد هنا حيوان فاتح اللون ارتفاعه ثلاثة أقدام أو أكثر، وذو قرنين منعطفين الى الأمام بعد تراجع الى الخلف واسمه بلغتهم سونغى ولست أدرى ما هو هذا الحيوان الذى يعيش كالسيتوتونغا فى المستنقعات أيضا ولكنى علمت فيما بعد أنه المعروف باسم ليجوى أو ليشوى[١] .

(١) Lechwe (Onotragus leche) or Cobus lechee نوع من بقر الوحش يسمى إنيا وليتحى أيضا ومنه نوع آخر يوجد فى حياض النيل الأزرق ويعرف بلسان الدنكة بالأبيوك . (Mr's Gray Lechwe or Cobus maria)

يوم ١٩ أغسطس — أمضيت سحابة اليوم فى الخيام للاستراحة .

يوم ٢٠ أغسطس — خرجت للصيد ولكن بدأ الكسل يستولى على الحمالين فأعدتهم الى كوانزا وطلبت إبدالهم من غيرهم وبعد الظهر خرجت للصيد فلم أصد شيئا .

يوم ٢١ أغسطس — أمضيت صباح اليوم بالخيام منتظرا مجئ الحمالين وجاء حسين بك إيبش ليزورنى ووصل الرجال بعد الظهر .

أيام ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ أغسطس — خرجت للصيد فى كل يوم منها فلم أر من السيتوتونغا إلا الإناث وصدت يوم ٢٤ ذكرا من الرِّيدْبَكْ . وقد وجد أحد الرجال بالمستنقع ذكرا كبيرا من السيتوتونغا لم يقم ولم يستطع أن يتحرك ، لأن رجله الخلفية اليسرى كانت مكسورة برصاصة وبظهره رصاصة أخرى فضربه بعصا فى طرفها حديدة فقتله وعلمت من الرصاص الجارح له أن صائده من زنوج القرية تقابلنا به فى المستنقعات أمس صباحا .

يوم ٢٥ أغسطس — صدت اليوم ذكرا من السيتوتونغا لا يزيد قرنه على الإثنى عشر سنتيمترا ولم أر ذكرا غيره وقد نقلت خيمتى الى ما وراء قرية جوزو . فلما عبرت النهر ووصلت الى طريق الأوتومبيل وجدت بحافة الطريق أثرا يشبه قبرا جعل له شبه عمود صغير من الطين وقلب على رأس العمود وعاء صغير أسود اللون ثم قوس من الخشب وعلى القوس عصا جعل بطرفيها سلك من النحاس الأصفر فسألت الناس عن هذا الأثر فأجابوا بأن زوجة السويا كانت مريضة وشفيت فى هذه النقطة بدواء طبيب ، فأقيم هذا الأثر تذكارا لشفائها .

يوم ٢٦ أغسطس — خرجت اليوم الى الضفة الغربية من نهر كوانزا فصـدت سيتوتونغا ذكرا أصغر من الذى صدته قبل أيام وقرن ذلك الصـيد أربع عشرة بوصـة فقط ثم صـدت من نوعه ذكرا أصغر منه وبه انتهى صـيدى فى هذا المكان الذى كنت أسير به فى كل يوم أكثر من خمس ساعات فى مستنقع تعلو مياهه الى ارتفاع صدرى .

يوم ٢٧ أغسطس — عدت الى كوانزا پوست وسافرنا منها الى مونيانغو حيث أمضيت الليلة .

يوم ٢٨ أغسطس — وصلت اليوم الى ڤيلّا لوسا وقد تأخرت سيارة بالطريق وها نحن بانتظارها .

يوم ٢٩ أغسطس — نحن هنا فى انتظار وصول السيارة وقد وصلت قبيل الظهر .

يوم ٣٠ أغسطس — استأنفنا السير فوصلنا بعد الظهر الى نقطة شبايا التى أمضينا الليلة بها مع محافظ موشيكو وكان عائدا من جولته بجهة الزمبيز .

حادثة مكتب جوازات السـفر

يوم ٣١ أغسطس — وصلنـا فى منتصف الساعة العـاشرة مساء الى ما سيبي بعـد أن اخترقنا منطقة كبيرة من السهول وقـد صدت ذكرا من نوع الأوربي[١] طول قرنه خمس بوصات ونصف بوصة ووجدنا هنا مدير شركة السيارات التى تنقل المسافرين من كاكوبا الى شيلونغو بالكونغو البلجيكى .

(١) Oribi (Ourebia ourebi نوع من بقر الوحش يسمى إثلا بلسان الزولو .

يوم أول سبتمبر — سافرنا صباحا فوصلنا الى مفترق الطريقين الموصل أحدهما الى كاباندا البرتقالية والآخر الى ستنغا البلجيكية . وهنا أرسلت سيارتى لأخذ ما أودعناه بالنقطة البرتقالية من البنزين والزيت للسيارات وبقيت أنا فى الطريق فلما عادت السيارات انتقلنا الى ستنغا حيث أمضينا الليلة . وللجهة هنا مأمور مركز ومساعد له .

يوم ٢ سبتمبر — أصيبت سيارتى بعطل بالغ فى الطريق بعد قيامنا من ستنغا صباحا فوصلنا الى قرية مُهَنَا التى أمضيت الليلة بها .

يوم ٣ سبتمبر — استأنفنا السير ولكن تأخرت سياراتى كلها ولم يدركنى منها بعضها إلا فى وقت متأخر، وقد اعتزمت المبيت بكفاكومبا (Kafakumba). ولكن حالت حالة السيارات دون ذلك فأمضيت الليل بمحل شركة تجارية .

يوم ٤ سبتمبر — وصلت الى قرية كندو حيث أمضيت الليلة . وقد حضر اليوم حسين بك إيبش من بوكاما (Bukama) بعد سفر النبيل سليمان داود.

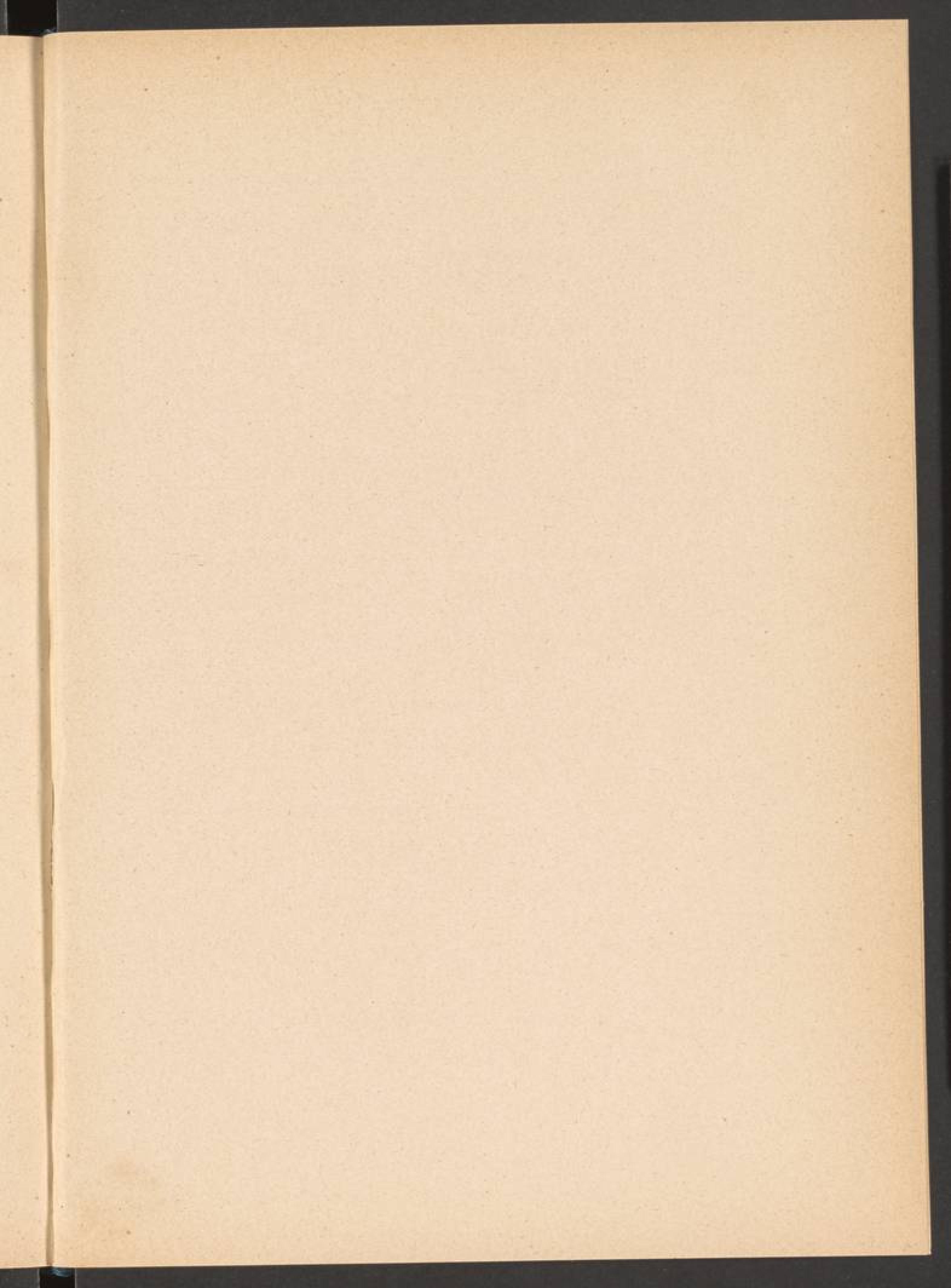
يوم ٥ سبتمبر — وصلت الى بوكاما بعد الظهر ونزلت فندقا . والى هنا انتهت رحلتى بمستعمرة أنغولا البرتقالية وبهذه المناسبة أشكر لجناب حاكمها العام ما قدمه لى من المساعدات القيمة طول مدّة وجودى بها .

يوم ٦ سبتمبر — برحت بوكاما قاصدا مدينة الرأس .

يوم ٧ سبتمبر — وصلت الى اليزابتفيل (Elisabethville) بعد ظهر اليوم وهى من أهم مدن الكونغو وبالقرب منها معدن نحاس .

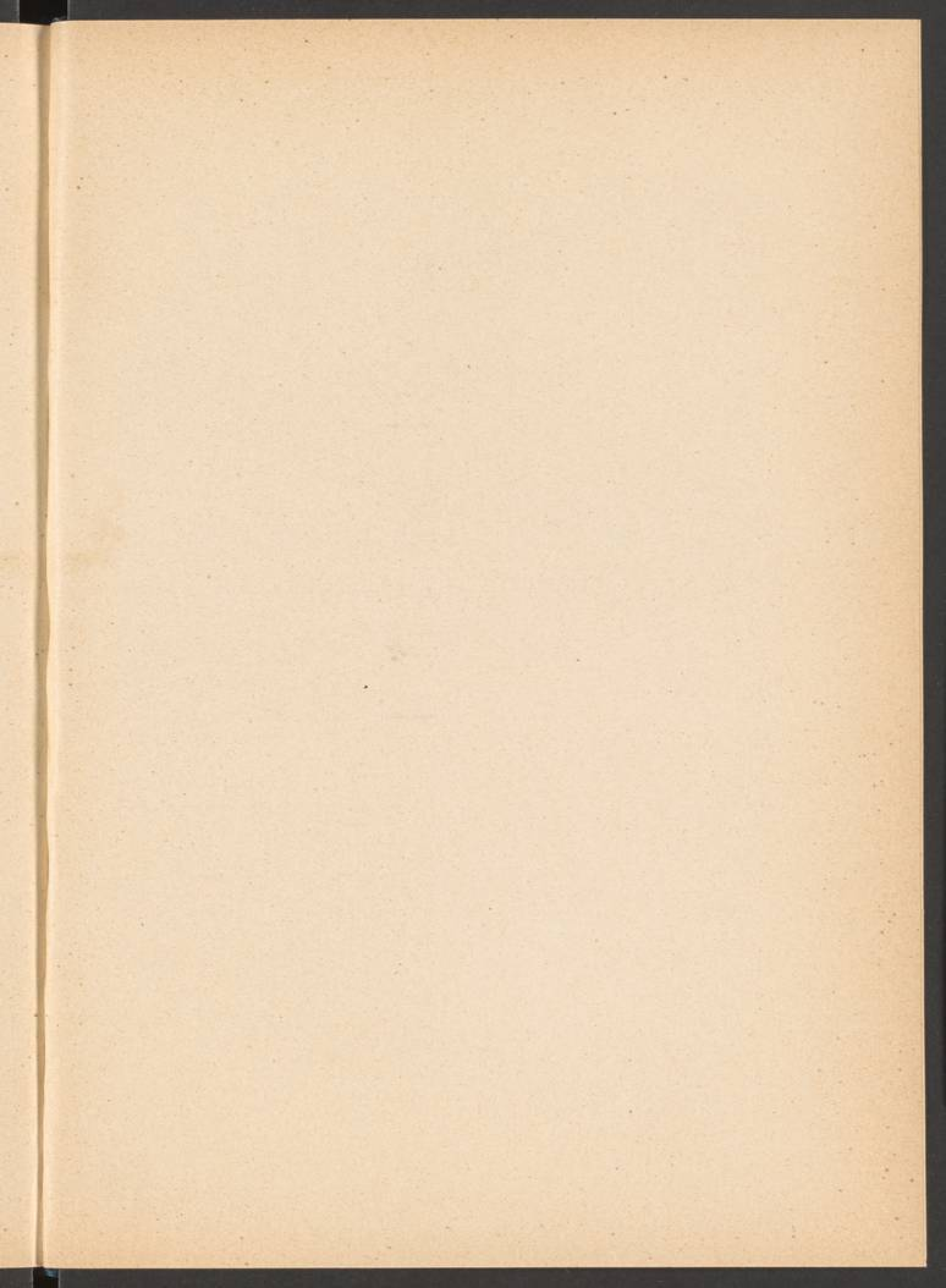
يوم ٨ سبتمبر — برحت هذه المدينة .

يوم ١٠ سبتمبر — وصلت الى مدينة لڤنجستون (Livingstonia) المسمّاة باسم الرحالة المعروف وها أنا الآن في روديزيا الشمالية (Rhodesia) . وفى منتصف النهار قصدت الى شلالات ڤيكتوريا الموجودة على مسيرة ربع ساعة تقريبا من هنا .

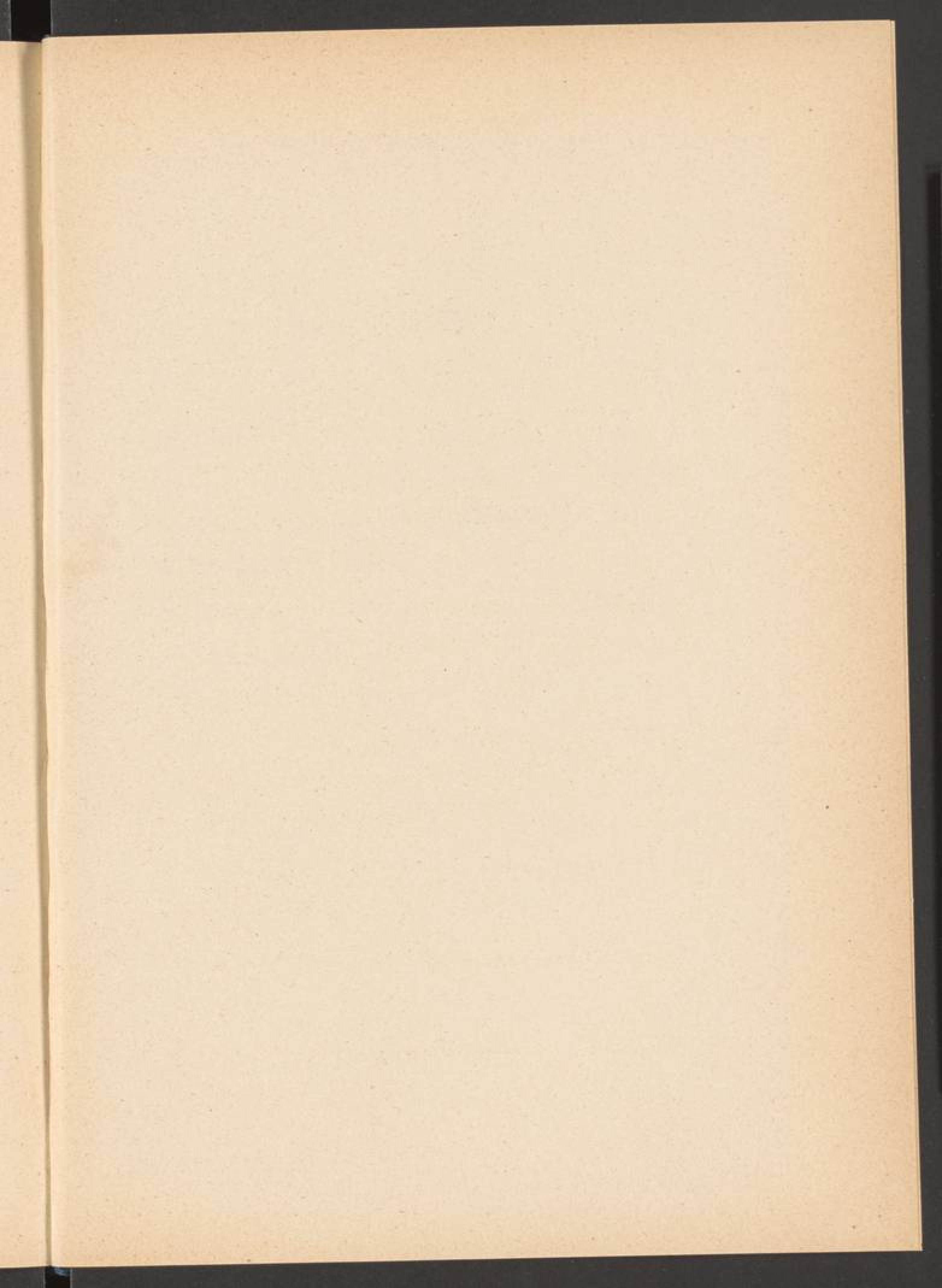


الجزء الثالث

شلالات ڤيكتوريا ، روديزيا ، صحراء كلاهارى ،
إقليم الكاب ، أرخبيل ماديرا ،
جزيرة مالطة ، سيرنيائيكه ومرمريقا



فهـــرس الكتاب



الجزء الثالث

شـــلّالات ڤيكتوريا

يوم ١١ سبتمبر — زرت اليـــوم الشلّالات المعـــروفة باسم ڤيكتوريا (Victoria Falls) .

كان المستكشف لهذه الشلالات فى سنة ١٨٥٥ هو لِڤنجستون الرحّالة الشهير. ومع أنه من المحتمــل أن يكون البرتقاليون قد سبقوه الى هــذا الاستكشاف فليس هناك من بقايا معلوماتهم الجغرافية ما يستدل به على ما يؤيّد ذلك . ولقد زار هذه الشلالات بعــد المستكشف المذكور عدد ليس بالقليل من السيّاح والرحّالين ، وفى طليعتهم الألمــانى ادوارد موهر بين ستى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ (راجع المجلد الأوّل من كتاب Africa & its Exploration)

وإلى القــارئ تعريب الجزء الخاص بوصف ادوارد موهر المذكور لشلالات ڤيكتوريا . قال هذا الرحالة :

وفى الســاعة الثانية عشرة والدقيقة الثامنــة من يوم الاثنين الموافق ٢٠ يونيو سنة ١٨٧٠ وصلت الى شلالات ڤكتوريا .

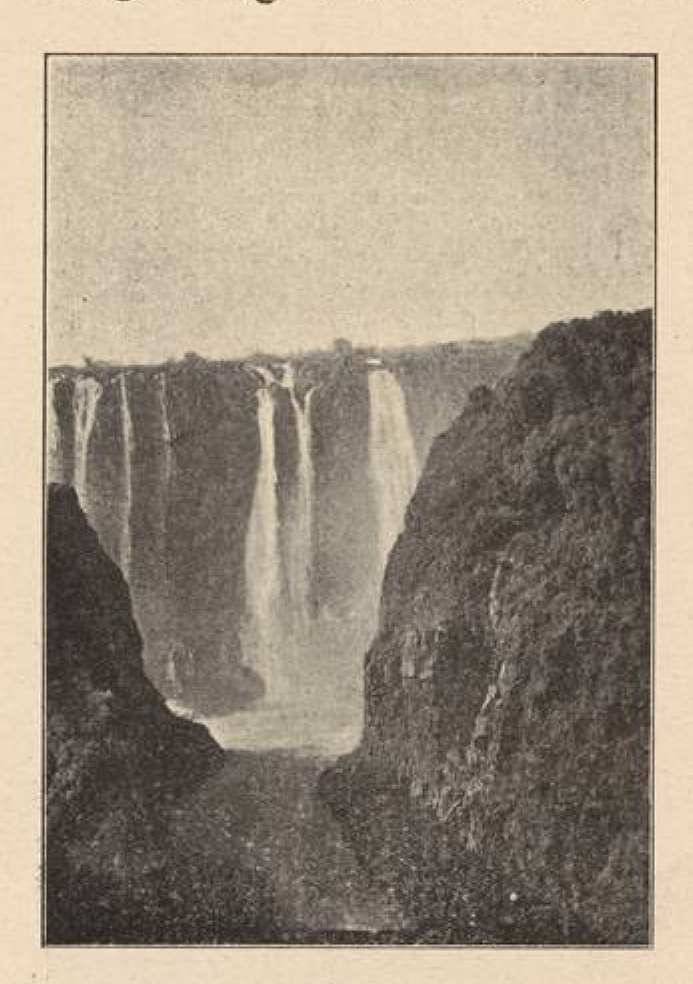
” وكانت الخيام قد ضربت على مسافة ثمانمــائة خطوة جنوبى الشلالات .

” وفى الجهة الشرقيــة الموازية للشلالات، وعلى بعـد خمس وأربعين خطوة جنوبيها تمتدّ الغابة الجميلة المتقطّعة الأطراف بالندى فى بعض الجهات، كما وصفها به الرحالة لڤنجستون وبيتر و شاپمان، والتى تشبه بجمالها واختلاف أنواع نباتاتها أى منظر آخر أبصرت به فى بلاد الهنـد أو سيلان أو بلاد الملاى أو جاوه “ إلى أن قال :
” وانى أريد الآن أن أصف الشـلال ولو وصفا غير وافٍ ، فانّ النهر العظيم (نهر الزمبيز Zambesi) الذى يبلغ عرضه ميلا، يجرى من الشمال والشمال الغربى، وتصب مياهه فى واد صخرى (ثجارة) منخفض بعمق مائة قدم . يختلف اتّساعه من مائة وأربعين قدما الى ثلاثمـائة قدم، ومنه ينصبّ المـاء فى المجرى، وقبيـل الشلالات بوسط النهر توجد عدّة جزر مغطّاة كلها بنباتات البلاد الحارة الجميـلة ، و بالشواطئ آجام ليست بالكثيفة وصنوف النخل . و بالقرب من الشلالات تزداد



شلالات ڤيكتوريا

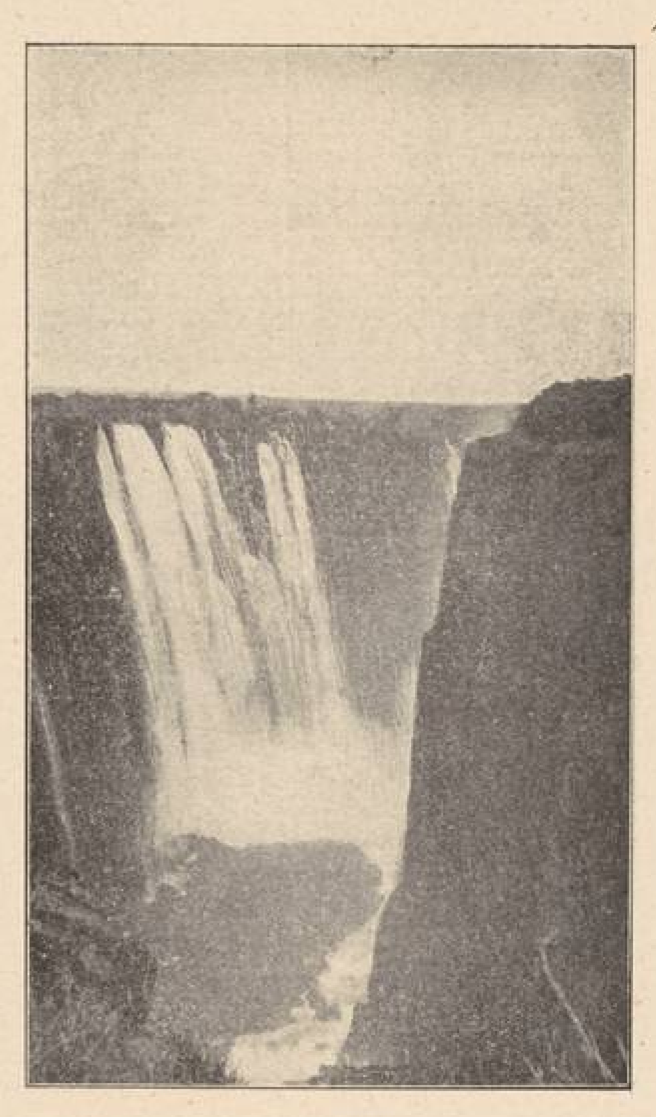
سرعة التيار، والمياه كانت لفورانها كأنها تَغْلِي . وعلى مقربة من الشاطئ الغربى جزيرة تبعد عنه بمائة وعشرين قدما تقريبا . وعندها ينحدر المجرى انحدارا فجائيا، لأن المياه تهبط من علو بشدّة وهديرها يذكر السامع بدوىّ أمواج البحر . وفى هذه



شلالات ڤيكتوريا

النقطة وفى الركن الغربى منها قطعة من الصخر بارزة يستطيع من لا يعتريه الدُّوار أن يقف عليها فيرى الى يساره تلك الهاوية، وأمامه ذلك الخط الطويل المتألِّف من الشلالات الكبيرة والتى لا يشاهد سوى جزء منها، لتطاير قطرات الماء فى الهواء

واعتراضها دون البصر بالمرئيَّات . وللإنسان فى هذا المقام أن يتساءل كيف تستطيع هذه الصخور أن تقاوم صدمات تلك المقادير العظمى من الماء " الى أن قال : " ولما قصدت الى مكان الخيام بلغت الى نقطة ألقيت نفسى فيها محاطا بغشاء من السحب المتألفة من ذرّات الماء بل من الضباب الكثيف المتولّد من تطاير



شلالات فيكتوريا

ذرّاته فى الهواء " ثم قال : " واذا استدار المرء فاتّجه صوْب الشمال كما فعلت أنا فى مكانى فإنّه يرى تلك السحب المتلبّدة الصاعدة بلا انقطاع من قاع النهر الى أجواز الفضاء، ولكنه لن يشهد الشلالات نفسها لتكاثف الأشجار والنباتات واعتراضها الأنظار . وإذ كان مرادى مشاهدة الشلالات مواجهة فقد سرت فى الأجمة .

(وبعد أن وصف الأجمة والجهات التى مرّ بها قال) : " فوقفت بطرف الصخر المشرف على الشلالات فاستشرفت الشمال فالشمال الغربى، فاذا بخطّ الشلالات يتناوله نظرى من بدايته الى نهايته . وبما أن مياه النهر كانت غزيرة ومتدفّقة بسبب هطول الأمطار أخيرا فقد جاءت مشاهدتى للشلالات فى أنسب الأوقات لها، ذلك لأن الصخور السوداء كانت تغمرها تلك المياه فما كنت أراها تظهر وتختفى أو تظهر قليلا على وجه الماء إلّا فى جهة دون أخرى . وحينما شهدت الشلالات كان منظرها كموجة عالية مستطيلة متصلة متماسكة من طرف الى طرف لامعة ساطعة زرقاء أو ضاربة الى اللون الأزرق . وكانت كلما سقطت موجة فى مسقطها من مجرى النهر استحالت الى ذرّات دقيقة تألّفت فيما بينها فتكوّن منها سحاب أبيض مستدير يرتفع قليلا قليلا الى عنان السماء . والنقطة التى رأيت منها هذا المشهد اللطيف لمن أوفق الأماكن لشهود أجمل منظر وأفخمه لشلالات ڤيكتوريا التى لا يضارعها شلال آخر فى حسنها وجلالها وروعتها " الى أن قال :

" ولقد أردت أن أصف هذا المنظر الرائع الفخم ولكنى ألفيتنى عاجزا عن البيان ، فألقيت بيراعتى الى الأرض اعتقادا منى بأن القدير على وصف تلك البدائع الطبعية لم يولد بعد، وأنّ كل ما وقع عليه بصرى إنْ هو إلا جزء من اللانهاية التى تجلّت لأبصارنا محاطة بهالة الجمال ودارة الكمال " الى أن قال : " وفى هذه الشلالات وخلال ذرات الماء المتصاعدة الى الأجواء ترتسم صور لا حصر لعددها لقوس قزح

بألوانه المتباينة الزاهية، بادية تارة ومختفية تارة أخرى بسرعة البرق الخاطف، وما هو فى الحقيقة إلا نتيجة من نتائج تبدُّد تلك الذّرات وائتلافها وافتراقها وتضامّها مما يجعلها أشبه شىء بمعاقد الأسلاك فى النسيج سَدًى ولحمة، فيقصر النظر عن متابعتها فى ظهورها وخفائها وحركتها وسكونها وتكاملها وتناقصها. ولقد زار شقيق لڤنجستون والدكتور كوفرلى والمستر شارل أليس شلالات ڤيكتوريا بعد إذ زاروا شلالات نياجارا فى أمريكا الشمالية، فتهيأت لهم فرصة المقابلة بين هذه وتلك، بما خرجوا منه الى الجزم بأن شلالات ڤيكتوريا لا يضارعها غيرها فى روعتها وجمالها. ولقد قمت بعمليات رَصْدية ظهرلى منها أن الفرق بين درجة العرض التى حققتُها والدرجة التى حققها لڤنجستون لتعيين موقع الشلالات هو ٤٥ ثانية فكأن هذا الموقع كائن الى الشمال أكثر من تقدير لڤنجستون له بخمس وثلاثين ثانية. وقد قدّر الخطأ فى الأرصاد التى قامت بها جمعية رصد السَّمْت (Azimuth Company) فى يونيو ١٨٧٠ بنحو ٢٦″ — ٢٠° غربا. ولضبط هذا التقدير لخطوط الطول توليت أخذ قياس أربعة عشر بُعْدًا بين الشمس والقمر فحصلتُ على متوسط لا يختلف عن الذى حصلت عليه فى نقطة ما إلا بقدر أربع دقائق طولية. أما لڤنجستون الذى كان حسابه مبنيا على كرونومتر الجيب الذى بيّن ساعة جرينتش فقد جعل الموقع على درجة ٤٥′ ٢٥° من خطوط الطول الشرقية. وهو ما يفيد أن تقديرى لخط الطول كان بزيادة ٤٤ دقيقة شرقا. أما تقديرى لارتفاع ستار الرذاذ فقد أجلى حسابه عن ألف قدم وخمس وخمسين قدما، فيكون اختلاف تقديرى عن تقدير بيتز لا يتجاوز أربعين قدما" الخ.

كلمة عن روديزيا

ملخصة من المَعْلَمة البريطانية (الإنْسَيكلوبيديا بريتانيكا)

حدودها ومساحتها :

تقع روديزيا (Rhodesia) بين الولايات الآتي بيانها : الترنسفال (Transvaal) وبشوانالند (Bechuanaland) ونما كالند (Namaqualand) أى الولاية التى كانت تعرف قبل الحرب بالمستعمرة الألمانية لإفريقية الجنوبية الغربية جنوبا وأنغولا البرتقالية غربا ومستعمرة الكونغو البلجيكي من الشمال الغربي ومستعمرة تنغانيقا الحالية من الشمال الشرقى ونياسالند (Nyasaland) الانجليزية وموسامبيق (Mocambique) من جهة الشرق .

وتبلغ مساحتها ٧٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع تقريبا ، وأشهر مدنها سالسبورى (Salisbury) وبولوايو (Bulawayo) وأمتالى (Umtali) وغويلو (Gwelo) وڤيكتوريا ومَلْسَتَر (Melsetter) . وتكثر المناجم فى بعض جهاتها وتنتشر الزراعة وتربية الماشية فى البعض الآخر .

تاريخها :

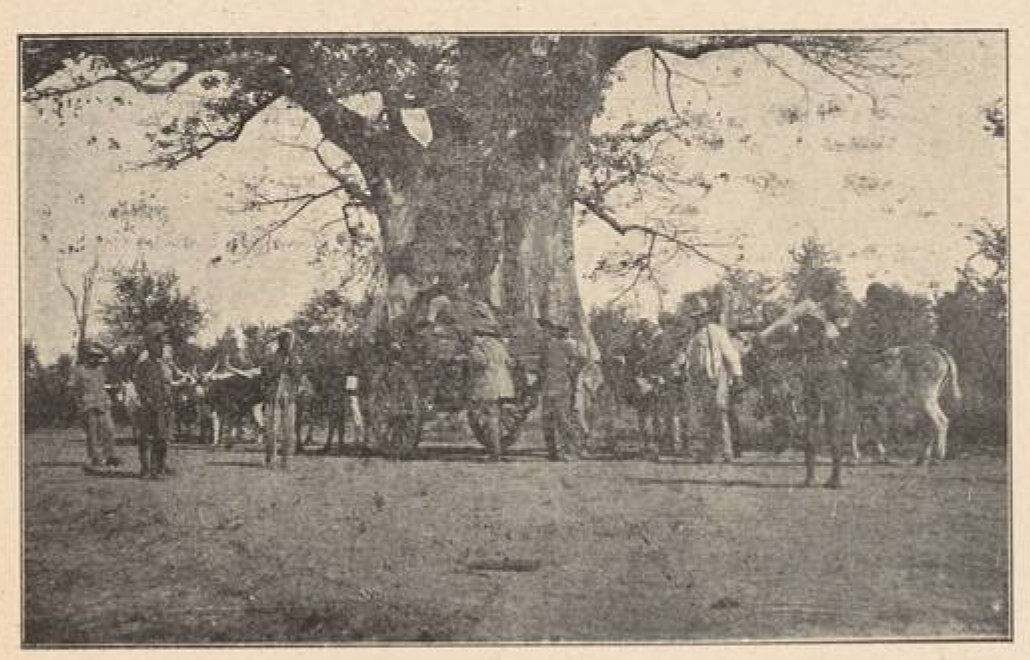
أما تاريخها فيرجع فى ماضى العصور الى أبعد من القرن العاشر أو الثانى عشر . فقد حلّت بها قبائل البانتو (١) أوائل الأمر ثم قامت بها فى الجهة الشرقية إمارة مونوموتابا الشهيرة (راجع معرَّبنا الوثائق التاريخية والجغرافية والتجارية تأليف القومندان جيان وكذا المجموعة الكمالية فى جغرافية مصر والقارة الإفريقية جزء رابع) . وكانت قبائل الزُّولُو قد أغارت على هذه وأسست بها إمارة قوية . وفى سنة ١٨١٧ كان أحد الزنوج قد هبط نهر الوال (Vaal) على مقربة من بريتوريا . وفى سنة ١٨٣٦

---

(١) القُنْط – نَبَط قوم من الأقدمين (Pount) .

أُبرمتْ محالفة صداقة بينه وحاكم إقليم الكاب . وكانت قد وقعت بين ذلك الرئيس الزنجى والبُوَيْر معركة هزمهم فيها ولكنهم أعادوا عليه الكرَّة فدحروه وأجلوه هو وقبيلته عن مواطنه الى ناحيــة شمال نهر ليو بو حيث احتل الزنوج البلاد المعروفة باسم ماتابيليلند (Matabeleland) وكان بجهات بولوايو شيخ آخر يدعى لو بنغولا (Lo Bengula) . وكانت استكشافات داود لفنجستون وتوماس بينز بين سنتى ١٨٢٢ و ١٨٥٠ وكذا كارل موخ وغيرهم ، قد جعلت الغربيين يعرفون شيئا عن خيرات تلك البلاد وثروتها المعدنية .

وكان اثنان من الانجليز وهما بينز الآنف الذكر والسير جون سوثبورن قدتحصّلا من لو بنغولا على امتياز باستخراج المعادن ، ولكن الجمهور فى ذلك الوقت لم يعر هذا المشروع اهتماما . وفى سنة ١٨٨٢ كان الرئيس كروجر (Kruger) طامحا الى توسيع نطاق حكومة الترنسفال فى جميع الجهات وأراد أن يعقد محالفة مع لو بنغولا ولكنه لم يفلح .



عربات النقل فى إفريقيا الجنوبية

وكان البرتقاليون يزعمون أن لهم حق الملكية على الأصقاع الإفريقية الواقعة بين المحيط الهندى والمحيط الأطلنطى، وفى جملتها إقليم روديزيا واقاليم بحيرة نياسا . واشترك مع البرتقاليين فى مثل هذا الادّعاء كلّ من ألمانيا وفرنسا . وكان ما ترمى ألمانيا اليه أن توطّد قدمها فى القطعة التى صارت فيما بعد مستعمرتها الجنوبية الغربية . أما انجلترا فقد عارضت البرتقال وتصدّت لتنفيـذ زعمها ونقض حجتها قائلة أن جهات جنوب روديزيا إنما هى ثمرة الجهود التى بذلها سسل رودز (Cecil Rhodes) المعروف والتى أصبحت تلك البلاد بناء عليها حقًّا من حقوق انجلترا ثم شرحت تلك الجهود فقالت إن سسل رودز انتزع اقليم بشوانا لند من أيدى البوير فى سنة ١٨٧٨ وإنه أوّل من فكر فى وضع الأقاليم الوسطى من إفريقية تحت رواق الحكم الانجليزى . وكانت دول الغـرب فى ذلك الأوان تتنافس فى السـبق الى بلاد لوبنغولا طمعا فى اسـتخراج الذهب ، وفكر الانجليز فى الأمر فسبقوهم اليها . وكان السر سِدْنى شبرد قد خلف سسل رودز فى حكومة بشوانا لند، فأخذ يفاوض لوبنغولا بأساليب الودّ والمجاملة وطلب الى المندوب السامى أن يجيز له إبرام محالفة مع هذا الشيخ الزنجى فتمّ له الظفر بمراده، بمعاونة سسل رودز . وكان من شروط هذه المعاهدة أن يتعهد لوبنغولا بألا يتعاقد مع أى دولة أو أى رجل أجنبى قبـل الاستئذان من المنـدوب السامى البريطانى لجنوب إفريقية . وأسّس سسل رودز شركة تمكنت بواسطة هذا الرجل العظيم من الحصول ، فى مقابل مائة جنيه شهريا وألف بندقيـة من طراز مرتينى ومائة ألف طلقة ، على امتياز من لوبنغولا بحق الاشراف على جميع المناجم الواقعة فى دائرة أملاك هـذا الملك ، وأيضا على حق كل من يدّعى بحق التملك على المناجم أو حق استغلالها . وما كاد سسل رودز يحرز هذا الامتياز حتى تفرّغ لتنفيذ مشروعه الكبير، وأبعد من حوله المناظرين والمزاحمين وقطع أملهم فى نجاح أعمالهم، إذ جعل

كل مايمكن الحصول عليه من عقود الامتيازات وقفا على الشركة البريطانية لإفريقية الجنوبية ، وقدّر رأس مالها بمليون من الجنيهات موزعة على عدد معين من الأسهم . وبهذه المثابة وعلى هذا الوجه وضعت بريطانيا العظمى يدها على تلك البلاد فى بادئ الأمر .

يوم ١١ سبتمبر — خرجت الى رحلة نهرية قصيرة فى إحدى السفن ذات الآلة المحرّكة (موتوز بوت) . وكان بها عدد ليس بالقليل من السياح الأمريكان فبلغت بنا السفينة فى نهر الزمبيز (Zambesi) الى بعض جزرها فطفنا بهذه الجزر ثم عدت الى الفندق .

يوم ١٢ سبتمبر — قصدت اليوم الى مدينة لِفْنجستون وأمضيت الليلة بها .

يوم ١٣ سبتمبر — عدت فى الصباح الى ڤيكتوريا فولز . ولما انتصف النهار توجهت بالقطار الى رأس الرجاء الصالح (Cape of Good Hope) .

يوم ١٤ سبتمبر — قضيت النهار بالقطار وكان الحر شديدا . وفى المنطقة عزب متفرقة بعضها عن بعض وقرى صغيرة للزنوج . وأكثر الذكور منهم يتزيّون بالزىّ الإفرنجى و يضعون القبعة على رءوسهم . أما النساء فيلبسن قميصا قصيرا يشبه ما تلبسه نساء البرتقال ، ولعلهن اعتدن هذا الزىّ منذ العهد الذى احتلّ البرتقاليون فيه جنوب إفريقية ، وتحت هذا القميص ملاءة زرقاء أو فستان أزرق . والحمير كثيرة فى هذه الأقاليم وأشجار الغابات صغيرة يابسة كالعادة فى هذا الفصل .

يوم ١٥ سبتمبر — وصلت صباحا الى مدينة بولوايو ، ملتقى الخطوط الحديدية والمركز المهم للتجارة ، فنزلت فندقا ثم ذهبت فى سيارة الى الأطلال الدارسة

المعروفة باسم خرابات كامى أو خامى (Khami Ruins) الواقعة على بعد أربعة عشر ميلا تقريبا . وكان الذهب يستخرج من نهير قريب منها . وأبنيتها على مثال الأبنية فى مدينة زمبابوى (Zimbabwe) القديمة ، إلا أنها أحدث عهـدا وأقل شأنا . وقد شهدت فى كامى محلا لغسل الأتربة كى تستخرج منها شذور الذهب ، ومن



آثار كامى برودزيا بالقرب من بلوواى

الأتربة ما لا يزال التبر ملتصقا به فيراه الانسان رأى العين، اذا أزال قطع الملاط القديم . وقد لاحظت أن الحجر الأعبل الذى بنيت الجدران به مستوية وجوهه بواسطة الحك وموضوعة وضعا محكما بحيث لا يطغى وجه أحدها على وجه الآخر بل كل الوجوه يجمعها مُسْتوٍ واحد فى واجهة كل جدار من البناء . أما البناية فكانت من غير ملاط . وعلى مقربة من بولوايو أى على بعد أربعين ميلا منها تقريبا قبر سسل رودز المشهور .

وكان مرادى البقاء هنا ثم التوجه الى ڤيكتوريا فُورْت الواقعة على الحدود الشرقية لشهود أطلال زمبابوى التى هى من نوع مافصَّلناه بشأن آثار كامى، ولكنها أكثر منها أهمية . وقد عدلت عن هذه النية فى آخر الأمر، لأن هذه الرحلة تستغرق أسبوعا كاملا، ولأن موعد سفرى من مدينة الرأس الى أوروبا كان قد دنا .

أما آثار زمبابوى ، وهى أشهر وأقدم آثار عرفت أو استكشفت بافريقية الجنوبية فقد سبق للقارئ أن وقف على بعض أحوالها وحوادث تاريخها القديم ، فيما عربته ملخصا من تصنيف القومندان جيان وفيما كتبه عن إمارة مونوموتابا وما أفاض فيه من ذكر زُفَر[1] القديمة وحكاية الذهب الذى كان يستخرج منها وفى زعم القبائل بأن هذه المدينة هى التى كان يقصد اليها طالبو الذهب من العرب أهل سبأ والفينيقيين، وأنها إحدى مدائن إفريقية لا مدائن بلاد العرب أو بلاد الهند، كما ذهب اليه مؤلفون آخرون غير جيان السالف الذكر .

أما التاريخ القديم لمدينة زمبابوى المشهورة بكثرة الذهب وأما منشئوها فغير معلومين وانما أجمعت آراء أكثر المؤرخين على أن بعض هذه الآثار سابق على العصور التى قبل التاريخ وأول من عمَّر مبانيها واشتغل فيها باستخراج الذهب

(١) مدينة أوفيرا أو أوفير كما حققها الأب أنستاس الكرملى .

هم عرب جنوب اليمن فالفينيقيون . ولقد ثبت أن المبانى القديمة العهد (لأن كل آثارها ليست فى عهد واحد) فينيقية، لما توافر فيها من جوامع الشبه بمبانى المعابد الفينيقية القديمة سواء أكانت بشاطئ سوريا الفينيقى أم ببعض آثار الفينيقيين الموجودة بالبلاد الأوروبية .

وإذنْ يكون عهد إنشائها راجعا الى قرون عديدة قبل الميلاد . وزعم البعض أنها ربما كانت قبل هذا التاريخ بأكثر من أحد عشر قرنا أى قبل عهد الملك حيرام (ملك صُوْر) بقرون عديدة .

وقد استشهد المؤرّخون على صحة هذا الزعم بوجوه عدّة منها ما عثر عليه بين تلك الأطلال وعلى أعماق كبيرة فى الأرض من آثار فينيقية النمط وتماثيل تمثل



آثار كامى بروديزيا بالقرب من بلوواى

معبودات الفينيقيين ، ومنها ما يشاهد فى الوقت الحاضر من أشجار الباو باب [1]



شجـــرة الباو باب

---

(١) الباو باب شجرة اسمها العلمى Baobab Tree (Adamsonia Digitata) منسوب الى أدمسون المتوفى سنة ١٨٠٦ ميلادية وقد سمّاها المرحوم أحمد بك ندا بالتَّبَلْدِى وتعرف فى الهند بشجرة الفلّين وشجرة خبز القرود وفى سنّار بالعمارة .

فى خلال تلك الأطلال . وهذا الشجر بطىء النمو عادة بحيث يستغرق نموه قرونا كثيرة الى أن يبلغ حجمه الذى هو عليه الآن، فهو دليل إذن على أن تلك الأشجار بدأت بالنمو بعد أن خلت تلك الأماكن من ساكنيها أى منذ مئات السنين .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن سكان إقليم مونوموتابا قد خلطت أنسابهم بالعنصر السامى (نسبته الى سام بن نوح) ، كما يؤخذ من معارف وجوههم ولما هو متوافر من وجوه الشبه بينهم و بين الأقوام السامية (راجع كتاب الأطلال القديمة فى روديزيا تأليف العالمين ر . ن . هل، و . ج . نيال) .

ومما جاء بصحيفة ٤٨ من هذا المؤلف ما يأتى :

" وجدت كتابة شبيهة بالحرف العربى القديم فى بشوانا لند و يوجد على حدود بلاد الزولو قمّة مشهورة عند سكان تلك البلاد، طبقا لرواياتهم وأقاصيصهم القديمة، باسم Thaba D' Salimon " .

و يميل بعض المؤلفين الى جعل أصل كلمة نما كالند (Namaqualand) (وهى اسم الإقليم المعروف باسم القبيلة الساكنة فيه) مشتقة من كلمة عربية سبأية (Almoguah) ولعلها الموقع أى الجهة أو المكان الذى كانت تعبد به الزُّهَرَة (Goddess Venus) .

وأوّل من حلّ بتلك البلاد من الأورو بيين هم البرتقاليون، فقد جاء فى المصنف السالف الذكر أنه قد وجد من أسلحتهم أشياء كثيرة ، منها مدفع من النحاس . وهو ما يدل على أنهم وصلوا (دهولوهولو) . والمرجح أن بعض بعثاتهم الدينية من اليسوعيين وغيرهم كانت تقيم فى مبانى مدينة كامى أو خامى القديمة، وأن البرتقاليين هم المؤسسون لقرية تتى . و زعم غير من تقدمت الإشارة اليهم من المؤلفين أن مدينة زمبابوى لم تكن فى الماضى داخلة ضمن حدود إمارة مونوموتابا ، وأن

البرتقاليين لم يبلغوا اليها قط فى أى زمن . وذكر بعض الذين كتبوا عن أقوام المكالنغا المومأ اليهم أنهم كانوا يعتقدون بالوحدانية، وربما كان هذا القول هو الأصح، وأن البعض كان يعرفه باسم (muali) الذى ربما كان التصوير اللفظى لكلمة (المولى) كما كان البعض الآخر يعرفه باسم (molemi) الذى ربما كان تصويرا للنطق بكلمة (المعلّم)، أى أن الاسمين من أصل سامى . وهذا فضلا عن أن النهر الذى يجرى فى الجزء الغربى لإقليم سُفالية (Sofala) (راجع تعريبنا لملخص كتاب الوثائق التاريخية والجغرافية والتجارية تأليف القومندان جيان) كان معروفا باسم (سابى) وهو كلمة عربية الأصل ربما كانت هى النسبة الى سبأ . والمظنون ان البلد الذى ورد ذكره باسم أحيز مبا فى جغرافية بطليموس لم يكن فى الواقع سوى مدينة زامبابوى الآنفة الذكر .

تابع يوم ١٥ سبتمبر — اكتفيت بالطواف بمدينة بولوايو وهى عريضة الشوارع جميلة بعض المبانى . بها وابور لحلج القطن ومعمل لنسجه . وعلى مقربة من هنا مزارع القطن والدخان وغير ذلك . وقد عدت الى القطار الذى تحرك بنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر . ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى كنا نفرى صحراء كالاهارى (Kalahari) مسايرين حدودها الشرقية .

صحـــراء كالاهـارى

كلمـــة عنهـا

تقع صحراء كالاهارى بين درجتى ٢٠° و ٢٨° من خطوط العرض الجنوبيـة ودرجتى ١٩° و ٢٤° من خطوط الطول الشرقية، ومساحتها ١٢٠٠٠٠ ميل مربع. وحدّها من الشمال نهر الأورنج (Orange)، ومن الغرب جبال ناما ودمارا، ومن الشرق مزارع إقليم بشوانالنـد، ومن الشمال والشمال الغـربى وادى أوكافانغو (Okovango) ووادى بحيرة نجامى (Ngami).

وأول من اخترق صحراء كالاهارى ووصل الى بحيرة نجامى هو داود لفنجستون الشهير حين كان يصحبه وليم . ك . أوسول، وذلك فى سنة ١٨٤٩ . وكان يرافقه جماعة من البوير وثلاثمائة مركبة لحمل معدات الرحلة وأقواتها . وقد بدأ سـيره من الترنسفال الى كالاهارى ثم الى بحيرة نجامى ومنها الى داخل أنغولا البرتقالية . ومات السواد الأعظم من رجال هذه الحملة ونسائها وأطفالها بسبب الظمأ فى تلك الصحراء الحارة المقفرة . وقد ذكر الذين بقوا منهم على قيـد الحياة أن الموتى بلغ عددهم المـائتين والخمسين تقريبا فضـلا عن ٩٠٠٠ رأس نفقت من البقـر . والبقرات تستخدم عادة فى جر الأثقال والعربات التى تبلغ حمولتها ثلاثة أطنان ونيِّف .

يوم ١٦ سبتمبر — هانحن أولاء نجوب الصحراء ونطوى أبعادها السحيقة من الشمال الى الجنوب على مقربة من حدود الترنسفال .

يوم ١٧ سبتمبر — وصلنا فى منتصف الساعة السادسة صباحا الى مدينة الرأس (Cape Town) عاصمة إقليم الكاب .

إقليم الكاب

إقليمها وجغرافيتها وتاريخها :

إن ولاية أو مقاطعة الكاب البريطانيـة هى أقصى الولايات جنوبا من قارة إفريقية . ومسطحها هو ٢٧٦٩٩٥ ميلا مربعا تشمل مقاطعة بشوانا لند البريطانية التى يبلغ مسطحها وحدها ٥١٥٢٤ ميلا مربعا .

وأقصى نقطة لهذا الإقليم غربا مصب نهر الأورانج الواقع على درجة ٢٧َ ١٦ْ من خطوط الطول الشرقيـة . وأقصى نقطة شرقيـة له مصب نهر الأمتامڤونا (Umtamvuna) الكائن على درجة ١٠َ ٣٠ْ من خطوط الطول الشرقيـة . وأقصى نقطة له جنـوبا رأس أجلهاس (Agulhas) الواقعة على درجة ٥٠َ ٣٤ْ من خطوط العرض الجنوبية . وأقصى نقطة شمالية للاقليم نهر (مولوپو Molopo) و (راماطلباما Ramathalbama) ويلتقيان فى نقطـة تطابق بالتقـريب الدرجة ٣٨َ ٢٥ْ من خطوط العرض الجنوبية .

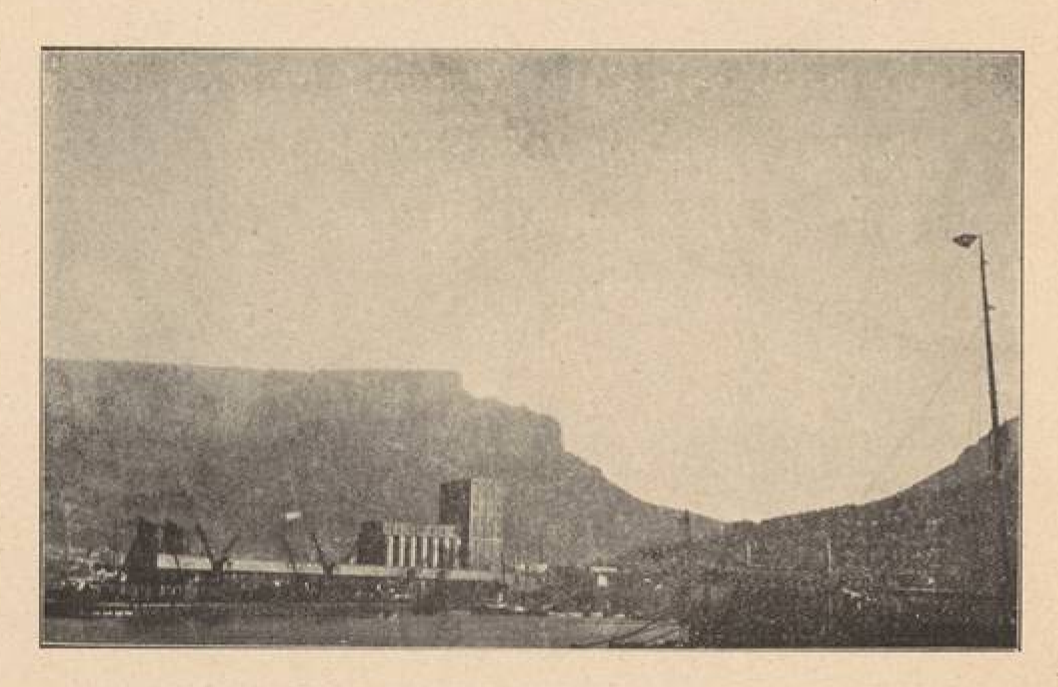
ولقد سـبق لنا ذكر اسم المستكشف لرأس الرجاء الصالح الذى سمى به الإقليم فى سياق الكلام على تاريخ الكونغو البرتقالية فقلنا إن دياز (Dias) البرتقالى هو أول من مر بهذا الرأس . فالنقطة التى أسماها دياز رأس العواصف هى رأس فولتاس . أما الأرض المعروفة برأس الرجاء الصالح فداخلة فى البحر على امتداد ثلاثين مترا تقريبا ، وفى شمالها خليج تيبل (Table) وشرقها خليج فولس (False Bay) . وكان خليج تيبل معروفا بخليج سلدانها البرتقالى (Saldanha) الذى هبط هذه الجهة سنة ١٥٠٣

أما أعلى نقطة من الجبل المعروف باسم تيبل فما زال مشهورا باسم قمـة ڤاسكودى غاما (Vasco da Gama) البرتقالى . وهنـاك رأس آخر واقع شرقى مدخل خليج فولس هو رأس هنكلب (Hanglip) . وكان البرتقاليون يسـمونه

الرأس الكاذب للرجاء الصالح . ذلك لأن المسافرين فى البحر كانوا يرون هذا الرأس قبل أن يروا الرأس الأصلى المسمى بهذا الاسم ، كلما عادوا الى البرتقال آتين من الهند .

أما أقصى نقطة جنوبية للقارة الإفريقية فهى رأس أجلهاس أو رأس الأبر . والملاحة فى جوارها شديدة الأخطار بسبب تصادم التيارات المائية . وهذا ما حدا ببارتولوميو دياز (Bartholomew Dias) الى تسميتها برأس العواصف .

وفى سنة ١٥٨٣ جاء بعد ڤاسكودى غاما الهولندى يوحنا هو يخن ڤان لنشوتن ، وكان موظفا لدى أسقف جُوَة (المستعمرة البرتقالية الهندية) وصادفته على هذا الشاطئ الإفريقى عواصف شديدة ، قال إن اسم الرجاء الصالح أطلق على هذا الرأس لأن رجال البحرية البرتقالية كانوا اذا وصلوا الى ما وراء هذا الرأس وجدوا أنفسهم فى مأمن من كل خطر . وبعده وصف الإفرنسى بيرار دى لافال ذلك الرأس ،



منظر الكاب

وهو عائد فى سفينة برتقالية ، بوصف أسد البحر ، وشهد أخطارها كذلك جماعة من الانجليز والفرنسيين والهولنديين . وفى سنة ١٥٨٠ حدث فى أثناء مرور السير فرنسيس دريك (Drake) أن البحر كان ساجيا، فجاء وصفه إياه مخالفا للوصف السابق . وفى سنة ١٥٨٨ مرّ توماس كافندش الانجليزى دون أن تعترضه عاصفة . وكان زمام الملاحة حول القارة الإفريقية قبل سنة ١٥٨٠ بأيدى البرتقاليين ، لأن البرتقال كانت دولة ذات شوكة وكان اهتمامها بشئون الشرق الأقصى يضطرهم الى الطواف بهذا الرأس .

ويروى عن أحد أمراء بحريتهم أنه هم بإنشاء محطة على مقربة من الرأس ، فلم يتحقق هذا المشروع . أما النقطة المجاورة التى كان البرتقاليون يأخذون الماء منها فكانت هى خليج سَلْدانها ، وكذا خليج فولس لأن هناك نهيرا ماؤه عذب كان يعرف باسم ريودوأشى أى النهر العذب . وكان المظنون أنه ينبع من جبال القمر (تأثير جغرافية بطليموس الاسكندرى) .

وفى سنة ١٦٠٨ اتّصل بالإنجليز أن الإسبانيين الذين كانوا قابضين وقتئذ على أزمة الحكم ببلاد البرتقال يفكرون فى إنشاء موقع حربى بجهة الرأس لشلّ حركة التجارة الانجليزية الهولندية ولكن هذه الفكرة لم تخرج الى حيّز الفعل لخوف البرتقاليين من سكان البلاد أيضا خوفهم من أخطار الملاحة بالسواحل، ولأنه كانت قد وقعت منهم فى أثناء مرور سلدانها وفرنشسكو ألميدا فى سنة ١٥١٠ حوادث ما برحت منقوشة فى الذاكرة . ثم إنه لا يستدل من خرائط تلك الأزمان أن البرتقاليين لم يمتلكوا شيئا من المواقع الداخلية .

وفى سنة ١٥٩١ جاء جيمس لنكاسْتَر فى ثلاث سفن انجليزية فنزل الى البر وذكر قصة طوافه فى خليج تيبل وجزيرة روبن (Robben) . وكان قد قضى فى هذا

الطواف نحو الشهر ثم عاد بسفينته الى بلاده وذهب هو وقائد ذلك الأسطول الصغير بالسفينتين الباقيتين الى جهة الشرق ، ولكن هاج البحر وثارت العواصف تجاه رأس كورينتس ففقد القائد بفقد سفينته ووصل لنكاستر الى ماعقة وسيلان .

وبعد هذا جاء الانجليزى جون ديفس فى سنة ١٥٩٩ فى سفينتين هولنديتين قائدا لها. وكان الرّبان الهولندى كورنيليوس هوتمان قد قام بهذه الرحلة من قبل، أى من سنة ١٥٩٥ الى ١٥٩٧ ، فرست السفينتان فى خليج تيبل حيث وصف تلك الجهة وصفا جامعا أكثر من وصف لنكاستر إيّاها .

وحدث بعد ذلك أن الشركة الانجليزية لبلاد الهند الشرقية التى أنشأتها إليزابيت نَدَبَت كلًّا من لنكاستر وهوتمان لقيادة سفنها فوصلت هذه السفن الى خليج تيبل فى سنة ١٦٠٠ حيث لبثت من ٩ سبتمبر الى آخر أكتوبر ثم حضر السير هنرى مِدِلْتون سنة ١٦٠٣ قائدا سفنا أخرى للشركة ورسا بها فى خليج تيبل أيضا .

وفى خلال هذه المدّة زار السير ادورد ميشلبورن تِلْكُمُ الأرجاء ولبث فى خليج تيبل زمنا . وفى سنة ١٥٩٩ وصل الهولندى پيتر بوت وكذا ڤان غاردن ، وفى سنة ١٦٠١ تلاه هولندى آخر . وفى سنة ١٦٠٢ اندمجت الشركات الهولندية التى أنشئت للاتجار مع بلاد الهند والأرخبيل الهندى فى شركة واحدة أطلق عليها اسم الشركة الهولندية لبلاد الهند الشرقية .

وأنشئت عام ١٦٠٤ أول شركة فرنسية سميت بمثل ذلك الاسم . وأسست فى عام ١٦١٢ الشركة الدنمركية ، وانبرت هذه الشركات كلها تتسابق وتتزاحم على الاتجار بخيرات بلاد المشرق .

وقد خلص الينا من حوادث ذلك العهد وأخباره ورواياته مانستطيع الوقوف به على مبلغ صحة المعلومات الخاصة بالبلاد من وصف مناخها وطبيعة أرضها وحيواناتها ونباتاتها وأهلها من أقوام الهوتانتوت (Hottentots) الذين كان الأوروبيون يطلقون عليهم وقتئذ اسم السلدانهانيين نسبة الى سلدانها البرتقالى . وجاء السير توماس رو سنة ١٦١٥ الى خليج تيبل فى سفن عديدة وأقام بالساحل عمودا كى يخلد به ذكرى هبوطه هذه الجهة وقد التق بجماعات من الهوتانتوت فطلب بعضهم منه أن يسافروا معه الى انجلترا ، طمعا فى أن يحظو بمثل ماحظى به أحدهم من قبل ، إذ سافر الى بلاد الانجليز وعاد منها بهدايا مصنوعة من النحاس .

وكانت الشركة التجارية للهند الشرقية قد فكرت فى إبعاد بعض من تريد نفيهم من رجالها ، فحملتهم بعض سفنها الى الكاب وتركوا فيها بعد أن أعطى كل رجل مايلزم من السلاح ليدافع به عن نفسه ، ولكنهم طبعا كانوا يفضلون البقاء فى سجون بلادهم على الإقامة بين الهمج والمتوحشين ، وبذا أصبح خليج تيبل بالتدريج محطة للسفن الانجليزية التابعة لشركة الهند . وكانت أكثر السفن التى ترسو هنا سفنا انجليزية أو هولندية وسفنا فرنسية قليلة جدا وسفنا دنمركية . وكانت العادة قد جرت بأن ينقش كل ربان اسمه فى الصخر فيكون ما ينقشه أشبه برسالة الى من يجىء بعده أو جوابا على رسالة نقشها من وطأ هذه البلاد قبله .

وفى سنة ١٦٢٠ حضر الكومندور بولبو الانجليزى فعثر فى خليج تيبل على عظام وثياب ، ووجد حصنا صغيرا كان أول ما خطر له أن الدنمركيين هم الذين بنوه .

وطالما فكرت شركتا الهند الهولندية والانجليزية فى امتلاك بعض النقط بتلك الجهات التى لا تكف سفنهما عن المرور بها والرسو فيها . فلما كان يوم ٢٤ يونيو

سنة ١٦٢٠ حضر اثنان من ربّانية الانجليز، وهما أندروشلنج المستكشف وهنفرى فيترهربرت فألقيا مراسيهما فى خليج تيبل . وكان يرافق شلنج المستكشف الشهير بافن ، وكانت ترسو بالخليج نفسه يومئذ تسع سفن هولندية لم تلبث أن أبحرت فى اليوم التالى ، بعد أن تبيّن للانجليز أن الهولنديين كانوا قد انتووا الاستيلاء على خليج تيبل فى العام القادم فتجاه هذه النيّة بادر الربّانان الانجليزيان بالاستيلاء عليه وأعلنا هذا الامتلاك فى ٣ يونيو بحضور فريق من الهنديين، دون أن يجدا اعتراضا ولا مقاومة منهم، ثم ضمّا الى ما استوليا عليه مايجاوره من الأملاك غير التابعة لدول مسيحية . وقد كان إعلانهما لذلك الاستيلاء باسم الملك جيمس ، وعزّزاه بأثر أقاماه على قمة واقعة الى غرب الخليج باتجاه نحو الجنوب الغربى أسمياها بقمة جبل جيمس ثم أعطيا الزنوج علما صغيرا تسجيلا لهذا الحادث الخطير . غير أن الحكومة الانجليزية لم تحفل بالأمر ولم تعتبر عمل الربانين لخيرها ومنفعتها فلم تحتلّ تلك النقط .

كيف أنشأ الهولنديون مركزا بالكاپ :

فى سنة ١٦٤٨ حطّمت العواصف فى خليج تيبل سفينة للشركة الهولندية لبلاد الهند الشرقية فنزل رجالها الى البر فى النقطة التى بها الآن مدينة الرأس وظلوا هناك خمسة أشهر نقلتهم السفن الهولندية بعدها الى بلادهم . فلما وصل هؤلاء الى بلادهم أعادوا كرّة المطالبة بانشاء محطة بتلك الجهة ، فبعد تردّد طويل صمم مديرو الشركة على إجابة هذا الطلب وناطوا بحنّا ڤان ريبك تشييد حصن صغير فيها . وقد وصل الى هناك فى سنة ١٦٥٢ وكان الهولنديون فى ذلك الحين أصحاب شوكة ومهابة فى البحار، فظل شطر من إقليم الكاپ تابعا لهولندا نحو قرن ونصف قرن تقريبا من الزمان دون أن تزاحمها دولة ما من الدول الأوربية، وعنى ڤان ريبك بتنفيذ المهمة التى عهدت اليه وبانشاء مستعمرة هولندية صغرى و بمعاملة الزنوج معاملة رفق

وعطف ، فانشئت المستعمرة وعلا لها شأن ، ولا سيما بعد أن انتزع الانجليز جزيرة القديسة هيلانة من الهولنديين واستمرت سفن الانجليز والفرنسيين تمر بالنقطة الهولندية وهى فى طريقها الى المشرق وفى عودتها منه الى المغرب . وكان الهولنديون قد وثقوا علاقاتهم مع الدول الأخرى وبنوها على المودّة وتبادل الثقة ، ولم يبق لهم من أشاغيل يكدّون لها أذهانهم سوى تذليل الصعوبات بينهم والزنوج ، ولا نقول الهوتانتوت ، لأنهم ليسوا رجال حرب ونزال كغيرهم من أولئك الزنوج .

ولما لم يستطع الهولنديون بعد حين أن يعوّدوا الهوتانتوت الاشتغال بفلاحة الأرض وخدمة المنازل ، فكروا فى جلب المسجونين من الخارج لتشغيلهم فى هذه الأعمال وجلبوا لهذا الغرض زنوج بلاد غينا وأنغولا . وكان عدد الأوروبيين الذين استوطنوا مستعمرة الكاپ الهولندية لا يتجاوز فى سنة ١٦٧٢ المائة والأربعة والثلاثين ثم تزايد هذا العدد فبلغ فى سنة ١٦٨٢ الى ستمائة وثلاث وستين ، وكانوا يسكنون فى أنحاء خليج تيبل أو حول جبل تيبل . وكان فريق منهم فى خليج سلدانها وهوتانتوتش هولندة ، فأخذ المزارعون يفلحون الأرض فى جهات استللنبوش (Stellenbosch) ، ثم أوغلوا قليلا فى البلاد . وفى سنة ١٦٥٧ استكشف نهر يجرى فى أسفل جبال دراكنستاين (Drakenstein) . وفى سنة ١٦٦٠ استكشف الذى عرف باسم إلفانت أى نهر الأفيال . ثم وصل ڤان درأستل الى نهر أورانج سنة ١٦٨٥ وعرف الشاطئ الجنوبى لاقليم الكاپ بين مصب نهر إلفانت وتوجيلا . وفى سنة ١٦٨٩ اشترت الشركة الهولندية سواحل خليج نتال من شيخ القبيلة النازلة بتلك الجهة . ولكن الهولنديين لم تفدهم هذه القطعة التى اشتروها بسبب غرق السفينة التى كانت تحمل الى الكاپ عقد البيع وكان غرقها بخليج ألجوا (Algoa) .

وفى سنة ١٦٧٩ — ١٦٨٠ استكشف الحاكم ڤان در أستل جهات استلنبوش . وأنشأ بها مستعمرة صغيرة ثم عمرت جهة دراكنستاين، وجيء الى الكاب فيما بعد ببعض البنات اليتيمات من هولندا فازداد بهنّ عدد المستعمرين . ثم أقبل بعض الإفرنج من تلقاء نفوسهم وفيهم فريق من جماعة الهوجند (Huguenots) وفريق آخر ممن اضطهدتهم حكومة فرنسا لأخذهم بالعقيدة البروتستانتية فأقطعتهم الأراضى الزراعيـة فى جهات دراكنستين وفرنش هوك . ولكن الادارة الهولندية فرضت عليهم الجنسـية الهولندية فى مقابل ذلك وأن يتعلم أبناؤهم اللغـة الهولندية لكيلا تصبح تلك البقعة مستعمرة فرنسية ممتازة، فى وسط المستعمرة الهولندية .

وكان الفرنسويون فى هذه المستعمرة متفوقين على الهولنديين فى العلم ومختلف الكفايات، وما زالت أسماء أسراتهم باقية الى اليوم . ولما زار ليجا (Leguat) الفرنسى هذه المستعمرة وضع لها خريطة وخطط رسما لمدينة الكاب يرى فيه الحصن ذا الواجهة الحجرية وهو حصن أمنع من عقاب الجو (راجع حوادث إقامة صاحب الرحلة بمدينة الرأس) كما يشهد مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد بناياتها ثلاثمائة تقريبا تنتظم فى شـوارع مستقيمة تتخللها البساتين والكروم . وقد ألف الزنوج العـمل فى مرافق الحياة وبخاصة الزراعة طبقا للأساليب الإفرنجية فى الاستثمار .

وإنمـا حدث فى القرن الثامن عشر أن اتّسع المجال لمزاحمة الفرنسيين مناظريهم الهولنديين فيها واشتدّت حركة منافستهم لهم . ولم تكن هولندا قديرة على صدّ هـذه المزاحـمة ولا على اتقاء عواقبها . وكان وليم ڤان دراستل بن ڤان دراسـتل الآنف الذكر فى سنة ١٦٩٨ حاكما على مستعمرة الكاب، ولم يكن بصيرا بأساليب السياسة ولا بطرائق الإدارة فثـار المزارعون الهولنديون وغيرهم عليـه وعزلوه من منصبه

وحرموا على الولاة وموظفى الادارة اقتناء الأملاك العقارية كما كان يفعل ذلك الحاكم المستبد .

ولما كانت طبيعة الأرض وشح الماء فى جوار الكاب حائلا دون حصر العمران فى نقطة واحدة فقد لجأ المزارعون الى المهاجرة والتشعب فى أنحاء الأرض. وكان نهر (جريت فيش Great Fish River) أقصى حدّ شرقى للمستعمرة الهولندية فدخل المزارعون (البوير) من ناحية الشمال فى جهات كارو العليا وفيما وراء جبال نيوفلد (Niewveld) وسنوبرج (Sneeuwberg) . وفى سنة ١٧٧٨ وضع الحاكم فون بليتبرغ علامة على شاطئ زيكوى (Zeekoe) بعد بضعة أميال غربى مدينة كويبرغ (Kœberg) الحالية . وأقام الهولنديون بجهات خليج دلاغوا (Delagoa) حصنا صغيرا أسموه لاغو ثم وسّعوا نطاقه وزادوا فى أطرافه وأسموه ليدزامهايد ثم اضطروا فى آخر الأمر الى الجلاء عنه ، ذلك لأن هذا التوسع أدّى بهم الى الاحتكاك بالبوشْمَنْ والكفر الذين كان الهولنديون يحاربونهم ويفتكون بهم فتكا ذريعا . وقبل بداية القرن الثامن عشر كانوا قد وصلوا الى نهر جريت كِيْ . وفى منتصفه كانوا قد امتلكوا كيسكاما (Keiskama) . وتقهقر الهوتانتوت الى ما وراء نهر جريت فيش . وفى سنة ١٧٨٠ كان هذا النهر الحد الشرقى للمستعمرة والفاصل بين أملاكهم وأملاك قبائل الكفر . وانما حصلت بين الفريقين مناوشات كانت نتيجتها أن صدّ الزنوج الى أراضيهم الأصلية .

وفى سنة ١٧٧٠ كان عدد البيض عشرة آلاف تقريبا فأخذت الأحوال تتحرّج على الهولنديين كما ذكرناه وصارت مستعمرة الكاب مطمح أنظار الدولتين اللتين أشرنا اليهما آنفا وبدأ السلام تتزعزع أركانه بين الانجليز والهولنديين بعد أن كان راسيا على أوطد القواعد ، لما شجر بين الشركتين من بواعث الخلاف فى الهند . وكانت فرنسا واسبانيا تحاربان انجلترا فى أمريكا، وكانت هولندا متفقة على الولايات

المتحدة لأمريكا الشمالية. فأعلنت انجلترا الحرب على هولندا فى ديسمبر سنة ١٧٨٠ و فى شهر مارس أمر أسطول انجليزى بأخذ مستعمرة الكاپ .

وكان عدد السفن ستا وأربعين بقيادة الكومودور جونستون وعدد البحرية ثلاثة آلاف . فلما وقفت فرنسا على جلية الخبر أبحر الأميرال سوفرن على الفور من ثغر برِسْت الى الكاپ ليعوق عمل الأسطول البريطانى . ومنذ هذا العهد الى أن تم عقد الصلح عام ١٧٨٣ بقيت بمدينة الرأس حامية فرنسية، ولم يوفَّق الانجليز الى النجاح فى مجهودهم هذا ، بل أخذ الهولنديون يعززون حصونهم و يحشون بالجنود المستأجرة من السويسريين والألمان .

و فى سنة ١٧٨٩ ساءت مالية الشركة الهولندية لبلاد الهند الشرقية كما ساءت الأحوال فى حكومة الكاپ، وحضر من هولندا مندوبان لتقويم المعوجّ و إصلاح الفاسد ولكن المزارعين الهولنديين ثابوا الى الثورة وعزلوا مندوب الشركة ونصبوا حاكما عليهم باختيارهم رجلا اختاروه بأنفسهم . وكانت هذه الحركة شبيهة بالثورة الفرنسية فقد أسمى الثوار أنفسهم بالوطنيين وانقسموا الى أحزاب مختلفة .

ولما شبَّ ضرام الحرب فى ذلك الوقت بين فرنسا وهولندا واحتلّ الفرنسيون فى أورو با أراضى هولندا أمرت حكومتها حاكم الكاپ بالاعتماد على المساعدة التى يقدمها الانجليز له والترحيب بالسفن الانجليزية التى يحتمل وصولها الى تلك الجهة. ولقد حضر الى الكاپ فعلا فى سنة ١٧٩٥ أسطول انجليزى تحت إمرة الأميرال إلفنستون يحمل قوة عسكرية بريطانية بقيادة الجنرال كريج . وإذ كان حاكم الكاپ يجهل حوادث أورو با فقد أبى أن يمتثل لتلك الأوامر وفكر فى المقاومة ، ولكن الانجليز بادروا بالاستيلاء على حصن سميتس تاون ثم باحتلال مويزنبرغ وعززت

قواهم بنجدة كانت قد وصلت بقيادة الجنرال كلارك . فزحفوا على مدينة الرأس وما انقضى يومان حتى أسلمت الحامية الهولندية أمرها اليهم وتمّ للانجليز الاستيلاء على المدينة . وقد كان استيلاؤهم عليها باسم الحاكم الهولندى ولكنه أفضى الى زوال حكم الشركة الهولندية على جنوب إفريقية والى توسُّعهم فى الاحتلال بحيث تناول فى سبتمبر سنة ١٧٩٥ أنحاء إقليم الكاپ كله . وقد ظلّ هذا الاحتلال قائما حتى شهر فبراير سنة ١٨٠٣ التى ردّت الكاپ فيها بمقتضى معاهدة أميان الى الحكومة الهولندية لمدّة ثلاث سنوات لا الى الشركة . وفى يناير سنة ١٨٠٦ استولت قوة انجليزية على مدينة الرأس ثانيا ولبثت فيها الى سنة ١٨١٤ ثم أدخلت فى دائرة الممتلكات البريطانية طبقا لنصوص معاهدة الصلح التى أبرمت على أثر خمود نار الحرب الاوروبية . وكان شأن مدينة الرأس فى ذلك شأن جزيرة سيلان فانها كانت هولندية بحتة الى ذلك الحين ثم ضُمّت الى الممتلكات البريطانية . وقد دفعت انجلترا الى هولندا مبلغا من المال لتسوّى به أمورها فى أوربا وترتق به فتوقها فى مقابل اعترافها لانجلترا بحقها فى امتلاك الأقطار الشاسعة الواسعة .

وأخذ عدد سكان إفريقية الجنوبية يزداد أثر ذلك، وتقاطر المبشرون والمهاجرون بينا كان العنصر الهولندى (البويرى) يهاجر مبتعدا فى داخل البلاد . وكان كلما لقى من الوطنيين الزنوج ممانعة له فى الإيغال همّ بمحاربتهم وجدّ فى إزالة ما يضعونه فى سبيله من العوائق . وما زال كذلك فى كدّ وكدح حتى تمكن من إنشاء حكومة أورانج الحرة والترنسفال وانتشر بعد ذلك فى أطراف الأرضين حتى بلغ الى حدود صحراء كالاهارى . وأقام المدن وأطلق عليها الأسماء الهولندية، وما زالت فى تقدّم واتّساع حتى بلغت منهما فى وقتنا الحاضر ما جعلها ذات شأن خطير ومكانة سامية فى العمران البشرى بإفريقية . وقد أبرمت فيا بين هذه الحكومة البويرية وحكومة

إفريقية الجنوبية معاهدات اعترفت انجلترا بمقتضاها للبوير بالحق فى إدارة شئون البلاد التى نظّموها والجمهوريات التى أقاموها دون مداخلة أجنبيــة (ملخص من كتاب الجغرافيا التاريخية للمستعمرات البريطانية مجلد ٤ تأليف السر شارل لوكاس .

A Historical Geography of the British Colonies, by Sir Charles Lucas.)

هذا وقد برحت بعــد ظهر اليوم فندق مَونْتْ نِلْسُن الذى كنت نازلا به للسير فى شوارع المدينة واستطلاع أحوالها فألفيت العناية بهذه الطرقات وافيــة والأبنية متّسعة جميلة النمط الهندسى ، وبالجملة فى حالة يخيَّل للرائى معها أنها من مدن الدرجة الثانيــة فى انجلترا . أما سكانها فخليط من الانجليز والهولنديين والزنوج والمستولدين من العنصرين الأبيض والأسود وغيرهم من مختلف العناصر الأوروبية وأهل زنجبار والسواحل الشرقية وسائر الأمم والأقوام الأخرى . وقد قصدت فى سيارة الى جهة سى بوئيت (Sea Point) ذات البيوت الجميلة الصغيرة والمبانى الخشبية الممتدّة على منحدر الجبل والمشرفة على البحر . ومما لفت نظرى أن أكثر الزنوج يتخاطبون فيما بينهم بالهولنــدية أو الانجليزية ولا يتحدّث إلا القليل منهم باللغة الزنجية ، وأن الكثيرين قد اتخذوا قلنسواتهم من الطرابيش ولا سيما السوداء منها . أما الطقس هنا فحسن والجو بارد والسماء متلبّدة بالسحب والغيوم مع أن فصل الأمطار لم يكن قد بدأ بعد .

يوم ١٨ سبتمبر — جُبْتُ فى العصر بعض أحيـاء المدينــة وزُرْتُ دار التُحف فكان من أهم ما شهدته بها قطعة من الصخر نقشت فيها صور حيوانات وآدميين بعضها ملوّن بألوان مختلفة أهمُّها الأسود ، والبعض الآخر غير ملوّن ولكنّه منقوش نقشا مجوّفا ، وسرّنى ما رأيته من إتقان النقش والتلوين معا . وهذه الصور قديمة العهـد لا يكاد رائيها يصدّق أن الزنوج هم الذين نقشوها أو أنهم من الحذق

والمهارة بحيث يستطيعون نقشها على هذا المثال من الجمال والإتقان . وكان فيما رأيت من المعروضات مصنوعات جمّة يرجع عهـد صنعها الى العصور الخالية . ثم زرت دار الكتب ومعرض الصور الحديثة الملونة وطفت مساء بأحياء أخرى وسرت على الرصيف الهائل الممتـد حوالى خليج تيبل بشكل يذكّرنى برصيف الميناء الشرقية فى الأسكندرية . ودار البرلمـان واقعـة الى يمين النازل من فندق مَونْت نَلْسُن الى شارع أَدَرْلى (Adderley)، وهو بناء جليل جميل .

يوم ١٩ سبتمبر — سِرْتُ فى شوارع المدينة ثم قَصَدْتُ الى الحصن القديم ولكنّى لم أشا أن أدخله . وكان البـدء ببنائه فى سنة ١٦٦٦ ، وقد ضُمَّتْ الى مبانيه القديمة أجنحة وأقسام جديدة، وهو الآن لا يصلح للدفاع ، أما الحصون الجديدة فعلى النمط الحـديث . وقد رأيت اليوم زنجيًّا يخطب فى جماعة من الزنوج بحماس شديد .

يوم ٢٠ سبتمبر — زُرْتُ دار التحف المعروفة باسم دار "دى ويت" وتحتوى هذه الدار هدايا وهبات كثيرة من صور هولندية قديمة وغير هولندية وبعض الآنية من الخزف والزجاج والنحاس والأثاث العتيق وما جرى هذا المجرى . وركبت السيارة بعد ذلك الى خليج هوت (هوت بى) حيث المناظر الأنيقة تسترعى الأنظار طول الطريق فمن دورٍ صغيرة منمّقة بالألوان المختلفة الجميلة وسط الصخور الجرداء مكلّلة بيانع الأشجار وزهيّ الأزهار وناضج الثمار الى غيرها من محاسن الطبيعة والصناعة الآخذة بالأبصار . وقد عُدْتُ الى الفندق بعد أن أمتعت نفسى بشهود هذه المرائى النـادرة .

يوم ٢١ سبتمبر — طُفْتُ اليوم بالمدينة .

يوم ٢٢ سبتمبر — هطلت الأمطار صباحا فأمضيت شطرا من النهار فى المطالعة وبعد الظهر خرجت الى الضاحية وأخذت منها بعض الصور الشمسية.

يوم ٢٣ سبتمبر — أمضيت النهار طوافا بأنحاء المدينة ومررت بمسجد خاص بالهنود المسلمين.

يوم ٢٤ سبتمبر — أبحرت اليوم بالباخرة أرمندل كاسل التابعة لشركة يونيون كاسل (Union Castle) قاصدا الى أوروبا (ثغر سوثا مبتون بانجلترا).

مضت الأيام ونحن بعزلة تامة عن القارة. وظلت باخرتنا تشق بحيزومها عباب الأوقيانوس المحيط الأطلنطى حتى يوم ٣ أكتوبر الذى دنونا فى مسائه من القارة أى فى مقابل غينا الفرنسية أو الزاوية الجنوبية لغينا البرتقالية وذلك بمقتضى خط سيرنا وشكل القارة الإفريقية.

وقد قضت الإرادة الربانية ولا راد لقضائها أن تجود إحدى السيدات المسافرات بروحها فكان لوفاتها بين الماء والسماء بعيدة عن موطنها الذى كانت تأمل الوصول اليه بعد أيام لتطفئ بمرآه ومرأى آلها وأقربائها وأصدقائها نار شوق تلظت بين جوانحها أثر عميق فى نفوس الركاب جميعا.

وقد حفظت الجثة الى اليوم التالى فلما كانت الساعة الخامسة بعد الظهر منه احتفل بتشييعها فسار الربان من حجرته وخلفه ضباط الباخرة جميعا ثم خدمة غرفة الطعام ثم المسافرون حتى بلغوا الى الجانب الخلفى الأيمن من سطح الباخرة. وهناك كانت الجثة موضوعة على حمالة ومغطاة بالعلم البريطانى والكل فوق الحاجز القائم على حافة السفينة على مقربة من السكان (الدفة) فلما وقف الحاضرون انبرى الربان من بينهم وأخذ يتلو الصلوات بينا كان هؤلاء يتلون بعض آيات الإنجيل. وبعد

انتهاء الصلاة أمر الربان بالدفن فرفعت الجمالة من طرفها الذى الى سطح الباخرة فانحدرت الجثة الى البحر وقد نيطت بها بعض الأثقال فصلّى الحضور صلاة صغيرة طلبوا فيها للمتوفاة من المولى الرحمة وانتهى الاحتفال وانفضّ الجميع . اللهمّ ارحم من مات والطف بحال الأحياء حتى تقضى إرادتك بإغاثتهم من بطلان الوجود .

يوما ٦ و ٧ أكتوبر — مرت باخرتنا وسط جزر أرخبيل كناريا ولم ترْس عليها وفى ٧ منه رست على ماديرا .

جُزُر كناريا وماديرا

كلمـــة عنها

ملخصة من مؤلف براون الطبعة الثانية عشرة لسنة ١٨٢٢

قال هذا المؤلف : "جزر كناريا" كائنة بين الخط ٤َ ٣٧° والخط ٣َ ٢٩° من خطوط العرض الشمالية والخط ٣َ ١٣° والخط ٢َ ١٨° من خطوط الطول الغربية.

وسواء أكانت هى المعروفة عند قدماء اليونان بجزر الأسبريد أم التى وصل اليها هرقول وحلّ بها، وسواء أكانت أم لم تكن هى ما يسمونه حدائق أطْلس (ملك موريطانيا) التى نقلت الينا أساطير الأولين أن التُفّاح الذهبى كان لا يجنى إلا من أشجارها، وأن التِنّين الهائل كان قائما على حراستها ، بل سواء أحْسِبْنا أن قمة أحد جبالها البادية للأنظار الآن كغيرها من قمم جبال القارة الأطلنطية التى يزعمون أنها غاصت فى المحيط أم لم نحسب ذلك، وسواء أكانت تلك القمّة هى ما كانت تسميه تلك الأساطير بجبل أطلس أم لم تكن كذلك فما لا ريب ولا شك فيه أن تلك القمة كانت معروفة فى الأزمان القديمة عند الأمم الغابرة وهى تُرَى من رأس جوبى (Juby) الواقع غربى مراكش . وما من سفينة شقت عباب المحيط الاطلنطى إلا وبدت لها قمة جبل كناريا من غير خلاف" .

ويقول المستر براون أيضا : "إن هانون القرطاجى الذى عهدت حكومته اليه استكشاف الجزء الغربى من القارة الإفريقية فى زمن لم يعيّن ، ولكن يرجح أن يكون بين أواخر القرن السادس وأوائل الخامس قبل المسيح ، ربما يكون قد رسا فى إحدى هذه الجزر (وقد أوردنا قصّة رحلته فى تعريبنا بالتلخيص لكتاب الوثائق

التاريخيـة والجغرافية والتجارية من صحيفة ٣٠ الى ٣٧ فليراجع . وزيارة هانون لجزر كناريا غير منصوص عليها فى رحلتـه فى حين أن الرحلة الفينيقية الثانيـة التى جهَّزها فرعون مصر نخاؤ فى القرن السابع قبـل الميلاد والتى كان سفرها من شاطئ مصر الى الجنوب وعودتها بعد الطواف برأس الرجاء الصالح من ناحية المحيط الاطلنطى مارَّة بمضيق جبل طارق أى أعمدة هرقول – قد أشار هيرودتس (Herodotus) اليها مُرَجِّحًا أنهـا تكون قد تناولت هـذه الجزر أيضا ولو لم يجىء فى الرحلة المومأ اليهـا شىء عن هذه الجزر إذ كلّ ما جاء ذكره فيها عن بعض الأراضى كان قاصرا على بلاد لوبية فقط (Lybia) ”.

”وقال هيرودتس فى تاريخه وصفًا للبلاد الواقعة فيما وراء لوبيـة : إن القارَّة تنتهى حيث لا يصلح البحر لملاحة السـفن الخ . وقد بقيت مجهولة التـاريخ الى أن استكشفها الرومانيون بعـد ظهور المسيح بزمن قصـير وأطلقوا عليها اسم (Insula Fortunatae) أى جُزُر السعادات (الخالِدات) .

”وأرسـل يوبا الثانى (Juba) ملك موريطانيا (بعـد المسيح بنصف قرن) بعض السفن الى تلك الجزر . فعادت السفن ببعض التُّحف ومن بين ما جاءت به الى الملك كلبان كبيران من جزر كناريا . وقد جاء وصفها فى كتاب أُهْدِىَ لأغسطس قيصر بأنها جزر ملتهبة وواقعـة فى أقصى نقطة من إنتهاء القارّة . وقد كتب عنها پليناس وپلوتارك طويلا .

”والظاهر أن الملك يوبا أنشأ مصنعا لصنـع الأُرْجُوان فى جزيرة تناوح بلاد غوتيلا أو بلاد الأوتولول . زعم بعض الكتّاب أن هذه الجزيرة هى ماديرا الحالية ولكن الظاهر أن ماقصده پليناس بكلمة (Purpuria) جزر فُويرتو فنتورا ولنزروت الحاليـة“ . الى أن قال : ”وأحسن وصف تركه لنا القـدماء ما ورد فى مصنَّف

بطليموس الجغرافى، فلقد رسم الخط الخيالى لنصف النهار أى خط الزّوال وجعله مارًا بجزيرة هيرّو . وقد اعتمد جغرافيو العرب هذا الخط فيما بعد لقياس درجات الطول شرقًا وغربًا" .

"أما ما وجد فى تلك الجهات من الكتابات والنقوش القديمة وفحصه العلماء والباحثون فى باريس وغيرها فقد أثبت فحصهم إياه أنه لا يشبه كتابات قدماء سكان تلك الجزر ونقوشهم . فقد قارنوها بما وجد من نوعها على الجلود والآنية وجدران المبانى فكانت النتيجة سلبيّة" .

هذا ما ورد فى مصنف براون عن العهد القديم، أما عن العهد الجديد فقد قال ما مؤدّاه : "وهناك زعم أن القدّيس براندن (المشهور عند الإسبانيين بروندون) قد هبط جزائر كناريا، على ما يزعمون، فى القرن السادس لتنصير سكانها ولكن لا يوجد هناك ما يؤيد صحة هذا الزعم" .

"ومما لا شك فيه أن سكان هذه الجزر كانوا فى عهد الفتوحات الإسبانية الجديدة لا يعرفون الكتابة ولم يهتم الإسبانيون بجمع مستندات أو روايات خاصة بماضى أحوالهم وسابق تاريخهم وحاول كثيرون، وفى مقدّمتهم فيانا، سدّ هذه الثلمة فلم تثمر جهودهم سوى الفشل والخيبة" .

"قال أوسونا (Ossuna) نقلًا عن المؤرّخ العربى أبى فاطمة أن الربّان العربى ابن فرّوخ لما أدرك أن هناك فيما يلى البحر أرضا تناوح السواحل الغربية من إفريقية قصد اليها فى سنة ٩٩٩ من الميلاد المسيحى ونزل الى خليج غندو الواقع فى جزر كناريا فوجد به أناسا لهم رغبة فى الاتجار مع غيرهم . وقد علم منهم أنهم اعتادوا زيارة الأجانب لبلادهم . وزار بعد ذلك الجزر الأخرى وأسماها بالأسماء

التى أطلقها عليها بطليموس قبله . وقد لفت المؤلف نظر القارئ الى احتمال أن الأقدمين كانوا يعرفون خليج غندو المذكور بالحالة التى عرفها به المتأخرون" .

وهناك زعم بأن أقواما من سكان جنوة (Genoa) القديمة قد احتلُّوا جزر كناريا فى أوائل القرون الوسطى وأنه حدث فى سنة ١٣٤٤ ميلادية أن البابا كليمان السادس نصب رجلا من أعيان الفرنسيين اسمه لويس دى لاسرْدا، وهو من سلالة إحدى الأسر المالكة فى إسبانيا، ملكا على جزائر السعادات وخوّله السلطة المطاقة لحمل سكانها على اعتناق النصرانية، وإن كان قد حلَّ بها فى سنة ١٣٦٠ جماعات من المبعوثين الروحيين فنصَّروا كثيرا من الأهلين، وأن حملة إسبانية وصلت اليها فى سنة ١٣٩٣ فصدَّها الأهلون، ولكن رجالها نهبوا جزيرة لترروت قبل عودتهم لإسبانيا .

"وقد وصل إليها فى سنة ١٤٠٢ أحد الأعيان النورمانديين واسمه جان دى بتانكور فى سفينة أعدّت له ليستولى على تلك الجزر ويوطِّد حكمه عليها . ومما قاله فى كتاب رحلته أنه استولى على جزيرة لترروت دون أن يلقى صعوبة ، وعبر البرزخ الفاصل بينها وجزيرة فويرتو فنتورا (Fuerte ventura) وأقام حصنا بالجهة الشمالية من هذه الجزيرة، ولكن القوة التى كانت تحت قيادته لم تكن بكافية للاستيلاء على الجزيرة كلِّها فاضطر إلى أن يترك بالحصن حامية كى يحشد رجالا يعزِّز بهم قواه . وقد أمدّه ملك قشتالة (قسْطيل) وهو هَنْرى الرابع بالرجال والمال وأقام بتانكور الآنف الذكر حاكما على أربع من جزر الأرخبيل بشرط أن يستولى على الأرخبيل كلِّه باسمه أى الملك هنرى فصار ملك قشتالة بذلك صاحب الجزر الآتية وهى : فويرتو فنتورا ولترروت (Lanzarote) وغُميرا (Gomera) وهيرّو الخ .

"وبعد بضع سنين تمكَّن بتانكور من الاستيلاء على جزيرة لاس بالماس (Las Palmas) بمساعدة سكان جزيرة غُميرا .

„ فعاد بتانكور الى فرنسا سنة ١٤٠٢ وبها توفى سنة ١٤٢٥ متنازلاً عن الأملاك التى اقتناها بتلك الجزائر لابن أخ له يسمى ماسيو دى بتانكور ، فلم يحسن هذا الرجل إدارتها حتى اضطر الى بيعها والتنازل عنها للأمير دُنْ هنريك البرتقالى .

وفى سنة ١٤٤٣ هجمت قوة إسبانية بقيادة غلين برارا على جزيرة لاس پالماس فتقهقرت بعد أن قتل قائدها . وفى سنة ١٤٦٤ هجم ديجو دى هريرا حاكم غميرا على جزيرة كناريا دون أن يجنى من هجومه ثمرة . وفى شهر يونيو منها وطأ أرض سَنْتا كروز إحدى مدن جزيرة تنيريف وكانت القوة التى يقودها مؤلفة من خمسمائة مقاتل فلم يوغل فى الجزيرة وإنما عقد اتفاقا مع تسعة من أمرائها يقرّون فيه أن الجزيرة أصبحت ملكا لملك قشتالة ولاون ورخّص له سرديتو أمير عناغة بإقامة برج حصين أتمّ ابنه بناءه وجعل به حامية مؤلفة من ثمانين مقاتلا . ولما لم يقم الإسبانيون بعهودهم هاجمهم الأهلين (الفوانش) ودمّروا الحصن ففرّ الإسبانيون بعد أن قتل منهم خلق كثيرون .

وبعد أن أجلى ديجو هريرا عن جزيرة تنريف ضمّ الى رجاله قوة جديدة مؤلفة من ثمانمائة برتقالى وهاجم بها كناريا . فنزل إلى البر فى خليج غندو وزحف مسايراً الشاطئ الشمالى فى خمسمائة مقاتل ، فانهزم الأسبانيون وعادوا فى غير نظام الى سفنهم ، ومع فداحة الهزيمة عوّل هريرا على استئناف الهجوم فكان الفشل ملازما له فى هذه المرّة أيضا ، غير أنه حصل فى سنة ١٤٦٦ على ترخيص بإقامة برج فى خليج غندو ، وحدثت على أثر ذلك حوادث هدم بسببها .

وفى سنة ١٤٧٨ ندب الملك فرديناند الخامس لهذه المهمة جُوان ريجون فسار هذا القائد فى ستمائة مقاتل وقد طلب منه فتح هذه الجزيرة عنوةً فتغلّب على أهلها وألقى الرعب فى قلوبهم بفرسانه . وذلك لأن أهل الجزيرة لم يشهدوا فى حياتهم

الحيل ورام البرتقاليون شدّ أزر أهل الجزيرة بدعوى أنها من أملاكهم ولكن لم تفلح هذه الحيلة وما كاد الإسبانيون يمتلكون الجزيرة حتى بدأت الفتن والدسائس بينهم وكان من نتيجتها أن خلف بدرو دى فيرا القائد ريحون فى القبض على زمام الأمور بالجزيرة .

فتمكّن القائد الجديد من قمع الثورة وإرغام الأهلين على الطاعة وتمّ له ذلك سنة ١٤٨٣ وكان عدد السكان قد انحطّ الى ستمائة مقاتل وألف وخمسمائة امرأة وطفل . فحشد القائد من الرجال قوة ليهاجم بها جزيرة تنيريف . وفى أثناء ذلك اتفق كل من حاكم لاس بالماس وحاكم فورتو فنتورا على مهاجمة تنيريف فصدّ هذا الهجوم .

وظهر بعد ذلك رجل من الفطاحل يدعى دُنْ ألونزو فرناندز دى لوغو الكونكِسْتَدور (الفاتح) وهو الذى لُقِّب فيما بعد بلقب أولنتادو أى حاكم إقليم كناريا . وكان حضر حروب الإسبان مع عرب الأندلس فى غرناطة ، وأُقْطِعَ وادى أغانى (بجزيرة كناريا) مكافأة له على خدمته . وكان قد عاد الى إسبانيا ليرفع تقريرا الى الملك فمنح لقب قائد البحر العام ونيط به فتح جزر كناريا من رأس جير الى رأس بخادور، فكان هجومه الأول على جزيرة لا بالما (Palma) سنة ١٤٩١ وقد استولى عليها بعد حصار سبعة أشهر . وفى أول مايو سنة ١٤٩٣ احتل غرازة أى سَنْتا كروز الحالية بجزيرة تنيريف (Teneriffe) وعقد اتفاقا مع سكان غناجة وغيمار . وفى أوائل سنة ١٤٩٤ اتّجه نحو شمال الجزيرة هاجمًا فصدّ هجومه وتقهقر فاقتفى الأهلون أثره وقتلوا من رجاله خلقًا كثيرا فاضطرّ الى الجلاء عن الجزيرة فى ٨ يونيو سنة ١٤٩٤ وإنما ساعده دوق مدينة سيدونيا فأعاد دى لوغو كرّة الهجوم على الجزيرة فأصيبت قوته بسبب القتال والأمراض والحوادث بخسائر جمّة اضطرته إلى الانسحاب بها

نحو سنتا كروز . ثم سار فى سنة ١٤٩٦ فى وادى أوروتافا وأقام الحصون بالمكان الذى توجد الآن به مدينة رياالحونا فلم يستطع الأهلون مقاومته ، خصوصا وقد قلّت كثرتهم لأسباب جمّة فأقروا له بالطاعة واشتغل فى الحال بتنصيرهم رجالا ونساء وأطفالا وبتغيير أسمائهم . وكانت أسماؤهم مسبوقة على الدوام بلفظة (بن) أى ولد فلان فيقال ابن تهود أى ولده . غير أنهم ظلّوا محافظين على ألقابهم الأصلية مدّة من الزمن ثم بدل من الألقاب بأسماء إسبانية فأصبحت ألقاب الأحفاد الأسماء النصرانية التى أسمى بها الأجداد الذين كانوا أوّل من تنصّروا .

وقد استتبّ الحكم للإسبانيين فى هذه الجزر من غير معارض ولا منازع إلا ما كان من دعوى البرتقاليين والمراكشيين بين آن وآخر بأن اليهم ترجع حقوق السيادة والملكية على هذه البلاد . ومنذ سنة ١٥٣٣ أسّست محال تجارية انجليزية فى جزر كناريا الكبرى (Gran Canaria) . وحدث أن صاحب فاس احتلّ جزيرة لنزروت سنة ١٥٦٩ ثم قام سنة ١٥٨٦ مطالبا بحق ملكيته لها بدعوى أنه من سلالة أطلس ملك بلاد المغرب (موريطانيا) ولكنّه صدّ عنها ، وقد كان آخر هجوم للمغاربة عليها فى سنة ١٧٤٩ .

وفى سنة ١٥٩٥ صدّت تجريدة بحرية انجليزية بقيادة السير فرنسيس دريك والسير جون هوكنس ، وكان ذلك فى لاس پالماس غير أنها نجحت نجاحا جزئيا فى غميرا .

وفى سنة ١٥٩٩ حضرت دونمة هولندية فألحقت بلاس پالماس ضررا بالغا ولم يستطع رجالها النزول الى البر بجهة غميرا فانسحبوا .

وفى عهد كرومول هجم الأميرال السير روبرت بليك على سنتا كروز وتنيريف بست وثلاثين سفينة فأغرق عددا كبيرا من السفن الإسبانية . وفى سنة ١٧٠٦

جاءها الأميرال جننجس ولكنه لم يطلق مدافعه على البلد . وفى سنة ١٧٤٣ حضر الأميرال شارل وِنْتُون وهجم على لاس پالماس وغميرا وكناريا الكبرى فلم ينجح .

وفى سنة ١٧٩٧ هجم الأميرال نِلْسُن على جزيرة سنْتا كروز (St. Cruz) فارتد عنها مخذولا وكان هذا أول انخذال له . وقد أصيب بقنبلة فى ذراعه وغنم الإسبانيون منه علمين ومدفعا وطبلتين وأسلحة وسُلَّما الخ . وفى سنة ١٨٢١ أدرجت جزر كناريا فى سلك الأقاليم الإسبانية وأصبحت تنيريف مركز إدارة الحكومة . وفى سنة ١٨٥٢ أعلنت حرية الموانئ وفتحت للعموم .

قال المؤلف : " ربما كان أصل كلمة كناريا (Gannaria) أى غناريا وهو الاسم الذى أطلقه بطليموس الجغرافى " على جزء من الساحل الإفريقى واقع بالقرب من رأس بجادور (Bojador) .

والى القارئ بيان بالأسماء القديمة لجزر أرخبيل كناريا " وما ديرا كما وردت فى مصنَّف ذلك المؤلِّف مرسومة بحسب مانطقها به قدماء الجغرافيين والمؤرخين .

١ — لاس پالماس : كانت تعرف باسم يونونيا ماجور (Junonia Major) وقال ابن فرُّوح إنها كانت تسمى أبروبوزيتو (Aproposito) وكان سكانها الأولون يسمُّون هواريت (Haouarythes) ويبلغ طولها ٤٦ كيلو مترا ونصفا وعرضها ٢٧ كيلو مترا ونصفا ومسطحها ٨١٤ كيلو مترا مربعا . وهى واقعة بين درجة ٢٦َ ٢٨° ودرجة ٥١َ ٢٨° من خطوط العرض الشمالية وبين درجة ٤٣َ ١٧° ودرجة ١٨° من خطوط الطول الغربية ، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة من قمم جبالها ٧٧٦٨ قدما .

٢ — هيّرو : إن خطّ الزوال الذى اعتبره بطليموس الجغرافى الفلكى مارًّا بها يطابق مروره فى وقتنا (اذا صحَّ) نقطة بنتا دهيزا (Ponta Delgsa) الحالية .

وهذه الجزيرة واقعة بين درجة ٣٧ َ ٢٧ ° ودرجة ٥٣ َ ٢٧ ° من خطوط الطول الغربية . وكانت تعرف قديما باسم أمبريوس (Ombrios) وأسماها ابن فروح (هيرّو) . أما سكانها الأقدمون فكانوا يعرفون باسم أبناء بشير تحرّفه الإسبانيون بلفظ بمباخوس (Bimbachos) ويبلغ طولها ٢٩ كيلو مترا وربعا وعرضها ٢٠ كيلو مترا وثلاثة أرباع الكيلو متر وعدد سكانها ٧٦٦٧ نفسا . وارتفاع أعلى قمة من قمم جبالها وهى المسمّاة ألتو د للجازو (Alto del Maljazo) ٤٩٩٠ قدما .

٣ — غُميره : (Gomera) كانت تعرف قديما باسم يونونيا مينور (Junonia Minor) وكان سكانها يعرفون باسم غمريت (Ghomerythes)

وقال بعضهم إن هذه الجزيرة هى التى أسماها بطليموس هرنسّوس (Herenessus) وهى واقعة بين درجة ١ َ ٢٨ ° ودرجة ١٣ َ ٢٨ ° من خطوط العرض الشمالى ودرجة ٥ َ ١٧ ° ودرجة ٢٢ َ ١٧ ° من خطوط الطول الغربية . ويبلغ طولها ٢٥ كيلومترا وربعا وعرضها ٢٠ كيلومترا وثلاثة أرباع الكيلومتر ومسطحها ٤٤٠ كيلومترا مربعا وعدد سكانها ١٩٧٣٢ نفسا وارتفاع أعلى قمة من قمم جبالها ٤٤٠٠ قدم . ومن مميّزات سكانها أنهم يتخاطبون بالصّفير بالفم .

٤ — تنيريف (Ténériffe) كانت تعرف قديما باسم تهينرف (Tehinerfe) ونيواريا (Nivaria) واسلا انفيرنو (Isla del Infierno) وهى واقعة بين درجة ٢٨ ° ودرجة ٣٧ َ ٢٨ ° من خطوط العرض الشمالى وبين درجتى ٧ َ ١٦ ° و ٥٦ َ ١٦ ° من خطوط الطول الغربية ، ويبلغ طولها ٣٨ كيلو مترا ونصفا وعرضها ٥٠ كيلو مترا ومساحتها ٢٣٥٢ كيلو مترا مربعا وعدد سكانها ١٨٣٨٤٤ نفسا وكان سكانها يعتقدون أنّ معبودهم جاثٍ على قمّة بركانها العالى وتينرف (Tinerfe) اسم أحد ملوكها الأقدمين .

٥ — كناريا الكبرى . كانت تعرف قديما باسم كناريا (Canaria) وربما كان هذا الاسم تحريفا لكلمة تماران العربية (Tamaran) التى كان سكانها الأقدمون يسمّونها به . أما هم فكانوا يطلقون على أنفسهم اسم كناريوس (Canarios) . وهى واقعة بين درجتى ٤٤َ ٢٧° و ١٢َ ٢٨° من خطوط العرض الشمالى ودرجتى ٢١َ ٢٥° و ٥٠َ ١٥° من خطوط الطول الغربى . ويبلغ طولها ٥٥ كيلو مترا وعرضها ٤٧ كيلومترا ومسطحها ١٦٢٣ كيلومترا مربعا وعدد سكانها ١٦٤١٤٠ نفسا . وارتفاع أعلى قمّة من قمم جبالها وهى المعروفة باسم لوس پيكوس (Les Peckos) أى القمّة ٦٤٠١ قدم .

٦ — فويرتوفنتورا (Fuerte ventura) وكانت تعرف قديما باسم هربانيا (Herbania) أو پلاناريا (Planaria) أو ماچوراتا (Majorata) . وكان سكانها يعرفون باسم ماچوس (Majos) ولعلّ هذا الاسم مشتق من اسم قبيلة افريقية هبطت هذه الجزيرة فى وقت ما . والمظنون أن ابن فزوح كان يقصد بكپراريا (Capararia) هذه الجزيرة .

وهى واقعة بين درجتى ١َ ٢٨° و ٤٣َ ٢٨° من خطوط العرض الشمالية ودرجتى ٤٩َ ١٣° و ٣٢َ ١٤° من خطوط الطول الغربية . ويبلغ طولها ١٠١ كيلومترا ، وعرضها ٢٤ كيلومترا ، ومسطحها ٢٠١٩ كيلومترا مربعا ، وعدد سكانها ١٢٩٦٣ نفسا ، وارتفاع أعلى قمة من قمم جبالها وهى المعروفة بأذنى الحمار (Orgas de Asno) ٢٧٧٠ قدما .

٧ — جزيرة لانزروت (Lanzarote) سُمّيت كذلك باسم لنسلودى مالقوازل (Laucelot de Malvoisel) وكان من ربابنة البحر فى جنوه وهوالذى شاد البرج فى الجزيرة حينما جاء پتانكور اليها وكانت فى خرط القرون الوسطى الجغرافية تحمل

شعار مدينة جنوه أى أنها كانت ملكا لها . والظاهر أن ابن فرُّوح أطلق عليها اسم پلويطانيا (Pluitania) وهى واقعة بين درجتى ٥٠′ ٢٨° و ١٥′ ٢٩° من خطوط العرض الشمالية ودرجتى ٢٦′ ١٣° و ٥٣′ ١٣° من خطوط الطول الغربية . ويبلغ طولها ٥٨ كيلومترا ونصفا وعرضها ٢١ كيلومترا وربعًا ومسطّحها ٩٧٣ كيلومترا مربعا وعدد سكانها ٢٠٧٢٣ نفسا .

وكان حاكم هذه الجزيرة فى عهد حضور بتانكور هو غوادرفيا بن يواخو الملك نوازما . وقد رسم س . برتلوت فى سنة ١٨٢٥ جزءا من حائط قديم استكشف بالقرب من زوازما ، والمظنون أنه بناء من عهد الفينيقين . وبالقرب من جزيرة لنزروت جزر صغيرة تسمى غراسيوزا (Grasiosa) ومونتانا كلارا (Montana Clara) وأليغرانزا (Alegranza)، وثانية هذه الجزر خالية من السكان .

أصل السكّان الأقدمين :

تبيَّن من فحص الجماجم أن سكان هذه الجزر كانوا من نوع الأيبيرين طويلى الرؤوس (Ibèriens Dolicocéphalic) وأن سكان الجزر الغربية البعيدة عن الأجانب الذين اختلطوا بأهل البلاد يشبهون أقوام البَشْكَنْس (Basques) والسّلْت (Celts) الذين يسكنون الآن غرب أوروبا . ويؤخذ من بعض الروايات أن أقواما من الأجانب هاجرت الى هذه الجزر وأن المصريين جاءوها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . يؤيد ذلك ما ورد فى مصنف هوميرُس ، وقال أوسونا (Osouna) إن الرومان نقلوا الى رومية فى أوّل ظهور الدين المسيحى بعض أفراد من الأهلين فكانوا وهم فى هذه العاصمة يعربون عن تأذّيهم من أنّهم اذا ماتوا فيها لا تحنَّط جثثهم . وهو ما يستنتج منه أن التحنيط كان معروفا عندهم وأنه كان من عاداتهم القومية .

وكان الناس فى تنيريف يلبسون النّعال أخْذًا عن المغاربة ، وذكر بعض المؤرّخين أنهم كانوا مُلِمِّين فى الحساب بالكسور العشرية وأنهم تلقّوا هذه الطريقة عن العرب . وعلى كل حال فليس هناك شىء محقّقا عن أصل السكان الأقدمين لهذه الجزر . أما أسماؤهم فتشبه بنوع ما أسماء المغاربة . وأشار الأستاذ البحّاثة مكس موللر (Max Muller) الى وجود أداة التعريف (ال) فى لغتهم وقال إن وجودها دليل على أن هذه اللغة من اللغات السامية .

أرخبيـــل ماديرا

جزر ماديرا ودَزَرْتاس و پورتو سانتو

تاريخها القديم (مُلخَّصًا من المصنَّف الآنف الذكر) :

ليس لدينا ما يدلّ على أن ماديرا كانت معروفة من قدماء الرحّالين. وزعم بعضهم أنها كانت مستعمرة تابعة لقرطاجنّة وأنها كانت تسمى كساريد (Cassarides) التى قيل عنها فى أواسط القرن الثالث ق . م إنها خالية من السكان . والواقع أن هـذا الوصف ينطبق على جزر أخرى لا على جزيرة ماديرا التى نحن بصدد الكلام عليها .

ولما جاءها البرتقاليون لم يهتـدوا فيها الى أثر ما يدلّ على أنها كانت عامرة قبلهـم، ومن ثمّ يحتمل أنها كانت مجهولة وأنها لم تسكن إلا منـذ أن احتلّها البرتقاليون أى منذ سنة ١٤١٨ من الميلاد. ومما لا خلاف فيه أن وصف پليناس للجهة التى أسماها بريرا (راجع ما تقـدّم) ينطبق على الجزيرة الشرقية من أرخبيـل كناريا أكثر منه على أيّة جهة أخرى . ولنترك كلًّا من الفرنسيين والبرتقاليين يزعمون أنهم احتلّوا هـذه الجزيرة فى القرن الرابع ولكن لا دليل فى التاريخ على ان هذا الاحتلال وقع فعلًا .

واذا نظرنا فى الخريطة المديسيسية المحفوظة بفلورنسا (١) فانّا نجد أن ماديرا و پورتو سانتو مكتوبتان فيها پورتوستو (I. Deserte, I. De la Legname, Porto Sto) فاذا اتّخذنا تاريخ الخريطة نفسها أساسًا للبتّ فى العهـد الذى عرفت احدى الأمم فيه موقع هـذه الجزيرة، وتاريخها هو سـنة ١٣٥١ ب . م . فيكون أهل جنوه أوّل من استكشف تلك الجزيرة . غير أن هناك خريطة أخرى رُسمت فى سنة ١٣٨٥

(١) انظر المجموعة الكمالية كلما استدعت الحالة متابعة تواريخ الاكتشافات الجغرافية ونشوء فن رسم الخرائط وتطوره .

دون أن تُرْسَم عليها تلك الجزر وهو ما يفهم منه أن رسمها على الخريطة القديمة كان بعد استيلاء أصحابها الحاليين عليها وأن أسماءها الايطالية انما نقلت عن البرتقالية .

ومما قاله ذلك المؤلِّف فى الموضوع قد يكون سكان الجهات الشمالية عثروا على هذه الجزر فى جَوْلاتهم و رحلات طوافهم بالبحار خلال القرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد . ومن الثابت عندنا أن سفنهم وصلت الى السواحل الغربيـة من إفريقيا وأن عرب الأندلس ومغاربة مراكش أعدّوا من تدابير الدفاع ما يلزم لصد هجماتهم وأن الأرلنديين والعرب ربما كانوا فيما قاموا به من الرِّحَل أمهر ممن سلفهم وأكثر استعدادا وأن الملك آرثر الانجليزى الذى حكم من سنة ٥٠٠ الى سنة ٥٣٠ ميلادية والذى كانت له الأساطيل قد يكون أرسل سفنا منها لجَوْب تلك الأصقاع .

وذكر كِنْجِسْلى هذه الجزر فقال إنّها فردوس القرود وان بالجهة الغربية بعض جزر كناريا وآسور (آزور Azores) . واذْ كانت وفاة سان براندن فى سـنة ٥٧٨ وكان قد بلغ من العمر ٩٤ عاما وقد صُنِّفت المؤلّفات المتضمِّنة حياة هذا الرجل فيما بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر فليس من المتوقّع أن يكون ما جاء بهـذه الكتب مطابقا للحقيقة تمـام المطابقة . وأورد المؤلف بعد ذلك وصف بارنيتوس (Barnitus) لجزيرة تكثر بها محاسن الطبيعة وقال إن القدّيس براندن قد عمر بهـا ديرا وبنى سفينة غطاها بالجلود وجعـل بها من المؤن ما يكفى أربعين يوما ثم أمر تلاميذه بأن يسافروا معه خدمة للنصرانية .

فوصلت السفينة بهم الى الأرض المنشودة حيث طاب لهم العيش فأقاموا بها سبع سنوات وِصالًا ثم عادوا الى إرْلَنْـدَة . وهناك أسطورة أخرى مؤدّاها أن سان براندن لم يَمُتْ قطّ وأنه سيبقى حيًّا أبد الدهر .

وكان الناس يوقنون صحة هذه الأساطير، حتى لقد تضمنت معاهدة سنة ١٥١٩ التى بمقتضاها تنازلت البرتقال لإسبانيا عن هذه الجزيرة تسميتها بالجزيرة التى لم تستكشف (Isla nao truvota) . ووضع ڤيرى كلاڤيو (Viera y Claviyo) فى تاريخه الذى ألفه سنة ١٧٧٢ رسماً لتلك الجزيرة من وضع أحد القسوس الفرنسسكان سنة ١٧٥٩

ولطالما أُنفِذَتْ البعثات البحرية للاهتداء اليها ، ومخرت السفن عباب الأوقيانوس عن لاس بالماس إذ كان يلوح لهم شبحها منها حتى اذا ظنّوا أنهم وصلوا اليها لم يجدوا شيئا .

وبعد أن أثبت المؤلف أن الإرلنديين كانوا أول من أوغل فى المحيط الأطلنطى وأنه لا يبعد أن يكونوا أول من احتلّ جزر كناريا وماديرا قال إن الأسطورة العربية التى من مقتضاها أن عرب المغاربة كانوا أول من احتلّها تفيد أن جماعتهم كانت تسمّى بالإخوة المغرورين وأن رحيلهم كان من لشبونة سنة ١١٠٠ ميلادية أى قبل خروج العرب من البرتقال بنحو قرن ونصف . ولكن لم يرد من الأسانيد ما يؤيّد تلك الأسطورة ، وانما المفهوم أنهم لم يبرحوا بلادهم من لشبونة إلا بقصد العثور على شىء بدليل ما عيّنوه من الأزمان وحدّدوه من المسافات، وان تكن السفينة التى رحلوا فيها غير كبيرة ولا متينة بل أنها كانت فى خضمات بحر أوقيانوس كالريشة فى مهبّ الريح ولقد جاء فى نزهة المشتاق عند الكلام على البحر الكبير المحيط وفيه جزيرة الأخوين شرهام وشرام أن أحمد بن تاشفين كان والياً ليوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله فعزم على الدخول اليها بما معه من المراكب وأدركه الموت قبل الدخول اليها ولم يبلغ أمله فى ذلك . الى أن قال وفى هذا البحر جزيرة للغَنَم، والظلمات محيطة بها وفيها من الغنم مالايحصى عدده وهى صغار، أخبر بذلك أيضا المغرورون.

ثم تعرّض الى سفر المغرورين وما كان من أمر خروجهم من إسبانيا ووصولهم بعد خوض خضم بحر الظلمات الى جزيرة الغَنَم وما وقع لهم من الاجتماع بملكها وقصّهم عليه تفاصيل سياحتهم وإعلامه إيّاهم عن طريق مترجم عربى وجد لديه أنه طالما سعى فى كشف ظلمات ذلك البحر فلم يجده نفعا وأنه كلّف بإرجاعهم مُعْصَبى العيون الى أن وجدوا أنفسهم ببلد على ساحل البحر قيل لهم فيه إنه على مسيرة شهرين فهتفوا "وا أسفى" فسمى المحل بذلك وهو ثغر سافى (Saffi) من أساكل المغرب الأقصى الآن .

وجاء فى عدد المقتطف الصادر لأول ديسمبر سنة ١٨٨٨ (٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٠٦) تحت عنوان (كلام عن جغرافية العرب) ما يأتى :

« وكثيرون من بحريى العرب خاضوا خضم الظلمات — الأوقيانوس الأتلانتيكى — قبل أن شقّ عبابه كرِيسْطُوف كُولُمْبُوس ، ومن أشهرهم المغرورون وهو لقب أُطْلِق على ثمانية من أهل أشبونة — ليشبون — تعاهدوا على السفر سويّة فى بحر الظلمات ليكشفوا ما وراء محيطه من المعمورة وبعد أن ساروا أحد عشر يوما غربًا وأربعة وعشرين جنوبا قابلوا عدّة جزر إحداها كانت غنيّة بالغنم ولحمه مرّ المذاق حامض الطعم غير صالح للأكل ، وغيرها آهلة بقوم أخبروهم أنهم يستطيعون السفر أيضا فى المحيط وبعده ينكصون على أعقابهم وتحولُ الظلمات دون إقدامهم فرجعوا من حيث أتوا يقُصّون الغريب من الأخبار وظلّ ذكرهم محفوظا بأشبونة الى زمن ابن الوَرْدى وكان أحد شوارعها مدعوًا بلقبهم (المغرورين) " .

وقال المؤلف براون فى مصنّفه الآنف الذكر بيانا للجزر التى يكون الثمانية المغرورون قد وصلوا اليها إن الذى يؤخذ من وصفهم إيّاها أن الماء عندها كان

ردىء الرائحة الى درجة عاقتها نفوسهم وهذا الوصف ينطبق على الماء بقرب جزر آسور (أزور) إذ لا يخفى أن فى هذه الجزر بركانا ولعلّه كان هائجا وقت وصولهم فشمّوا من الماء ما خالطه من المواد الحَمِية التى كان البركان يقذفها من فوهته . أما الغنم التى وصفوها فان وصفهم إيّاها يدلُّ على أنهم جاءوا جزيرة ماديرا لكثرة هذه الغنم بها . أما الأرض التى أُسِروا فيها وأرسلوا منها مَغْصُو بى العيون الى الساحل الإفريقى فربما كانت احدى جزر كناريا . وقد روى الثمانية المغرورون أنهم أنزلوا الى البر فى بقعة تبعد عن جبل طارق بمسيرة ستة أسابيع وصلوا اليه بعدها سيراً على الأقدام .

ويقول المؤرخون البرتقاليون إن انجليزياً اسمه روبرت ماشين (Robert Machin) ألقت به العواصف هو وامرأة تدعى أنّا ارفرت أوهرفورد على سواحل ماديرا فى سنة ١٣٤٤ فوجد أن الجزيرة من أجمل بقاع الأرض وأنه لم يكن بها ديّار ولا نافخ نار . وفى هذا الدليل الناهض على أنه لم ينزل بإحدى جزر كناريا . ومما جاء فى هذه الرواية أنهما ماتا هناك ودفنا فى قبر واحد بالقرب من قرية ما شيكو (Machico) الحالية التى سُمِّيت باسمه وقد وضعوا صليبا على قبره لتخليد ذكره . وفى رواية أخرى أن عاصفة ألقت بالسفينة وراكبيها الى البحر بسواحل مراكش حيث دُمِّرت تدميرا .

وفى أول يونيو سنة ١٤١٩ برحت مياه لشبونة سفينة بقيادة زاركو (Zarko) قاصدة الى پورتوسانتو . وكان البرتقاليون قد اهتدوا اليها واستعمروها منذ أكثر من سنة فرأى زاركو من سكانها جزعاً لسماعهم أصواتا غريبة من بين السُّحُب المتلبِّدة التى كانت تحجب الأفق على مسافة لا تجاوز ثلاثة وعشرين ميلا منهم ، فاستصحب جوان مورالس (Juan Mor les) للوقوف على جليَّة الأمر بالرغم مما بذله أصحابه من الجهود لحمله على العدول عن هذه النيّة .

وقد سار فى اتجاه مصدر الصوت فاستكشف جزيرة ماديرا ونزل منها فى البقعة التى أسميت بعد بونتا دى لورانزو (Ponta de S. Loarenzo) ثم جاب الأصقاع القريبة من شواحلها . وفى اليوم الثانى من يوليو لتلك السنة نزل فيها مرة أخرى وأقام الطقوس الدينية وامتلكها باسم ملك البرتقال .

ولما عاد زاركو الى بلاده عين حاكما على الشطر الواقع شرق بونتا دى أوليڤيرا (Ponta de Oliveira) فأمر باحراق الغابات لجعل الأرض صالحة للزراعة فكانت نتيجة هذا التدبير أن امتد لهيب النار فأحدث احتراقا عاماً لبث سبع سنوات وأن تخربت الأراضى التى على مقربة من مدينة فونشال (Funchal) الحالية . وعلى أثر ذلك أدخلت زراعة قصب السكر وأنشئ أول معمل له فى سنة ١٤٣٢ وفى سنة ١٥٠٨ أنشئت مدينة فونشال الآنفة الذكر وأقيمت بها كتدرائية .

وفى سنة ١٥٦٦ جاءت سفينة فرنسية بقيادة مونلوك (Montluc) فضربت مدينة فونشال . وفى سنة ١٥٨٢ كانت البرتقال وجزائر ماديرا تابعة لإسبانيا ثم استردت البرتقال استقلالها فى سنة ١٦٣٨ فأخلى الإسبان هذه الجزر سنة ١٦٤٠

وبعد اقتران شارل الثانى عام ١٦٦٠ بكاترينة دى براغانس مُنِحَتْ انجلترا امتيازات عديدة فى ماديرا أصبحت هذه الجزيرة من عهدها موضع اهتمام الانجليز ولا يزال لهؤلاء مرافق ومصالح جسيمة فيها . وفى سنة ١٧٦٨ وصلت قُرْقاطة بريطانية عززها الربّان كوك بالسفينة إندڤور فرمتْ حصن لوروك بالقنابل انتقاما من أهلها لتعدّيهم على الانجليز .

وفى سنة ١٧٧٥ مُنِعَتْ منها النِّخاسة ، ومن سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٠٢ ثم من ١٨٠٧ الى ١٨١٤ أقامت بها حامية بريطانية بمقتضى اتفاق أبرم فى هذا

الصدد . وفى سنة ١٨١٥ رَسَتْ على ساحل ماديرا السفينة البريطانيـة التى كانت تقل نابليون قاصدة الى منفاه فى جزيرة القديسة هيلانة . وفى سنة ١٩٠٢ منحتهـا البرتقال استقلالها الإدارى ، ومنذ سنة ١٩١٠ تألّفت منها ومن البرتقال الجمهورية القائمة بالأمر الآن .

وجزيرة ماديرا أكبر جزر الأرخبيل التـابع للبرتقال ، وموقعها بين الدرجتين ٣٧َ ٣٢ْ و ٥٢َ ٣٢ْ من العرض الشمالى والدرجتين ٣٩َ ١٦ْ و ١٧َ ١٧ْ من الطول الغربى شمال مدار السرطان . ويبلغ طولها ٦٠ كيلومترا وعرضها ٢٤ كيلومترا ومسـطحها ١٥٧٤ كيلومترا مربعا وعدد سكانهـا ١٨٥٤٢٠ نفسا ، وارتفاع أعلى قمة فى جبالها وهى المعروفة باسم پيكو رويفو (Pico Ruivo) ٦٠٥٩ قدم .

أما جزائر دزرتاس (Desertas) أى الخالية الصحراوية ففى الجنوب الشرقى لمـاديرا وتتألف من ثلاث جزر غير آهلة ، وأكبرها دزرتاس جراندى أى الكبرى ، وارتفاع أعلى قمة فى جبلها ١٦١٠ أقدام وطولهـا ستة أميال ونصف ، وعرضهـا ميل واحد تقريبا ، ثم جزيرة بوجيو (Bugio) وارتفاع جبلها ١٣٥٠ قدما ، ثم جزيرة الهيو شاؤ (Ilheo Châo) وارتفاع جبلها ٣٤٠ قدما .

جزيرة پورتو سانتو (Porto Santo) :

تبعـد جزيرة پورتو سانتو الواقعـة فى تقاطع الدرجة ٣٠َ ٣٣ْ من العـرض الشمالى والدرجة ٢٠َ ١٥ْ من الطول الغربى عن ماديرا بمقدار ٢٣ ميلا بحريًّا من شمـالها الشرقى وطولها ستة أميال ونصف تقريبا ، وعدد سكانها ٢٢٣٨ نفسا ، والقمّة العليا من جبالهـا وهى المعروفة باسم پيكو دافاشـو (Pico da Fache) ١٦٦٥ قدما .

وكانت فى العهد الماضى عرضة لهجمات القرصان الانجليز والفرنسيين . وقد جاء اليها كريسطوف كولومبوس (Christophe Colomb) الشهير واقترن بابنة پرسترللو (Peristrello) حاكمها وعاش بها زمنا قبل أن يستقرّ بمدينة فونشال المومأ اليها .

يوم ١١ أكتوبر — وصلنا بحرا الى ثغر سوثامپتون (Southampton) فتحرك بنا القطار الى لوندرة (London) فى منتصف الساعة الثامنة تقريبا .

وفى مساء ١٦ نوفمبر، وصلت الى مرسيليا بالقطار الباريسى، فأبحرت بى منها سفينتى الخاصة قبيل الساعة الرابعة مساء من اليوم التالى، وقد قضينا يومى ١٨ و ١٩ منه فى بحر شديد الاضطراب حتى وصلنا الى مدينة ريجيو صبيحة ٢٠ منه، وقد أمضينا نهاره بها ثم استأنفت السفينة السير فى الساعة السادسة من المساء آخذة سمْتها الى جزيرة مالطة، وقد اضطررت لتأثير البحر فى صحة الطبيب المرافق لى الى تركه بمدينة سرقسطة (سيراقوزة Syracuse) بجزيرة صقلية .

وفى الساعة الرابعة من مساء الأحد ٢١ نوفمبر بلغنا الى ثغر لاڤاليتا (Valletta) قاعدة جزيرة مالطة .

جـــزيرة مالطـــة

موجز تاريخها

لم يذكر المؤرخون شيئا جديرا بالذكر عن تاريخ هذه الجزيرة قبل عهد الفينيقيين وإن ذهب هو ميرس اليونانى الى أن أول من سكنها الفياسيون مؤكدا هذا المذهب. ولكن يتضح من أقوال بعض قدماء المؤرخين أنه لما مر ديدون بها فى طريقه الى الساحل الإفريقى الذى أسس به مدينة قرطاجة الشهيرة كان يسكن مالطة قوم ربما كانوا من القرصان أو الصيادين الفينيقيين . وكانت الجزيرة فى زمنهم تسمى أوجيجيا بعد أن كانت فى عهد الفياسيين مشهورة باسم إيبريا .

وفى خلال القرن الثامن قبل الميلاد لما احتل اليونانيون جزءا من سواحل ايطاليا وجزيرة صقلية وأخذوا يخططون فيها المدن انتزعوا جزيرة أوجيجيا من أيدى الفينيقيين وأطلقوا عليها اسم (مليته) .

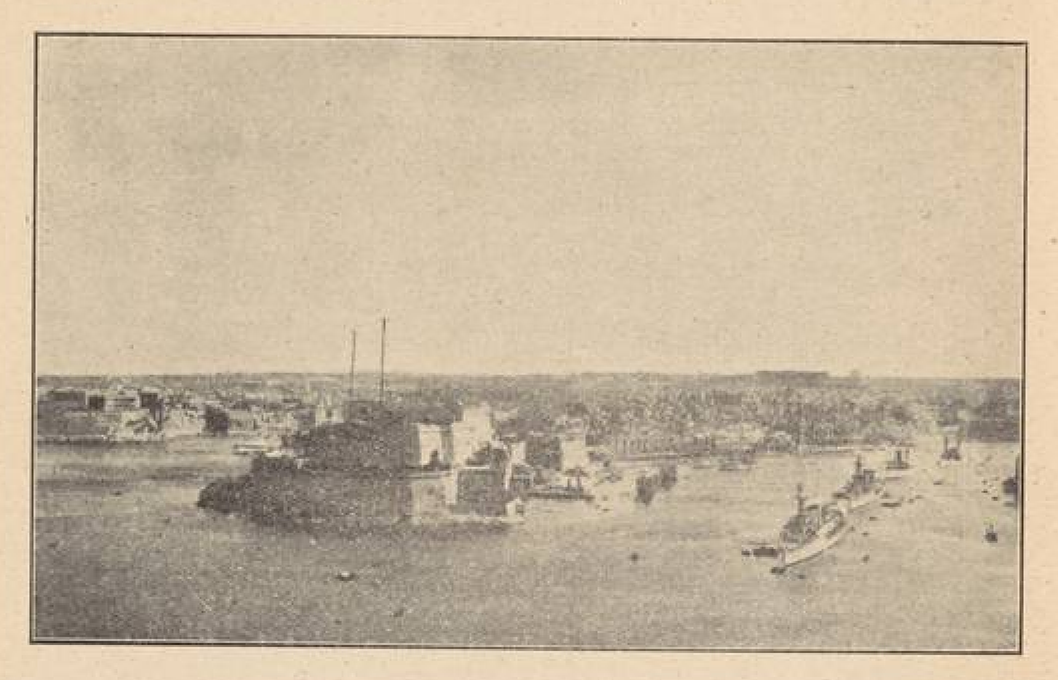
ثم ظلت الجزيرة فى حوزة اليونان حتى أوائل القرن السادس قبل الميلاد حيث أقبل عليهم أهل قرطاجة ينازعونهم ملكيتها وآل الأمر بها الى الوقوع فى قبضتهم فبقيت تابعة لهم الى أن أغار عليها رجولوس ثم كورنيلوس الرومانيان، غير أن القرطاجيين استردوها منهم فاحتفظوا بها مدة من الزمن حتى أخذها الرومانيون منهم فى سنة ٢٤٢ ق . م ، تنفيذا لمعاهدة الصلح التى أبرمت بين الفريقين على أثر انخذال القرطاجيين فى واقعة بحرية، وكانت تقضى بأن يتنازلوا للرومان عن الجزر التى كانت لهم . وبقيت مليته أو مالطة فى طاعة الرومان الى عهد وفاة الامبراطور قسطنطين المشهور فآلت مالطة الى قنسطان . ولما أغار الفندال على جزيرة صقلية

عابرين اليها من جنوب ايطاليا وقعت جزيرة مالطة فى قبضتهم ثم انتزعها الغوطيون[١] منهم بعد قليل من السنين .

وفى أوائل القرن السادس بعد المسيح أى فى عهد يوسطنيانوس قيصر استردّت دولة الرومان الشرقيــة جزيرة مالطة من أيدى الغوطيين . وقد قام حكم تلك الدولة على مالطة من ذلك الوقت الى أخريات القرن التاسع من الميلاد . ولكنها لم تبق فى أيديهم فقــد أغار عليها العرب نظرا لأهمّيتها لمواصلاتهم بجزيرة صقلّية التى كانت تحت حكمهم . ولما دحر العرب نهائيا فى أخريات القرن الحادى عشر أمام الكونت روجر النورمندى الذى تغلّب عليهم فى صقلّية وانتزعها منهم لم يستطيعوا البقاء طويلا فى مالطة . وكان روجر قد أذن لهم بالبقاء فيها على شرط ملازمتهم السكون والطاعة . إلا أنه لما همّ الباقون منهـم فى مالطة باسترداد الملك وأغاروا على الأهلين فى يوم عيد لتحقيق هذا الغرض اضطرّهم ابن روجر الى الخروج من الجزيرة والبعد عنها . ومن ذلك العهــد الى يومنا هــذا لم يعودوا اليها . كأن القدر شاء ألّا تبق جزيرة مالطــة لأحد . وهكذا انتقلت من يد النورمنديين بزواج هنرى السادس ابن الامبراطور فردريك بارباروسّا بالأميرة قسطانسا وارثة عرش صقلّية ، ولكن لم يدم حكم أسرة هوهنشتاوفن عليها طويلا . وكان أهلها فى غضون هــذا الحكم يعانون أشدّ الفاقة والضيق وآلت مالطة من بعدها الى شارل دانجو الفرنسى وقتما كان ملكا على صقلية ، ولكن انتزعها روجر الأراغونى من أيدى الفرنسيين ثم استردّوها منــه وانتقلت للإسبان (الأراغونيين) فى واقعة أخرى فاز فيها هؤلاء تحت قيــادة كبيرهم لانسا . ولما تولّى الحكم شارلكان الشهير بقيت مالطة تحت طاعته زمنًا ما . وكان

(١) الغوطيون أو القُطَط (Goths) .

المسلمون قبل ذلك قد أخرجوا من القدس فرسان ماريوحنا الأورشليمى فاتخذوا جزيرة رودس موطنا لهم إلا أن الأتراك انتزعوها من أيديهم فجعل شارلكان جزيرة مالطة موطنا لهم وتنازل لهم عن حكمها وكان ذلك فى القرن السادس عشر على عهد السلطان سليمان القانونى، فهاجم العثمانيون الجزيرة دون أن يحصلوا منها على مرامهم. وكان لاڤاليت صاحبها المشهور يدافع عنها مستبسلا حتى رد الأتراك على أعقابهم، وظل الفرسان مقيمين بها حتى دالت دولتهم وتقلص ظلهم شيئا فشيئا . واحتموا بكل من آنسوا فيه القدرة على حمايتهم كقياصرة الروس وغيرهم .



منظر مدخل مالطة

وفى سنة ١٧٩٨ احتلها نابليون بونابرت وهو فى طريقه الى مصر على رأس الحملة التى سيرها اليها، وبقيت فى أيدى الفرنسيين الى أن أخذها الانجليز فى سبتمبر سنة ١٨٠٠ بعد حصار دام سنتين تقريبا، وقد ضمت الى الأملاك البريطانية نهائيا

فى سنة ١٨٠١ ولا تزال فى عداد هذه الممتلكات حتى الآن (راجع كتاب مالطة لرحّال فرنسى طبع سنة ١٧٩١ وكتاب مالطة بيد الفينيقيين تأليف وليم تالاك[١])

وصلت سفينتى الى مدخل الثغر بينا كان الأسطول البريطانى (للبحر المتوسط) مجتمعا به وكان لا يقل عدد سفنه عن أربعين سفينة مختلفة الأحجام والطرازات، فمرت بى وسط المدرّعات الكبيرة حتى وصلت الى مرساها المعين لها فى آخر الثغر . ولم تمض دقائق حتى جاءنى ضابط موفدا من قبل جناب الأميرال قومندان أسطول البحر المتوسط يحمل لى تحيّته ثم انصرف .

يوم ٢٢ نوفمبر — نزلت فى الصباح الى البر فزرت فى سيارة بعض الأماكن والأبنية المهمة وكان فى مقدّمتها الكنيسة الكتدرائية التى يقال إنها بنيت فى أوائل القرن السادس من الميلاد ، وهى كنيسة فخمة البناء بديعة الزخرف ، ثم دار التُّحف فرأيت بها من بدائع الصناعة ومعجزات الفن ما يلفت النظر اذ يخيل لرائيها أنها ترجع الى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وليس فى التاريخ بيان صحيح فيما يتعلّق بالأمة التى سكنت الجزيرة قبل العهدين الفينيق واليونانى ، وبعض تلك المصنوعات يرجع الى العصر الحجرى أو العصر الميجاليطيق (Megalitique) أو العصر الحديدى .

وقد وجدت بالجهات التى أجريت بها أعمال الحفر (وسيأتى الكلام عليها فى مذكرات الغد) بعض مصنوعات مصرية فرعونية كالتماثيل والمصوغات وغيرها .

ومن أهمّ ما وقع عليه نظرى القبور الفينيقية ، ثم أصناف المصنوعات والعملة الرومانية والعربية والإفرنجية وهى كثير من مخلّفات فرسان ماريوحنا الأورشليمى .

(1) Malte, par un voyageur Français 1791. Malta under Phenicians, Knights and English by William Tallack.

ولما انتهيت من زيارة هذه المتحفة قصدت إلى دار جناب قومندان عموم الأسطول وتركت له بطاقتى ، وكان قد جاء الى باخرتى لزيارتى فلم يجدنى ، ثم قصدت الى دار حاكم الجزيرة وهى دار قديمة سكنها فرسان مالطة المومأ إليهم فى القرون الغابرة ، فشهدت بها مجموعة من الأسلحة ، وكان فى المعروضات قطع من قميص طورغود ريّس التركى الذى حاصر المدينة ومات محاربا ، ثم صالة الاستقبال وبها من الأبسطة المرسومة من صنع غوبلان فى فرنسا كثير وهو مما كان الملك لويس الرابع عشر أهداه لفرسان مالطة ، وفى كل بساط رسم يمثل جزءا من القارّة ، وصور ملوّنة لكاترينة قيصرة روسيا ولويس السادس عشر وغيره من ملوك أوروبا مهداة منهم لبعض الفرسان ، ثم غرفة فغرفة مجلس الحاكم العام الخ . وبعد مبارحتى هذه الدار عدت إلى سفينتى ، وبعد تناول الغذاء نزلت إلى البر ثانيا فى لاڤاليتا وركبت سيّارة قصدت بها إلى الجزء الشرقى ، فزرت الكنيسة التى تحتوى قُبَّعة الفارس لاڤاليت وسيفه ، ثم طفت مع القسّ القيّم على أمورها بالاستحكامات القديمة فى هذه الجهة المعروفة باسم ڤيتوريوزو (أى المنصورة) وكان هجوم الأتراك على مالطة من ناحيتها إذ التقوا بالحصون من كل ناحية دون أن يستطيعوا الدخول من الثغرة التى أحدثوها فى سورها ، ثم صدّوا بعد ذلك وفشلت حملتهم نهائيا فى آخر الأمر .

قصدتُ بالسيّارة إلى الناحية المقابلة للتى نحن فيها وطفت بالنقطة المعروفة باسم (Sliema) ثم بمرسى موشت (Mersa Muscette) وأرشدنى الدليل إلى السجن الذى اعتقل المصريون فيه للأسباب السياسية المعروفة وكذا المغفور له الأمير سعيد حليم ، ثم عدت الى سفينتى بعد ذلك حيث أمضيت الليل . وقد رافقنى فى هذه الجولة جناب الميرالاى التركى زكى بك قومندان فلسطين سابقا .

والقارئ يعلم بلا ريب أن فى اللغة المالطية كلمات عربية لا حصر لعددها .
ولباس النساء السواد غالبًا إلّا ما كان للمتفرنجات منهنّ ، فاذا خرجت سيدة مالطية
من منزلها التفّت برداء أسود اللون يشبه الحبرة ولكنه ينتهى من جهة الرأس بقوس
تمسكها السيدة بيديها حتى لا تنزع الريح الرداء (أنظر الصورة) . ويكثر الماعز



لباس سيدات مالطة

فى هذه البلاد فهو يُرى فى كل حىّ تقريباً ، ويظنّ بعض الأطباء أن لبنها هو السبب الأول للحمى المعروفة بحمى مالطة . وأكثر النـاس يسيرون حفاة مع لبسهم الثياب الافرنكية . ومن مميّزات المبانى فى هذه الجزيرة تشابهها بعضها ببعض وكثرة شرفاتها التى تحيـط بها حواجز من الزجاج (أنظر الصورة) . أما القوارب فيشبه مقدّمها مؤخرها إذ ينتهى كلاهما بقطعة من الخشب عريضـة وتكون عمودية عنـد مؤخرة القـارب .



منظر مدخل جزيرة مالطة ومبانيها

وممـا يلفت النظر صغر حجم أبواب المنازل فى بعض الجهات فانك ترى الباب أشبه بالدرابزون ولا يزيد ارتفاعه على متر ويرى البـاب الزجاج من خلف فكأنّ لا لصوص فى هذه الجزيرة التى يبلغ عدد سكانها نحو مائتى ألف وخمسين ألفـا . ولا تزيد الأراضى المنزرعة فيهـا عن مائة ألف فدان مصرى . والأراضى المنزرعة

تقسم الى مستطيلات صغيرة تحيط بها حواجز من الحجر. ولا يزيد طول جزيرة مالطة عن عشرين ميلا ولا عرضها على ١٢ ميلا . وأما مسطحها فيبلغ ٢٤٠ ميلا مربعا ونيفا .

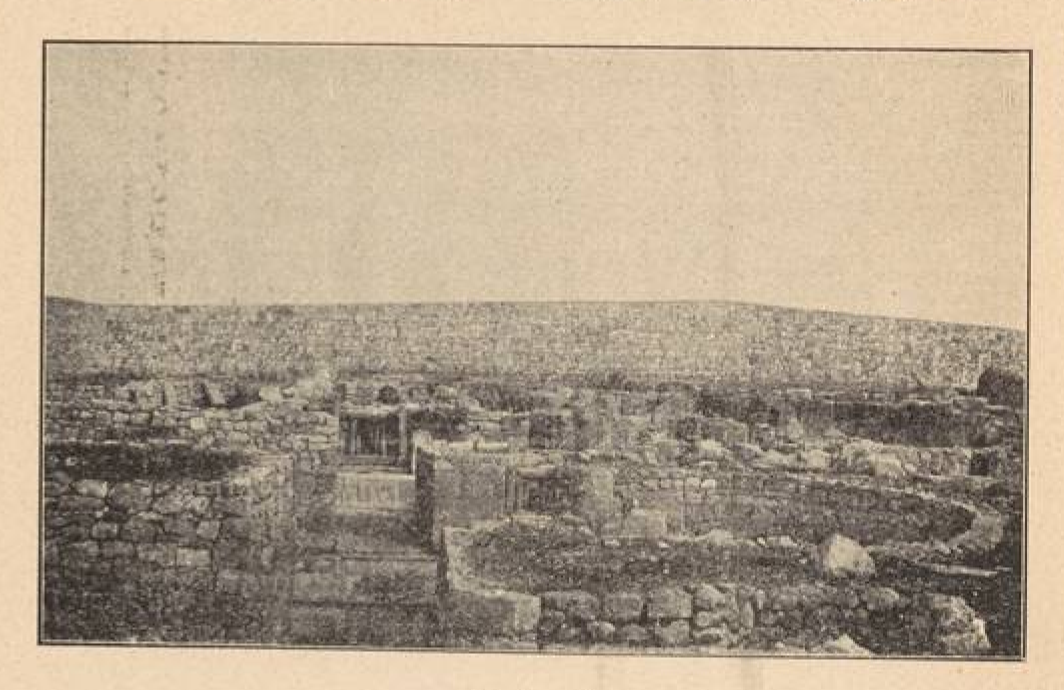
ومنظر المدينة عند مدخل الثغر من أجمل المناظر ولكنّها لا شجر بها ولا خضرة، وأبنيتها جميلة وأكثرها ذو صلة بالتاريخ إلا ما كان حديث العهد . وليست المدينة قذرة أو ينبو عنها النظر، وهى حجرية كلها وإنما تكثر بها الأتربة، ولعل ذلك لقلة الماء . ومركبات الرش فيها يتدلى من خلفها خرطوم بطرفه قدام مثقب بينا الطرف الثانى متصل بخزان الماء ثم يحمل الطرف الأول رجل يسير على قدميه خلف المركبة محركا طرف الخرطوم بيديه يمنة ويسرة وعلى هذا المنوال يرش الطريق .

وصناعة أهل الجزيرة فى الفضة والحديد وغيرهما من المعادن، وقد اشتهر المالطيون فى هذه الصناعات بالحذق والمهارة . والقليل من القطن الذى يزرع فيها يصنع منه المُثقَّب (الدنتيلا) . ويؤتى إليها من الخارج بالتبغ فيخرط وتصنع السجاير منه، وكذا الحُصُر وغيرها من مصنوعات السِّمار وصناعة المراكب وشغل المصنوعات الخشبية والنجارة والصابون . وقد شرع حديثا فى صنع السجاجيد . وينبت بهذه الجزيرة مقدار من البقول والبطاطس. وعاينت اليوم مخازن للغلال اذا رآها المرء ظنّها قبورا فانه لا يرى منها غير فوهاتها مغطاة بأحجار مستديرة، وهذه المخازن عبارة عن تجاويف منقورة فى الصخر ولا تصل إليها الأمطار وتحفظ الغلال بها سنة أو أكثر بدون أن يصيبها تلف. واذا حلّ الليل أنيرت وحدات الأسطول بالأضواء الكهربائية العديدة وسطعت مصابيحها فى الظلام كما تسطع الكواكب فى كبد السماء.

يوم ٢٣ نوفمبر — كنت معتزما السفر صباحا قاصدا الى السلّوم. ولكن لما رأيت ساعات النهار غير كافية لشهود ما كنت أريد الاطلاع عليه كلّه كأطلال

القرى القديمة السابقة على التاريخ ، وهى واقعة على بضعة كيلو مترات من لافاليتا ، فقد آثرت تأجيل السفر من مالطة الى غد بمشيئة الله . وفى منتصف الساعة العاشرة من صباح اليوم نزلت الى البر مصحوبا بالميرالاى زكى بك فركبنا سيارة قصدنا بها الى (حل سلفينى) (Hal Salfieni Hypogeum) وهو من أقدم الآثار قبل عصر الفينيقيين على الراجح ، وهو واقع فى نقطة كورتين وكان استكشافه سنة ١٩٠٢ و بيان ذلك أنه بينا كان صاحب الدار المقامة بطرفه يحفر الأرض لصنع خزان للماء (صهريج) انفتحت تحت قدميه ثغرة وكانت فى سقف إحدى الغرف التى تحت سطح الأرض .

أما تاريخ إنشاء ذلك المعبد واسم الذى شاده فما برحا مجهولين الى الآن ، غير أن بعض العلماء ذهبوا فى تقدير عمره الى أكثر من عشرة آلاف عام ، وظهر ، و إن



آثار مالطة

يكن بصفة غير قاطعة، من فحص الجماجم التى سبقت الإشارة الى نوعها أى جماجم الأمم التى كانت تسكن شواطئ البحر المتوسط، ومما عثر عليه العظام وبعض المصنوعات، ومما بحث فيه من رُفات الحيوانات التى وجدت فى تلك المقابر وغيرها :

(أولا) إن جزيرة مالطة كانت تتّصل بالقارة الإفريقية، وإن وجود الحيوانات الإفريقية بها كفرس البحر والفيل من نوع انقرض وغيرهما يدلّ على أن تلك الحيوانات كانت عائشة بها وأن جيلا من الناس كانوا يسكنون هذه الجزيرة ولكنهم أقدم من الفينيقيين عهدا، وأنه لما هبطها هؤلاء لأول مرة كان لها مدنية عريقة فى القدم تؤيّدها تلك المصنوعات وأن هذه المدنية ترجع الى العصر الحجرى الحديث (النيوليطيق).

ومن المصنوعات التى عثر عليها الآنية الخزفية الجميلة المتقنة التى اختصت بها تلك الجزائر.

هذا وليس المكان الذى نحن بصدد الكلام عليه بنايةً وضعت لبناتها بعضها على بعض وإنما هو نقر فى الصخر تحت مستوى سطح الأرض الآن، فهو إذن مجموعة غرف أو حجرات صغيرة. وقد ذهب بعض العلماء الى أنه كان فى مبدأ أمره معبدا ثم اتخذ مقبرة، مستدلّين على ذلك بوجود مقدار من العظام والجثث فى بعض هذه الغرف ثم إن فيه جملة دهاليز توصل فيما بين الغرف بعضها ببعض وليست كلها فى مستوى واحد، ومنه يرى الزائر بسهولة كيف اقتلعت الأحجار واحتفر الصخر وأيّة الآلات استخدمت لهذه الأغراض وأنها لم تكن سوى آلات كانت تزال بها طبقات الحجارة طبقة بعد طبقة، وهكذا الى أن تنتج من عملية الحفر التجاويف التى هى تلك الغرف والحجرات.

وفى جهة من المعبد نافذة صغيرة (رَوْزَنة) كان الناس يسمعون منها الهاتف، وذلك بأن يدخل وصىّ القوم أو ولىّ أمرهم فى إحدى الغرف التى تردّد الصوت

وتجعله رنّانا ويتكلم فيؤثر فى سامعيه بما يريد . وشهدت فى ذلك المكان زخارف حلزونية الشكل نقشت فى بعض السقوف وصبغت باللون الأحمر وزخارف أخرى



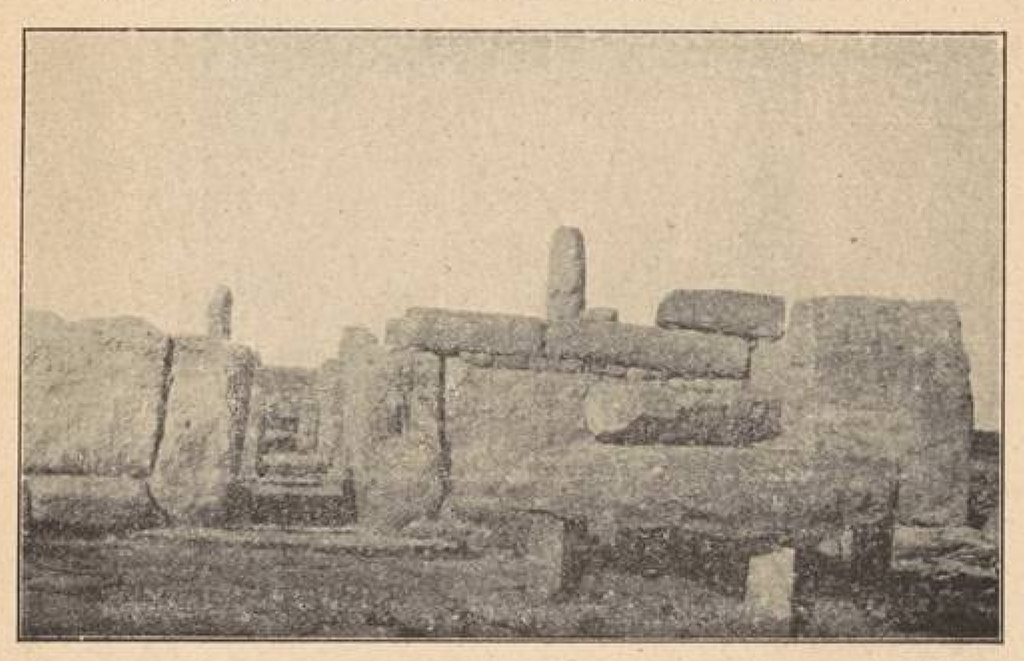
آثار مالطة

فى هيئة تجاويف صغيرة غير مصبوغة بلون ما . ولما برحنا ذلك المكان قصدنا الى معبد آخر اسمه طَرَخْشِيان (Tarxien) واقع فى مزرعة صغيرة وهو قائم على مستوى سطح الأرض ويحتوى حجرات مكشوفة الآن .



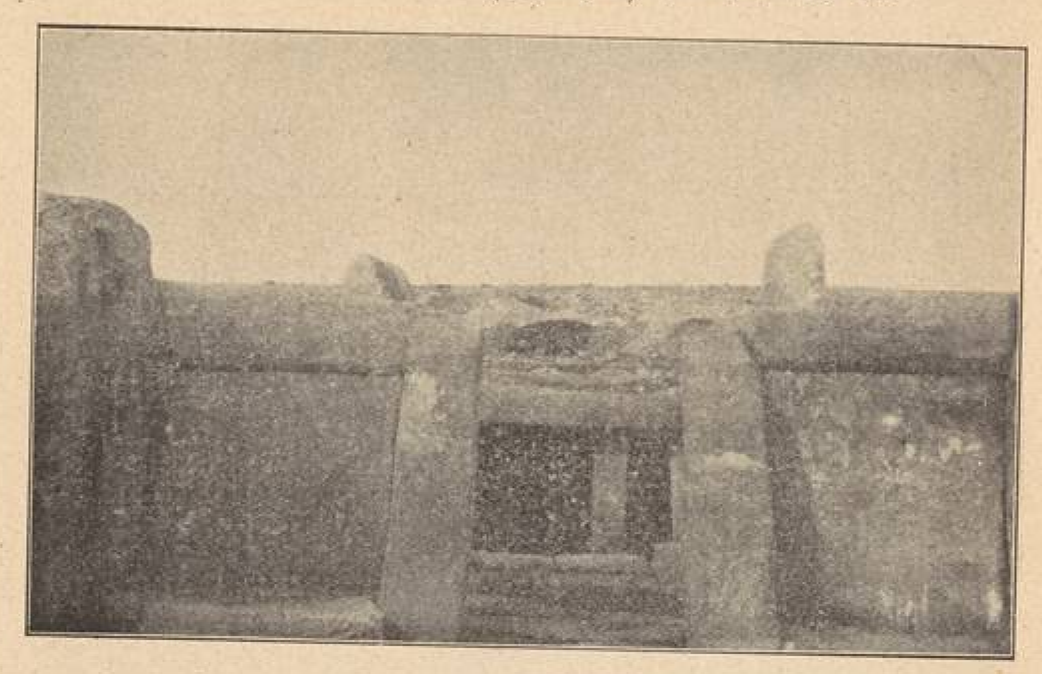
معبد طرخشيان

ومن أهم ما يشاهد فيه الزخارف المنقوشة فى الأحجار ، وقد نقل الى المتحف منها أحسنها ولم يبق سوى قطعتين إحداهما لوحة عليها نقش بارز مستدير (أنظر الصورة)



آثار مالطة

والأخرى مصطبة المعبد (انظر الصورة) .



آثار مالطـــة

ومما يشاهد على الأحجار الأصلية المحفوظة بالمتحف صور الماعز البرى بارزة على اللوحة الحجرية بلا لون ، إلا أن صور هـذه الحيوانات تدلّ على أنها من النوع الإسبانى الذى لا نظير له إلا فى أسبانيا ويعرف باسم كابرا هسبانيكا (Capra Hispanica) . فهـل يؤخذ من هذا أن ماعز الأزمان السابقـة فى جزيرة مالطـة كان من هذا النوع أو أن سكان جزيرة مالطـة لم يعرفوا النوع الآخر الموجود الآن فى الآلب الفرنسية والآلب الايطاليـة والمعروف باسم (Capra ibex ou le Bouquetin des alpes) ؟ وبعد انتهاء الزيارة قصدنا الى المعبد المعروف بحجر الكيم فى لسانهم (Hadjiar El-Kim) ويشبه فى وصفه المعبد السالف الذكر . قد شهدت لأول مرة ما يسميه الأثريون الدُّلْمَن[1] (Dolmen) .

(١) الدُّلْمَن تعريب الدكتور محمد شرف .

وهو عبارة عن حجر مرفوع على أعمدة كان القدماء يستظلّون به . وقد استشهد به المؤرّخون على الصلات التى تربط الأمم بعضها ببعض ، وخرجوا من ذلك الى القول بأن سكان المغرب أى الجزائر ذوى البشرة البيضاء والعيون الزرقاء يرجعون الى الأصل الإسبانى البرتقالى ، لأن ما وجد فى القسم المذكور من قارة إفريقيا من أحجار الدُّلْمَن وجد مثله فى بعض أصقاع إسبانيا .



معبد حجر الكيم

وقصدنا من هذا المكان الى ساحل البحر سيرًا على الأقدام لزيارة معبد المنيدرة (Mnédra) وهذا أصغر من المعابد السابقة الذكر . وبعد الزيارة أخذنا السيارة للعودة الى السفينة نازپرور .

زرنا كنيسة عتيقة تسمى بمار بولس فى إحدى القرى ، وبالقرب منها مغارة يزعمون أن مار بولس أراد ماءً فضرب الصخرة فتفجّرت منها عين . وفى الكنيسة

صور قديمة ومصنوعات قيّمة. وكانت تلك الجهة عاصمة لجزيرة مالطة قديما. وفى عهد العرب كانت تسمى "المدينة"، وفى العودة زرنا مقابر المسلمين. وبمناسبة المسلمين نذكر أن فى جزيرة مالطة الآن عدد قليـل من أهالى شمال إفريقية كتونس والجزائر وغيرهمـا .

ولقـد راقنى ما شهدته فى هـذه البلاد من نظافة طرقاتها وأزقّتها واهتمام أهلها بتنميق مبانيها والإنفاق بسخاء على تشييد المعابد وصيانتها وعنايتهم بالأماكن العامّة كالمدارس والكليّة، وسرّنى بخاصة من المـالطيين نشاطهم فى الأعمال الصـناعية والزراعية ، فان مزارعهم الصغيرة محصورة بين الصخور لا تكاد تزيد سعة المزرعة الواحدة على قيراط واحد أو قيراطين . وهـذا خير ما يذكر فى مساق التمثيل بالأمة النشيطة التى تكدّ وتكدح لتكون فى غنى عن الاستمداد بغيرها، وتلحّ حتى على الصخر تستدرّ منه مادّة حياتها فلا يقال إن أفرادها قوم متواكلون ينتظرون أن يصل الرزق لأفواههم دون أن يبذلوا جهدا لتحصيله ولا يسعون فى مناكب الأرض سدًّا للخلّة وتفريجا للضيق .

وفى الساعة الثانية والدقيقة العشرين من مساء اليوم تحرّكت سفينتى من مرساها، وها نحن أولاء بظاهر الثغر وفى عرض البحر تلعب بنا الأمواج إذ كان البحر مضطربا والرياح شديدة . ولقد لبث البحر على هذه الحال حتى الساعة الثالثة من صباح ٢٤ نوفمبر. وكانت الرياح تهب من الجنوب الغربى أى من ناحية خليج سرت (Sidra) ولكن ما وافت الساعة السادسة صباحا حتى سكن البحر وهدأت عناصره فسارت السفينة سيرا مُغذًّا للتمكن من الوصول الى السلّوم فى رابعـة النهار . وقد فاتنى أن أذكر للقارئ كلمة مالطة هى اسم جزيرة واحدة من الأرخبيل الصغير

الذى هى أكبر جزره وأن الجزر التى تتلوها فى سعتها هى جزيرة جوزو التى تبعـد عن الأولى بميلين تقريبا ثم جزيرة كمُّونة ثم جزيرة فِلفُلة وهما صغيرتان جدا .

وفى الساعة الخامســة تقريبا من مساء ٢٥ نوفمبر وصلنا الى السلّوم . ولمّا كنّا فيها على الخط الفاصـل بين سيرينائيكا ومرماريقا القديمتين فقـد آثرنا أن نورد كلمة عن كل منهما . وسيرينائيكا هذه هى التى وردت فى المصنفات الجغرافية والتاريخية العربية باسم (قيرينة) أو (قورينة) .

ســيرينائيكا (قيرينــة)

معرَّب مما كتبه العلامة ج . فونسجريف (G . Fonsigrive)

جغرافيتها وتاريخها :

كانت كلمة سيرينائيكا (قيرينة) تطلق فى الزمان القديم على منطقة من سواحل البحر المتوسط الإفريقية وكانت مدينة سيرين التى استعمرها اليونانيون عاصمة لها. وكانت سيرينائيكا واقعة غربى مصر، فيما بينها والخليج المعروف باسم سرت (Sidra) الكبير . وكان يدخل فى حدود تلك المنطقة هضاب بَرْقة التى أُسِّسَتْ فى ساحاتها المدائن الخمس المؤلَّفــة لما كانوا يسمُّونه پنتاپول أى المدائن الخمس وكانت هــذه التسمية تطلق من باب التوسّع على المنطقة كلّها .

أما المدائن الخمس المشار اليها فهى سيرين و برقة وتهيره (وسُمِّيت فيما بعد أرسينوة) وهسپريد (وسُمِّيت فيما بعــد برينيس) وأپولُّونيا . وكانت حدود منطقة سيرينائيكا من جهة البر غير ثابتة ولا مؤكدة ، لأنها كانت تتاخم صحراء لوبية . أما من ناحية الشرق أى من ناحية القطر المصرى فقد كانت الحدود معينــة بالشرسونيز أى رأس التين أو بكالا بتموس ماجور (عنــد حدود مصر الحاضرة) وأما غربا فكانت تحدّها معابد فيلينس عند الزاوية الشرقية من خليج سرت الكبير . أما من الجنوب الغربى فكانت منطقة سيرينائيكا تمتد اعتباريا الى فزانيا (فزّان) . ولم يكن القسم المهم منها إلا الأراضى الممتدّة على السواحل وكان يشطرها الى شطرين رأس بوريوم (المعروف الآن باسم رأس تيواس الى الجنوب من بنى غازى) وسواحل سرت الكبير الى غربه . أما الى الشرق فكانت تتوالى المدائن الخمس وهى : فى المقدّمة مدينة هسپريد التى سُمِّيت فيما بعد بيرينيس وتقوم فى موقعها الآن مدينة بنى غازى على ضفة نهر لاطو الصغير وهو النهر الوحيد فى المنطقة . ويقال إنه كان ينبع بالقرب من فيافى هرقول

والكثبان الرملية . وكان على مقربة منها بحيرة تريتو الصغيرة أو بحيرة الهسپريد ، ثم مدينة تنهيرة التى سميت فيما بعد أرسينوة وتقوم على أطلالها الآن بلدة طنكره ، ثم مدينة بطوليمائيس المعروفة الآن باسم طلميتا أى ثغر برقة ، وكانت عاصمة الديار على أيام البطالسة . وكانت مدينة برقة نفسها فى الداخل وتبعد عن الساحل بخمسة فراسخ ، ثم رأس فيوس أو رأس سم أو رأس الرزات ، وهو أبعد نقطة من الساحل الى الشمال وأدخلها فى البحر . وعلى خط العرض الذى يمر برأس تينار المعروف الآن برأس متپان كانت توجد مدينة أپولونيا (المسماة الآن مَرْسَى سُوسة) وهى ثغر سيرين التى كانت تبعد عن البحر بأربعة فراسخ . والى الشرق على الساحل كانت توجد على التتابع مدينة نوستاتموس (مَرْسَى الهلال الآن) ورأس زفيريوم والى جواره الجزيرة الصغرى التى كانت تسمى أفروديت أولايا ثم درانيس (دِرْنة الآن) ثم أكسيليس . وعلى مقربة من رأس الشرسوتيز خليج بلاتيا وجزيرته (بومبة الآن) . وكانت الجبال التى الى الداخل تسمى فى امتدادها طوال خليج سرت الكبير برمال أو كثبان هِرْقُول . وكانت جبال فالى تمتد الى الجنوب الغربى وجبال بوكاليكوس تمتد شرقا على الحدود الجنوبية . وكانت واحة أنجيلا أو أوجيلا فى الصحراء تابعة الى سيرينائيكا .

وكانت مستعمرة سيرينائيكا اليونانية زاهية بالعمران زاهرة بحضارة راقية يرجع تاريخها الى القرن السابع قبل الميلاد المسيحى . وبيان ذلك أن اليونانيين لما وثقوا عرى روابطهم التجارية مع مصر أوغلوا بسفنهم نحو الجنوب فدفعتهم الرياح الى سواحل سيرينائيكا المواجهة لشبه جزيرة بليبونيزة ببلادهم فاتخذوها مستقرًا لهم ، نزولا على النصيحة التى أدْلَى لهم بها الهاتف "دلف" وكانت جالياتهم الأولى الى تلك السواحل من السلالة الدوريانية ، وكان رحيلهم فى سنة ٦٣٠ قبل

الميلاد من جزيرة ثيرا، دعاهم الى مهاجرتها مافشا فيها من القحط وشجر بين أهليها من المنازعات التى أفضَتْ الى شبوب نار الحروب الأهلية بينهم . وكان زعيم الراحلين يومئذ يسمى باتوس من السلالة الميناية وكانت له عليهم الزعامة الدينية والسياسية .

وقد عثروا على الأساطير والروايات المتعلّقة بأصل مدينة سيرين وسبب إنشائها فى مصنفات المؤرّخ منكليس وان لم تقع هذه المصنفات فى أيدينا، كما عثر عليها فى تاريخ هيرودتس . والذى يؤخذ منها أنه كان لأهل كريد (Crete) أثر عظيم فى المهاجرة فانهم اندفعوا مع المهاجرين الى تلك السواحل قائلين إن الزعيم باتوس الآنف الذكر انما هو من أحفاد الملك آسوس الكريدى . وجاء المستعمرون من أهل ثيرا بعد أن عُيِّنَتْ أسماؤهم بالقرعة فى السبعة المراكز التى تتألف الجزيرة منها فى سفينتين، وكان عددهم قليلا جدا، فلما دالهم طول المشقّة وروّعهم البحر انقلبوا عائدين الى مواطنهم. غير أنه لم يسمح لهم بالنزول فاضطر باتوس للرحيل من جديد الى سواحل لوبية . وكان أول مستقرّ أنشأوه لإقامتهم فى جزيرة بلاتيا . ولم تحسّن أحوالهم فى هذه الجزيرة فقصد باتوس الى الهاتف دلف ليشكو اليه أمره وأمر أصحابه ويستشيره فيما ينبغى أن يفعل وإيّاهم للخروج من المأزق الذى زجّوا بأنفسهم فيه، فنصحه الهاتف بأن يعنى بتربية الماشية. وكان مثل هذا العمل غير ميسور ولا ممكن فى تلك الأنحاء . ولكن الهاتف أمره ثانيا بالمثابرة وبذل الجهود فعبر البحر من فوره الى الأرض القارة حيث منطقة آزيريس الكثيرة الغابات الغزيرة المياه، تجاه جزيرة بلاتيا . وعلى أثر ذلك انتقل المستعمرون الى هذه المنطقة ثم أوغلوا فيما يليها من الأرضين، وبعد أن دأبو على السير ستّة أيام أنشأوا مدينة سيرين على الهضبة، وفى ارتفاع ٥٥٠ مترا فوق سطح البحر . وكانت أرض هذه البقعة حجرية وكانت ترويها مياه الأمطار باضطراد وانتظام فتزكو فيها النباتات . وظهر هناك ينبوع تدفّق

الماء منه غزيرا فقدم الى الآله أبولّون وأطلق اسم هذا الينبوع وهو (سير) على المدينة ثم أطلق عليه اسم سيرين وهو اسم حورية تساليّة كان يحبّها هذا الإله، ذكروا فى أساطيرهم أنها وصلت من وطنها تساليا الى لوبية فى مركبة يجرّها على وجه الماء سرْب من البجع . وكان من أمر الأهالى الوطنيين فى تلك المنطقة أن تلقوا المهاجرين بالاكرام والرعاية . ومن الفريقين تألّفت أمّة خليطة من اليونانيين واللوبيين شبيهة بالجاليات اليونانية فى ايطاليا وصقلية وقرطاجة وكان يعزّز العنصر اليونانى فيها توارد المهاجرين اليونانيين تباعًا من بلادهم حتى أصبحوا بلا مراء، العنصر الغالب فى تلك المستعمرات .

وقد سما للمستعمرة شأن واتّسع نطاق العمران فيها وازدهت بالخيرات، فالزراعة فيها كانت تجيء بالحاصلات الوفيرة فى مختلف المزارع التى جلّلت وجه الهضبة ببساط من سندس أخضر، وكان من أوفر هذه الحاصلات القمح والنبيذ والزيت وعنى القوم بتربية الماشية عملا بنصيحة الهاتف وباستنبات نبات السِّلْفيوم[1] الذى كان من أعظم بواعث ثروة المستعمرة وسعادتها . ومما لا ريب فيه أن الأطلال التى تغطّى وجه الأرض فى تلك الأنحاء شهيدة بعظمة تلك الحضارة التى انقرضت. وكان اليونانيون يعيشون بخاصّة فى المدن والمراكز العامرة التى كانت توجد بجوارها مزارعهم الواسعة الخصيبة وكان يزاول الأعمال الزراعية فيها عشائر الأسْبست والأنشصاى فى جنوب برقة والكابال بالقرب من تنهيرة . أما الرُّحّل فكانوا يجوسون

(١) Silphium السِّلْفيون (معرّب من اليونانية) نبات من الفصيلة الخيمية يسمى علميا ثافسيا سِلْفيوم Thaphsia Silphium Viviani وسمى هكذا لاحتوائه على عصير راتينجى اشتهر قديما بنفعه لستين مرض من الأمراض الباطنة والظاهرة وكان يرسم على نقود برقة واسمه اليونانى مشتق من السلفى اسمه الافريقى وكان يعرف للرومان باسم Laserpituim وسماه ابن البيطار المحروت وعود الرَّقّة وقال بعضهم هو السذاب البرى ومنه نوع يسمى الدَّرْياس وادريس فى المغرب .

خلال تلك الأصقاع يرتادون المراعى الخصيبة لمواشيهم أو ينتقلون من مكان الى مكان فى مركباتهم التى تجرّها الخيل العتاق . وأما عشائر الترانوم فكانوا يؤلّفون القوافل يقصدون بها الى واحة أنجيلا للاتجار مع إفريقية الوسطى .

وكان اليونانيون فى المدن أصحاب الثروة والوجاهة والقابضين على زمام السلطة والنفوذ . غير أن خلْط الأنساب بينهم وأهالى البلاد الأصليين كان قد اتّسع نطاقه الى حدّ أن الأسرة الباتوسية المالكة أصبحت من هذه الوجهة نصف إفريقية أو بعبارة أخرى إفريقية أكثر منها يونانية . وقد بلغ عدد ملوكها الذين تعاقبوا على كرسى الحكم ثمانية لم يتعدّ التعريف بهم التسمية بأحد اسمين : باتوس اليونانى وأرسيزلاس الإفريقى .

أما استعمار مدينة سيرين وعظمتها : فلم يبلغا حدّهما الأقصى إلا فى عهد الهجرة الثانية التى وقعت بين سنتى ٥٧٤ و ٥٥٤ قبل الميلاد ، وتعزّز بها العنصر اليونانى وقوى ظهره . ذلك لأن الداعين الى الاستعمار استحثّوا المستعمرين على الرحيل من أنحاء البلاد اليونانية المختلفة من غير تفريق ولا تمييز واعديهم بالإقطاعات الواسعة من الأراضى الخصيبة . وقد نجم عن هذا أن دبّ دبيب الخلاف بين اليونانيين واللوبيّين واضطرمت نار الفتنة بين الفريقين الى حدّ حمل اللوبيّين على الاستصراخ بفرعَون مصر أبرياس الذى ساق لنصرتهم جيشا قويًّا لم يلبث أن آب بالفشل والهزيمة فآل الأمر باللوبيين بعد ذلك الى الاستكانة للذلّ والضّيم والاقرار بالطاعة لمنافسيهم . وكان أماريس فرعون مصر الذى خلف أبرياس على عرش الملك من الميّالين لليونان ، لاقترانه بامرأة من سلالة باتوس ، ولكن لم تمض سنوات حتى حدث انشقاق وتدابر فى صفوف اليونانيين . فقد أسّس إخوة الملك أرسيزلاس الثانى مدينة برْقة ، فى سنة ٥٥٠ قبل الميلاد ، بمساعدة اللوبيين بعد أن اختاروا لها موقعا يبعد

عن مدينة سيرين بمائة وثلاثة عشر كيلو مترا . و بعد ذلك التاريخ بقليل أُسّست مدينة هسپريد . وباد بعـد ذلك جيش أرسيزلاس وتجندل من السيرينيين بهذه الخسارة سبعة آلاف مقاتل فوَهَتْ قوتهم وتهدّمُ رُكْنهم واستولى الضجر والضعف على الأسرة الباتوسية فلم تعد قادرة على الاضطلاع بالأمر . وشبّ فى عهد الملك باتوس الثالث حوالى سـنة ٥٤٣ قبـل الميلاد ضِرام الثورة الأهلية فأشار هاتف دلف على أهل سيرين بأن يدعوا اليهم المصلح ديمانا كس وأن يولّوه اصلاح شؤونهم ، فسنّ لهم دستورا جديدا وقسم الطائفة اليونانية الى ثلاث طبقات : الثيريين والكريديين والبليبونيزيين وأهل جزائر بحر إيجه ، ثم جعل لشيوخهم مجلسا وأعطى المستعمرة نظاما إداريا على مثال نظام الحكومات الدوريانية ، وجرد الأسرة المـالكة من السلطة وجعل حقّها فى التصرّف قاصرا على اختصاصها بحقّ التملّك . وقد حاولت فيريتيم أرملة باتوس الثالث وابنه أرسيزلاس السادس اعادة النظام القديم الى أصله فطردا من البلاد . ولكن أرسيزلاس اعتمد على مساعدة أمير برقة اللو بى ، و بواسطة جارية جديدة حضرت من جزيرة ساموس تمكن من استرداد صو لجان الملك ولكنه لم يلبث أن هدر دمه .

و بعد ذلك بزمن قصير كان قمبيز ملك الفرس استولى على مصر فعرضت عليه بلاد سيرينائيكا واجبات الخضوع والطاعة واستطاعت فيرتيم والدة أرسـيزلاس بذلك الظفر بتأييده لها إذ أرسل اليها القائد أريانوتيس فاستولى على برقة ، بعد حصار دام تسعة أشهر ، وأخرج أهل مدينة بقطريان من ديارهم . وقد أفلتت مدينة سيرين من عقو بة القائد الفارسى ، ولكن يظهر أن الدستور الذى وضعه ديمانا كس كان قد ألغى .

وفى القرن التالى خلعت أسرة باتوس حوالى سنة ٤٥٠ قبـل الميلاد . وكان الأخير منها ، وهو أرسيزتاس الرابع ، قد سار بين الناس بالجور والاضطهاد والشدّة ، واتخذ عونا له على هذا الاستبداد جيشا من المجمّكين . وعلى أثر وفاته هرب ابنه

باتوس الى هيزتندس وفيها قتل ، وفى أثناء هذه الحوادث تقاطر الى البلاد من اقليم مسّينا جمع من المهاجرين المستعمرين ، ولكن سوادهم الأعظم قتلوا فى الحروب الأهلية التى ثارت فى البلاد .

ولم يكن تاريخ سيرين فى ذلك العهد واضحا كل الوضوح ، وقصارى ما يعلم عنها أن الرخاء أخذ يرفرف عليها وأنها اقتسمت مع قرطاجة السواحل الشمالية لإفريقيا وجعلت حدودها من ناحية الغرب معبد فيلينس .

وفى سنة ٣٣١ قبل الميلاد خضع السيرينيُّون باختيارهم للأسكندر الأكبر المقدونى — ولكن الأمر الذى صدر باستدعاء المنفيين الى المدن اليونانية أفضى الى الاضطرابات والفتن — لأن المنفيين من أهل سيرين استدعوا تيمبرون قاتل هربال الذى كان لجأ الى كريد حاملا معه خزائن المال والأربعة آلاف جندى محنّك الذين كانوا بقيادة تيمبرون فاستولى على إقليم أبولونيا . وبعد أن تغلّب على السيرينيين تحالف مع أهل برقة ، واتخذ التدابير لتأسيس مملكة فى سيرينائيكا . غير أن قائدا من قوّاد جنده يدعى تيناديكليس خانه فخرج اقليم أبولونيا من يده ، وفقد أسطوله ومع هذا فقد استطاع أن يحتلّ تنهيره ويستدعى جماعة من العساكر الأجراء من بليبونيزه ويقهر سيرين بعد وضعه الحصار عليها وقد استصرخ الأوليجارك عندئذ بطليموس صاحب مصر فوافاهم بجيش تحت قيادة أوفيلا فسلّم تيمبرون اليه وقتل شنقا ، وزار بطليموس البلاد التى فتحها جيشه وتولّى أوفيلا عليها من قبله فى سنة ٣٢٢ قبل الميلاد . ورفع السيرينيون لواء العصيان سنة ٣١٢ فأخفقوا وضلّ سعيهم وعجزت مدينتهم عن استرداد حريتها المفقودة واستقلالها المنشود لأن حامية مصرية احتلّت قلعتها . ولحم أوفيلا نسبه بنسب أغاتوكل واتّفق معه على غزو قرطاجة فأنفذ اليها بطريق البر جيشا ضخما ، إلا أن أغاتوكل قتله غدرا وأركب

الجنود التى جاءت من سيرين فى السفن فغرقت بالبحر (سنة ٣٠٧ قبل الميلاد) . وبقيت سيرينائيكا التى كان باستطاعة أوفيلا أن يستقلّ بها فى طاعة مصر واقليما تابعا اليها . على أن هذه الحقبة كانت فاتحة خير وسعادة لهذا الاقليم لأن البطالسة جريا على عادتهم وسياستهم أخذوا ينشئون المدن الجديدة ويوسعون نطاق المدن القديمة فزالت بهجة مدينة برقة وأفل نجمها بانشاء ثغر بطوليمائيس الذى صار فيما بعد عاصمة البلاد . وسقطت مدينة سيرين من علْوة مجدها الباذخ بعلو شأن مدينة أبولّونيا . وبدل من اسم مدينة هسبريد باسم برينيس ومن اسم تنهيره باسم أرسينوة وتألف من هذه المدائن الخمس وهى سيرين وأبولّونيا وبطوليمائيس وأرسينوة وبرينيس ما أطلق عليه اسم پنتاپول الذى يفيد هذا المعنى فان پنتا (Penta) معناه خمس وپول (Pole) معناه مدينة .

وفى سنة ١١٧ قبل الميلاد جعل إقليم سيرينائيكا مملكة ونصّب ملكا عليها أبيون بن بطليموس فياكون غير الشرعى ، فلما وافته المنية فى سنة ٩٥ أو سنة ٩٦ وصى للرومان بمملكته، فلما تسلّم الرومان زمامها كفلوا للمدائن الخمس ماكانت تتمتع به من حرية مقتصرين على احتلال الأملاك الملكية الخاصة وعلى فرض الجزية السنوية ولكن لم يمض زمن حتى ثار ثائر الفتن والمنازعات الأهلية على وجه قضى بتداخل لوكوللوس الرومانى فى أمرهم وتحويله المملكة الى إقليم تابع له وخاضع فى الشؤون الادارية لجزيرة كريد (سنة ٦٧ قبل الميلاد) . وفى عهد أوغسطس قيصر جعل إقليما تابعا للسّناتو وأقيم منذ هذا الحين فى ولايته أحد القضاة الشرعيين الأقدمين بلقب پروقنصل أى بسلطة الحاكم المتصرف الذى لا رقيب عليه وإنما كان يعاونه على القيام بأعباء الحاكم مندوب أو مبعوث من قبل الحكومة المركزية فى رومة واثنان من المضطلعين بالشؤون المالية . وفى عهد الامبراطور قسطنطين أصبحت سيرينائيكا مقاطعة ممتازة أطلق عليها اسم لوبية العليا وعهدت ادارتها الى رئيس .

أما ازدهار سيرينائيكا بالحضارة والتقدم والثروة والرخاء فتشهد به نقودها أولا ثم أطلالها وآثارها الضخمة ثم فطاحل الرجال الذين ولدوا فيها . واذا قصرنا الكلام على هؤلاء فأول من نخصّ بالذكر منهم الفلاسفة العلماء : أرستيب (١) ، وكاليماك وايراتوستين ، وسيتريوس . ومن أجلّ الحوادث التى وقعت فيها أيام تبعيتها للدولة الرومانية ثورة يهودها وعصيانهم على عهد ترايانوس قيصر ، فانهم قتلوا ٢٢٠٠٠٠ من الرمانيين والسيرينيين ولم يكبح لهم جماح إلا بمشقّة كبرى وتدابير خطيرة . ولما ضعفت البلاد بتوالى الثورات ولم يعد بطاقتها الدفاع عن حدودها والذَّوْد عن حياضها بات أهل سيرينائيكا عرضة على الدوام والاستمرار لغارات اللوبيين وأفنى المتبدون المتحضّرين . وقد وصف سيتريوس أسقف بطوليمائيس فى القرن الخامس بعد الميلاد ما عانته البلاد من الشقاء والفاقة ، وهو ما ليس من موضوعنا الإفاضة فيه . وفى سنة ٦١٦ من الميلاد دمّر العجم على عهد كسرى إقليم سيرينائيكا وحينما تمّ للعرب فتحه فى سنة ٦٤٩ من الميلاد كانت البلاد خرابا يبابا . فقد اندثرت معالم المدن ولم يبق منها سوى مدينة برينيس التى يقوم على أطلالها الآن ثغر بنى غازى وقد وصفت تلك المدن وصفا مستفاضا وبخاصّة منها مدينة سيرين .

ولنتكلم الآن على العُمْلَة التى استعملت فى تلك الأقاليم فنقول : إن هذه العملة كانت مؤلفة من مجموعات مهمّة من النقود الذهبية والفضية والشبهية (البرونزية) يتسلسل تاريخها من سنة ٦٣٠ قبل الميلاد الى أوغسطس قيصر وأكثر هذه النقود شيوعا ما مثل فيه الإله آمون مضاعفا وبقرنين أو مثل فيه نبات السلفيوم بشكل ساق تحمل أزهارا أو حبوبا . والمدن التى ضربت فيها هذه العملة هى سيرين وبرقة

(١) Aristippe تلميذ سقراط ، Callimaque الشاعر ، و Eratosthéne فيلسوف الاسكندرية المولود فى قيرينة سنة ٢٨٦ ق . م .

وأفسبريس وتنهيره، وينسب ضرب بعض قطع النقود النادرة فى بلدة بلا حراك (باليس) الى داريوس وهِرْقُل . وهناك نقود أنيبجرافية لم يعلم أين ضربت، كما أن هناك نقودا غيرها سكت باسم طائفة الإقليم الذى ضربت برسم التداول فيه دون أن يذكر فيها اسم مدينة معينة، ولكنها على كل حال صادرة من دار الضرب فى مدينة سيرين .

وأقدم ما وجد من قطع العملة السيرينائيكية ما يرجع تاريخه الى المدّة المنحصرة بين سنتى ٦٣٠ و ٥٣٠ قبل الميلاد وهى جميعا نقود أنيبجرافية ومسكوكة بمعدنى الإلكتروم والفضّة بوزن الدرهم الأوبيكى أى الذى زنته ٤,٢٠ جرامات وهو ما يدل دلالة صريحة على ما كان من الصلات والعلائق التجارية الوثيقة بين السيرينيين وأوبه وكريد ورودس وشطر من آسيا الصغرى . وبعض قطع العملة المومأ اليها ألصق ببلاد ليس منها ببلاد سيرينائيكا، وكان أحد وجهيها يمثل نبات السلفيوم بزهرة أو ثمرة والوجه الآخر مربّعا مجوّفا مقسّما الى أربعة أقسام أو وردة شبيهة بالتى كانت ترسم على نقود العصر الثانى (من سنة ٥٣٠ الى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد) الذى يبتدئ بحكم الملك ارسيزلاس الثالث وتثبت ما ورد فى التاريخ من وقوع التحالف بين مدينة سيرين وبين جزر ساموس وبالجسوس فى جزيرة رودس. وتلك القطع النقدية الفضية بوزن الدرهم الأوبيكى الأنيبجرافى ، وقد صور عليها فيما عدا نبات السلفيوم صورة الغادة سيرين الجميلة أو إحدى صور زفس آمون (المشترى) أو رأس الأسد أو رأس النسر أو غزال . وأهم نوع من تلك العملة يمثّل صورة هرقل أو هرقول والغادة سيرين فى حدائق هسبريد .

أما عملة العصر الثالث فمن دراهمهم الدرهم الفينيق الذى تبلغ زنته ٣,٣٦ جرامات والشطر الأكبر منها يحمل رسم الحروف الآتية (KRPA) وأكثر أنواعها شيوعا

ما يمثل رأس زفس آمون (المشترى) مزينًا بقرون الكبش فى وجه وفى الوجه الآخر بِغُصْنٍ من نبات السلفيوم .

وفى العصر الرابع (من سنة ٤٣١ الى سنة ٣٢١ قبل الميلاد) ظهرت العملة الذهبية الجميلة فالعيار الذهبى (الاستاتر) كان يرمز له قانونا على أحد وجهى القطعة بكلمة "كيرانائيون" وبصورة النصر ممثلة فى مركبة قتال يجرها أربعة جياد على صف واحد وعلى الوجه الآخر صورة زفس واقفا فى تينكاتريون يقدم القرابين . وأما القطع التى عيارها نصف استاتر فكان مرسوما فيها صورة فارس وغصن من السلفيوم . والعملة الفضية من هذه المجموعة النقدية كانت بصورة زفس آمون مرئياً من جانب الرأس تارة ومن مقدمه تارة أخرى أو بصورة ديو تيزوس . أما صور النقود الشبهيّة (البرونزية) فكانت بصورة رأس الغادة سيرين أو صورة غزال أو صورة فارس فى وجه وفى الوجه الآخر غصن السلفيوم أو رمز الانتصار أو عجلة . وكانت هذه النقود على اختلافها مسكوكة بأسماء الحكام الموكلين بشؤون المال وتختلف هذه الأسماء باختلافهم .

وتشتمل عملة العصر الخامس (من سنة ٣٢١ الى سنة ٩٦ قبل الميلاد) كل النقود التى ضربت فى أيام بطالسة مصر وهى عبارة عن قطع من الذهب أو الفضة أو الشبه من الوزن الاتيكى يتضمن فيما عدا الرموز والصور السالفة الذكر صورة رأس پالاس التى تمتاز بها نقود الاسكندر الأكبر أو رأس أپولون أو تمثالا قائما أو نخلة أو آلة موسيقية وترية أو جوادا راكضا . وكانت تتضمن باليونانية من الكتابة كلمة "كيرانائيون" أوكلمة "كيرا" وأحيانا كلمة "بطوليمايور" . وفى سنة ٣٠٥ قبل الميلاد عين ماجاس حاكما على سيرينائيكا فسُكَّت العملة مكتوبا عليها عبارة "فاسليوس بطوليميو" وأحيانا كلمة "فاسليوس ماجا" . وكانت رأس

ابنتها برينيس ممثلة فى نقود مدينة سيرين . أما النقود السيرينية التى كانت تحمل كلمة "كينون" فلم تجئ إلا بعد . ومنذ ولى بطليموس الثالث فيلوباتور (محب أبيه) الى أن توفى بطليموس آبيون فى سنة ٩٦ قبل الميلاد أصبحت العملة التى ضربت فى سيرينائيكا مجردة بالمرة من الصبغة الوطنية وصارت أقرب الى النقود المسكوكة فى مصر منها الى غيرها .

أما العصر السادس فيشمل النقد الشبهى الذى سك فى سيرينائيكا بمعرفة الحكام الرومانيين الذين تعاقبوا على ولاية هـذا الإقليم وقد نقشت قطعة بعضها بالحروف اليونانيـة والبعض الآخر بالحروف اللاتينية منبئـة بأسماء أولئك الولاة الذين نذكر منهـم ل . لولليوس ، ا . بوبيوس روفوس ، ل . فابرسيوس ، باتلليوس ، سكاتو باليكانوس ، كبيتو الخ الخ . وتمتـاز أنواعها فى أحد الوجهين بصور رأس آمون الأبولّونى أو رأس أرطميس أو رأس أوغسطس و فى الوجه الآخر صـورة كرسى القضاة أو جمل أو غزال أو كبش أو تاج أو ثعبان أو قضيب من غار يعلوه جناحان و يلتفّ به ثعبانان .

وقد ضربت النقود التى سلف الكلام عليها كافّة فى سيرين عاصمة البلاد . أما التى ضربت فى برقة فكانت كلها على طراز واحد وقد نقشت فيهـا الكلمة الآتية (Paphaion) مع اسم الوالى القابض على زمام الأمور فى وقت الضرب . أما نقود افسپريس فقد كتب عليها باليونانية ايف أو ايفس أمفسپرتيان واقتصر فى نقش دراهم تهيرة النـادرة الوجود على حرفى T E ومعهما غصن من السلفيوم و رأس زفس آمون . أما النقود التى رتّب موللر مجاميعها باعتبار أنهـا ضربت فى المدائن الأخرى الآنفة الذكر فإن نسبتها اليها غير مؤكدة .

التعاليم السيرينائيكية :

تنسب هذه التعاليم الى مبتكرها الفيلسوف أرستيپ . والظاهر أنها مزيج من مذهب سقراط فى الأدب والأخلاق ومذهب السفسطائيين . وممّ لوا تلك المبادئ

هم أرستيپ وابنته أريتيــة وأرستيپ الصغير ابن ابنته وتيودورس الجاحد وأنتيپاتر وهجسياس وانيسيريس و بيون وأفهميرس اليونانى الشهير بحرية الفكر وأرسطاطاليس السيرينى . والظاهر أن هذه الفلسفة ظلّت خفّاقة الأعلام من القرن الرابع الى القرن الثالث قبـل الميلاد . وقد أغفل أهل سيرين بمقتضاها المباحث النظرية وتحرّوا فى العلم كل ما يكون محقق النفع من الوجهــة العملية . وكانوا يقولون إن الغرض الوحيد الذى ترمى اليــه الفلسفة تحقيق السعادة للانسان و إن الســعادة كل السعادة فى عمل الخير و إتيان المعروف و إن الخير كلّه فى اللذة . فاللذة هى المثـل الأعلى للحياة . وليس فى الأحوال التى تتكيَّف بها النفس أطيب ولا أشهى اليهـا من الوســيلة التى تبعث الى اللذة . وعنــدهم أن اللذة هى النتيجة لحركة منتظمة بطيئة، فاذا أسرعت هذه الحركة نشأ عنها الألم . وأن راحة المرء حالة من الأحوال الثابتة المستقرة المتجانسة لا تميَّز بلذّة ولا بألم ، فمن مرامى الحياة وأغراضها معالجة الحركة فيهــا، على أن تكون لطيفة متوسطة . وليس من وراء هــذا الخير خير آخر اذ ما تكون فائدة الحياة من غير لذّة تحببها الى المرء ؟ ومن قولهم أن لا شقاء كالألم اذ ماذا يجرّ الشقاء من ورائه غير الشر وغير المكروه . وهــذا من الحقائق الثابتــة، لأنه ما من كائن حىّ حسّاس، حيوانا كان أم إنسانا، إلا وهو يتطلّب اللذّة ويسعى اليها و ينبذ الألم ويفرّ منه ، وذاك هو الناموس الكونى للفعل المؤثر . ولكنّ هنــا مجالا للتساؤل عن الذريعة لمعرفة ما يبعث فينا الألم وما يبعث فينا اللذة . وجواب ذلك أن حصول الألم واللذة لا يكون إلا من طريق الشعور لا من طريق الإدراك أو الفهم ، فالشعور اذًا هو القياس الصحيح للحقيقة ، فإنّ الأشـياء لا تكون طيّبة أو رديئة لأننا نحسّ بها كذلك، لا لأننا ندرك بالعقل أنها على حالة من الحالتين .

ومن هذه الوجهة تتصل تعاليم المدرسة السيرينائيكية بتعاليم پروتاجوراس . ولما كانت اللذة مقرها الشعور فلن يتيسّر حصولها إلّا فى الحال لاستحالة الشعور بالماضى والمستقبل . فلا مقرّ للسعادة بناء على ما تقدّم سوى الحال (وهذا يطابق قول الشاعر العربى : ولك الساعة التى أنت فيها) . والعاقل بحكم تلك التعاليم من لا يهتم بماض ولا يشغل خاطره بمستقبل ولا يجعل نصب عينيه سوى الحال، والى اللذّة الحالية ينبغى أن يخضع كل شىء . ولكن هذا المذهب لم يكن بمانع لأهل سيرين من القول بأنه كثيرا ما أعقبت اللذة الحاضرة على صغرها ألما عظيما وشقاء كبيرا فى المستقبل . وهذا ما حدا بهم فى آخر الأمر الى تقرير مبدء مؤدّاه أن من واجب المرء تضحية الحال فى سبيل المستقبل . ولهذا كان جديرا باللبيب الفَطِن أن يمسك عن كل عمل يعاقب القانون فاعله أو لا يصادف من الجمهور استحسانا . بل قد ذهبوا الى أبعد من هذا الرأى فقالوا إن إدراك حقائق الأشياء مجلبة للذّة الحقيقية، ومن ثم قالوا بوجوب تثقيف العقل .

وكانت المدرسة السيرينائيكية تلقن تلاميذها حقيقة التمتُّع بالحياة و بكل مايعرض فيها من خير فالسيرينائيكى يرى أنه لا مانع من إرضاء نفسه بشهوة المطعم الفاخر والشراب الجيد والثياب الثمينة والمسكن الباذخ الجليل والثروة الواسعة التى هى خير الوسائط لتحصيل اللّذّة . و بالجملة فانّه نزوع الى حبّ التمتع، ولكنه لما كان يريد العيش فى هناء وصفاء لا يجب اذا حصل عليه أن يكون مسودا به . و يرى فى الحياة وملاذّها أنها كالضيف فى الوليمة يشعر بلذّة ما يتطعم به فيها ولكنه فى الآن نفسه يتأهّب للرحيل عنها غير آسف عليها . ذلك لأن اللذة لا تكون حيث يغيب القياس أو حيث تكون حركة الشعور بها تتجاوز الحدّ المناسب . ومن ثم كان للرجل من أهل سيرينائيكا أن يكون ظريفا كيّسا لبقا حتى وهو فى وسط ملاذّه، مسايرا للطّباع ومشايعا للميول والطقوس على اختلافها من غير ما علو ولا كبرياء ولا ترفُّع عن الناس .

مرماريقا القديمة

كلمة عنها

مرماريقا اسم سمّيت به فى الأزمان السالفة البقاع الصحراوية الواقعة غرب الاسكندرية والجزء الغربى من دلتا النيل ابتداء من بُرج العرب . ويبلغ طولها ٧٤٠ كيلومترا تقريبا بمساحلة البحر المتوسط وتصل غربا الى خليج كلّاح والآكام العالية المعروفة الآن بالعقبة الكبيرة وقديما باسم كاتابَثْمُوس ماغنوس وتتصل جنوبا بصحراء سيوة التى تحتوى واحة آمون .

وتسكن قبيلة أولاد على هذه الصحراء التى كان يقطنها قديما قوم من البربر استقروا بها الى القرن الحادى عشر بعد الميلاد . وكانت نقطة أو قرية باريتونيوم أهم ثغور تلك المنطقة أو مواقعها العسكرية ، اذ كانت عاصمتها ومقرّ حكمها . ومازال اسمها هذا باقيا حتى الآن وإن يكن بتحريف قليل (باريتون — برتون) . ولقد ذكر المسعودى وابن خرداذبه هذا الإقليم وعرّفاه باسم ماريقا . (راجع قاموس الجغرافيا لڤڤيان دى سان مارتان) .

وقد كان سيلاكس أوّل من تصدّى الى الإفاضة فى ذكر أحوال هذه المنطقة قبل المسيح بخمسة قرون تقريبا . وإن يكن قد سبقه الى الكلام عليها هوميرس الذى كان عائشا قبل الميلاد بعشرة قرون . وقد جعل سيلاكس منتهى الحدود المصرية فى نقطة آبيس واتفق هيرودتس وسيلاكس على أن سكان الجزء الشرقى من هذه الصحراء أى الجزء المتصل بالقطر المصرى كان يسمى (الأدرماخيد) وأن أرض مرمريت كانت تبتدئ بالحد الغربى لبقعة أدرماخيد الآنفة الذكر ، أى أنها كانت محصورة بين ذلك القطر وسيرينائيكا .

وقال المسعودى فى وصف تلك المنطقة : "وأما ناحيـة الإسكندرية ولوبيا والمراقية فبرار وجبال وغياض وزيتون وكروم جبلية بحرية ، بلاد عسل ولبن ويذكر أهلها أنهم أكثر الناس قَنْداً[1] وشَهْداً وعَبْداً ونقْداً وصوفاً وبغالاً وحميراً وخيلاً عتاقاً ونبيذ العسل الذى لا يفى به شراب الخ .

✦
✦ ✦

وبعـد أن ألقت سفينتى مرساها بسـلُّوم جاءنى بعض الموظفين المصريين ثم انصرفوا . وبعد قليل حضر لزيارتى قومندان هذه النقطة وهو القائمقام جرين بك ومعه قومندان القوة العسكرية هنا ، وهو القائمقام صبرى بك .

وبعد انصرافهما أردت أن أصيد سمكا ولكن لم أجد له أثرا وكنت وعدت الضابطين بزيارة فنزلت الى البرّ لأوّل مرة بعد أن تغيَّبت عن وطنى من يوم قيامى كما هو مذكور بأوّل هذه الرحلة . فأحسن الضباط لقائى وأكرموا وفادتى وتناولت معهم الشاى . وقد راقنى ما شهدته هناك من النظافة وحسن النظام وجمال التنسيق ممـا استحق عليه أولئك الموظفون جزيل الشكران .

وقد عدت الى سفينتى . وما أرخى الليل أسـداله حتى تحركت قاصدة الى الاسكندرية ووصلت اليها فى الساعة الثالثة من مساء ٢٦ نوفمبر ، وبذا انتهت سياحتى . والحمد لله والشكر له على جزيل نعمه ووافر كرمه .

(١) القَند : عسل قصب السكر ويسمى أيضا أبلوج السكر وقد نقلها الافرنج الى لغتهم فصارت Candy

